
تاريخ
الحضارة الإسلامية
فى العصور الوسطى
الدكتور عبد المنعم ماجد

تاريخ الحضارة الإسلامية
في العصور الوسطى

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب ،
والخبير الوطنى بمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس
وعضو المجالس القومية المتخصصة

الطبعة السابعة

(مزيدة ومنقحة)

١٩٩٦

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة



ما لم يعـــــلم كله لا يترك كلــــه

فان العـــلم بالبعض خير من الجهل بالكل

ابو الفـدا

(ت : المحرم ٧٣٢ هـ / أكتوبر ١٣٣١ م)



فهرســت المبحث

الهيئة ـ علم الجغرافيا ـ علم الخرائط ـ علم الطب ـ علم الصيدلة ـ علم الكيمياء ـ علم الطبيعة ـ الفنون ـ الموسيقى .

الفصل الرابع : أثر الحضارة الاسلامية فى أوربا :

تركز الحضارة فى المشرق والمغرب الاسلاميين ـ طرق وصول الحضارة الاسلامية الى اوربا ـ الدليل على امر الحضارة الاسلامية فى اوربا .

تدهور الحضارة الاسلامية :

الخاتمة :

جدول المصادر والمراجع :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ـن يفهم التاريخ الاسلامى فهما صحيحا اذا لم يعرف تاريخ حضارته . فهذا المبحث يحقق الهدف الذى رمى اليه المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته ، بدراسة التاريخ على اساس حضارى . فيتناول بالبحث : التنظيم السياسى ، والمجتمع ، والثقافة ، وهى خصائص كل حضارة .

ونحن فى الشرق ، نشعر بضرورة وجود بحث شامل يستشف الخصائص المختلفة فى حضارتنا الاسلامية . ولكن الى وقتنا هذا لا نجد كتابا يقوم على العلم الصحيح ؛ يجمع اطراف الحضارة الاسلامية ، غير ما اظهره بعض المستشرقين ، وهى كتب مفيدة جدا ، الا انها لا تبرزها من وجهة النظر الشرقية ، التى تستطيع تتبع مراحل الابداع فى حضارة المسلمين .

هذه الحضارة الاسلامية استمرت ما يقرب من الف عام ، اى معظم العصور الوسطى . وقد حدث لها تطور خلال حقبتها الطويلة ؛ الا اننا سننظر اليها من خلال دورها فى مجموعها ، وليس على عصور . كذلك ستكون دراستنا لها عن طريق دراسة التعابير الاصطلاحية ، فهى عندنا بمثابة العمد ، التى تدل على اصالة هذه الحضارة . وسنجد اغلبها عربية ، مما يبين ان العرب هضموا الحضارات قبلهم ؛ واوجدوا حضارة لهم ؛ تحمل سمتهم . ويسهل مهمتنا اننا ـ لحسن الحظ ـ لازلنا نعيش فى ظل الحضارة الاسلامية وتقاليدها .

ويحاول المؤرخون الاسلاميون بعامة ، أن يصفوا لنا الحضارة الاسلامية بانها ازهى الحضارات ، وانها سـيدة كل حضارة حتى الحضارة الحديثة . ولكن ـ كما نعلم ـ فان كل حضارة غير كاملة ، وان الكمال المطلق غير موجود ، والا وقف التطور . فسيكون هدفنا هو ان نضع الحضارة الاسلامية في مكانها المستحق ، وهو مكان رفيع على كل حال .

تصدير الطبعة الرابعة

ان طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة ، دليل على اهميته ، فهذا المبحث يلاحق التطور المنهجى ، ويتناول تاريخ الحضارة الاسـلامية من وجهة النظر الشرقية ؛ ليكون مرجعا علميـا .

تصدير الطبعة الخامسة

ان طبع هذا الكتاب للمرة الخامسة ، جاء بناء على طلب من جمهـور المثقفين ؛ مزيدا ومنقحا وملاحقـا للتطـور العـلمي في تخصصـه .

المؤلف
ماجد

(*) كل نسخة مبيعة تكون ممضاة من المؤلف .

المقدمــــة

مشـكلة الأصول

معنى كلمة الحضارة ـ أسس الحضارة الاسلامية ـ عوامل المزج

ولدينا تعاريف كثيرة لكلمة حضارة ومعناها ، فهى بالنسـبة للمسلمين فى العصور الوسطى بتعبير ابن خلدون (ت ١٤٠٦/٨٠٨): احوال زائدة على الضرورى من احوال العمـران (١) ، او بمعنى آخر رفاهة العيش - لذلك فهى تظهر فى المدن والأمصـار والبلدان والقرى اى فى الحضر ، ولا تظهر فى البادية ، حيث ان البدو فى نظر ابن خلدون هادمون للحضارة ، ولا تظهر فى البادية ، حيث ان البدو فى نظر ابن خلدون هادمون للحضارة ، يمحلون الحيـاة ويجعلونها كالصحارى ، وان كانوا قابلين للتحضر ؛ اذ الانسان مدنى بالطبع اى غايته التحضر (٢) ؛ ولذا فالحضر خلاف البدو .

وفى راى ابن خلدون أيضا أن هناك حالة تقابل الحضارة هى ما يسميه : بالملك (٣) ، ويقصد به السيادة ؛ فالملك فى رأيه ضرورة لازدهار العمران . وهذا استدراك حكيم من ابن خلدون يدل على فهمه فى أن الحضارة لا يكفى أن تكون فى الحضر ، ولكن يجب أن تلازمها سيادة ، وبمعنى آخر نظام واستقرار ؛ حتى تنمو وتزدهر وتتطور .

ومنذ القدم ، وقد وجدت عند العرب كلمات فى معنى البداوة

---

(١) المقدمـــة ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣ ، ٩٦ ـ ٩٧ ، ١١٨ ؛ وايضا : ابن منظور « لسان » ، بولاق سنة ١٣٠٠ هـ ، ٧ ص ٢٧١ وما بعدها .

(٣) المقدمـــة ، ص ٣٤ ، ١١١ وما بعدها .

والحضر ، مثل : الوبر والمدر والحدر والحجر (١) . فالوبر هو صوف الابل والأرانب ونحوها من الحيوان ، الذى يصنع منه البدوى خيامه وملابسه ، وتعنى اهل البادية ، وقيل اهل الوبر اى اهل البوادى . اما المدر فهو قطع الطين المتماسك ، وهو ما يبنى منه فى القرى أو المدن ، ليعنى الحضر ، وقيل اهل المدر اى اهل المدن او الحضر ؛ فمثلا سمى العرب مصر بالمدرة السوداء (٢) ، كناية عن أنها تتكون من قرى ومدن . كذلك الحدر هو الأرض المنحدرة ، التى لا يبنى عليها لتعنى البادية . وعلى العكس ، فان الحجر يعنى المدينة ، ولذا وجدنا فى الجزيرة العربية عدة مدن باسم الحجر (٣).

كذلك يطلق العرب على لفظة الحضارة التمدن او التمدين .(٤) ، اى التنعم بالاقامة فى المدينة ، وهى بهذه اللفظة الأخيرة ، تطابق الكلمة اللاتينية القديمة Civitas (جمع Civitates اى التمدن ، من Civis اى ساكن المدينة ، ومنها اشتقت الكلمات الأوربية الحديثة الدالة على الحضارة ، مثل : الكلمة الفرنسية Civilisation ، والانجليزية Civilization والألمانية Zivlisation ، وعكسها الهمجية ، وهى باليونانية القديمة واللاتينية Barbarus ، وسكانها Barbari ، اى غير المتحضرين .

والحضارة التى نحن بصددها توصف بالعربية او الاسلامية . ولكن لا يجب أن نأخذ هذين اللفظين بمعناهما الحقيقى . فوصفها بالعربية او الاسلامية ، لا يعنى اطلاقا أن سكان الجزيرة العرب ،

---

(١) لسان ، ٧ ، ص ١٣٣ وما بعدها ، ص ٧ وما بعدها ، ٥ ص ٢٤٤ وما بعدها ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق Torrey ، طبعة New-Haven ، سنة ١٩٢٠ ، ص ٤ س ٨ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، القاهرة سنة ١٣٢٤ / ١٩٠٦ ، ٣ ، ص ٢٢٠ ــ ٢٢٤ .

(٤) المقدمة ، ص ٩٧ ؛ الفيروزابادى : المحيط ، ٢ ص ٥٦٤ ، باب النون (مدن) ؛ انظر : Dozy : Suppl 2ed, 2, P. 575.

الذين اعتنقوا رسالة الاسلام ، هم وحدهم الذين اسهموا فيها . فالمقصود باللفظين الاشارة الى اصطلاحين يشملان جميع الشعوب والامم التى تكملت العربية ، وعاشت فى دار الاسلام فى ظل حكم الخلافة الاسلامية ؛ بصرف النظر عن الجنس او الدين . ولذلك يدخل فيها مع العرب الفرس والمصريون والسوريون والمغاربة والاسبان والارمن ، كما يدخل فيها مع المسلمين النصارى واليهود وايضا المجوس والصابئة .

●●●

وليس من السهل معرفة اسس الحضارة الاسلامية ، ذلك لانها كاى حضارة لم تظهر من العدم ، وانما سبقتها حضارات هى مصادرها . فالحضارة القائمة تكون دائما خلاصة او انتقاء لما فى الحضارات السابقة ، وان اضافت اليها عناصر جديدة ، حتى تتميز بشخصية خاصة . فالحضارة اخذ واعطاء ، ونتيجة مشتركة لعناصر قديمة واخرى جديدة ، وان القديم والجديد يوجد بعضه بجانب بعض ، كما يحجب بعضه البعض ، واحيانا يغير بعضه على بعض . ومع ذلك يمكننا ان نقول ببساطة ان اسس الحضارة الاسلامية ترجع اولا الى العرب ، وثانيا الى سكان البلاد التى فتحها العرب .

والعرب يقصد بهم سكان الجزيرة العربية داخلها واطرافها . وبينما كان داخل الجزيرة العربية بادية لا ماء فيها ولا زرع ، ولا تساعد على الاستقرار وانما على البداوة ؛ فان اطرافها او ما كان يسمى بالتهائم ، عبارة عن وديان تسقط عليها الامطار لاحاطة البحر بها ، مما اوجد الزرع والتجارة ، وترتب عليه التحضر . ومنذ القدم وهذه التهائم او الوديان تشمل مراكز حضارية من صنع العرب ، بعضها لا نعرف منه غير الاسم ، وبعضها ترك اثار او نقوشا يدل على قيامها . ففى شرق الجزيرة العربية وجدت حضارات الكلدانيين والاشوريين ، وفى شمالها وجدت حضارات الاراميين (الارميين) والكنعانيين — او الفينقيين كما سماهم الاغريق — والانباط

والصفويين ، وفى الجنوب وجدت حضارات المعينيين والسبايين والحميريين ، وفى الغرب على طول ساحل البحر الاحمر (القلزم)، وجدت مدن متفرقة ترك اهلها آثارا او نقوشا ، مثل : الثموديين، واللحيانيين والمكيين .

ونحن لا نستطيع ان نبين اثر هذه الحضارات العربية القديمة التى قامت فى اطراف الجزيرة العربية فى الحضارة الاسلامية . فهذه الحضارات القديمة لم يكشف عن اغلبها الا فى العصر الحديث ، نتيجة لتقدم العلم ، وفك رموز النقوش التى كتبت بخطوط الجزيرة القديمة ؛ بحيث ان بعض العلماء الحديثين يعتبرون حضارات عرب ما قبل الاسلام من التاريخ القديم (١) ، وليس من التاريخ الاسلامى ، الذى هو فى العصور الوسطى . ولعل العرب الذين تنسب اليهم الحضارة الاسلامية ، لم يكونوا هم انفسهم على علم بحضاراتهم القديمة او بتفاصيلها . وفوق ذلك ، فقد حدث ـ قبل الاسلام ـ فى الجزيرة العربية موجة جفاف وقحط (٢) ؛ فكان سكانها فى داخلها واطرافها فى حالة بداوة مانعة للتحضر .

ولكن ظهر عامل هام فى تاريخ جزيرة العرب ، نعتقد انه السبب فى ان العرب اسهموا بنصيب كبير فى الحضارة التى نحن بصددها ؛ ونقصد به عامل الدين الاسلامى ، الذى ظهر فى قلب الجزيرة العربية على يد النبى ؛ فالاسلام اسم لم يكن موجودا قبل مبعث النبى (٣). فكان ظهور الاسلام معجزة عصره ؛ لما ترتب عليه من انتشار العرب

---

(١) انظر : Kratchkovsky : Avec les manuscrits arabes, trad. du Russe par Canard. Alger, 1954, P. 164.

(٢) والدليل على ذلك هجرة اليمنيين الى الشام والخليج العربى (الفارسى) . انظر ، مثلا : ابن هشام ، تحقيق Wust ، طبعة Gottingen ، سنة ١٨٥٩ ، ١ ص ٨ ؛ ابن صاعد : كتاب طبقات الامم ، تحقيق شيخو ، بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٤٦ ؛ انظر : Huzyyin : Arabia. Cairo, 1942. P. 7.

(٣) ابو حاتم الرازى : الزينة فى المصطلحات الاسلامية العربية ، تحقيق حسين الهمدانى ، القاهرة سنة ١٩٥٦ ، ١ ص ٩٣ .

في الأرض كغزاة وفاتحين . وقد عقد المؤرخ ابن خلدون فصلا جاء فيه ان العرب لا يحسن لهم الملك ـ أي الاتحاد والقوة ـ الا بصفة دينية من نبوة ، أو اثر عظيم من الدين (١) . يضاف الى ذلك ان الاسلام جاء من بين الأديان ؛ ليعبر عن الحياة العربية بما فيها من تقاليد ، وبنزعته الانشائية من تنظيم وتشريع ، جعله يسهم في انشاء حضارة ذات طابع عربي اسلامي . ومنذ العصور القديمة كان للأديان اثر كبير في الحضارة ، بحيث ان الفنون والآداب والعلوم يدور فلكها حول الدين . ومن قبل اسهمت الجزيرة العربية في الحضارة عن طريق الأديان مثل اليهودية والمسيحية ، وكلاهما دين سماوي ، ظهر على أطراف الجزيرة الشمالية ، وانتشر بين العرب ، وكان له اثره في الحضارات السابقة واللاحقة .

اما سكان البلاد التي فتحها العرب ، فكانوا في جملتهم على عكس العرب من المتحضرين ؛ لأن اغلبهم يعيشون في مناطق الوديان والأنهار ، وليس في الصحاري ـ كما هو الحال في الجزيرة العربية ـ وهم عموما ورثة الحضارات القديمة سواء في البحر الأبيض او الحضارات الآسيوية ، وكلاهما له اثره في حضارة الاسلام .

فكانت حضارات البحر الأبيض تشمل حضارات مصر وميز بوتاميا ـ اي بلاد الجزيرة ـ وفينيقا واليونان والرومان . ولكن الحضارة التي كان لها الأثر الأكبر في حضارة الاسلام هي الحضارة اليونانية (٢) ، التي سادت وحدها في منطقة البحر الأبيض ، منذ غزو الاسكندر الأكبر في الشرق ، واستمرت حتى وقت مجيء الفتح الاسلامي . ومع ذلك ، فان حضارة اليونان لم تخلق نفسها بنفسها ، وانما جاءت مزيجا من حضارات سابقة ، وبخاصة الحضارة المصرية القديمة (٣) . ولما ورث الرومان اليونان في البحر الأبيض ، لم يأتوا

---

(١) المقدمة ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٢) ابن صاعد ، ص ١٩ ؛ انظر بتفصيل ، شيدر : روح الحضارة العربية ، ترجمة عن الألمانية الأستاذ عبد الرحمن بدوي ، القاهرة سنة ١٩٤٩ .

(٣) انظر ، قول ! ابن صاعد ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٩ ـ ٤٠ . ذكر هيرودوت =

فى الحضارة بجديد ، وكانوا تلامذة لليونان (١) ، وان عملوا على نشر الحضارة اليونانية فى امبراطوريتهم ، التى اتسعت اتساعا هائلا . ولما جاءت المسيحية فى الشرق لم تغير من حضارة اليونان، بل غذتها غذاء روحيا . ومع ذلك فالحضارة اليونانية التى عرفها العرب لم تكن وافدة من بلاد اليونان مباشرة ، وانما كانت بؤرتها فى مصر التى فتحها العرب ، حيث كانت الاسكندرية وريثة اثينا (٢) ، وفى بلاد البحر الابيض الشرقية بما فيها بيزنطة .

اما الحضارة الاسيوية ، فنقصد بها حضارات الصين والهند وفارس ووسط آسيا ، وهى تمتد الى الاف السنين قبل الاسلام. ويبدو ان معظم عناصرها قد وصل الحضارة الاسلامية من طريق فارس على الخصوص (٣) ، التى تمثلت منذ زمن بعيد حضارات آسيا . ومع ان فارس نفسها كانت قد وقعت فى وقت ما تحت نفوذ اليونان فى عهد الاسكندر الأكبر ودولة السلوقيين (٤) ؛ فانها استطاعت ان تتخلص من النفوذ الهلينى (٥) ، بقيام دولتى الأرشاكنيين

=

ذلك فى تاريخه ، وكذا هوميروس فى الاوديسا ؛ انظر بعده .

ويقول المؤرخ الانجليزى توينبى "Toynbee" : انها ظهرت ـ مثل كل حضارة اخرى ـ نتيجة لمبدأ التحدى ، والاستجابة Challenge and Reponse (Défi optimum).

(١) ابن صاعد ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ؛ انظر :
Bilan de l'Histoire. Paris, 1946, P. 14. : Groussel.

(٢) ابن صاعد ، ص ٣٦ ؛ انظر : اوليرى ، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ، نقله الى العربية الأستاذ تمام حسان ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٣) المقدمة ، ص ١٣٧ س ١٩ ؛ وايضا : ابن صاعد ، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٤) تنسب دولتهم الى "Seleuços" ، احد قواد الاسكندر ، وهى حكمت فى الشرق من ٣١٢ ق. م. الى ٨٤ . انظر :
Histoire des, Lagides. 1934. P. 43, 52-55. : Bevan.

(٥) اوليرى : مسالك الثقافة ، ص ١٤٥ وما بعدها ؛ انظر ايضا :
Grousset et Massignon : L'Ame de l'Iran. Paris, 1951. P. 7 sqq ; 84.

"Arsacides" (١) ، ثم المساسيين (٢) : الفارسيتين . كذلك كان بعد فارس عن منطقة البحر الابيض مما جعلها تحتفظ بمزيج حضارى آسيوى خاص ، تسلمه العرب المسلمون بفتحها ؛ مما كان له اكبر الاثر فى الحضارة الاسلامية . بل ان جميع الاجناس التى مرت بفارس فى اثناء العصور الاسلامية ، مثل الترك والمغول ستتحول الى ايرانية ؛ مما يدل على قدرة فارس على الاحتفاظ بطابع خاص .

●●●

ونحن لو تتبعنا تاريخ قيام الحضارة الاسلامية ؛ لوجدناها جاءت نتيجة لعوامل مزج بطىء ، شان كل حضارة . فالحضارة الاسلامية لم تظهر فى القرن السابع الميلادى ، وهو الوقت الذى ظهر فيه الاسلام ، وكان يحكم فيه الخلفاء الراشدون فى الحجاز ؛ ذلك لان معظم العرب كانوا من البدو خالى الوفاض من الحضارة ، وان حملوا معهم الدين الاسلامى ، ثم انهم كانوا مشغولين بالفتوحات ، ولم يتوفر لديهم الوقت الكافى للاهتمام بالحضارة . وحتى بعد أن انتقلت العاصمة من المدينة فى الحجاز الى دمشق فى الشام على يد الامويين الذين خلفوا الراشدين فى الخلافة ؛ فان العرب بقوا يحتفظون بظروف معيشتهم فى الجزيرة العربية دون تغيير ، فيسكنون الامصار على سيف الصحراء فى بيوت من الوبر والصوف (٣) . وعلى النقيض منهم ، كان سكان البلاد التى فتحها العرب يعيشون حياتهم الحضرية ، التى ساعد على نموها ان العرب اوجدوا فى البلاد التى فتحوها وضعا من الاستقرار . ولكن منذ اواسط حكم الامويين ظهرت عوامل مزج نظن انها كانت السبب فى ظهور الحضارة الاسلامية .

فمنها ، عامل اول : هو التعريب ، ويقصد به جعل لغة

---

(١) نسبة الى ارشك الاول "Arasaces" (٢٤٨ — ٢٣٦ ق٠ م) ، مؤسسها . حسن بيرينا ، ايران قديم ، طهران سنة ١٣١٣ هـ ش ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) نسبة الى ساسان جد اردشير ، مؤسس الدولة . انظر ، دونالد ولبر ، ايران ، ترجمة الاستاذ عبد النعيم ، القاهرة سنة ١٩٥٨ ، ص ٤٢ .

(٣) المقدمة ، ص ٢١١ س ٢٢ — ٢٣ . هذه ملاحظة ابن خلدون .

الفاتحين ، وهى اللغة العربية ، اللغة الرسمية فى الدواوين ـ اى المصالح الحكومية ـ ولغة التعامل مع الفاتحين . فقد كانت الخلافة العربية تشتمل على اجناس تتكلم لغـــات متعددة ، تستعملها فى الدواوين ، وفى معاملاتها مع الفاتحين ، مثل : الفارسية واليونانية والقبطيـــة . ولكن الخليفـــة الأمـــوى عبـــد الملك بن مـــروان (٦٥ ـ ٦٨٥/٨٦ ـ ٧٠٥) جعل اللغة العربية اللغة الرسمية ، بحكم انها لغة القرآن المقدسة ، ولغة الفاتح ، بحيث أن تعلمها كان من طاعة العرب . فاقبلت الشـــعوب المفتوحة على تعلمها ، وهجرت لغاتها ، واصـــبحت العربية ـ ما يســـميها ابن خلدون ـ لســـانا حضريا (١) ، فى جميع امصار الاسلام . وعلى ذلك ، فان اللغة العربية هى الأداة التى جعلت مجتمع العرب يتســـع رويدا رويدا ، حتى صارت حدوده تمتد من البر العربى للخليج الفارسى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا .

عامل ثان ، هو ترك شعوب الخلافة العربية لاديانها ، وتحولها الى الاسلام . فهذا التحول ـ ولا ريب ـ كان عاملا فى ابراز حضارة الاسلام ؛ اذ ان الشعوب التى اسلمت لم تكن قد انقطعت صلتهـــا بحضاراتها السابقة ؛ وان كانت فى ظل الدين الجديد ابتعدت عن كثير من عناصرها ، واكتسبت عناصر جديدة غيرت من معتقداتهـــا وتفكيرها . واسباب انتشار الاسلام بين الشـــعوب المفتوحة اثارت اقوالا كثيرة ؛ وان كان من المقطوع به انه لم ينتشر بحد السيف (٢) ، او كما فعل الخليفـــة الأمـــوى التقى عمر بن عبـــد العزيز (٣) (٩٩ ـ ٧١٧/١٠١ ـ ٧٢٠) ، الذى كان متحمسا لنشر الاســـلام ، واستخدم فى ارضاء الشعوب المفتوحة وسائل الاغراء بتنظيم الضرائب

---

(١) نفسه ، ص ١٩٣ س ١٣ ، ص ٣٠١ .

(٢) انظر رأينا بالتفصـــيل فى كتابنـــا : الدولة العربيـــة ، ط ٧ ، ١ ص ١٦٢ ـ ٣ .

(٣) ابن الجوزى ، مناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق Becker ، طبعة Liepzig ١٨٩٩ ؛ انظر . أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وعابدين والنحراوى ، الجيزة ١٩٤٧ ، ص ٧٦ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٦ . (فيه مصادر متعددة) .

وحسن المعاملة ؛ ولكن هذا ايضا لم يكن السبب في تحول الشعوب المفتوحة الى الاسلام . وانما كان الشرق مهيا لمولد دين جديد ، يبدو هذا من كثرة المناقشات ، التي تتناول عقائد الاديان الموجودة وبخاصة المسيحية والمجوسية . فيكفي ان نذكر بالنسبة للمسيحية تعدد المجامع التى عقدت للمناقشة فى جوهر الدين المسيحى (١) . بل ان المعتنقين للمسيحية ، كانوا ينهلون من الفلسفة اليونانية الوثنية ، وبخاصة الافلاطونية الحديثة ـ نسبة الى افلوطين(٢) (Plotinus) (حوالى ٢١٦ م) ـ وهى التى ظهرت للتوفيق بين عقيدة المسيحية والعقل ؛ لعل ذلك يضع حدا للقلق الدينى . اما بالنسبة للمجوسية ؛ فقد ظهرت محاولات اصلاحية دينية من مانوية ومزدكية ، نسبة الى مانى ومزدك او مزدوق (٣) ؛ من انبياء المجوس . فلما ظهر الاسلام برايه الجديد فى العقيدة ؛ نجد ان الشعوب التى فتحها العرب ، تسعى الى اعتناقه ؛ ولاسيما انه جمع خصائص كل الأديان السابقة من يهودية ومسيحية ومجوسية اذ هو كما ورد بتعبيره فطرة الله ، التى فطر الناس عليها (٤) . فقد كان الاسلام يستطيع ان ينسجم مع كل معتقد ببساطة ؛ فهو اول من اوضح بطريقة لا تحتاج الى برهان طبيعة الله الواحد المجرد ؛ على عكس ما سبقه من الاديان ، التى كانت تناقش الطبيعة الالهية ، ولا تصل فيها الى قرار . فكان التحول الى الاسلام من شانه هو الآخر ان يتسبب فى ظهور الحضارة التى سميت باسمه .

عامل ثالث ، متصل بالعاملين السابقين مهد ايضا لقيام الحضارة

---

(١) مثلا : ساويرس بن المقفع ، تاريخ المجامع (Pat. Or) . حققه وترجمه Leroy ، ٣/٩ ص ٤٨٥ وما بعدها .

(٢) هو مصرى من اسيوط . عن ذلك ، انظر . أوليرى ، مسالك الثقافة ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، طبعة Lug — Rat ، ١٨٩٣ ، ١ ص ١٨٠ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٩٥ وما بعدها .

(٤) القرآن ٣٠ : ٣٠ .

الاسلامية هو ثورة الشعوب المفتوحة على الخلافة الأموية . فقد كان العرب الفـــاتحين فى عهد الأمويين يحتقرون الشـــعوب المفتوحة ويطلقون على اهلها اسم رعايا اى ان العرب رعاتهم ، مثل رعاتهم للأغنام ، واهل ذمة اذا كانوا من اهل الكتاب ، اى ان العرب هـــم الذين يدافعون عنهم . ولما تحولت هذه الشعوب الى الاسلام ، كان من المنتظر ان تحسن الخلافة الأموية معاملتها لهم ، بحكم الأخوة الاسلامية ، التى نص الاسلام عليها بصراحة . ولكن الطبيعة العربية المتعجرفة يومئذ رفضت ذلك ، واصبحت كلمة مولى تطلق على من اسلم من غير العرب ، بمعنى انه يتبع العرب ، وليس مساويا لهم فى الحقوق او فى القيمة(١) . فكانت كلمتا مولى وعربى متقابلتين طوال الفترة الأخيرة من حكم الأمويين . وقد تدخل الخليفة الأموى التقى عمر بن عبد العزيز لصالح الشعوب المفتوحة بالقضاء على سوء المعاملة ، ولكن الحال ما لبثت ان عادت الى ما كانت عليه بعد موته. لذلك ظهرت حركة ثورية من جانب الشعوب المفتوحة عرفت باسم الشعوبية وهم اهل التسوية(٢) ، على اساس البحث عن حيـــاة افضل . وقد استطاعت الشعوبية ان تسقط الخلافة الأموية ، وتقيم الخلافة العباسية ، التى اعتمدت على عناصر غير عربية ، ولا سيما الفرس . ولكى توطد الخلافة العباسية مركزها بين الشـعوب غير العربية ـ ولاسيما الفرس ـ اتخذت تقاليدهم فى اداة الحكم والحياة. ولذلك سميت الخـــلافة العباسية ـ فى نظر مؤرخى المســلمين ـ اعجمية (٣) ؛ بسبب اعتمادها على شعوب غير عربية ، على عكس الخلافة الأموية ، التى سميت عربية . فكان مجىء الخلافة العباسية نقطة تحول هام فى تاريخ الحضارة الاســلامية ؛ اذ اعتبر عصرها العصر الذى تم فيه نمو الحضارة الاسلامية .

---

(١) لسان ، ٢٠ ص ٢٨٩ وما بعدها ؛ انظر . النجار ، الموالى فى العصر الأموى ، القاهرة ١٩٤٩ ؛ Ency (art Mawla) 13, P. 479

(٢) ابن عبد ربه ، العقد : القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ٢ ص ٨٥ وما بعدها ؛ انظر Ency (art Sh'ubiyâ) t4. P. 410 ؛ ماجـــد ، الدولـــة العربيـــة ، ٢ ص ٣٢٧ – ٣٣٠ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، نشر وتحقيق Colin, Lévi — Provençal ، طبعة Leiden ، ١٩٤٨ – ١٩٥١ ، ٢ ص ٦٤ س ٤ .

عامل رابع ، له صلة بالعامل السابق كان سببا فى ازدهـــار الحضارة الاسلامية ، هو التفتت السياسى لوحدة الخلافة العباسية . فقد حدث قطع فى دار الاسلام نتيجة للجهود القومية ، التى استمرت تبذلها الشعوب التى اسلمت ، وظهرت بوادرها بسقوط الخـــلافة الأموية ، ثم زادت لقيام الخلافة العباسية . وكما قضت الشعوبية على الخلافة الأموية ؛ فانها هى ايضا التى قضت على وحدة الخلافة العباسية . فبعد ثلاثة قرون من ظهور الاسلام ، نجد العالم الاسلامى تتوزعه ثلاث خلافات : خلافة بغداد العباسية ، وخلافة القـــاهرة الفاطمية ، وخلافة قرطبة الأموية ؛ كما تتنازعه دول اخرى كثيرة . فكان الانحلال السياسى سببا فى ازدهار الحضارة الاسلامية لتعدد مراكزها ، وتنوع عنـــاصرها التى جاءتها من كل شـــعب فى دار الاسلام ؛ بحيث استكملت الحضارة الاســلامية معظم عناصرها فى القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ومن ناحية اخرى نجد ان غزو المغول لدار الاسلام فى القرن السابع الهجرى ـ وهم عنصر وثنى غريب عن شعوب دار الاسلام ـ لم يقض على الحضارة الاسلامية ؛ ذلك لان الحضارة الاسلامية كانت قد رسخت وثبتت اقدامها ؛ وان كان مجىء المغول قد تسبب فى نقل مركز الحضارة من العراق الى مصر ؛ حيث بلغت فيها ازدهارها باقوى مما كانت عليه فى اى عهد سابق للاســـلام (١) ؛ اذ أن مصر هى الوحيدة من بين دول الاسلام ، التى استطاعت أن تصد زحف المغول . كما نجد ان المغول انفسهم بعد استقرارهم بين المسلمين قد تحولوا الى الاسلام ، واخذوا بمظاهر الحضارة الاسلامية ؛ مع ان من شاهد مذابح المغول وتدميرهم لمراكز الحضارة الاسلامية (٢) ، ظن أن الحضارة الاسلامية قد قضى عليها ، وان بعث هـــــذه الحضارة من جديد يحتاج الى آلاف السنين .

●●

(١) المقدمة ص ٣٤٤ ؛ انظر . بعـــده .

(٢) مثلا ، انظر . ابن بطوطة ، رحلة ، ط ٢ ، مصر ١٣٢٢ هـ ، ٩ ص ١٤٠ .

والخلاصة ان الحضارة الاسلامية وجدت اسسها فى العـــرب والشعوب المفتوحة ، وان عوامل وظروفا ظهرت ببطء وعملت على المزج بين مؤهلاتهم ؛ مما اوجد هذه الحضارة ، التى حملت سمتهم جميعا .

الفصل الأول

التنظيم السياسى

التشريع الاسلامى ـ الخلافة ـ الوزارة ـ الدواوين ـ الترامل ـ البريد ـ شئون المال ـ الادارة المحلية ـ القضاء ـ نظر المظالم ـ الحسبة ـ الشرطة ـ الجيش ـ الأسطول .

ونحن اذا تتبعنا عناصر الحضارة الاسلامية وجدناها عناصر موجودة فى كل حضارة ، فتشمل التنظيم السياسى والمجتمع والثقافة . ومع ذلك ، فلنا ملاحظة فى ان التقدم فى الحضارة لا يسير فى خطوط مستقيمة ، وانما يسير فى اتجاهات متعددة ، تشمل كل جهود البشرية السابقة ، وما يضاف اليها . كذلك لا تستطيع حضارة من الحضارات أن تزعم بانها خير من التى قبلها فى كل وجه من وجوه تقدمها ؛ اذ ان لكل حضارة مجهودا معينا فى تقدم البشرية .

●●●

ويجب أن نعرف أن قيام أية جماعة متحضرة لا يتصور الا فى ظل نظام قانونى أو دستورى ؛ وهذا النظام فى الحضارة الاسلامية يتمثل فيما يعرف بالشريعة أو الشرع أو التشريع . فالدين الاسلامى على عكس بعض الأديان الأخرى عقيدة ونظام ، يجمع بين الدين والقانون . فالتشريع الاسلامى سرعان ما اصبح اساس القانون فى البلاد المفتوحة باعتناق اهلها للاسلام ، وحل مكان القوانين التى كانت سائدة فيها ، وبخاصة القوانين الرومانية (١) ، التى جمعها الامبراطور البيزنطى جستنيان "Justinianus" (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ، وعرفت باسمه : "Codex Justinianus" أو المبادىء القانونية Institationes (٢) ، ثم اضاف اليها قوانين جديدة عرفت

---

(١) انظر : Vinogradoff. Roman Law in Mediaeval Furope, London, 1909 ؛ وايضا . عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، النظم والحضارة القاهرة ١٩٥٩ ، ٢ ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر . مدونة جستنيان فى الفقه الرومانى ، ترجمة عبد العزيز فهمى ، القاهرة ١٩٤٦ .

باســـم : "Novellae Constitutiones" ؛ اذ جعلها اســـاس الحــكم فى الامبراطورية البيزنطية ، كمـــا حل التشريع الاســـلامى مكان قوانين الدولة الفارسية ، والقانون القوطى فى اسبانيا "Lex Gothorum" بل انه اخذ مكان العادات والاعراف الســـائدة ؛ التى كانت تنظـــم المجتمعات بجانب القوانين . ولقد كان اثر التشريع الاســـلامى أكثر فاعلية مما قامت به القوانين السابقة ، ذلك لأن من أسلم كان لابد له ان يلم بالتشريع الاســـلامى ، على عكس القوانين الرومانية أو الفارسية او القوطية ، التى لم يكن يعرفها غير رجـــال القـــانون المحدودين . ولقد اصبح انتشار الاسلام معناه انتشار القـــانون والنظـــام .

وعلى كل حال ؛ فان القرآن اصبح مصدر التشريع الاســـلامى الأول ، وأن الله بوحيه اياه هو الشارع الأول للأمة الاسلامية . ولم يرد الينا ما يؤيد ان النبى قام بجمع القرآن فى كتاب واحد ، وانما كان يملى ما ينزل به الوحى على بعض الصحابة ، الذين عرفوا بكتاب الوحى . وظروف نزول القرآن ، جعلت حفظه اساس معرفته؛ لأنه كان ينزل على النبى وهو مسافر او فى اى وقت . وان كنـــا فى حل من أن نقول ان ترك النبى جمع القرآن فى حياته فى كتـــاب واحد ، لا يرجع الى ان النبى كان اميا ؛ فكلمة أمى فى القرآن تعنى انه لم يكن من اهل الكتاب كالنصارى واليهود . ولكن النبى مثـــل بقية العرب يحبذ الحفظ فى صدور الرجال على الكتابة ، وان الله خير حافظ له فى الصدور . كذلك لم يرض ابو بكر ومن بعده عمر ، وهما الخليفتان بعد النبى ، ان يقوما بعمل لم يقم به النبى ؛ فلم يجمعاه فى كتاب واحد . وان كان ابو بكر جمعه باجتهاده الخاص لنفسه ـ مثل بقية الصحابة ـ ليسير على هداه ، وهو القرآن الذى ورثه عمر بعده ، وذلك دون أن يفرضاه على احد . ولكن عثمان ابن عفان (٢٤ ـ ٣٥/٦٤٤ ـ ٦٥٦) ، وهو الخليفة الثالث ، اخذ على عاتقه جمع القرآن فى كتاب موحد (١) ، وعهد فى جمعه الى

---

(٢) عن ذلك ، انظر : مثلا : ابن ابى داوود ، كتاب المصاحف تحقيق Jeffery ؛ طبعة Leiden ، ١٩٣٧ ؛ الســـيوطى ، كتـــاب الاتقان فى

لجنة من كبار المسلمين ، اهم اعضائها زيد بن ثابت . فاتخذت اللجنة ما جمعه ـ الصحابة ـ ولاسيما ابو بكر ـ أساسا لجمعها . فكان جمعها له في سور وآيات على حسب تلاوة الرسول ، وليس على حساب نزولها التاريخي ، وبلغت اربع عشرة ومائة سورة ، وستا وثلاثين ومائتين وستة الاف آية . وقد سمي هـــذا القرآن : « مصحف عثمان » او « المصحف » فقط ، وكتبت منه عدة نسخ سيرت الى الامصـــار ؛ ليكون عليه الاعتماد دون غيره . ومع ذلك ؛ فان العمل الذى قام به عثمان كان غير تام ، لأنه لم يكن من المستطاع ان يعرف قراءة القرآن غير اهل الحجاز ، لعدم وجود النقط على الحروف ؛ فكانت الحروف متشابهة . فأتم الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥/٧١٤) ، عامل الامويين في العراق ، ما قام به عثمان ؛ فاضاف الى النص علامات هي النقط ؛ لتمييز الحروف (١) .

ولكن المجتمع الاسلامي الذى اتسع ، ولم يعد محصورا في الحجاز ، كان يحتاج الى نصوص تشريعية جديدة . ولم يكن هناك سبيل الى اضافة نصوص جديدة الى القرآن ، او احداث تغيير فيه يتناسب مع حالة المجتمع المتطور ، حتى يلبى الحاجات الجديدة للمسلمين ، او لأنه بمروز الزمن لم تعد نصوصه محدودة المعاني . ولهذا تطلب الحال ظهور مصدر جديد للتشريع ، لا يتنافى مع مبادىء التشريع الواردة في القرآن . فسعوا الى جمع الحديث أو الاحاديث النبوية(٢) ، وهي اقوال النبي وافعاله خاصة بالعقيدة والحيـــاة ،

= علوم القرآن ، ط ٣ ، مصر ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ ، الجزء الأول ؛
Geschichte des Qorans, : Noldeke
Gesoh. des Qorans, : Schwally ، Gottingen, 1860
Die Sammlung des Qorans. Leipzig, 1919.
Le Coran. Introd, Raris, 1947 : Blachère ;
Paris, 1947 ? ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص٢٤٩ ـ ٢٥٢ « توجد فيه مصادر ومراجع كثيرة » .

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، استانبول ١٣١١ هـ ، ١ ص ٤٦٧ ـ ٤٨٦ .

(٢) مثلا ، انظر : حاجي خليفة ، ١ ص ٤٢٢ وما بعدها ؛ المقدمة ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣ ، ٤٥٢ ؛ انظر : Ency (art Hadith) t2, p. 102 — 6

=

نقلت عنه فى مناسبات عديدة ، حيث سميت ايضا بالسنة ؛ لضرورة اتباعها ؛ فكانت المصدر الثانى للتشريع الاسلامى ؛ اذ تحوى احكاما وقوانين كثيرة للمجتمع الاسلامى المتطور . وقد كانت الاحاديث النبوية كالقرآن فى اول الأمر غير مدونة ؛ وانما كانت محفوظة فى الصدور ، او مكتوبا بعضها في صحائف متفرقة ، عرفت بصحائف الحديث . ولكن بدىء فى تدوينها فى اواخر القرن الثانى وبداية الثالث الهجريين ؛ وذلك حينما احتيج اليها . ولكى يطمئنوا على صحتها ، نقلوها في سلسلة من الرواة الحفاظ الموثوق بهم ، وهو ما عرف بالاسناد والسند ، اى نقلها من فلان عن فلان حتى تصل الى النبى أو الى السلف الأول من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين . وقد دعاهم ذلك الى البحث عن طريقة توصلهم الى معرفة صحة اقوال النقلة ، وقدرتهم على الحفظ ونزاهتهم ، وقربهم او بعدهم عن النبى ، وهو ما عرف اصطلاحا : « بالجرح والتعديل » . وزيادة فى الحيطة ؛ فان الشيعة ، كانوا يجمعون الحديث عن طريق ائمتهم وحدهم ، وسموه اخبارا وليس سنة (١) .

وبذلك تم للتشريع الاسلامى اصوله ؛ ولكن المجتمع الاسلامى المتطور باستمرار ، جعل المسلمين يبحثون عن مصدر ثالث للقوانين ، فلجأوا هذه المرة الى شرح الاصول ـ وهما القرآن والحديث ـ أو ما عرف بالفقه او علم الفروع (٢) ؛ وتقابله فى اللاتينية كلمة : Jurisprudentia ، التى كانت تعنى معرفة العلوم الالهية والبشرية . ولهذا جرى العرف عند المسلمين على أن يقارن التشريع

=

Etudes sur la tradition islamique. Extraites du : Goldziher ; tome 2,des "Muhammedanische Studien" , tradus,tes par Bercher. Paris, 1952.

Le dogme et la loi de l,Islam.trad. Felix. Paris. 1920.

، انظر بعده بتفصيل .

(١) النعمان ، دعائم الاسلام ، تحقيق ناصف فيضى ، القاهرة ١٩٥١ ، ١ ص ٦٤ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٥٣ وما بعدها ؛ الجرجانى ، كتاب التعريفات ؛ أنظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، القاهرة ١٩٧٣ ، ط ٢ ١ ص ١٣٩ ؛ Le Califat,. Paris, 1926 : Sanhoury ؛ انظر . بعده بتفصيل .

الاسلامى بشجرة لها اوصول وفروع ، اصولها القرآن والحديث ، وفروعها شرح الاصول او الفقه . وقد عرفت اوجه مختلفة للفقه ، منها : الاجتهاد والاجماع والقيـــــاس والرأى والاستحسان والنظر والفتـــاوى والمصـــالح المرسـلة – اى مصـــلحة الامة – والتقليد والاستنباط ... كذلك طائفة الشيعة ترى ان الامام وحده له حـــق تفسير الاصول ؛ فهو المجتهد المطلق ، اما غيره ، فاذا سمح له الامام، فهو المجتهد المقيد . ولعل الشيعة قصرت اشراف الامام على الفقه خوفا من المبالغة ؛ بحيث ان السنة نفسها كانت تقفل ايضا باب التفقه خوفا من الفوضى فى التشريع . وقد اعطى الفقه التشريع الاسلامى المرونة ، فنشات على اساسه مدارس او مذاهب كل منها يفسر الاصول متاثرا بظروف الحياة وتطورها ، حتى ان بعضها اندثر ؛ لانه لم يعد يتمشى مع تطور الحياة الاسلامية . وطالما كانت هذه المدارس او المذاهب موجودة ، طالما كان التشريع الاسلامى ينبض بالحياة .

مما رأيناه من نمو التشريع الاســـلامى ننبذ فكرة ان التشريع الاسلامى متاثر بتشريع الرومان او الفرس او غيرهم ؛ فهو تشريع اسلامى صرف (١) ، يعبر عن طبيعة المجتمع الاســلامى المتطور . فلم يثبت لدينا اطلاقا علميا ان التشريع الاسلامى اخذ عن اى قانون آخر ، او انه وجد فيه اى تعبير لاتينى او فارسى او غيره ؛ فضلا عن وجود نظم فى التشريع الاسلامى لا اصل لها فى اى تشريع آخر . فهو تشريع له طابع دينى ؛ بقصد ان يسمو بمبادىء الحياة ؛ على عكس القوانين المدنية التى لا تطمع فى مثل عليا .

ولكن بانتهاء حضارة الاسلام المزدهرة فى العصور الوسطى ؛ وحين افاق المسلمون فى العصر الحديث ، وجدوا ان تشريعهم الذى تركوه اصبح جامدا لم يعد يساير تطور الحياة . لذلك اخذ المسلمون فى العصر الحديث ، فى البحث عن قوانين جديدة فى غير التشريع

---

(١) انظر اقوال فى ذلك : Schacht : The origin of Muhammadan jurisprudence. Oxford, 1950 ; Hamidulah ; Influence of Roman law on Muslim law. ap. j. of the Hyderabad Academy Medras, 1943 ؛ احمد امين ، فجر الاسلام : ط ١ ، القاهرة ١٩٢٨ ، ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

الاسلامى ، عند الدول التى اصبحت بيدها زمام الحضارة ، ولاسيما قوانين الدول الغربية الأوربية . فنجد اغلب دول الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، اخذت اساس تشريعاتها من قوانين فرنسا . ومع ذلك ، فان التشريع الاسلامى يعتبر اوسع القوانين التى وجدت ، منذ ظهور الحضارة .

●●●

وقد كان الأمناء على الشريعة الاسلامية ، هم الذين يحكمون الأمة الاسلامية بعد موت النبى ، اذ سادت فكرة انه لابد من وجود خليفة للنبى ، يسهر على تنفيذ الشريعة . وهذه الفكرة فى تولية خليفة للنبى نجد انها عند الشيعة عقيدة وايمان (١) . فكان ظهور نظام الخلافة يعتبر جديدا مستحدثا فى نظم الحضارة ، يغاير كل المغايرة نظم « الامبراطورية » او « الملكية » ، التى كانت معروفة لذلك الوقت (٢) .

ولم يحدد الاسلام ممثلا فى القرآن شخصية خليفة النبى ومدى سلطته ، وانما نشأ نظام الخلافة فى سقيفة – اى بيت – بنى ساعدة – احدى العشائر – فى المدينة ، على اساس مبدأ الاختيار من قبـــل الرعية لخليفة النبى فى قريش عشيرته ؛ ذلك لانه فى ذلك الوقت لا رياسة بدون عصبية (٣) ؛ وان توفرت فيه بالضرورة صـــفات السيادة التى تتوفر فى شيخ العرب ، والسبق الى الاسلام . وقد تم اختيار الخليفة الأول ابى بكر على هذا الأساس ، واستمر مبـــدأ الاختيار قائما بعده طول مدة الخلفاء الاربعة ، وهم الذين ســـموا بالراشدين (٤) ، لأنهم جميعا كانوا من صحابة النبى ، المرشدين من قبله للسير على نهجه فى الحكم . ولكن منذ معاوية تحول النظام

---

(١) قالوا بنى الاسلام على سبع دعائم : الولاية (أى للامام) ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد . دعائم الاسلام ، ١ ص ٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر ملاحظة : الريس ، النظريات السياسية الاســلامية ؛ ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٧ .

(٣) المقدمة ، ص ١٢١ ، ١٥٣ – ١٥٥ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مصر ١٣٤٨ هـ ، ص ١٧٨ ؛ لسان ، ٤ ص١٥٦ .

الخلافى الى ملك عضـــود (١) ، على غرار ما كان عند الفرس والبيزنطيين ، بان يكون وراثيا فى اسرة معينة ؛ بحيث انه كان من الممكن ان يتولى خلافة النبى طفل ؛ فتولى الخلافة من بنى امية بنو حرب ثم بنو العاص (او العاصى) ، وجاء بعدهم بنو العباس ، وهم من بنى هاشم اسرة النبى . وعلى الرغم من تحول الخلافة الى نظام وراثى ؛ فقد بقيت لها مسحة ديمقراطية بما منحها الفقهاء من شروط يجب ان تتوفر فى شخص الخليفة ، جعلوها اربعة او سبعة ، اذا لم تتوفر استجيز تنحيته (٢) ، اهمها : العلم والكفاية وحسن الرأى وسلامة الحواس والاعضاء ؛ اما النسب القرشى فاصبح موضع نقاش ؛ بسبب ان العباسيين اعتمدوا على الاعاجم ؛ بحيث ان فرقة الخوارج ـ احدى فرق المسلمين ـ كانت ترى ان الخلافة لأى شخص عارف بالكتاب والسنة (٣) .

وفى راى المستشرق جب "Gibb" (٤) : انه وان كان مظهر الخلافة منذ معاوية قد تغـــير الى حكم الامرات ؛ الا أن من ورائه توجد اسباب خفية دعت الى هذا التغيير ؛ تؤكد اتجاهات المجتمع المتطور . فمن تنازع على ـ آخر الخلفاء الراشدين ـ مع معاوية ـ مؤسس الخلافة الاموية ـ يتبين ان خلافة على تلخص الحكم الذين يعتمد على اهل الحجاز وحدهم ، بينما المجتمع المتطور الذى تزعمه معاوية ، يرى القضاء على الحكم المحدد ، فنقل الخلافة الى الشام. كذلك بالنسبة للنزاع بين الامويين والعباسيين ؛ فان الامويين يرون ان يكون العرب وحدهم فى حكم الدولة ، اما العباسيون فيرون ابعد

---

(١) ابو الفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، مصر ١٣٢٥ هـ ، ص ١٨٣ .

(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية مصر ١٩٠٩ ، ص ٤ و ١٤ وما بعدها؛ المقدمة ، ص ١٥٢ ــ ١٥٥ .

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل ، مصر ١٣٢٠ هـ ، ط ١ ، ٢ ص ١١٣ ؛ انظـر .

Lewis : Some observations on the significance of, Heresy in the History of Islam. Stvdia Islamica. Paris, 1953. tl, P. 47.

(٤) أنظر .

Gibb : The Evolution of Gevernment in, Early Islam. Stvdia Islamica Paris, 1955 t. Iv, p. 5 sqq.

من ذلك ، بحيث يشترك جميع اعضاء المجتمع الاسلامى عربا وغير عرب ، فلعل تغيير مظهر الحـكم من راشدين الى امويين الى عباسيين ، يؤكد الاتجاهات للمجتمع الاسلامى ، الذى كان يتطور دائمـــا .

ومنذ او الامر يتولى خليفة النبى منصبه بما عرف بالبيعة او المبايعة (١) ، وهى كلمة تعنى العهد على الطاعة من جانب المسلمين لشخص خليفة النبى ، الذى دعا القرآن الى طاعته (٢) ؛ وان عقدا قد تم بينه وبينهم ؛ بمقتضاه يتولى الحكم برضاهم . هذا العهد على الطاعة يكون للخليفة وحده وليس لزوجته ، وذلك على عكس ما كان يحدث فى الدول المسيحية كبيزنطة مثـــلا ، التى كانت تولية الملك الحكم تعنى تولية زوجته معه . ومع ذلك وجدنا زوجات للخلفـــاء او زوجات بعض امراء الخلافة وملوكها يطلق عليهن لقب الملكة(٣) .

هذه الطاعة تكون من الخاصة والعامة على السواء ؛ وليس من قبل الرجال وحدهم ، وانما تكون من قبل النساء ايضا . وقد ذهبت الشيعة الى وجوب دخول النساء فى البيعة (٤) ، فقد ورد ذكـــر مبايعتهن للنبى فى القرآن ؛ وسميت مبايعته الأولى قبل الهجرة الى يثرب باسمهن : مبايعة النساء (٥) . وكانت البيعة فى اول الأمـــر تتم للرجال بالمصافحة ، او بالقسم تأكيدا للطـــــاعة ، وهو ما عرف

---

(١) هذه الكلمة وردت فى القرآن ٤٨ : ١٠ . انظر ، المقدمة ، ص ١٦٥ .

(٢) القرآن ٤ : ٤٩ ؛ (يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرســول واولى الامر منكم) ؛

(٣) السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد . القاهرة ١٩٥٤ ، بعنوان : ٣٥ و ٤٧ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ .

(٤) على بن محمد ، تاج العقائد ، ترجمـــة Ivanow ، بعنوان : Creed. of the Fatimids. Bomby, 1936. P. 43 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٦٤ .

(٥) القرآن : ٦ : ١٢ ؛ انظر ا بن هشام ؛ ١ ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٠٧ . وهى تسمى ايضا بيعة العقبة الأولى . عن هذا المكان ، انظر ، معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٢ .

بايمان البيعة ، وان كانت للنساء من غير لمس أو مصـافحة (١) . كذلك سرعان ما دخلت البيعة تقـاليد وعادات غريبة عن الاســلام ، تشبه ما كان عند الفرس والبيزنطيين . فقد كان الخليفة يتزيا بعمامة مزدانة بالجواهر أشبه بالتاج(٢) ، ويبايعه الناس بتقبيــل الارض أو اليد او الرجل أو الذيل ، فى حفل يحضره جميع المسـئولين فى الدولة . وكانت بيعة الخليفة تعلن فى المســـاجد ــ ولا ســـيما فى الحرمين(٣) ــ بسبب أن الحجاز مهد الاسلام ، وقبـلة المســلمين جميعا ؛ وترسل الكتب الى جميع الاقطار باعلان بيعته ، كما كان ينقش اسمه على العملة « السكة » ، ويطرز على الملابس الرسمية ، التى توزعها الدولة على موظفيها .

وكان خليفة النبى يطلق عليه فى عهـــد ابى بكر لقب(٤) : « خليفة رسول الله » ، وهو لا يعنى بانه خليفته فى النبوة ، ولـكنه جاء بعده فى حكم امة المسلمين ، بمعنى النيابة . ولذلك لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ؛ تلقب : « بخليفة خليفة رسول الله » ، أو حتى « بخليفة أبى بكر » ؛ وان اختصره الى « خليفة » فقط ؛ للتسهيل . ثم ان عمر بن الخطاب اضاف لقبا آخر مناسبا لعهد الفتوح ، هو لقب : « أمير المؤمنين » . ولعل اختيار عمر لقب « أمير » بدلا من « ملك » ، مع أن كلا منهما يدل على صاحب السلطة العليا ، قد يفسره أن لقب أمير كان يعنى من ولى جهة من جهـات المسلمين أو سرية أو جيشا ، بينما لقب ملك كان يعنى ــ كما ورد القــرآن ــ التعسف بالناس ؛ وأما « المؤمنين » فقد اتخذها عمر لتعنى المسلمين الذين دخل الاسلام الى قلوبهم ، وخرجوا للجهاد فى سبيله . ويبدو

---

(١) الكامل ، ٢ ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

(٢) ابن ميسر ، تاريخ مصر ، تحقيق Massé ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ٥٢ ــ ٥٣ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٦٥ ــ ٦٦ ؛ انظر ، بعده .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب (التحقيق الاوربى) ١ ص ٣٦٢ ؛ انظر . متز الحضارة الاسلامية ، ترجمة أبى ريدة ، ط ٢ ، ص ٤ .

(٤) عن هذه الالقاب ، انظر . المقـــدمة ، ص ١٥١ ، ١٧٩ ــ ١٨٠ ؛ انظر . ماجد . نظم الفاطميين ، ١ ص ٧٢ وما بعدها ؛ الريس ، النظريات ، ص ٩١ وما بعدها .

ان لقب أمير المؤمنين كان مألوفا عند العرب وقتذاك ؛ فقد كان سعد ابن ابى وقاص ، احد قواد المسلمين فى فتح فارس يتسمى به . ولما تولى على بن ابى طالب الخلافة ، اتخذ لقب « امام » (١) بما فيه من معنى الهادى للمسلمين فى دنياهم ودينهم ، كما كان يفعل النبى فى الأمة الاسلامية ، او تشبها بامام الصلاة ؛ واصـــبحت وظيفته تسمى : « الامامة العظمى أو الكبرى » ؛ لتمييزها عن امامة الصلاة وهى : « الامامة الصغرى » . فهـذا اللقب « امام » اضـفى على الخلافة سلطة دينية بجانب سلطتها الزمنية حتى لا يسهل معارضتها . هذه الألقاب الثلاثة : خليفة ، وامير المؤمنين ، وامام ، تعتبر اهم القاب خليفة النبى .

ولكنها زادت بمجىء العباسين والفاطميين وغيرهم ، الــذين اعتمدوا فى الحكم على عناصر غير عربية . فظهر لهم ما يعـــرف باللقب الذى يشتمل دائما على كلمة الله ، مثل الحاكم بأمر الله ، والحافظ لدين الله .. الخ ، وذلك بقصد تاييد سلطانهم ، وتمييز بعضهم عن البعض . كذلك اضافوا لهم تسمية عامة لا تدل على لقب ، ولكن على نعت ، ويقصد بها السلطة او النفوذ ، هى : «السلطان» . كما اضافوا الفاظا اخرى عديدة تستعمل فى مخاطبتهم ، مثل : « مولانا » و « ســيدنا » و « الحضرة » ، وهى تقـــابل كلمـــة "Auguste" ، التى كانت للملـــوك البيزنطيين (٢) . وكذا أصبح لخلفاء الشيعة عبارات خاصـــة بهم تذكر عند ذكر اسمهم ، مثل : « صلى الله عليه وسلم »(٣) . واصلها فى الدعاء لابراهيم وآله فى الصلاة . ومع كل هذه الالقاب والالفاظ ؛ فان خلفاء الاسلام كانوا يظهرون التواضع والخضوع لله ؛ فيسبقون اسماءهم فى المكاتبـــات الرسمية بعبارة متداولة ؛ هى « عبد الله ووليه »(٤) .

---

(٢) على الخصوص : لسان ، ١٤ ص ٢٩١ ؛ انظر ايضا :
Ency. (art Imam) t 2, p. 503.

(١) انظر .
Runciman : La civilisation byzantine, trad, Lévy. Paris, 1952, p. 62 — 3.

(٢) دمائم ، ١ ص ٤٨ .

(٣) انظر مثلا : السجلات المستنصرية .

وكانت سلطة الخليفة هى اساس الحكم فى الدولة الاســـلامية تتلخص كما يقول الفقيه الماوردى في كتابه : الأحـــكام السلطانية ، حراسة الدين وسياسة الدنيا (١) او بمعنى آخر رعاية الدين والاشتغال بالسياسة وفن الحكم ؛ فهى بذلك رئاسة عملية . وقد بقيت ســلطة الخليفة الراشـــدى او الأموى تحتفظ بمســحتها الديمقراطية الى حد ما ؛ فقد كانوا يبقون على نظام الشورى ، الذي نص عليه القرآن والحديث (١) . ولكن فى العصر العباسى أخذت هذه السلطة طابعا أوتقراطيا ، مستمدا من نظم الفرس ؛ فلم يعد الخليفة خليفة رسول الله ولكنه خليفة الله (٢) ، لقيامه فى خلق الله ، من قوله تعالى : (انى جاعل فى الأرض خليفة ٢ : ٣) ؛ وان كان الخلفاء الأوائل مثل ابى بكر نهوا عن هذه التسمية . فقد اصبح الخليفة يحكم كمـــا كان يحكم ملوك الفرس بنظرية حق الملوك المقدس او الحـــق الالهى للملـــوك "The divine right of kings" ؛ وان من يعارضه يعتبر خارجا على الدين "Lèse — Majesté" . ولكى نلمس مدى تطـــور سلطة الخليفة يكفينا المقارنة بين بساطة عمر بن الخطـــاب ، وبين أبهة هرون الرشيد . كذلك بولغ فى سلطة الخلفاء الفاطميين ، حيث كان للخليفة منهم صـــفة العصـــمة من جميع الخطايا : الـــكبائر والصغائر (٤) . فكان الناس في مصر يقبلون الارض له في الشوارع اذا مر ، كما يعلق التجار بضائعهم على متاجرهم ، حتى تنالهـــا البركة من نظر الخليفة (٥) .

---

(١) الأحكام ص ٣ .

(٢) القرآن ٤٢ : ٣٨ .

(٣) الماوردى ، ص ١٢ ؛ المقدمة ص ١٥١ . وربما يكون ذلك ظهر أيضـا منذ عبد الملك ابن مروان ؛ الذى شبه نفسه بانه ظل الله فى الارض . مصنف مجهول « لعله جزء من انساب الاشراف للبلاذرى » ، Ahlwardt ، طبعـــة Creifswald ، ١٨٨٣ ، ص ٢٣ س ٣ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ١١٨ .

(٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعـــة London ، ١٨٤٦ ، ص ١٠٩ ؛ انظر . كاشف الغطاء ، الشيعة ، ط ١٠ ، ص ١٢٨ .

(٥) المقريزى . الخطط ، ط . مصر ١٣٢٤ هـ ، ٢ ص ٣١٤ س ١١–١٢ .

وقد استمرت الخلافة واحدة فى أول الأمر لأن العقلية الاسلامية لم تكن تقبل تعددها ، وان من يعارضها أو يدعيها يعتبر خارجا على الأمة الاسلامية . فكان بقايا الأمويين الذين فروا الى الأندلس بعـــد قيام الخلافة العباسية ، مع استقلالهم عن هذه الخلافة ، لا يتسمون بالخلفاء ، وانما بأبناء الخلائف (١) . ولكن لما انتصرت الدعـــوة الشيعية الفاطمية فى المغرب على يد أبناء فاطمة وعلى ، رأى هؤلاء أنهم أحق بالخلافة من العباسيين ؛ لأنها فى اعتقادهم جاءتهم نتيجة لوصاية النبى لعلى(٢) ؛ لتبقى فى بيته الى يوم القيامة . وفى رأيهم أيضا أن الخلافة ليست قضية سطحية تناط باختيار العامة ، وانمـا هى ركن الدين ، وان النبى لم يغفلها(٣) ؛ فأوصى بها الى أهـــل بيته . ولذلك اتخذ أئمة الشـــيعة لأنفسهم ألقاب الخلافة مثـــل العباسيين(٤) ، وكان هذا بداية لتعدد الخلافة . ونجد الفقهـــاء يرضخون أمام الأمر الواقع ، ويحاولون تفسير تعدد الخلافة بامكان السماح بعقد شرعى لأكثر من شخص(٥) ، ويحتجـــون فى ذلك باتساع رقعة الاســـلام ؛ وان لم يمنـــع من ان كل خلافة تنظر الى الأخرى على انها غير شرعية .

فصارى القول ان نظام الخـــلافة حمل فى طياته مبـــادىء ديمقراطية ، وان تحوله الى سلطة وراثيه أو دكتاتورية يخـــالف

---

(١) الكامل ، ٦ ص ٣٦٠ ص ٣ .

(٢) دعائم ، ١ ص ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٥ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، تحقيق Gold ، طبعة Leiden ، ١٩١٦ ، ص ٣٨ انظر عنهـــا بتفصيل : ماجد نظم الفاطميين ، ١ ص ٥١ وما بعدها .

ففى أثناء حجـــة الوداع فى السنة العاشرة من الهجـرة بالقرب من غدير خم ، قام محمـــد خطيبا فى الحجيج ، فقـــال لهم : « الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » . قالوا . « بلى يا رسول الله ، قال : « فمن كنت مولاه فعـــلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خـــذله » .

(٣) الملل ، ١ ص ١٠٩ ؛ المقدمة ، ص ١٥٥ .

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٢ .

(٥) الأحكام ، ص ٦ .

وقد كان الخليفة فى اول الأمر يشرف على كل شئون الدولة بنفسه ، وان استشار بعض المقربين اليه . ولكن فيما بعد لم يتمسك الخلفاء كثيرا بهذا الاشراف المباشر لاتساع رقعة الاسلام ؛ بحيث أن الخلفاء كانوا يختارون من يساعدهم فى تصريف شئون دولتهم ، وبخاصة الادارية منها ، وذلك بين كبار موظفيهم ، الذين يطلق عليهم لفظة الكاتب (١) .

ولما انتقلت نظم الفرس الى الدولة الاسلامية فى عهد العباسيين ، نقلوا منها نظاما يساعدهم على تصريف جميع شئون الدولة ، حتى السياسية منها ، هو نظام الوزارة (٢) . وقد عمل الفقهاء على ان يصبغوا الوزارة بصبغة اسلامية ؛ فربطوا بينها وبين بعض آيات قرآنية مثل : « واجعل لى وزيرا من اهلى ، هارون اخى ، اشدد به ازرى ٢٠ : ٢٩ ـ ٣٢ » . كذلك جعلوا لفظة الوزارة مشتقة من المؤازرة اى المعاونة ، او من الأزر اى الظهر واحتمال الامور . وربما يكون منصب الوزير قد ظهر من قبل فى العصر الأموى (٣) ، ومع ذلك لم يصبح نظاما ثابتا الا فى عهد العباسيين.

وقد تطورت سلطة الوزير فى تصريف شئون الخلافة الاسلامية؛ وكانت تتوقف على مدى سلطة الخليفة من قوة وضعف . فقد عرفنا نوعين من الوزارة الأولى وزارة التنفيذ ، ومعناها ان الوزير ينفذ امر الخليفة . الذى يشرف على جميع تصرفاته ، والثانية وزارة التفويض ، ومعناها تفويض شئون الخلافة الى وزير يدبرها برايه ، ولا يستشير فيها الخليفة ، اى ان الخليفة يملك ولا يحكم : Régner sans gouverner . ولكنا لا نعرف أصل هذين النوعين

(١) الجهشارى « كتاب الوزارة والكتاب » ، حققه السقا والابيارى وشلبى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨ ، ص ١٥ وما بعدها .

(٢) عن نظام الوزار . انظر . المقدمة ، ص ١٨٦ وما بعدها ؛ الاحكام ، ص ١٨ وما بعدها .

(٣) ربما كان ذلك فى عهد مروان بن محمد الجعدى ، آخر الامويين . الجهشيارى ، ص ٩٦ .

من الوزارة ، أو تاريخ ظهورهما ، وهما اللذان ذكرهما الماوردى لأول مرة فى القرن الرابع الهجرى ، فى كتابه : « الأحكام السلطانية » .

وقد احاط الفقهاء هذين النوعين من الوزارة بقواعد وقوانين؛ بحيث انهم جعلوا الأولى يتولاها ارباب الأقلام اى المدنيون ؛ ولذا سميت ايضا وزارة القلم ، والثانية يتولاها ارباب السيوف ، اى رجال الحرب ، ولذا سميت ايضا : وزارة السيف ؛ كما انهم جعلوا من غير الممكن ان يتولى الثانية غير مسلم ، لسيطرة هذا النوع من الوزارة على شئون الأمة الاسلامية ، ادارية وحربية ودينية . ومع ذلك نجد ان وزارة السيف قد تكون وزارة تنفيذ ؛ كما انه قد يتولى مسيحى وزارة التفويض (١) ؛ وان كان الخليفة فى هذه الحالة يشرف بنفسه على الشئون الدينية .

ومع ان الوزارة الاسلامية كانت واحدة غالبا ؛ الا انه فى الأندلس قد صنفت اعمال الوزراء ، وافرد لكل عمل وزير ، واصبح يطلق على رئيسهم : الحاجب ، وهو اسم عرفه امويو الشام ايام خلافتهم فيها ، بمعنى حجب الخليفة عن العامة بتنظيم الدخول عليه ، وبمعنى المعاونة ايضا .

* * *

ونلخص العمل الاساسى للوزير سواء اكان وزير تنفيذ او وزير تفويض ، فى الشئون الادارية . ويجب الا يغيب عنا ان التنظيم البسيط لأداة الحكم ، الذى ظهر فى عهد الاسلام الأول قد تعقد تعقيدا كبيرا فيما بعد بمجيء الخلافة العباسية ، التى نقلت الى اداة الحكم كثيرا من النظم الفارسية ، فضلا عما ورثته من النظم البيزنطية فى مستعمرات بيزنطة السابقة . فنجد فى تنظيم اداة الحكم الاسلامى مصطلحات عديدة تدل على نظم فارسية وبيزنطية او غيرهما ؛ تستعمل متآلفة معا فى جميع ارجاء الخلافة الاسلامية . ولما انقسمت وحدة المسلمين السياسية ظهرت الصبغة المحلية فى النظم

(١) مثلا : ولى الخليفة الفاطمى الحافظ وزارة التفويض لأحد النصارى، وهو بهرام . عن ذلك : ان ميسر ، ص ٧٩ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٨٤ — ٨٥ .

الادارية ؛ بحث اصبحت تتميز بعضها عن بعض من مكان الى آخر .
وقد بلغت الدقة فى اداة الحكم للخلافة الاسلامية درجة كبيرة لم تبلغها نظم ادارية الفتها الدول من قبل ؛ بحيث تخصص مؤلفون فى الكتابة عنها (١) . ولا ريب فى أن تضخم النظم الادارية الاسلامية راجع الى الرغبة فى ارضاء حاجيات المجتمع الاسلامى المتطور .

وقد نظم القرآن باسلوبه الدينى بعض شئون الأمة الاسلامية الأولى ؛ ولكن عمر بن الخطاب يعتبر واضع اسس الحكم الاسلامى من الناحية العملية ؛ ويعبر عن ذلك بقول المؤرخين : ان عمر أول من وضع الديوان او دون الدواوين (٢) . وكلمة الديوان وجمعها دواوين ، هى كلمة فارسية ، كانت تعنى فى أول الامر السجل الذى يكتب فيه ما يختص بشئون الادارة ، ثم اصبحت تدل على المكان الذى يعمل فيه الكتاب ـ جمع كاتب ـ وهم رجال مدنيون من ارباب الاقلام . وقد كان معظم هؤلاء من اهالى البلاد المفتوحة ؛ لأن اغلب العرب لاسيما فى أول امرهم ، لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة الا فى النادر . ولذلك لم يشترط فى الكتاب أن يكونوا عربا او مسلمين ؛ وان اشترط عليهم الخليفة عبد الملك بن مروان ان يعرفوا اللغة العربية . فقد كانت الدواوين الى وقته لا تكتب بالعربية الا فى الأقاليم العربية ، اما فى غير ذلك فتكتب بلغات البلاد التى فتحها العرب : فكان ديوان الشام يكتب بالسريانية او باليونانية ، وديوان مصر بالقبطية ، وديوان فارس بالفارسية . ولكن عبد الملك بن مروان امر بنقل الدواوين الى العربية ؛ مما ترتب عليه أن اصبحت الادارة عربية منذ عهده فى جميع انحاء الخلافة .

ولقد اصبح لموظفى الدواوين فى الدولة العباسية شان كبير ؛ فقد كانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة ، وترمز

---

(١) من بينها مثلا ، انظر . ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، القاهرة ١٩١٣ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢ ، ١٦ ـ ١١٧ ؛ المقدمة ، ص ١٩٢ وما بعدها ؛ الأحكام ، ص ١٧٥ وما بعدها ؛ انظر :
Ency (art Diwân) t 1, P. 1006; (art Kâtib) t 2, P. 868;

اليهم ، منها : الدواة والكرسى والمخدة والمسند والمرتبة (١) ، وهى ادوات تستخدم فى الكتابة والجلوس فى الديوان ، كما ان الكبار منهم كانت لهم القـــاب اخصهـــا : الشيخ (٢) ، ويتميزون فى ملابسهم بعمائم كبيرة تتفاوت في ضخامتها على حســب مراتبهم ، بحيث اصبح يطلق على طبقة الكتاب : « اصحاب العمائم » (٣) .

وقد كان عمـــل الدواوين يتلخص عموما فى الادارة المركزية والادارة المحلية : فالأولى تشمل التراسل وشئون المال ، والأخـرى تشمل ادارة الولايات .

●●

اما عن التراسل ، فنعرف ان النبى ﷺ والخلفاء بعده ، كانوا يتبادلون الرســـائل مع الملوك وغيرهم من عمالهم وموظفيهم . وقد احكم نظام التراسل على ما يظهر فى عهد الامويين ، واصبح له ديوان خاص فى عهد عبد الملك بن مروان ، يعرف : « بديوان الرسائل » ، وبقى هذا الاسم في عهد العباسيين ليدل على هذا الديوان (٤) . كما انه فى مصر فى عهد الفاطميين سمى بهذا الاسم ايضا ، وان غلب عليه اسم : « ديوان الانشاء والمكاتبات » (٥) ، الذى بقى ليدل على ديوان الانشاء فى مصر بعدهم .

---

(١) صبح الاعشى ، ٢ ص ٤٩٠ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٠٢ ــ ١٠٣ .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٢٤٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٠١ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٥٢ ؛ نفسه ، ٢ ص ٦١ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٣٥ ؛ العقد ، ٢ ص ٣١٧ ؛ المقدمة ، ص ١٩٤ .

(٥) عنه ، انظر . ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، تحقيق على بهجت ، القاهرة ١٩٠٥ ، ترجمة Massé ، بعنوان :
" Code de la Chancellerie d'Etat " :
; B. I. F. A. O. tx, Le Caire, 1914, PP. 65-120

الخطط ، ٢ ص ٢٤٤ ؛ انظـر . ماجـــد ، نظـم الفـــاطميين ، ١ ص ١٠٤ وما بعدها ؛ Björkmann :

Beiträge zur geschichte der Staatskanzlie
im islamischen. Agypten. Hambourg, 1928.

وقد أصبح عمل هذا الديوان معقـدا ، فتعددت اختصاصاته ، وكثر من يعملون فيه . فقد وجد فيه كتاب رئيسيون يقومون بالكتابة والانشاء ، وآخرون مساعدون يقومون بالتلخيص والتبييض . وكان لابد للعاملين فيه أن يتقنوا اللغة العربية ، وأن يعرفوا لغات أجنبية أهمهـــا وقتئذ : الفارســـية والتركية واليونانية والأرمنية . وكذلك أصبح له منذ زمن مبكر أرشيف توضع فيه أصول كل ما يصدر عنه ، وله مشرف خاص اسمه الخازن . فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في دوسيهات تسمى : « أضابير » ، توضع عليها بطائق تدل على محتوياتها ، ليسهل استخراجها .

وكل ما يصدر عن هذا الديوان كان لابد أن يكون عليه توقيع الخليفة (١) ، ليأخذ صبغة رسمية . وقد كان للنبى خاتم يوقع به ، ومنذ ذلك والخلفاء يتخذون الخاتم للتوقيع ، حتى أن معاوية انشأ ديوان الخاتم ، ربما ليعنى ديوان الرسائل . ولكن منذ عهد العباسيين أو قبلهم ، عرف التوقيع بلفظة : « العلامة » ، التى لا تعنى توقيعا بالخاتم ، وانما بعبارة دينية أو نعتا ، يقوم مقام التوقيع . كذلك سمى توقيع سلاطين السلاجقة ـ الذين سيطروا على العباسـيين ـ باسم الطغرا أو الطغرى ، وهى كلمة فارسية ، تعنى نقشة معينة تدل عليهم ، ربما تكون نسبة الى أحد الكتاب الذى أوجدها (٢) ؛ وقد بقيت حتى وقت ســـلاطين العثمانيين للتوقيع بها على الفرمانات وغيرها .

●

ولم يكن من الممكن ارسال الرسائل من هذا الديوان بدون وجود

---

(١) المقدمة ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٠ ؛ العقد ، ٢ ص ٣١٧ ؛ الجهشيارى ، ص ٢٤ .

(٢) لعله الحسين أبو اسماعيل الطغرائى (ت ٥١٦/١١٢٢) ، وزير السلطان مسعود السلجوقى . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مصر ١٢٩٩ هـ ، ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨ ؛ صبح ، ١٣ ص ١٦٢ ـ ١٦٧ ؛ انظر Cahen La Tughrâ Seljukide J. A. 1945 ; Ency. (art Tughrâ) 14, P. 865 sqq.

جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، مصر ١٩٠٢ ، ١ ص ٩٥ .

تنظيم آخر يضمن وصولها . ولا نعرف انه وجد تنظيم معين لارسال الرسائل قبل الخلافة الأموية ، التى انشـــات ما يعرف بالبريد (١) . فيذكر المؤرخون أن معاوية وضع نظـــام البريد وجعله تابعـا لنظام التراسل ، وان عبد الملك بن مروان احكمه . ويذكرون أيضا ان هذا النظام نقل عن البيزنطيين من النـــظام المعروف باســم : الطريق العـام « Cursus Publicus » ، او عـــن الفرس ، وان وجد فى الدولة الاسلامية اساسا ليسد حاجة الدولة ، وليس الأفراد . وكلمة بريد مجهولة الأصل ، فقد تكون من اصل عربى من برد ، اى ثبت بما تستقر عليه الأخبار ، او من الفارسية بريده دم ، ومعناه مقصوص الذنب ؛ كناية عن استخدام الفـــرس البغال فى نقـــل رسائلهم وقص اذنابها ، او من اللاتينية « Veredus » اى خيـــل ، او ممن يقوم بنقل البريد « Veredarii » ، او لعلها معربة لتدل على مســافة معلومة .

وكان للبريد فى الخلافة الاســـلامية وسائل متعددة ، منها : الدواب وبخاصة الخيل والجمال . فكان يقام له على السكك منازل اى اماكن ، عبارة عن قبة أو بيت توضع فيه الدواب ؛ لاستعمالها فى نقل البريد . وقد كان الذى ينقل البريد على الخيل فى عهد المماليك يسمى بريدى ، وهو يحمله فى خريطة اى حقيبة ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر ، قد ثبت فيها لوح من الفضة توضع تحت ثيابه ، نقش عليه ما يدل على وظيفته فى نقل الرسائل ؛ اما الذى ينقل البريد على الجمال ، فيعرف بالنجاب .

كذلك استعار المسلمون نظام البريد بالحمام الزاجل او حمـــام الرسائل ، وعرف باسم جناح المسلمين ، فكان اشبه ببريد الجو . وقد

---

(١) صبح ، ١٤ ص ٣٦٦ – ٣٩٨ ؛ الخطط ، ١ ص ٢٢٦ – ٢٦٧ ، ٣ ص ٣٤٣ ؛ العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ص ١٨٤ وما بعدها ؛

Die Post — una Reiserouten des Orients, ; Sprenger La poste aux Chevaux dans, ; Sauvaget ; Leipzig., 1864. l'empire des Mamelouks. Paris, 1951.;

Ency (art Barid) II. P. 675.

افرد المسلمون لبريد الحمام ديوانا خاصـــا ، والفوا جرائدا ودفاتر بانساب الحمام المستخدم ، ولتمييزه يجعل له من الذهب خلاخيل فى ارجله ، والواح فى اعناقه . وقد كان المســــلمون يستعملون اثنـاء الحروب اصطلاحا اشبه بالشفرة فيما يحمله الحمام من اخبار (١) ؛ حيث كانت تكتب على ورق خفيف يعلق باجنحته . وقد كثرت ابراج الحمام او مطاراته فى عهد المماليك ؛ وكانت القلعة بالقاهرة مركزه ، ومن يشرف عليها يسمى براج .

ولم يكن البريد يقوم فقط بنقل الاخبـــار ومتجددات الاحوال الرسمية ؛ ولكنه يقوم باعمال البوليس السرى ، فعرف بعض رجاله بالعيون ، ورئيسهم بصاحب الخبر (٢) .

*

اما عن شئون المال للخلافة الاسلامية ، فقد ورد فى القـرآن واحكام الشرع ذكر لمصادر المال للأمة الاســلامية الاولى : فالزكاة او الصدقة (٣) ، تؤخذ من المسلمين ، وتعتبر رصـــيدا ماليا للجماعة الاسلامية ، لتنفق فى اوجه متعددة وبخاصة على الفقراء ، وفى سبيل الله لعله الجهاد ، والعشر (٤) جباه عمـــر بن الخطاب على بضائع المسلمين فاعتبر شرعيا ، والفيىء (٥) مال يؤخذ من غير المســلمين من غير قتال ، ويصبح مال الجماعة الاسلامية ، والغنيمة (٦) مـال

---

(١) عماد الدين ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، مصر ١٣٢١ هـ ، ص ١٧٧ .

(٢) الخطط ، ٤ ص ٨٨ س ١٩ .

(٣) القرآن ٩ : ٦٠ ، ٢٢ : ٤ . عنها بالتفصـــيل ، انظر . الاحكام ، ص ٩٨ وما بعدها ؛
Ency, (art Zakât) t4, P. 1270-37.

(٤) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ط بولاق ١٣٠٢ هـ ، ص ٧٦ — ٨٠ ؛ الخطط ، ١ ص ١٦٧ .

(٥) القرآن ٥٩ : ٦ — ٧ ؛ الاحكام ، ص ١١١ — ١١٦ ؛ انظر .
Ency, (art Fai') t2, P. 41-43.

(٦) الاحكام ، ص ١١٦ وما بعدها ؛ الكامل ، ٢ ص ٢٧٣ س ١٣ .

او غيره ، يؤخذ قهرا نتيجة للقتال ، ويأخذ الخليفة منها الخمس ، والجزية (١) ضريبة تفرض على رءوس المسلمين من اهل الكتاب .

ولكن نتيجة لحركة الفتوح وتدفق الأموال على العرب من البلاد التى فتحوها ، لم تعد للضرائب القرآنية او الشرعية المكان الأول فى دخل الخلافة الاسلامية . فهم لم يعودوا مثلا فى حاجة الى الزكاة او الصدقة ، التى كانت من اسباب قيام حروب الردة قبل الفتوح ، وكادت تمزق وحدة الأمة الاسلامية الناشئة (٢) . ولكن اصبحت معظم مصادر الدخل التى قررت ، ماخوذة من التنظيم المالى عند البيزنطيين او غيرهم . كذلك تطورت مصادر الدخل تطورا كبيرا على أيدى المسلمين ، وظهرت مصادر مالية غير معروفة من قبل .

فاصبح دخل الخلافة أول ما يأتى من ضريبة يونانية الأصل تعرف عند المسلمين باسم : الخراج (٣) ، بمعنى الضريبة التى تفرض على اراضى اهالى البلاد المفتوحة . وهذه الضريبة كانت مفروضة من قبل على الأراضى فى الممتلكات البيزنطية والفارسية ، وكان يطلق عليها بطريق التجاوز جزية للدلالة على خضوع اهالى البلاد المفتوحة للعرب . فقد بقيت الأرض فى ملكية اصحابها ، وهو ما يطابق عقيدة الاسلام ، التى تحترم الملكية الخاصة . ولكن منذ ان تحول معظم اهالى البلاد المفتوحة الى الاسلام ؛ فان عمر بن عبد العزيز فرض على الأرض حق ملكية الدولة الرمزى ، واعتبرت ملكيتها لكافة الأمة الاسلامية ـ فيئا ـ التى يمثلها الخليفة (٤) ؛ فالمالك فى هذه الحالة

---

(١) انظر . بعده .

(٢) عنها بتفصيل ، انظر . الكامل ، ٢ ص ٢٣١ وما بعدها ؛ انظر . ماجد . الدولة العربية ، ١ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٣) الأحكام ، ص ١٢٦ وما بعدها ؛ Van Berchem :
La Propriété territoriale et l'impôt fonçier, : .
'Ency, (art Kharâdj) t2, P. 955-6 ‘ Thèse de Leipzig, 1861

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ س ٨ ؛ انظر . Gibb :
The Fiscal rescript of Umar II. Arabica. Jan, 1955, fasc, I. P. 3 ; 8-9 ؛ انظر : واجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٦٤ .

يعتبر منتفعا او مستأجرا . ولكن منذ العباسيين جعلت الأرض فعلا في ملكية الدولة وليست للجماعة .. واصبح للدولة حق الاقطاع فيها (١) ، الذى اعتبر من وسائل الحكم في الدولة الاسلامية ، ولئن كان الاقطاع قد ظهر في الاسلام منذ ايام عمر بن الخطاب نفسه ؛ حينما تركت اراضي كثيرة بدون ملاكها الاصليين . ومع ذلك لم يترتب على هذا الاقطاع الاسلامي عبودية او وراثة للفلاحين واحتكار لكل نشاطهم ، كما وجد في اوربا .

وهذه الضريبة كانت تدفع مالا يحدد كل سنة على الأراضي المزروعة ، وواجبات عينية من حنطة وعسل وزيت وغيرها من منتجات القرية . ومثلما كان في بيزنطة ، فان جمع الضريبة يتم عن طريق الوسطاء من موظفي الدولة . وكان يتوقف تحديد الضريبة على حالة الأرض وخصوبتها ، وبالمساحة التي وجدت ؛ منها انواع مثل : الجريب والقفيز والعشير والذراع والقبضة ، ولا سيما القصبة (٢) ومنذ العباسيين ، وجدت طريقة تسهل جباية الخراج ، وذلك على ان يتزايد عليها ، ويدفع خراجها الضمان او المتقبلون (٣) ، وهو ما عرف بنظام الضمان او القبالات . وحتى الأرض التي كانت تقطع للأشخاص من قبل الدولة لم تكن تعفى من هذه الضريبة .

وعلى العكس بقيت الجزية (٤) ، وهي ضريبة ذكرت في

---

(١) الطبرى ١ : ٢٣٧٦ ؛ مروج ، ط . Paris ، ٤ ص ٢٦٢ ؛ انظر الباز ، الاقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، حوليات كليات الآداب ، ١٩٥٧ ، ص ١١٣ — ١٤٨ .

(٢) الاحكام ، ص ١٣٧ . الجريب عشر قصبات في عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات في قصبة ، والعشير قصبة في قصبة ، والقصبة ستة اذرع بذراع اليد ، والذراع يساوى ست قبضات ، والقبضة اربع اصابع ، وقد غلب على القصبة اسم الحاكمية ، نسبة للخليفة الحاكم الفاطمي . عن ذلك ، انظر . صبح ، ص ٤٤٦ ؛ ماجد ، الحاكم بامر الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٦٣ .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٤) القرآن ٩ : ٢٩ ؛ الاحكام ؛ ص ١٣٧ وما بعدها ؛
Ency. "art Djizya"
I, P. 1082-1083.

القرآن ، يدفعها غير المسلمين على الرءوس ـ كدليل على عزة الاسلام ـ مصدراً يلى الخراج فى دخل الخلافة الاسلامية . وقد كانت الجزية معروفة قبل الاسلام عند البيزنطيين باسم : جماجم وغيرها ، يفرضونها على غير المعتنقين لعقيدتهم ، كما كان الفرس فى بلادهم يأخذونها من اليهود والمسيحيين (١) . ولكن الجزية على يد المسلمين كانت تفرض على اهل الذمة من الرجال البالغين ، دون النساء والأطفال والعجائز والعبيد ورجال الدين ، كما انها قابلة للتعديل بحسب حالة الشخص . أما الذين يتحولون الى الاسلام من أهل الذمة ، فانهم كانوا يعفون منها مباشرة « Ipso facto » . وقد كان تحول كثير من اهالى البلاد المفتوحة الى الاسلام سببا فى ان الجزية لم تعد مصدرا عاما للدخل ؛ بحيث اصبحت تعرف بلفظة : « الجوالى » (٢) ، ولعلها مأخوذة من جالية ؛ مما يدل على أن دافعى الجزية قد قل عددهم .

ولما تضخمت شئون الخلافة وكثرت مطالبها ؛ وضعفت ايراداتها باسلام اهالى البلاد المفتوحة ، ظهرت ضرائب جديدة لا تفرض على الأرض او على الرءوس ، وانما تفرض على الانتاج ، اتخذت أسماء مختلفة منها : « هلالى (٣) » ، بحكم انها تستأدى أى تجبى على البضائع الموجودة فى الأسواق على حكم الشهور الهلالية ، او « المرافق » و « المعاون (٤) » ، لأنها تفرض على جهات معينة مثل المحلات العامة وتجارتها ، وهى اسم آخر للهلالى ، او « السواحل (٥) » ، لأنها تجبى على كل ما فى الساحل من صادر

(١) الخطط ، ١ ص ١٥٩ س ١٠ ؛ انظر .

La Documention, : Cheïra.
papyrologique de l'Epoque arabe. Alex, 1948. cf.
: Menant;
Les Zoroastriens K. M. M. no 10, Oct. 1917. P. 196.

(٢) الخطط ، ١ ص ١٧٣ س ٥ . وهذه اللفظة وجدت فى نظم مصر .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٦٧ س ١٣ ، ٢ ص ١٠٧ س ٢٦ .

(٥) ابن ميسر ، ص ٤٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٩٥ .

ووارد ؛ او « المكوس » مفردها « مكس (١) » ، وهو اسم ظهر بدل الهلالى فى عهد الفاطميين ، وهى فى معناها الضيق تفرض على الصادر والوارد ، وان كانت فى معناها العام تفرض على كل شىء مثل : المراعى ، والمياه ، والمصائد ، والبضائع ، وعبور البضائع (الترانسيت) ، والذبائح ، والرقيق ، وانواع الصناعات كالفاخور والمزر « النبيذ » ، والفقاع « البيرة » ، والبغى من النساء ، والمسجونين ، وحتى الحجيج . ولم يذكر القرآن هذه الضرائب ، كما لم تظهر فى عهد الاسلام الاول ؛ لذلك اعتبرها الفقهاء غير شرعية . وقد كانت موضع شكوى دائمة من سكان دار الاسلام ؛ بحيث كان حكام الاسلام الاتقياء يلغونها . وكما يبدو من قول المقريزى ؛ فان المكوس فى مصر فرضت على كل شىء ما عدا الهواء ، وحده اخلى سبيله ، وبقى حرا .

ويجب ان نذكر فى تنظيم دخل الخلافة انه كان من المفروض ان يجمع الدخل فى بيت المال او فى الخزائن الخاصة ، ولكن المبدا السائد فى التنظيم المالى وقتئذ كان ينص على أن لا تذهب ايرادات الدولة الى الخزائن ، وانما يخصص كل ايراد لنفقة معينة ، اما ما يتبقى منه فهو الذى يجمع فى الخزائن كاحتياطى . وقد كان ربط الدخل والخرج فى شكل ميزانية (٢) ، من الامور الشائعة عند المسلمين ، ويتم بحسب السنة الشمسية ؛ لأن الخراج الذى يكون الجزء الأكبر من الدخل يجمع بحسب السنة الشمسية . ومن الطريف ان نذكر انه ابتداء من القرن الثانى الهجرى ظهر ديوان يشبه ديوان المحاسبة فى وقتنا الحاضر ، يراجع الدخل ويشرف على الصرف ، ويقوم بربط الميزانية ،

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٦٧ وما بعدها ، ٣ ص ١٩٦ وما بعدها ؛ المقدمة ، ص ٢٢٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ١١٧ ــ ١١٨ ؛
Ency (art Maks) t3, P. 187-188.

(٢) الخطط ، ١ ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .

وهو ديوان الزمام فى الدولة العباسية (١) ، وديوان التحقيق فى الدولة الفاطمية (٢) .

واخيرا نذكر انه وان كان هم الدولة الاسلامية فى العصور الوسطى الصرف على الجيش والاماكن الدينية لطبيعة هذه العصور الحربية والدينية ؛ فانها كانت تصرف ايضا على المشروعات العامة كالجسور والقنوات (٣) ، وحتى على التصنيع ، ولا سيما صناعة النسيج (٤) .

●

ولا ندحة لنا ونحن نتكلم عن المال ان نعرف شيئا عن نظام العملة الاسلامية . فهذه العملة لم تكن فى اول امرها عربية ؛ لان العرب المسلمين حينما فتحوا البلدان لم يكونوا يعرفون صناعة العملة . وفى اول الامر ، فقد ابقوا على العملة السائدة في التداول دون تغيير ، وهى العملة البيزنطية والفارسية وحتى اليمنية القديمة . فبقيت صورة الصليب منقوشة على الاول ، وصورة بيت النار منقوشة على الثانية ؛ وان قيل ان عمر بن الخطاب نقش على هذه العملة ذاتها العقيدة الاسلامية ، وكلمة جائز ، للدلالة على قبول الدولة الاسلامية لها . ولم تعرف عملة عربية صرفة الا فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان ، الذى قدر تمام التقدير ان العملة بالاضافة الى قيمتها الاقتصادية ، وسيلة للاعلان عن سيادة الدولة الاسلامية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية ، فضلا عن انها اعلان لشرعية حكم الخليفة بنقش اسمه عليها ؛ لذلك امر عبد الملك بتعريب العملة كجزء من سياسة عامة لتعريب كل اجهزة الدولة الاسلامية . وقد اخذت العملة التى صنعها العرب اسم : « السكة (٥) » ، وهى كلمة على حسب قول

---

(١) اوردها حسن وعلى ابراهيم فى : النظم الاسلامية ، القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م ، ص ٢٢٢ ــ ٣ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

(٣) مثلا : الخطط ، ١ ص ١٦٤ .

(٤) انظر : بعده .

(٥) أحكام ، ص ١٣٨ ــ ١٤٠ ؛ المقدمة ، ص ٢٠٦ وما بعدها ؛ =

ابن خلدون تدل على خاتم الحديد ، الذى تطبع عليه العملة وتضرب بالمطرقة . ولذا فان لفظة السكة اطلقت على العملة وعلى الدار التى تصنع فيها ؛ فسميت دار السكة ، وايضا دار الضرب . ولم تعد الدولة الاسلامية تكتفى بدار سكة واحدة فى العاصمة ، وانما بدور للسكة متعددة فى جميع اقاليمها ، حتى ان لفظة السكة انتقلت بعد ذلك الى اللغات الأخرى .

وقد كانت السكة تتكون من نظام نقدى ثنائى ، كما كانت فى عهد البيزنطيين والفرس . فاستعملت الدينار الذهبى ، وهو لاتينى الأصل : « Denarius » والدرهم الفضى (١) ، ولعله الدرخمة اليونانية : « Drachmos » ، او أن أصله فارسى معرب . وبجانب هذا النقد الثنائى ، عرفت دول الاسلام عملات صغيرة تسمى مكسور ، عبارة عن اجزاء من الدينار والدرهم ، مثل : القطع والدانق ـ جمعها دوانيق ـ والمثقال . ولما أحست دول الاسلام فى القرن الرابع الهجرى بازمة فى السكة الذهبية والفضية ، استخدمت عملة من نحاس او من نحاس مخلوط بفضة ، أطلق عليها فلوس ـ مفردها فلس ـ ويبدو أن أصل هذه لا تينى من « Follis » (٢)؛ لتدل على عملة نحاسية خفيفة ، كما اطلق عليها أيضا : القراطيس (٣) ، ربما لأنها كانت تسك ملفوفة على شكل القرطاس . فهذه الأسماء التى استعملها المسلمون للدلالة على فئات عملتهم ، يبدو أن بعضها كان قديما جدا ،

= Catalogue des monnaies musulmanes, contiué par : Lavoix Cazanova. 3 Vols. Paris, 1887-1891 ؛ انستاس الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ؛ Ency. (art Dinâr) tl, P. 1002- 3 ; (art Dirhem) tl, P. 1005-6.

(١) المعاملة بالفضة تسمى أيضا الورق . الخطط ، ١ ص ١٧٧ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 797.

(٢) مثلا : المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٤١ ، ١/٢ ص ٩٧ ؛ أنظر . Ency. (art Fals) t2, P. 50

(٣) نفسه ، ١/٢ ص ٢٠٥ س ١٠ ـ ١٦ . وهو ستة فلوس .

وان بيزنطة نفسها لم تكن تستعملها وقتذاك ، التى عرفنا اسماء اخرى لعملتها (١) .

وقد كانت مقادير العملة يحددها الخليفة ؛ وان كانت العلاقة بينها تتوقف على قيمتها في التداول ، ومدى ما تتعرض له من تذبذب من آن لآخر ، ويجب ان نذكر ان العملة الاســـلامية كانت توزن ؛ الا انه لما ظهرت الفلوس ؛ فانها كانت تعد او توزن (٢) . وكان لكثرة ماسك من العملة باسماء الخلفاء ، وبخاصة حينما تعددت دول الاسلام ، ان ظهرت طائفة عرفت بالصيارفة لتسهيل الصفقات المالية ، وتحـــويل العملات وفئاتها . ولما كان الدين الاسلامى يمنع المسلمين من الاشتغال بالربا (٣) ـ اى الفائدة ـ فان معظم اعمال الصيرفة كانت فى ايدى النصارى واليهود . وقد ظهرت تعابير مالية ، تدل على قيام المصـــارف « البنوك » فى الدولة الاسلامية ، مثل (٤) : صفتاجة وصك ورقعـــة وخط وحوالة ، كلها تدل على اذن الصرف « شيك » . فقد كان من الممكن ان يكتب تاجر فى اسوان صكا لتاجر آخـــر فى عيذاب (٥) ، فيستطيع هذا التاجر ان يحصل على المـال بمقتضـــاه ؛ فمن دولة الاسلام انتقل نظام البنوك .

*

---

(١) كانت عملة بيزنطة تسمى : Bezant أو Byzant او Miliaressia او Phollis ـ لعلها الفلس ـ انظر . أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب مصطفى بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٢١٠ ؛ أيضا ، انظر ، Sabatier :

Description générale des monnaies byzantines. Paris, 1852.

(٢) السلوك ، ١/٢ ص ٢٠٦ .

(٣) صور الاسلام من يأخذ الربا بالشيطان . القرآن ٢ : ٢٧٥ .

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٥٦ ؛ الجرجانى ، كتاب التعريف ؛ انظر ، Fischel :

The origin of Banking in the mediaeval Islam ، J. R. A. S. April 1933.

L'infiuence de l,Islam au Moyen Age : Massignon ; sur la fondation et l'essor des banques juives. B. O. Paris.

(٥) ناصر خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م ، ص ٧٤ .

أما عن الادارة المحلية ، فانها تشمل ادارة اقاليم الخلافة التى فتحها المسلمون . وكان المشرفون عليها فى أول الأمر يسمون : الأمير اى قائد الجند ، وأيضا : عامل الخليفة أو العامل فقط (١) . فكان الأمير او العامل فى اول الأمر يقوم بكل شىء ؛ وان تحددت اختصاصاته بعد ذلك ؛ فاصبح موظفون آخرون يعينهم الخليفة من قبله ؛ يقومون باعمال المال والقضاء .

وقد وضع الفقهاء نظما لحكم اقاليم الخلافة (٢) ؛ فجعلوها اما امارة عامة يدخل فيها القضاء والمال ، واما امارة خاصة لا يدخل فيها القضاء والمال . كذلك ظهر منذ العباسيين ما يعرف بامارة الاستكفاء ، ومن يقوم بها يسمى بالأمير المستكفى ، وهو أن يدين بالطاعة للخليفة ، وما يعرف بامارة الاستيلاء ، ومن يقوم بها يسمى بالأمير المسئول ، وهو ان يستاثر بالاقليم لنفسه بالقوة ، وان يكون تقليده من قبل الخليفة تقليدا صوريا ؛ بحيث شبه الأمير المستكفى بوزير التنفيذ ، والأمير المسئول بوزير التفويض .

وفى القرن الرابع الهجرى كان عامل الخليفة يغلب عليه اسم « الوالى (٣) » جمعها « الولاة » ، وهى كلمة تدل على من يمثل السلطة التنفيذية فى احدى الولايات ، ويقوم بحفظ الأمن ؛ إذ لم يعد عمل الوالى كما كان الحال من قبل ، أن يقود الجند ، وان يقوم بالصلاة والقضاء وغير ذلك ؛ ولكن اصبح عمله القيام باعمال البوليس ، وبجانبه موظفون آخرون يشرفون على امور الادارة الأخرى ، ويخضعون لرؤسائهم فى العاصمة .

تلك خلاصة التنظيم الادارى وتطوره ، الذى يميز دولاب الحكم فى الدولة الاسلامية .

**

(١) الكامل ، ٣ ص ١٥ — ١٦ .

(٢) الأحكام ، ص ٢٤ — ٢٩ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٣٠ وما بعدها .

وعلى عكس النظام الادارى ، الذى كان يشرف عليه الوزير فى الغالب ؛ فان الخلفاء أخذوا على عاتقهم الاشراف على النظام القضائى اقتداء بالرسول ، الذى كان ينظر فى مشاكل المسلمين بنفسه ؛ ولا سيما أن السلطة التنفيذية والقضائية فى الاسلام ؛ لم تكن مميزة احداهما عن الأخرى . وبسبب انشغال الخلفاء بالفتوح والسياسة ؛ فانهم منذ عمر بن الخطاب فوضوا فى القضاء ، وعينوا فى الأقاليم القضاة(١) . ومع ذلك ؛ فلم يظهر لقب قاضى القضاة الا فى عهد العباسيين زمن هرون الرشيد(٢) ، وهو الذى يتبعه بقية القضاة فى دار الاسلام . ولما لم يكن فى ارض الاسلام غير خليفة واحد فى بغداد ، كذلك كان لا يوجد الا قاضى قضاة واحد ، يكون مقره ببغداد ايضا ، ولكن تعدد الخلفاء ، جر الى وجود اكثر من قاضى قضاة فى عدة عواصم (٣) . بل وجدنا فى مصر زمن المماليك ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضى قضاة (٤) ، يكون حكمه هو والقضاة من أتباعه على مذهبه .

وكانت سلطة القاضى لا تمتد الى اعمال قضائية صرفة فقط ، وانما أيضا الى أمور دينية ليس لها علاقة بالقضاء ، ولكن ضمت الى نظر القاضى بسبب معرفته بالضرورة للشرع الاسلامى ، واصبحت مقررة فى سلطته على حسب ما عرف : « بالعرف والاصطلاح »(٥) . فكانت اعماله الاضافية تتكون غالبا من الصلاة والخطابة فى الجوامع ، والاشراف على الاماكن الدينية ، والاشراف على أموال الغائبين

---

(١) المقدمة ، ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .

(٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، مصر ١٣٢٢ / ١٩٠٤ ، ٢ ص ٣١٢ ؛ انظر . حسن وعلى ابراهيم ، النظم الاسلامية ، ص ٣٣٦ .

(٣) الكندى ، الولاة والقضاه ، تحقيق Guest ، London ١٩١٢ ، ص ٥٩٠ س ٢٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ٢ ص ٩١ س ٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٤) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ ؛ ابن اياس ، ١ ص ١٠٣ .

(٥) المقدمة ، ص ١٧٥ ؛ الاحكام ، ص ٥٨ ـ ٦٠ ؛ ولاة ، ص ٥٨٩ ؛ انظر .
Tyan : Hist, de l'org Jud. en pays d'Islam, P. 12 sqq,
بعضهم كان يشغل خمس عشرة وظيفة . حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٠٠ س ٢١ .

والمفقودين ، والقيام فى الذهب والفضة والمكاييل ، وولاية الحـج ، واخذ البيعه للخليفة ، ومصاحبة الجيش فى الحروب .

وقد كان تضخم اعمـال القاضى سببا فى ان اتخذ له نوابا او مساعدين فى وظيفته الاصلية فى القضاء او ما ينضاف اليها ؛ وهـو لا يتخذهم فقط فى العاصمة التى هى مقره ، وانمـا فى بقية الأقاليم ؛ حيث يعرفون : بنواب الحكم (١) . وفى زمـن الفاطميين فى مصر ، وجدنا ان نائب قاضى القضاة يستنيب هو الآخر (٢) . ومن ناحيـة اخرى ، اتخذ القاضى الشهود ليعاونوه فى عمله القضـائى الصرف ؛ وذلك لان اساس الحكم فى الاسلام هو البينة اى الشهادة . ولمـا كان من المستحيل على القاضى ان يختار بنفسه شهوداً لكل قضية تعرض امامه ، فانه كان يختار بنفسه بعضهم ممن اختصوا بالامانة والتفقه فى الدين . فكان الشهود المختارون يسمون الشهود العـدول (٣) ، جمع شاهد عدل ، اى انه لا يشك فى ذمتهم . وكان القاضى لا يفتأ يراقب تصرفاتهم ، ويعاقب من يسىء منهم بالزامه بغرم ثقيل او يعزله او يسجنه . وكان الشهود العدول فى القرن الرابع الهجرى طائفة هامة اشبه بنقابة ، يتراوح عددها بين ثلاثين الى الف وخمسمائة (٤) ، لها رئيس يسمى : وجه الشهود او مقدم الشهود (٥) ، وهم يكونون بطانة القاضى ، ويدلون على هيبته .

وكان المكان الذى يجتمع فيه القاضى بالخصوم يعرف باسـم : مجلس الحكم (٦) ، وهو لا يعقد فى بناء خاص كمـا فى وقتنـا

(١) ولاة ، ص ٥٩٠ س ٧ .

(٢) نفسه ، ص ٦٠٤ س ١٤ ـ ١٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٤٦ .

(٣) المقدمة ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ؛ صبح ١٠ ص ٣٨٧ ؛ انظر : Tyan : Le notoriat et le régime de la preuve par écrit, dans la pratique du droit musulman, Beyfouth, 1945.

اول اتخاذهم فى مصر ، كان فى عهد هارون الرشيد . الولاة ، ص ٣٩٤ .

(٤) ولاة ، ص ٥٩٣ س ٤ ، ص ٦١٢ س ٢٢ .

(٥) نفسه ، ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ س ٢٣ .

(٦) نفسه ، ص ٦٠٤ س ١٣ ، ٦١٠ س ٢١ .

الحاضر ؛ وانما فى مسجد العاصمة الكبيرة ، حيث ان المساجد وقتئذ لم تكن تقتصر على اداء الصلاة ، وانما ايضا كانت مكانا للفصل فى امور الناس او تعليمهم ، او حتى تصريف الأمور التجارية . ولما تعددت المساجد الكبيرة فى العاصمة وفى غيرها من المدن ، نجد القضـــاة يزاولون عملهم فى كل مكان ، كما أصبح القاضى يفصل فى امـــور الناس وهو فى داره (١) . كذلك كان المكان الذى يجتمع فيه القاضى بالخصوم فى المسجد يتغير على حسب فصـــول السنة (٢) : ففى أوان الشتاء يجلس فى المقصورة (٣) ، وهى مـمكان فى المسجـــد بجانب المنبر ؛ كان قد خصص فى العصر الأموى لحماية الخليفة او للمشاورة ؛ وفى الصيف يجلس القاضى عند الشباك .

وكان مجلس الحكم يعقد علنا فى ايام محددة (٤) ؛ ويتكـــون عادة من : القاضى ، والشهود العدول ، والموقعين الذين يكتبـــون ما يدور فى الجلسة ، والحجاب الذين يدخلـون المتخاصمين ؛ واحيانا من موظف خاص يقوم بتنفيذ ما يصدره القاضى من الاحكام يعـرف بصاحب الشرطة . وكان الخصـــوم يظهرون بمفردهم او بواســطة وكلاء ــ مفردها وكيل ــ حيث يصفهم احد المؤرخين بأنهم لا خـير فيهم لأنهم يأخذون من الخصمين (٥) .

وقد كان جلوس القاضى فى أول الأمر بسيطا ، ولكن منـــذ القرن الرابع الهجرى نجده يصحب برسوم كثيرة . فكان القاضى يجلس فى وسط المجلس ، وقد تزيا بالسواد ان كان سنيا ، وبالبياض ان كان شيعيا ، ووضع على منكبيه الطيلسان زى القضـاة (٦) ، الذى هو عبارة عن طرحة ، وعقد بوسطه سيفا . ويكون جلوســـه على

(١) نفسه ، ص ٥٨٩ س ٣٣ ، ٥٩٤ س ٢٤ ، ٦٠٤ س ٦٠ .

(٢) نفسه ، ص ٥٩٠ س ١٣ ــ ١٤ .

(٣) المقدمة ، ص ٢١٢ ؛ انظر . بعده .

(٤) عن ذلك ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٢٤٦ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٧ .

(٥) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق الباز ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١٥ .

(٦) انظر . بعده .

مخدة ، وخلفه مسند ، وامامه كرسى او قمطر توضع عليـه الدواة .
وكان الشهود العدول يجلسون حول القاضى عن يمينه وعن يساره ،
كما يجلس الموقعون للكتابة ؛ اما الحجاب فيقفون عند البـــاب ،
ومعهم صاحب الشرطة .

وليس لدينا للاسف معلومات كافية عن سير اجراءات القضاء
فى مجلس الحكم ؛ وان كانت ـ ولا ريب ـ لا تختلف فى المعاملات
عنها فى الجرائم (١) ؛ فالقضاء الاسلامى منذ عهده الاول كان موحدا .
ولما تعدد مجلس الحكم ـ كما حدث فى عهد الفاطميين فى مصر ـ
ثار الاختلاف بين الناس ؛ فكان كل خصم يعمل على انفاذ خصومه
امام القاضى الذى يختاره ، مما جعل الدولة الفاطمية تلغى هـذا
التعدد ، وتعود الى توحيد مجلس الحـــكم فى المكان الواحد (٢) .
وكانت القضايا التى تعرض على المجلس متنوعة : جنائية ، وقضايا
اخرى كالسرقة وشرب الخمر والحجر على الممنوعين من التصرف
لو الجنون او السـفه او العته ، وقضايا الأسرة ومشـاكلها من قضـايا
الاحوال الشـــخصية « Status personnels » ، من زنا ومواريث
ومداينات ووصايا ومناكحات وطلاق وغيرها .

وقد كان كل ما يدور فى الجلسة يسجل ، فنسمع بارشـــيف
قضائى يسمى : سجلات الحكام او دواوين الحكم (٣) ، وهذه كانت
توضع عند القاضى فى منزله ، ولكن فيما بعد اصبح يحتفظ بها فى
المسجد . وقد كان انشاء هذه السجلات يقتضى ـ ولا ريب ـ صيغة
خاصة نجهلها ؛ وان جرى العرف فى كتابتها على ان يذكر القاضى
اسمه ولقبه وتوابع وظيفته (٤) . وبطبيعة الحال كان الحـــكم فى
القضايا يسير وفق القرآن والسنة ؛ ولكن كان للقاضى ايضـــا ان يفسر

(١) انظر . Fyzee :
Law and Culture in Islam, Isl. Cult, Oct. 1934, 17, No. (4), P. 424.

(٢) الولاة ، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥ و ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ؛ انظر . نظم الفاطميين ،
١ ص ١٥٠ .

(٣) الولاة ، ص ٥٨٨ ، ٥٩٠ س ٣ ، ٦١٢ س ١٦ .

(٤) نفسه ، ص ٥٨٧ ، ٥٩٩ ـ ٦٠٠ .

النصوص القرآنية والسنة حسب اجتهاده ، وهو ما عرف بالسياسة الشرعية ، ولا سيما قبل ظهور المذاهب . ولكن الشيعة ترى ان تفسير الشرع من اختصاص الامام الشيعى وحده (١) ، وان صرح الامـــام لغيره ؛ فعلى اساس انه مجتهد مقيد . كذلك اذا ظهر ضعف القاضى فى الناحيـة الفقهية ، ظهـــر منصب المفتى (٢) ، على انـــه من المتفقهين فى الدين . واحيانا كان الشهود يشتركون فى مجلس الحكم بالادلاء بآرائهم (٣) ، ولكن اقوالهم غير ملزمـــة ؛ لأن القاضى هو وحده الذى يتحمل مسئولية الفصل فى القضايا والنطق بالحكم الذى ليس له استئناف . والواقع ان الحكم فى القضايا ، فى الاسلام ، هو اشبه بالتحكيم ، وليس كما هو فى وقتنا تتبع للحالة من أصلها وتعرف حقيقتها .

ونظرا لأهمية منصب القاضى فى الدولة الاسلامية ، فانه كان يختار بعناية ، واهم ما يشترط فيه حبه للانصاف والعدالة ، ومعرفته بالفقه واحكام الدين ، وانه غير فاسق . ولذلك اصبح لمنصب القاضى شروط معينة نص عليها فى كتب الفقه ، مثل كتاب الاحكام السلطانية للماوردى (٤) . فكان منصب القاضى فى الاسلام تتولاه اسر معينـة تهتم بالشرع وعلومه ، او تؤلف فيه ، مثل : بنو النعمان والفارقى زمن الفاطميين (٥) ، وبنو جماعة والسبكى زمـــن المماليك (٦) ،

(١) تاج العقائد ، ص ٤٧ ؛ انظر . ماجد . نظم الفاطميين ، ١ ص ١٥٢ .

(٢) صبح ، ٤ ص ٤٥ ؛ الخطط ، ٣ ص ٢٤٠ س ٣ ؛ انظر .
Ency. (art Fatwa) t2, P. 98 ; Org, Jud I., P. 158 ; 323 sqq : Tyan

(٣) الولاة ، ص ٥٨٨ .

(٤) الاحكام ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٥) الولاة ، ص ٥٨٦ وما بعده ؛ انظر . Gottheil :
A distinguished family of fatimid Cadis in the tenth Century. J. A. O. S. 1906. S, 217 sqq.

(٦) عنهم ، انظر . السبكى ، طبقات الشـــافعية ، ٥ ص ٤٦ – ٤٧ ؛
Salibi :
The Banû Jama'a of Shâfi'ite Jurists. Stvdia Islamica IX, Paris, 1958. P. 97 sqq.
Ency. (art al-Subki) t4, P. 516-518 ; (art Ibn Djamâ'a t2, P. 393-4.

وبنو ابى البردة فى فارس ، واسرة ابى الشوارب فى بغــداد (١) . بل وجدنا من الفقهاء من يحجمون عن تولى منصب القضاء خوفا من المسئولية ؛ وليس ادل على ذلك من رفض الامام ابى حنيفة لمنصب القضاء ، رغم تهديد الخليفة المنصور العباسى بسجنه (٢) .

ولكى تاخذ العدالة سبيلها ؛ كان القاضى يتسلم مرتبا كبيرا (٣) ، ويمنع من اخذ الهدايا . وفى القرن الرابع الهجرى ، كانت له القاب رنانة اهمها لفظة : سيدنا (٤) . وكان اذا حضر مع الملــوك والحكام تكون له الصدارة ، بحكم منصبه الدينى ؛ وهو لا يظهر فى المجتمعات الا محاطا ببطانة من الشهود . كذلك كان موكب القاضى فى مصر ايام الفاطميين تصحبه الاعلام والطبول ؛ ان ولى الدعوة ايضــا . وقــد عرفت بغلة القاضى على انها شهباء ، ولا يســمح لاى موظف آخــر باتخاذ بغلة مشابهة (٥) .

ولما كانت دار الاسلام تشتمل ايضا على اهل الذمة ؛ فان الحكم الاسلامى اهتم بتنظيم القضاء لهم . ففى العصر الاسلامى الاول ، كان رجال الدين منهم يتولون القضاء لهم ، ولا يتدخل فيه قضاة المسلمين ، اذ اجاز الفقهاء تقليد الذمى القضاء لاهل الذمة (٦) . ولدينا تقاليد لقضاة الذمة اوردها القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ، مما يدل على ان سلطتهم كانت باذن من الخليفة (٧) . وفى الأندلس ـ لكثرة ما فيها من اهل الذمة ـ خصص المسلمون لهم قاضيا منهم يعرف باسم : قاضى

---

(١) انظر . متز ، الحضارة الاسلامية ، ترجمة ، ١ ص ٢٢٢ . نقلا عن مخطوطات وغيرها .

(٢) عنه ، انظر . ابن خلكان ، وفيات ، مصر ١٢٩٩ هـ ، ٣ ص ٧٤ ـ ٧٥ ؛ انظر . بعده .

(٣) صبح ، ٣ ص ٥٢٦ ؛ الولاة ، ص ٥٩٧ س ٣ ـ ٥ .

(٤) الولاة ، ص ٥٩٤ س ٨ .

(٥) الخطط ، ٢ ص ٢٤٦ .

(٦) الأحكام ، ص ٥٤ س ١ ؛ انظر . Fattal : Comment les dhimmis étaient jugés en terre d'Islam. Cahier Série III Fasc 4, Mai, 1951, P. 321 sqq.

(٧) مثلا . صبح ، ١١ ص ٤٠٢ وما بعدها ، ١٢ ص ٣٢٣ وما بعدها .

النصارى او قاضى العجم (١) ؛ اذ ان كلمة القاضى « Alcalde » دخلت فى لغات اسبانيا . ولكن اذا حدث نزاع بين مسلم وذمى ؛ فان قضاة المسلمين هم الذين يحكمون بينهم (٢) . وفى هذه الحالة لا يسمح للذمى بدخول المسجد ، وانما يبقى على السلم ؛ وان ادخل المسجد بعد ذلك ، فعلى الاقل بعد ان يتطهر . كذلك كان القضاة يقبلون شهادة النصارى على النصارى ، واليهود على اليهود (٣) ، ولا يقبلونها منهم على المسلم .

●

وبسبب تضخم ظروف الحياة فى الخلافة الاسلامية ظهرت الى جانب وظيفة القاضى عدة وظائف قضائية ودينية اخرى منها : نظر المظالم والحسبة والشرطة ؛ وكل منها تطور وظهرت له اختصاصات معينة . وقد اصبح نظر المظالم (٤) منصبا قضائيا هاما ، يعنى منع الظلم عن الرعية ، فمظالم مفردها مظلمة او ظلامه ، بمعنى انتهاك حق فرد ، وهو تعبير اصطلاحى يدل على الظلم ، الذى ياتى من التعدى او الفساد فى الدواوين المركزية او الادارة المحلية . ولما كان القاضى يعجز عن النظر فيه لتناوله جهاز الحكم ؛ فان الذى كان ينظر فيه هو الخليفة او من ينوب عنه من كبار رجال الدولة .

---

(١) النباهى ، تاريخ قضاة الاندلس ، نشر Lévi-Provençal ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١ ؛ حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٤٩ ، ٤٤٢ .

(٢) الولاة ، ص ٣٥١ ، ٣٩٠ .

(٣) نفسه ، ص ٣٥١ ؛ انظر . ترتون ؛ أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حبشى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٠٨ .

(٤) الاحكام ، ص ٦٤ وما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٢٤ – ٢٤٥ ، ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها ؛

The Mazalim Jurisdiction in the Ahkam Sultaniyya of, : Amedroz ، Org. jud, 2, P. 141 sqq. : Tyan ; Mawardi, J. R. A. S. July, 1911 Ency. (art Nazir al - Mazâlim) t3, P. 452-5.

؛ ماجد ، نظام الفاطميين ، ١ ص ١٥٥ وما بعدها .

وهذا النوع من القضـــاء يرجع فى اصـــله الى ملوك الفرس الساسنيين ، الذين كانوا اول من مارسوه . وقد ترجع فكرته ايضا ، الى اصل عربى قديم ؛ فقد تعاون القرشيون من قبل على رد حقـوق المظلومين ، وعقدوا حلفا سموه حلف الفضول . ولكن رد المظالم لم يظهر رسميا فى الخلافة الاسلامية الا فى عهد الأمويين ؛ فكان عبد الملك ابن مروان اول من افرد له يوما . وقد استمرت المظالم ترفع راســا الى الخليفة حتى عهد العباسيين ، الذين اصبحوا ينتدبون فيه ؛ فكان من ينوب عن الخليفة يعرف : بقاضى المظالم او صحاب المظالم . ولم يكن هذا المنصب بالضرورة وقفا على القاضى ، وان كان من الطبيعى أن يدعى اليه بسبب معارفه القانونيـــة ؛ وان كان من الممكن ايضا أن ينوب عن الخليفة اى موظف آخر ، اشترط له الفقهاء أن يكون عظيم الهيبة ، عالى اليد ، له سطوة الحماة ، حتى يستطيع ان يوقف الفساد فى الدولة . لذلك كثيرا ما كان يقوم بهذا القضاء الوزراء اذا لم يقم به الخليفة بنفسه ، وخاصة وزراء السيف .

وقد كان مقر نظر المظالم بالضرورة هو مقر الخليفة فى العاصمة او صاحب السلطة العليا ، ويكون عادة بقصره ، وربما يكون عند سيره فى المواكب ايضا . فمثلا نظر المظالم فى عهد خلفاء الفاطميين ؛ كان بمكان خاص فى قصرهم يعرف : بباب الذهب ، وفى عهد المماليك فى مكان بالقلعة اسمه الايوان او دار العدل - وكان الجلوس للمظالم يحاط بهيبة خاصة ؛ فيتكون من جملة موظفين منهم : ممثلون لجميع فروع جهاز الدولة من القضاة والشهود وكبار كتاب التراسل وشئون المـــال وقواد الجيش والأسطول ، وايضا ممثلون للقصر . فتميز فى العصر الفاطمى كاتبين من كبار كتاب القصر يشـتركون فى هـــذا النوع من القضاء ، ويسجلان ما يتخذ فيه من قرارات ، احدهما يسمى : « صاحب القلم الدقيق » والآخر : « صاحب القلم الجليل » .

اما المتظلمون ؛ فان اغلبهم من بسطاء الناس ، ومن النســـاء المستضعفات ، ومن اهل الذمة ، الذين ياتون من نواحى بعيدة خارج

العاصـــمة (١) . وقــد كان اغلب التظلم من الاشتطاط فى جميع الضرائب ، او من الجزية التى لم تسقط عمن اسلم ، او من منع بناء الكنائس ، او من سوء معاملة الموظفين للاهالى . فكان المتظلمون يقدمون مظالمهم كتابة ، وهو ما عرف باسم : قصة او رقعة او مخاصمة او شكوى او مظلمة او ظلامة . فتعرض الشكاوى على مجلس المظالم ، الذى لم يكن من الضرورى أن فى حكمه على البينة كما فى القضـــاء العادى ، وانما بايسر الاشياء .

وكانت الشكاوى بعد عرضها ، لابد ان تمر فى ديوان التراسل ؛ لان هذا الديوان مكلف باصدار الأمر للتنفيذ . فكان فى هـذا الديوان موظف خاص يوقع بعــلامة الخليفة للتنفيذ ، يســـمى : موقـــع القصص (٢) . وقد كان الخليفة يطلع احيانا بنفسه على الشكاوى ، ويكتب عليها بعض الكلمات . ومع تعقيد اجراءات المظالم ؛ فانه لم يكن يتخذ دائما فيها قرار حاسم . ففى مصر ، كانت اغلب الشكاوى كمـا يقول ابن الصيرفى فى كتـــابه : قانون ديوان الرســـائل ، ترد الى اصحابها ، وقد كتب عليها : يقدم من جديد ، او ليس من وسـيلة ؛ وكانت هـذه الأخيرة الغالبة فى الاجـابة . ومن ناحية اخرى نظـرا لاهمية هذا النوع من القضاء ؛ فانه كان ينسخ احكاما صدرت من قبل، ويوجد احكاما اخرى جديدة .

●

اما الحسبة ، ومن يقوم بها يسمى المحتسب ؛ فهى لم تكن منصبا قضائيا بالمعنى الدقيق لنظر المظالم او القضاء العادى ؛ وانما منصب دينى خلقى ، اساسه الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه (٣) ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله ؛ حيث ورد ذكره فى القران : (ولتكن منكم امـــة يدعون الى الخير ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٣ : ١٠٤) .

---

(١) انظر . Code, p. 114.

(٢) انظر . Beitrage, P. 27 : Biorkman ; Ibid, P. 112-115.

(٣) المقدمة ، ص ١٧٨ ؛ الاحكام ، ص ٢٠٨ وما بعدها ؛ ابن تيميـــة ، الحسبة فى الاسلام ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، انظر :

Ency. (art Hisba) t2, P. 337; (art Mouhtasib) t3, P. 751.

؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٦١ وما بعدها .

ولكن الحسبة تعدت المعنى الديني الخلقي في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى واجبات عملية مادية ؛ تتفق مع المصالح العامة للمسلمين . وفي رأي الفقهاء أن الحسبة اعتبرت أشبه بخدمة اجتماعية واقتصادية لسكان المدن ، حيث نلمس فيها بذرة النظام البلدي الحالي . لذلك ؛ فهي كوظيفة ثابتة من الراجح انها لم تظهر الا في نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي (١) ؛ حينما انتظمت احوال المدن الاسلامية .

فمن ناحية ، تناولت الحسبة أمورا اجتماعية متعددة مثل (٢) : المحافظة على النظافة في الطرق ، والرافة بالحيوان بأن لا يحمل مالا يطيق ، ورعاية الصحة بتغطية الروايا ، ومنع معلمي الصبيان من ضرب الأطفال ضربا مبرحا ، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر وتبرج النساء ؛ وبعبارة عامة كل يتعلق بالمجتمع واخلاقه ، والظهور فيه بالمظهر اللائق .

ومن ناحية اخرى ، أصبح عمل الحسبة الأساسي اقتصاديا لتضخم المدن الاسلامية بارباب الحرف والتجارات . فكان عمل المحتسب الأساسي منع الغش في الصناعة والمعاملات ؛ وبخاصة الاشراف على الموازين والمكاييل وصحتها ونسبها (٣) ؛ وهي التي عرف منها المسلمون انواعا ، مثل : القنطار والرطل والأوقية والنص والنواة والدرهم والدانق والقفيز والصاع والمكوك والكارة والتليس والمد . ولم تكن التسعيرة — كما في وقتنا — على المواد والبضائع ضرورة في ذلك الوقت ؛ وذلك لأن الاسلام ضد التسعير ؛ فأحل البيع بما فيه من

(١) أورد هذا الرأي الباز في مقالته : كتاب عن الحسبة في بيزنطة ، فصلة من مجلة كلية آداب القاهرة ، المجلد ١٩ ، ١٩٥٧ ، ص ١٣٥ . نقله من مقدمة Robin ، محقق كتاب ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، طبعة Cambridge ، ١٩٣٨ ، ص ٥ .

(٢) مثلا : الخطط ، ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٣) الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق الباز ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ ، ص ١٨ — ٢٠ ؛ انظر Sauvaire :
Matériaux Pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmanes, Paris, 1882.

مساومة ؛ فضلا عن انه لم يكن هناك حاجة الى التسعير ؛ فقد كان التنافس المستمر لاصحاب الصنف الواحد او الحرفة الواحدة (١) ، يؤدى الى خفض الاسعار وتثبيتها . وجميع ما ظهر من كتب الحسبة يشير الى اهمية دور المحتسب الاقتصادي ؛ بحيث كان يستعين فيه بالخبراء ، الذين يختارون من بين ارباب الصناعات والتجارة ، وهم الذين سموا بالعرفاء جمع عريف (٢) .

وقد كان للمحتسب سلطة تنفيذية مفوضة الى رايه ، وهو ما عرف بالتعزير ؛ الذى هو نوع من العقاب لم يقرره القرآن ، وان اتفق عليه فى معظم البلاد الاسلامية ؛ فكان يستعين فى تنفيذه : بالاعوان (٣) . فمنه : الردع بالقضاء على شيء محرم ، والتوبيخ بالقول او الضرب بالسوط المتوسط الغلظ ، او بالدرة وهى من جلد البقر او الجمل ، والنفى من البلد ، والتشهير او التجريس ، بانه يلبس المشهر به طرطورا من اللبد منقوشا بالخرق الملونة ، ومكللا بالودع والاجراس (٤) ، ليطوف به فى الشوارع . فمثلا فى مصر ايام الفاطميين ، كان اذا كذب احد التجار على احد المشترين ، او باع باكثر من الثمن ، فانه يدفع بالتاجر على جمل ، ويعطى جرسا بيده، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس ويقول : « قد كذبت وها انا اعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب (٥) » .

أما الشرطة (٦) ، فهى وظيفة ظهرت فى عهد الامويين اوجدها معاوية ، لتقوم بحراسته وقت الصلاة ؛ او انها تكون اداة فى يد عماله

---

(١) من هذه ، انظر . المقريزى ، اغاثة الامة ، ط ٢ ص ١٩ ؛ ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٢٩ وما بعدها .

(٢) نهاية الرتبة ، ص ١٢ .

(٣) اغاثة ، ص ١٩ .

(٤) نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .

(٥) سفر نامه ، ص ٦١ .

(٦) المقدمة ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ؛ انظر .

Ency, (art Shurta) 14, P. 408.

لتنفيذ سياسته (١) ؛ فكان اول من عملها في الاسلام ؛ وربما يكون اخذها عن البيزنطيين من نظامهم في الأمن "Securitas" .
ومنذ نشاتها تنفصل عن الحرس الخاص ، او حرس الليل ، الذي انشاه معاوية ايضا . ولكن بعد ذلك تطور المقصود من الشرطة ، واصبح اساس عملها ان تكون تابعة للقضاء ، مؤداها كما يقول ابن خلدون : استيفاء الحدود ، اي تنفيذ الاحكام التي يصدرها القاضي . والشرطة لغويا ماخوذة من شرط اي جعل علامة (٢) ، ربما لوضع القائمين بها علامة يعرفون بها ؛ فكان الذي يقوم بها يسمى عادة : صاحبا ، واحيانا : واليا (٣) ، وهما كلمتان تطلقان على كثير من الموظفين المسلمين الكبار .

اما العقوبات التي يقوم بتنفيذها القائم باعمال الشرطة ، فهي الحدود (٤) "Peines Fixes" ، مفردها حد ، وتاتي دائما بصيغة الجمع ، وهي تعرف على انها زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر ، وترك ما امر . وهذه الحدود ماخوذة من الجاهلية؛ او من اليهود في معظمها ؛ ونزلت في القرآن ، على انها حق الله ، وهي تكون في عقوبات الزنا والقذف والسرقة وشرب الخمر ؛ بقصد صيانة النسل والعرض والمال والعقل . ففي السرقة تكون بقطع يد السارق اليمنى من مفصل الكوع ، واذا سرق ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل الكعب ، ثم ثالثة قطعت اليد اليسرى ، وفي الرابعة رجله اليمنى ، ولا يقتل ، كما ترك القرآن الشفاعة للسارق . وفي الزنا واللواط بالغلمان واتيان البهائم او الشراب والقذف ، يكون العقاب بالرجم بالحجارة او الجلد بالسوط . ولم يكن من السهل ايقاع حد الرجم الا اذا توفرت البينة ؛ ففي هذه الحالة لابد من وجود اربعة رجال عدول ؛ وبخاصة والقرآن يعاقب بالجلد بالسوط ، لمن لا يستطيع اثبات

---

(١) الكامل ، ٣ ص ١٩٨ س ٥ . لعل عثمان هو الذي أوجدها . ابن سعد ٤/١ ، ص ٢١ س ٢٧ .
(٢) لسان ، ٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٣) مبج ، ٤ ص ٢٢ ـ ٢٣ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ .
(٤) الأحكام ، ١٩٤ وما بعدها ؛ انظر . Ency. (art Hadd) 12, p 199.

إتهامه بدقة . وقد استجاز المجتمع الاسلامي في العصـــور الوسطى البغاء بعد ذلك ، وكانت الدولة تحميه ، وتفرض رسوما على بيوت الفواحش (١) .

وقد لجأ الفقهاء الى اضـــافة عقوبة طويلة الأمد ، وهي عقوبة السجن ، التي ظهرت بسبب تطور المجتمع الاســـلامي . وقد ظهرت السجون منذ عمر بن الخطـــاب (٢) ؛ ولكنها نظمت في عهد الأمويين على يد عمر بن عبـــد العزيز ؛ بحيث اوجـــد لهـــا ديوانا يشرف عليها (٣) ؛ فقد كان عمر بن عبد العزيز ينظر بنفسه في امر السجون ، ويكتب للمسجونين برزق الصيف والشتاء (٤) ، وتكون لهم كســـوة الصيف والشـــتاء ، ومن يمرض يعتنى به ، وامر الا يقيد احـــد في المحابس بقيد يمنعه من اتمام الصلاة (٥) . كذلك امر بالفصل بين فئات المسجونين ، بين من يسجن في دين ، ومن يسجن في جريمة ؛ وجعل للنساء حبسا على حدة (٦) .

ولكن بعد العصر الأموي ساءت حالة المسجونين ، ولم يصبح السجن موضع اصلاح وتهذيب ، ولكن محـــــل انتقام وتعذيب . فيصف المؤرخ المقريزي سجون الفاطميين فيقول (٧) : انها كانت اشبه بجهنم الحمراء ؛ حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مســـقف وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء ، ويتركون هكذا من غير ان يطعموا شيئا الا بما يتصدق عليهم الناس ؛ وكان منهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، الذين يستعملون في الحفر والعمائر ونحو ذلك ، تحت اعين « الأعوان » ــ وهم من الشرطة ــ فاذا انقضى عملهم ردوا الى السجن في حديدهم .

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٤٤ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٠٣ .
(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٧ س ٢ ــ ٣ .
(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٦٢ س ٢٢ وما بعدها .
(٥) نفسه ، ٥ ص ٢٧١ س ٢٣ .
(٦) نفسه ، ٥ ص ٢٦٣ .
(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٠٤ .

ويجب أن نشير الى انه في وقت الفوضى ، حيث تضعف السلطة المركزية ، وما يترتب على ذلك من ظهور طوائف مفسدة من اوباش وشطار (١) وفتاك وصقور ـ اى لصوص وقتلة ـ فان اصحاب الحرف والتجار فى المدن ، ينظمون ما يعرف بنظام الفتوة (٢) : للقيام باعمال الشرطة ، حتى انه اصبح لها لباس خاص ، يسمى لباس الفتوة او سراويل الفتوة ، ولها تكوين خاص يشتمل على قائد ونقيب وعريف ، كما وجدت اسماء اخرى تدل على القائمين به مثل : الفتيان والأحداث والعيار (٣) . ويرجع المؤرخون اصل هذا النظام الى وقت النبى ، واعتبر على فتى الفتيان ، وان لباس الفتوة مثل خرقة الصوفية ، كما حصرت أصول النظام في شيئين : الشجاعة والكرم .

●

هذا هو التنظيم القضائى تظهر أهميته فى الدولة الاسلامية ، التى هى قبل كل شىء دولة ثيوقراطية ، اساسها دين الاسلام .

* *

كذلك كان التنظيم السياسى يرتبط ارتباطا وثيقا بالنظم الحربية ؛ وذلك لأن الخلافة كانت محاطة باعدائها من كل جهة ، بحيث جعل الفقهاء الجهاد ركنا من اركان الدين وفرضا على المسلمين (٤) ، وميزوا

---

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا وغيره ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ، ص ١٢٥ س ٧ .

(٢) الأغانى ، ٦ ص ٩١ ، ٢٠ ص ٦٤ س ٨ ؛ الجرجانى ، تعريفات مصر ١٢٨٣ هـ ، ص ١١٠ ؛ ابن ابى المكارم (ت ٦٤٢/١٢٤٤) ، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وغيره ، ١٩٦٠ ؛ انظر .

Ency. (art Futûwa) t2 P. 130 — 31; (art Sirwâl) t4, P. 472

La Fatuwa ou pacte d'honneur artisnnal entre les; Massignon travailleurs musulmans du Moyen Age, dans nonvelle. Clie, 1952. p. 175 — 6.

Mouvements, populaires et autonomisme dans l'Asie, : Cahen musulmane du Moyen Age. Arabica, Sept-Jan. 1958-1959.

(٣) مثلا : ذيل دمشق ، ص ٨٨ ص ١٩٠ ؛ انظر .

Ency de l'Isl, (art Ayyâr) 2 ed't 1. p. 817-18.

(٤) القرآن ٩ : ٨١ ؛ انظر . دعائم الاسلام ، ١ ص ٣ .

بجلاء بين ارض الاسلام وسموها دار الاسلام ، وما عداها وسموها دار الحرب (١) . ومع ذلك ؛ فان الجهاد كما ظهر من واقع حروب المسلمين ، لا يعنى غير الدفاع عن ارض الاسلام ، ومحاربة الأعداء (٢) .

وفى العصر الاسلامى الأول لم يكن الأمر محتاجا للانفاق على الجيش (٣) ؛ اذ كان معظمه من المتطوعة ؛ فلم يكن هناك تجنيد اجبارى ، فكان المتطوعة يحصلون على نصيب من الغنيمة لقاء اشتراكهم فى الحرب (٤) . ولما فتحت البلاد ، ظهرت الحاجة الى ابقاء جيش دائم فى وقت الحرب ، كما هو وقت السلم ، واصبح هذا الجيش يحتاج الى انفاق . فاوجد عمر بن الخطاب ما عرف : بديوان الجند او الجيش او العساكر (٥) ، واعتبر اول ديوان فى الاسلام . فكان خراج البلاد المفتوحة ، هو الذى يصرف على الجيش او ما يعرف: بالعطاء أو الرزق (٦) ، وهو من المال . وبانقسام وحدة المسلمين السياسية تعددت دواوين الجند ، وخصوصا ان النفقة لم تقف عند المال، ولكنها اصبحت ارضا وهو ما عرف بالاقطاع ؛ فظهر مثلا عند الفاطميين ديوان الاقطاع (٧) ، ومن يستلمون الاقطاع يسمون بالمقطعين ؛ اى ان الاقطاع فى الاسلام ظهر اول ما ظهر فى الجيش . ولا يعنى هذا ان الجند تبقى فى الأرض المقطعة لزرعها ، ولكن الأرض تستغل لحسابهم .

وقد كان الجيش فى اول الأمر يتكون من العنصر العربى وحده،

---

(١) الأحكام ، ص ٤٦ .

(٢) انظر . الدينورى ، الأخبار الطوال ، ط. مصر ، ص ١٩١ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٦٣ ، ٢٦٥ .

(٣) بعامة : انظر .
Ency. of Isl, (art Diaysh) 2ed, t2 p. 504 sqq.

(٤) مثلا : المقدمة ؛ ص ١٦١ س ١٨ ــ ١٩ .

(٥) نفسه ، ص ١٩٢ ــ ١٩٣ .

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدن ، تحقيق de Goeje ، Brill ، طبعة ١٨٦٦ ، ص ٤٤٩ س ٣ ؛ الكامل ، ٢ ص ٣٥٢ س ١ .

(٧) صبح ، ٣ ص ٤٩٣ ؛ الخطط ، ١ ص ١٣٨ وما بعدها .

بحـــكم ان العرب هم مادة الاسلام . ولكن فى العصر العباسى تبين للفنيين خطر تكوين الجيش من عنصر واحد (١) ؛ اذ ينعـدم التنافس بين افراده . هذا فضلا عن تغير الأحوال باسلام شعوب كثيرة ، وان العباسيين اعتمدوا فى اقامة حكمهم على غـــير العرب ، من الفرس والترك وغيرهم . ولذلك اسقط المعتصم بالله العباسى (٢١٨ ــ ٢٢٧/ ٨٣٢ ــ ٨٤٢) العنصر العـــربى من ديـوان الجيش (٢) ، وبــدأ فى ادخال عناصر من اجناس غير عربية . اما العرب ، فقد اصبحوا فى القرن الرابع الهجرى ، يكونون عناصر غير نظاميــــة فى الجيوش الاسلامية ، ويدخلونه كمتطوعة (٣) ، تستخدم فى انهاك قوى العــدو قبل الدخول فى المعركة . ونتيجة لظهور عناصر مختلفة فى الجيش ، ظهر الاســـترزاق بالجندية (٤) ، ومثل هذا وجد فى بيزنطـة ، التى كانت تستخدم الجند المسترزقة من الانجليز ، والجرمان ، والفرنسيين ، والروس ، والأرمن ، والبلغار ، وحتى من الترك .

يضاف الى ذلك ان الخلفاء والحكام فى الدول الاسلامية ، كانوا يعتمدون على جيوش خصوصية ، تكون مهمتها تاييد حكمهم ، وتنفيذ رغباتهم ، والحد من طمع منافسيهم ، مثل : عبيد الشراء او الشرى ، اى الذين يشترون بالمال (٥) ــ وهم من السود على الخصوص ــ ولكن بصفة خاصة ممن عرف بالمماليك اى ما يملك (٦) ــ وهم من الترك فى الغالب ــ بحيث ان دولة المماليك فى مصر كان معظمها منهم ، واصبح

---

(١) انظر . نظام الملك ، سياسة نامه ، ترجمة من الفارسية الى الفرنسية بعنوان :

Siasset Nameh, trad Cchefer. Paris, 1891-4, P. 135.

(٢) ابن عذارى ، البيـــان المغرب فى اخبـــار الاندلس والمغرب ، نشر وتحقيق Colin, Lévi-Provencal ، طبعة Leyden ، ١٩٤٨ ــ ١٩٥١ ، ٢ ص ٤٠ س ٥ ؛ المقدمة ، ص ١٢٢ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربيـــة ، ١ ص ٢٣٣ .

(٣) لأحكام ، ص ٢٩ .

(٤) نفســـه .

(٥) سفر نامه ، ص ٥٣ .

(٦) عن هذه الكلمة ، انظر . لسان ، ١٢ ص ٣٨٣ :

Ency (art Mamlûk) t3, P. 230 sqq.

سلاطينها يعتمدون على المماليك اعتمادا كليا فى منافساتهم الشخصية او غيرها .

اما عن القيادة ؛ فقد كان نادرا ما يقود الخليفة الجيش . فبعد النبى لا نجد خلفاء يقودون الجيوش فى الحرب الا فى حالات نادرة . وانما كان الخلفاء الأوائل يعهدون بالقيادة الى شخص يسمى : امير الامراء (١) ، اى قائد القواد ؛ لان الأمير هو القائد . ولما تعددت دول الاسلام ، ظهرت القاب عديدة تدل على قائد الجيش ، مثل : اسفهسلار العسكر (٢) – والقيادة نفسها تسمى الأسفهسلارية – وهى كلمة فارسية ، وامير الجيوش (٣) ، ورئيس الرؤساء (٤) ، وقائد القواد (٥) . ومع ذلك بقى الخليفة القائد الأعلى للجيش بدليل ابقائه على لقب امير المؤمنين ، الذى اتخذه عمر بن الخطاب ، اثناء حركة الفتوح ، زيادة على لقب خليفة .

وفى اول الأمر لم يكن قواد الجيش الاسلامى يتميزون بعضهم عن بعض فى مراتبهم ؛ وانما كل منهم يحمل لقب امير اى قائد ، ووظيفته هى الامارة . وبعد ذلك ، اصبحوا يتميزون بعلامات خاصة (٦) : فعرفنا فى الدولة الفاطمية ثلاث مراتب ، وهم : الأمراء المطوقون ، يتميزون بوضع طوق حول عنقهم على الطريقة المصرية القديمة ، وامراء القضب اى يحملون قضيبا او عصى فضية فى ايديهم ، وادوان الأمراء ، وهؤلاء يكتفون باللقب ، ولم يكن لهم حق حمل القضب الفضية . كما انه فى الدولة المملوكية عرف امراء الطبلخانة بهذا الاسم لأنهم كانوا

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٠٩ . هو لقب خالد بن الوليد .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٣ . اسفه هو المقدم ، وسلار اى العسكر .

(٣) السجلات المستنصرية برقم ٣٤ و ٥٩ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٠٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ٥ ص ٦٧ ؛ الكامل ، ٨ ص ٨٤ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٢٢ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٨٠ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٥٠ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٤ ؛ Mayer: Studies on the Structure of Mamluk Army. B.S.O.A.S. XV. 1953, p. 204 sqq.

يسيرون وحولهم الطبل يدق . كذلك تميز القواد بعدد من الجنود تحت قيادتهم ؛ ولذا سموا : بمقدمى الألوف أو المئات أو العشرات أو الخمسات .

...

وبجانب الجند والقواد ؛ كان للجيوش الاسلامية حواشى متعددة، فبعضهم له رئاسات ، مثل : زم الرجال والطوائف (١) ؛ وهم الذين يهتمون بكل ما يتعلق من تموين الجيش وغيره ؛ والنقباء الذين يجمعون الجند (٢) ؛ والجواسيس والعيون (٣) ، الذين يطلعون على أخبار العدو . كذلك نسمع عن قاضى العسكر (٤) ، والأطباء والمؤذنين ، والقراء ، والعبيد لحمل الأمتعة ، وحتى النجاريين ، والحجارين (٥) . وفى أول الأمر كان النساء يسرن مع الجيوش ؛ ولكن بعد اسقاط حق العرب فى الجندية ، لم يعد النساء يصحبن الرجال الى ميدان القتال (٦) .

وقد كان للجيوش الاسلامية تكنات ككل الجيوش ، عرفت باسماء مختلفة ، وهى : قطائع (مفردها قطاع) (٧) أو خطط (خطة) ؛ أو حارات (حارة) (٨) . وقد تطورت هذه الثكنات ، فاصبحت أشبه بمدن كاملة ، توجد فيها البيوت والدكاكين والأسواق والحمامات ؛

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٦ ، ١٠ ص ٣٠٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين، ٢ ص ٣٤ وهامش (١) .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٦٢ س ٣ .

(٣) الفتح القسى ، ص ١٦١ س ٧ .

(٤) الولاة ، ص ٥٨٦ س ١٧ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٤٠ س ٣ ؛ صبح ٤ ص ٣٦ .

(٥) الخطط ، ٢ ص ٣٧٢ س ٥ ؛ بو المحاسن ، حوادث ، ص ١٩ ، ٢٥١ ؛ ابن اياس ، مصر ١٣١٢ هـ ، ٣ ص ٢٣ .

(٦) المقدمة ، ص ٢١٦ (أسفل الصفحة) .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٣٦٨ (آخر الصفحة) ؛ اللسان ، ١٠ ص ١٥٤ .

(٨) الخطط ، ٢ ص ٧٦ وما بعدها ، ٣ ص ٢ وما بعدها .

بحيث أن العسكر والقطائع (١) ـ وهما من معسكرات الجنـــد فى مصر ـ كونتاجيين مزدهرين بجوار القاهرة .

وقد عرف المسلمون انواع الأسلحة ، واغلبها فى اول الأمر اخذوها عن الروم والفرس ؛ وان قاموا بصنعها فى مصانع عرفت فى الدولة الفاطمية : بخزائن السلاح ، وفى الدولة المملوكية : بالسلاح خاناه . وكان (٢) الخلفاء يهتمون اهتماما كبيرا بصناعة السلاح ؛ فقد كان من رسوم الفاطميين أن يجلس الخليفة فى خزائن السلاح على سرير أعد له خصيصا ؛ بقصد التفتيش عليها . كذلك اضاف المسلمون الى الأسلحة المعروفة أسلحة أخرى ، حتى ان كثيرا من المؤلفين المسلمين ، افردوا كتبا لصناعة السلاح واستعماله (٣) ؛ مع ان التصنيف عن الاسلحة لم يعرف الا نادرا فى العالم القديم ؛ وان كان الروم الذين عاصروا دولة الاسلام ، هم جروا على التاليف عنها ايضا (٤) ، وعن فـن الحرب "Strataegikon"

وقد كان اهم أسلحة المسلمين هى السيوف ، وهى كلمة من اصل مصرى قديم « سفيت » (٥) ، انتقلت الى كل اللغات ، ومنها الى

(١) نفسه ، ٢ ص ٨٩ ، ١٠٣ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ؛ صبح ، ٢ ص ١٣٣ وما بعدها ، ٤ ص ١١ ـ ١٢ ، ٣ ص ٤٧٧ ؛ مصنف مجهول الف لصلاح الدين ، نشره وترجمه Cahen ، بعنوان :

Un traté d'armureric composé pour Saladin. Extrait du Bull d'Et Or. Damas tXII années 1947-8, PP. 103-163.

Kitàb al — Sitàh, die Waffen der Alten Araber : Schwarzlose ' Leipizig, 1886. ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٣) عن ذلك ، انظر .

Military Literature of the Arabs, Cahiers Sérié, : Abdel Rahman VII, Fasc, 3. Juin 1955, p. 149 sqq.

(٤) انظر . اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، ص ٩٩ .

(٥) مثـــلا فى الانجليزية : "Sword" ، وفى الفرنسية "Sabre" وفى الالمانية "Schwert" . ابن سيده ، المخصص ، بولاق ١٣١٧ هـ ، ٦ ص ١٦ وما بعدها ؛ انظر . زكى ، السيف ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣ .

العربية . فعرفوا منها انواعا عربية وفارسية ، وهذه الأخيرة سموها « قلجوريات » (١) . ولدينا وصف يبين قيمة السيف : فالسيف تتخذه العرب كالسكين ، وتطعن به كالرمح ، وتضرب به كالعمود ، وتجعله سوطا ومقرعة ، وتتخذه جمالا فى الملأ ، ومراجا في الظلمة (٢) . كذلك عرفوا انواع الرماح منها : الأسنة الطويلة المسماة « القنا » (٣) ، والرماح الخشبية المسماة « قنطاريات » (٤) ، والرماح الزان أو الزانات ؛ وهى غالبا تسمى « الخطية » ، نسبة الى بلدة الخط فى عمان (٥) ، التى كانت تباع فيها ، والطوارق التى يبدو انها رماح (٦) . وعرفوا انواع الأعمدة (٧) منها : أعمدة لها رءوس مدورة ومضرسة مسماة : « دبابيس » ، وأعمدة ذات رءوس مستطيلة ومضرسة ايضا مسماة : « لتوت » (٨) ، وأعمدة مربعة الشكل لها مقابض مدورة

---

(١) هذه الكلمة من أصل فارسى ، مفردها قلجورية . انظر : Inostrantsev.

Torjestvennii viezd fatimidiskikh khalifov. Butrosbourg, 1904 P. 50.

(٢) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، تحقيق وتعليق عبد الغنى ، دار المعارف ، ص ١٨٧ .

(٣) انظر . Suppl, 2, 414.

(٤) أصل الكلمة يونانى من "Kontarion" ؛ تعنى خشب الرمح . أنظر . Ibid, 2, p. 413.

(٥) كانت تستورد من الهند ، وتباع فى أسواق الخط . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٤٩ .

(٦) الفتح القسى ، ص ٥٣ س ٧ . اختلف فى معنى هذه الكلمة : وان عنينا بهـا الرمح لورود العبارة هكذا : طوارق وقنطاريات وزانات . ويقول المقريزى حارة الطوارق ، يسكنها صبيان الطوارق ، المعدين لحمل الطوارق ؛ وذلك دون أن يعطى تفسيرا . الخطط ، ٣ ص ٢٤ . أو ربمـا من اللاتينية "Targum" ، تعنى درعا . عن هذه الكلمة ، انظر :Dozy. Suppl, 2, p. 40-41.

(٧) صبح ، ٣ ص ٤٧٤ و ٥٠٤ ؛ انظر . Inost, p. 36. ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٧٥ .

(٨) جمع لت أو لخت ، وهى كلمة فارسية . انظر . Inost, P. 37. ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٥٧ .

تمسك باليد مسماة : « مستوفيات » (١) . وعرفوا انواع الخناجر والنصول والطبر (٢) - وهى الفؤوس - والحراب . وعرفوا انواع السهام منها : سهام ذات نصول مثلثة من الخشب يقال لها : « نشاب » ، وسهام طولها شبر تعرف «بالجراد» لم تبلغ الهدف بسرعة فائقة ،فتقضى على الفارس والراجل ، والنبل وهى سهام . واستخدموا انواع الاقواس المختلفة ، وهى تتالف من عمود وقضيب ومفتاح (٣) ، والسهم يوضع فى القضيب ، فمنها : قوس اليد ، التى تشد باليد ؛ فتخرج سهاما تشبه الجراد دفعة واحدة ، فى جهات متعددة ، وهى تعرف بالعربية ، وقوس الرجل التى تشد بدفعها من الرجلين ، وهي تعرف بالافرنجية ، وقوس اللولب التى تشد بواسطة لولب ، وقوس الركاب التى تشد من ركاب الخيل ، وينسب الى القائد المهلب بن ابى صفرة (ت ٨٣/٧٠٢) ، الى انه اول من جعل الركاب من الحديد بدلا من الخشب (٤) .

وقد عرفوا اسلحة الحصار الثقيلة ، مثل : « المنجنيقات » بنوعيها الصغار والكبار (٥) ؛ وهى آلات قذافة بالأحجار واللهب ؛ كما عرفوا الكباش والعرادات ؛ وهي انواع من المنجنيقات او اسماء لها . وقد بلغت صناعة المنجنيقات حد الاتقان على يد المسلمين منذ زمن مبكر ؛ حتى انه ايام فتوح الهند نسمع عن منجنيق يقال له العروس ، كان يديره ساعة الرمى خمسمائة رجل (٦) . وعرفوا « الدبابات » و « الأبراج » و « الستائر » ، وكلها اسلحة حصار تستخدم فى ثقب حوائط الأماكن المحصنة وتدميرها . وقد ظهر عند الجيش الفاطمى سلاح يدل على فطنة المسلمين ، عبارة عن مثلثات مدببة من الحديد

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٣١٥ س ١ - ٢ . يوجد التوضيح بالنص .

(٢) انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 20

(٣) ابن هذيل ، ص ٢١١ ؛ ابن سيده ، المخصص ، ٦ ص ٣٧ .

(٤) وفيات ، ٣ ص ٤٣ .

(٥) الفتح القسى ، ص ٥٨ س ٧ . يطلق عليه ايضا : منجنوق ومنجنيق ، وهو اسم اعجمى . صبح ، ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٤٣٧ ؛ الكامل ٤ ص ١١١ .

لها احجام مختلفة لنشرها على الارض ؛ لتعوق تقدم العدو ، وبخاصة فرسانه ، وهى تشبه الالغام فى وقتنا (١) .

ولكى يتقوا ضربات عدوهم كانوا يلبسون على رءوسهم الخوذات ؛ منها : الفارسية « خود » ، اما العربية فتسمى « بيض » ، وربما كانت وقتذاك مصنوعة من الجلد والحديد . كذلك استخدوا الدرقة والترس ؛ لاتقاء قذائف العدو ، ويكون كلاهما من جلد البقر ، أو اللمط وهو حيوان يعمر فى الصحارى (٢) . اما على جسدهم ؛ فيلبسون الدروع وتسمي بالفارسية « زرد أو زرديات » ، وهى انواع : بعضها عبارة عن سترات مبطنة تسمى « كز اغنديات اوكز اغندات » (٣) او « قرقلات (٤) » ، وبعضها يغطى الجسم كله ولا يبين غير الاحداق تسمى « الدروع المسبلة » أو «الزرديات السابلة» او « زرديات بالمغافر ملثمة (٥) » ، وبعضها عبارة عن صدر بغير ظهر تسمى « جواشن (٦) » ؛ كما وجدت دروع توضع على جسم الخيل تسمى « تجافيف (٧) » أو « بركستوانات (٨) » ؛ وهذه الأخيرة من الفولاذ . وقد توضع ايضا على انحاء جسم الخيل ركب وزنود فولاذ ، وحتى خوذة عند مؤخرته (٩) .

واستخدام المسلمون النفط منذ زمن مبكر ، وهو الذى استعمله الروم قبلهم ، يتكون من تركيب كيمائى اساسه البترول ؛ فعرف بالنار

---

(١) انظر . Cahen (مصنف مجهول) ، نص ١٢١ — ١٢٢ ، ترجمة ، ص ١٤٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٢ .

(٢) ابن هذيل ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, P. 550.

(٣) انظر . Ibid, 2, P. 342 ; 462 . مفردها كزاغند .

(٤) صبح ، ٤ ص ١١ ؛ ابن اياس ، ٣ ص ١٦ (آخر الصفحة) ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, P. 336. مفردها قرقل .

(٥) الخطط ، ٢ ص ٣٢٧ س ٣ — ٤ .

(٦) ابن هذيل ، ص ٢٢٧ . وهى كلمة فارسية ، مفردها جوشن .

(٧) انظر . Dozy : Suppl, 1, P. 200. مفردها تجفاف .

(٨) ابن اياس ، ٣ ص ١٥ (آخر الصفحة) .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٢١ س ٣ ؛ سفر نامه ، ص ٥٢ .

الاغريقية . وينسب اختراعه الى يونانى اسمه كالينيكوس (١) Kallinikos ؛ وربما عرفه الرومان ايضا ؛ وقد سماه الاوربيون حديثا : Feu grégeois . وقد برع المسلمون فى استعماله اذ يوجد النفط فى انحاء بلادهم ؛ فعرفوا منه الأسود الذى يوجد على ساحل بحر القلزم (الأحمر) ، ويسيل من اعلى جبل ، ويجمع فى خزائن (٢) ، والابيض او الطيار ، ويوجد فى العراق (٣) ؛ كما وجدت منابعه بجوار بحر قزوين عند بلدة باكه او باكويه (٤) ؛ حتى انهم سموها : « النفاطة » ، وهى باكو الحالية . وقد تكونت فى جيوش المسلمين فرقة خاصة لاستخدامه ، عرفت بالنفاطين (٥) ؛ حيث كانوا يلقونه على العدو فى قارورات النفط (٦) ، او فى قوارير (قدور) النفط (٧) ؛ او بالنشاب ، او من على ظهور الخيل .

وفى آخر ايام الحضارة الاسلامية ، عرف المسلمون البارود (٨) ،

---

(١) عن ذلك ، انظر . Michel le Syrien : Chronique, ed et, trad, Chabot. Paris, 1899 — 1910, t2 Fasc. 3, P. 455. ؛ أيضا ؛ انظر . Reinaud et Favé : Feu Grégeois Paris, 1845. ؛ Canard : L'emploi du feu grégeois chez, Les Arabes. Bulletin des Etudes Arabes,. No. 26 Jen — Fev, 1946. ؛ Dozy : Suppl, 2. P. 703 — 4 ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٤٨ وهامش (١) ؛ انظر .

(٢) صبح ، ٣ ص ٣٨٨ .

(٣) الفتح القسى ، ص ١٧١ ، ١٧٩ .

(٤) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٤٥ ؛ انظر . ماجد ، الاطلس التاريخى القاهرة ١٩٦٠ ، خريطة (٤) و (٨) .

(٥) الخطط ، ٣ ص س ١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٧ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣ س ١٨ .

(٧) صبح ، ٢ ص ١٣٨ . القوارير تكون من الزجاج ، واستعيرت مجازا .

(٨) عن ظهور هذا الاختراع ، انظر مثلا : Ayalon : Gunpowder, and Firearms in the Mamluk kingdom. London, 1956. Mercier : Le feu, grégeois ; les feux de guerre de guerre depuis l'antiquité, la poudre a canon. Paris, 1952. ; Ency. (art Barûd) 2ed t1, P. 1087 sqq;

قبل أن يعرفه الغرب ، وهى كلمة انتقلت الى اللغات الأوربية ، كما فى الانجليزية Powder ، والفرنسية Poudre . وقد اصبحت كلمة نفـط توافق كلمة بارود ؛ ولم تختف كلمة نفـط الا فى أيـام العثمانيين . ومن المؤكد ان البارود اول ما استعمل في مصر ؛ اذ ان مادته الأساسية وهي النطرون توجد فيها (١) ؛ وان كان الأوربيون يحاولون ان يجعلوا ظهور هذا الاختراع فى أوربا قبل الشرق ، أو انه على الأقل ظهر فى وقت متقارب . وقد ترتب على اختراع البارود ظهور المدفع او المكحل ؛ أو المكحلة ؛ حيث عرف المماليك منه الكبير والصغير (٢) . ويوصف (٣) المدفع او المكحل على انه آلة من نحاس أو حديد ، يوضع فيها الحجر أو البندق وهو من الحديد ، ينبعث من خزانة أمام النار الموقد فى البـارود . وقد اختلف فى وقت ظهور المدفع ؛ فيذكر المستشرق Quatremère ؛ انه استخدام في مصر لأول مرة فى سنة ١٣٩٠/٧٩٢ (٤) ؛ ولكن يبدو ـ مما لدينا من نصوص ـ ان هذه الكلمة وجدت قبل ذلك في سنة ١٣٥٩/٧٦٠ ، او فى سـنة ١٣٤٢/٧٤٣ ، أو حتى في سنة ١٣٥٢/٧٥٣ (٥) ؛ وان كان من المؤكد ان المماليك اول من استخدموه . وربما تكون البندقية ايضا قد استعملت من أيام المماليك ، فسميت : قوس البندقية او الجلاهق او الزبطانة ، وهى تطلق الرصاص (٦) .

كذلك كان الجيش الاسلامى يزود بمعدات ضرورية مثل الخيام والدواب من الفيلة والجمال وعلى الأخص الخيل ، التى كانت بعض

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٩ .

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ١٢٤ س ٢٠ .

(٣) صبح ، ٢ ص ١٣٧ ؛ ابن اياس ، ٣ ص ٩ ؛ العبر ، ٤ ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٤) انظر Quat :
Observations sur le feu grégeois. J. A. 1850, No. 4, P. 25

(٥) ابن فضـل الله العمرى ، المصطلح الشريف ، ص ٢٠٨ ؛ صالح ابن يحيى ، تاريخ ، بيروت ١٩٢٧ ، ص ١٠٥ ؛ ابن اياس ، ١ ص ١٩٦ س ٣ .

(٦) صبح ، ٢ ص ١٣٨ ؛ انظر . Ayalon : Gun, P. 60. وجد لها فى مصر مكان خاص لصنعها ، عرف بخط البنادقيين . الخطط ، ٣ ص ١٦٩ـ١٧٠ . وكان البندق يوضع فى جراوة .

سروجها مجوفة ومبطنة بصفائح من القصدير ، ليجعل فيها الماء (١) . اما الرايات فكأن الجيش الاسلامي يستكثر منها (٢) ، وربما اخـــذ استعمالها من الجاهلية ، ثم اصبحت شعارا فى الاسلام . فكانت تتميز فى ايامه الأولى بحمل عقيدة الاسلام : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » (٣) ، اما بعد ذلك ، فكانت تحمل اسماء الخلفاء والقابهم . واصبح لون الرايات يدل على مذهب الدولة الاسلامية ؛ فكان للعباسيين رايات سوداء تسمى المسودة ، وللفاطميين رايات بيضاء تسمى المبيضة . وقد تعددت أسماء الرايات فى دول الاسلام على حسب احجامهــــا واهميتها ، منها : لواء وراية وســـنجق وبند وبيرق . كذلك اكثرت الجيوش الاسلامية من استخدام الطبـــل الكوسات والبوق لتحميس افرادها ، وهى التى اخذت مكان الشــــاعر او الخطيب ، أو حتى اصطحاب النساء فى الجاهلية وأيام الاسلام الأولى (٤) . ومع ذلك ؛ فقد كان غالبا ما يصحب رجال الدين جيوش الاسلام ؛ فكان مماليك مصر يرسلون مع جيوشهم الخليفة العباسى (٥) . بل كان الجيش الاسلامي يزود بكل شيء ، حتى الابر والخيوط والخل (٦) .

وقد اهتم المؤرخون وكتـــاب الحوليات المسلمون بالمعــــارك والوقائع ، ومعنى ذلك أن معلوماتنا عن أساليب الحرب عند المسلمين مبعثرة هنا وهناك . فنجد انهم فى الدفاع يلجـــاون الى حفـــر الخنادق (٧) ؛ وان تركوا ذلك وعمدوا الى اقامة القلاع ، التى ربما اكثروا منها تقليدا للصليبيين ، الذين غزوا بلاد المسلمين . كذلك كان المسلمون يلجاون الى التحصن وراء الترع ، ولا يترددون فى حرق الأرض أمام العدو لاعاقة تقدمه ؛ فكانوا يستخدمون فى ذلك الثعالب

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .
(٢) المقدمة ، ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٧٣ — ٥ .
(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، تحقيق Wust ، ١ ص ٣ ، ٣٣ ؛ انظر — ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ١٢٠ ؛ نفسه ، ١ ص ١٦٥ ؛ وقبله .
(٥) ابن اياس ، ١ ص ١٤٠ ص ١١ .
(٦) فتوح البلدان ، ص ٤٣٦ .
(٧) المقدمة ، ص ٢١٧ .

والكلاب ، بعد أن يعلقوا النار فى اذنابها (١) . كما قد يلجأون احيانا الى طلب الهدنة ، او ينسحبون سترا فى الظلمة .

اما طرق اللقاء او الاشتباك (٢) ؛ فقد تطورت هى الأخرى تطورا كبيرا ؛ فقد تكون ثلاثين صنفا (٣) . وقد كان الجيشان المتحاربان يلزمان الصفوف ، ويبدا القتال بالمبارزة ؛ فكان يثيرهما منظر الدم ؛ فيلتحمان ؛ وتكون الحرب زحفا ، حيث عرف العرب بالكر والفر . ولكن بعد ان اتصلوا بالدول الأخرى ، من الروم والفرس؛ ظهرت أساليب اخرى للقتال ؛ فكانوا ، يوزعون جيوشهم ـ وهو ما عرف « بالتعبية » ـ فى ميمنة وميسرة وقلب وساقة ، التى تعنى عسكرا آخر وراء العسكر . وعلى حسب الخطط الحربية ؛ كان الجناحان يجب نشرهما على نطاق واسع ؛ لتحاشى الكمين (٤) . وينسب الى مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٨٣/٦٥ ـ ٦٨٠) ؛ انه أبطل القتال بالصف ، واوجد ما يعرف بالكراديس جمع كردوس ، وهى كلمة يونانية من « Khortos » ؛ وذلك بالقتال فى اعداد صغيرة ؛ بحسب عشرة او مائة او الف ؛ وكانوا يوزعونها على هيئة مربعات او مثلثات او اهلة ، ولهم تعبيرات فى ذلك (٥) ، مثل : الجريدة والسرية من خمسين الى اربعمائة ، والكتيبة من خمسمائة الى الف ، والجيش من الف الى اربعة آلاف ، والفيلق والجحفل من اربعة آلاف الى اثنى عشر الفا ، والعسكر يجمعها . وعلى يد المماليك فى مصر ، وجدت التعبية المسماة « بالصاف » ، وتكون بثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف وهم مترجلون ؛ وكل صف ردء للذى امامه ؛ ويصفها ابن خلدون بأنها

---

(١) صبح ، ١٤ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٢) المقدمة ، ص ٢١٤ وما بعدها ؛ الأحكام ، ص ٣١ وما بعدها ؛ مثلا : انظر Reinaud :
De L'Art Militaire chez, les Arabes au Moyen Age. Paris, 1848.

(٣) بتفصيل : الهرثمى ، صاحب المأمون ، مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عون ، مراجعة زيادة ، القاهرة .

(٤) انظر . مصنف مجهول (تحقيق Cahen) ؛ نص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، وترجمة ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٥) ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ١٧٢ .

تعبية محكمة . ولا مراء ؛ فان المماليك نبغوا فى فنون الحرب نبوغا كبيرا ، ولدينا منهم مؤلفات عديدة عن الفن الحربى – اغلبها مخطوط (١) – فيها وصف ورسومات لطرق توزيع الجند ، والتحرك من مكان الى مكان . ومن الطريف ان نذكر انه فى أيام حرب الصليبيين كانت تصدر بلاغات حربية – قصيرة او طويلة – بالنصر ، يطلق عليها : « البشارات » ، يكتبها كبار الكتاب ؛ لتقرأ من على المنابر ، ولتبقى فى ذمة التاريخ (٢) .

وقد كانت الدولة الاسلامية ، ولا سيما فى اول عهدها ، تستعمل الرافة مع أسراها ؛ فمن كان يؤسر من الروم او الفرس يطعم ويسقى . كذلك نصت تعاليم الاسلام على رعاية الكرامة الانسانية ، ولا يجوز ان تتعدى الحرب الى المدنيين ، الذين لا يشتركون فيها ؛ فلا يجوز قتل الشيوخ والرهبان والنساء والأطفال فى حرب ولا غيرها (٣) . ولكن احيانا تستعمل القسوة على سبيل المعاملة بالمثل ؛ بحيث ان الخليفة الأموى سليمان (٩٦ – ٩٩/٧١٥ – ٧١٧) ، كان يتسلى بقتل اسرى الروم (٤) ، وان صلاح الدين كان يحضر اجتماعات قتل الأسرى ، ويشترك فيها رجال الجيش والدين من الصوفية والفقهاء ، الذين كانوا غالبا ما يانفون من القتل (٥) . واحيانا اخرى (٦) ، يوضع الأسرى الأشداء فى اقفاص ، أو تعلق رءوس القتلى على رقابهم فى اثناء استعراضهم ؛ فقد كان حماس المنتصر يغريه دائما نحو مسلك غير انسانى . ومثل ذلك ؛ كان يوجد عند الروم ، حتى ان

---

(١) مثلا : لاجين ، كتاب عمدة المجاهدين فى ترتيب الميادين : مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (B. N.) ؛ برقم ٦٦٠٤ .

(٢) الفتح القسى ، ص ١٨٣ ، ٢٠١ .

(٣) الأحكام ، ص ٢٤ . أنظر وصاية ابى بكر لأسامة بن زيد . الكامل ، ٢ ص ٢٢٧ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٦٤ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٥١ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٦٨ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ١٣٩ س ٢٥ ؛ الفتح القسى ، ص ٢٢ – ٢٣ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١٧ .

(٦) ابن اياس ، ١ ص ١٤٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب ، ٢٩ ورقة ٣٣ وما بعدها .

احد اباطرتهم واسمه بازيل الثالث « Basilios III » ؛ نزع أعين خمسة عشر الف اسير بلغارى ، دفعة واحدة (١) . وعلى النقيض وجدنا فكرة تبادل الأسرى وقت الأمويين بأن يفادى النفر بالنفر ، كما وجد فى ايام العباسيين ما يعبر عنـــه « بالفداء » ، وهو يكون بالمال ايضـا (٢) .

❋

كذلك حينما احتل العرب الشام ومصر ، اصبحت لهم سواحل طويلة ، وبينما كانت هذه السواحل تقف عقبة أمام تقدم جيوشهم ، كانت هى المكان الملائم لهجوم اعدائهم عليهم . فالعرب الذين تغلبوا على اعتى الجيوش رأوا عدوهم يتحداهم من البحر . ولما كان العرب اول أمرهم بدوا لا خـــبرة لهم بالبحر وركوبه ؛ عملوا على اصـــلاح الحصـــون الساحلية القديمة ، التى كان العدو تركها وســـموها « اخائذ » (٣) ، كما انشأوا « مناظر » اى اماكن يراقب منها العدو ، كانت تتخذ « المواقيد » (٤) ؛ لطلب الامداد اذا حدث هجوم مفاجىء .

ولكن منذ الخليفة عثمان بن عفان ، ظهر للمسلمين اسطول ، وهى كلمة من اصل يونانى « Stolos. » ؛ تطلق على مجموعة السفن الحربية ، او على السفينة الواحدة (٥) . وقد كفل الخليفة عثمان بناء الأسطول الى العناصر ، التى كانت لها دراية بصناعة الأساطيل فى البلاد المفتوحة ، ومعظمهم من القبط المصريين ، او من نصارى الشام فى لبنان . وبانتشار الاسلام بين أهالى البـــلاد المفتوحة ، أصبحت صناعة السفن اسلامية ؛ بحيث ان العبارة التى تعنى المكان الذى تصنع فيه السفن ، وهى « الصناعة (٦) » ، انتقلت الى لغات

(١) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب ، ص ١٨٩ .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣١٠ وما بعدها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٠ . وهى كلمة من أخذ منزلا .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

(٥) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، حققه de Goeje ، طبعة Leiden ١٨٩٤ (B.G.A.) ، ص ١٤١ ؛ انظر ، الشاذلى ، الاسطول فى اللغة والأدب والتاريخ ، ص ٣٥ (مجلة الثريا ، السنة الثانية ، عدد ٣ ، مارس ١٩٤٥) .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٦٩ وما بعدها ، ٣ ص ٣٠٣ وما بعدها ؛ صبح ،

الغرب باسم : « Arsenal » ، ولا زالت الى وقتنا الحاضر ، تدل على المكان الذى تصنع فيه السفن . وقد أوجد الاهتمام بالأســطول ظهور دواوين خاصة به للاشراف عليه ـ كما وجد للجيش ـ نذكر منها في العصر الفاطمي : « ديوان الجهاد » ، وفي العصر الايوبي : « ديوان الأسطول » . فكان هذا الديوان يقوم بالصرف على رجال الأسطول ، وهو ما عرف بالنفقة .

وقد كانت صناعة السفن تقتضى توافر اعواد الخشب ، وهــذه وجدت فى أماكن متعددة فى دار الاسلام ، ولا سيما فى غابات لبنان ، التى اشتهرت بأشجارها الصالحة لعمــل المراكب ، وفى مصر التى تزرع الغابات (١) ، وتوجد بها اشجار لا تحصى من السنط فى اقاليم الأسيوطية والأخميمية والبهنسية والأشمونية ؛ حيث كانت اعواد هذه الأشجار تصلح لعمل المراكب . وفوق ذلك ، كانت الدول الاسـلامية تستورد الخشب اللازم لأسطولها من أوربا ، ولا سيما من البندقية ؛ كما حدث فى أيام المماليك .

ونجد مراكب الأسطول الاسلامية فى البحــار ، هى المراكب ذاتها التى عرفتها امم السواحل قبلهم ؛ ولكن المسلمين حســنوا فى

=

٣ ص ٤٩٦ ، ٥٢٣ ـ ٥٢٤ ؛ ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، القاهرة ١٩٤٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢١٨ وما بعدها ؛ Kindermann :

Schiff. im Arabischen untersuchung uber Vorkmmen und Bedeutung der Termini. Zwirchau, 1934 ; Gildemister :

Ueber Arabisches Schifiswssen. Gottingen, 1881 ; عبادة ، سفن الاسطول الاسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ؛ Syed Sulaiman : Arab, Navigation, Isl. Cult Vol XV, October, 1941 : Vol XVI, January, 1942.

Ency. de l'isl, (art Bahriyya) 2ed. t1 P. 974 sqq ;

(١) عنها : الخطط ، ١ ص ١٨٨ ، ٣ ص ٣١٥ ؛ انظر Bahgat : Les Forêts en Egypte. Mém de l'Inst. Eg. Le Caire. 1900, P. 141 sqq.

صناعتها ، وتقدمت تقدما كبيرا على أيديهم • فظهرت منها انواع متعددة ذات اشكال مختلفة ، انتقلت اسماؤها العربية الى لغاتهم ، ولا تزال باقية فيها حتى الآن • فمن قطع الاسطول الحربية الكبيرة الشهيرة : « الشواني » جمع « شونة » أو « شيني » ؛ تجذف بثلاثة واربعين ومائة مجذافا ، ومزودة بابراج وقلاع للدفاع وللهجوم ؛ وتحتوى على اهراء لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء العذب • ومنها ، « الحراريق » جمع « حراقة » ، تعتبر من كبار المراكب ؛ وان كانت اقل من الشونة حجما ، وتستعمل على الاخص فى حرق سفن العدو ؛ فتزود بالنفط • ومنها ، « البطس » جمع « بطسة » ، وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات ؛ وعلى قلوع كثيرة تقدر باكثر من اربعين قلعا ، وتستخدم فى حمل الازواد والذخيرة والرجال ، فيقول المقريزى ان احدى البطس كانت تحمل خمسمائة الف شخص (١) • ومنها ، « الاغربة » جمع « غراب » ، وهى من المراكب الحربية الشديدة الباس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها ، التى على شكل راس غراب ؛ وقد عرفت للاوربيين باسمها العربى المحرف « Corvette » • ومنها ، «المسطحات» جمع « مسطح » او « مسطحة » ، وهى نوع من كبار سفن الحرب المسطوحة • ومنها ، « الطرائد » جمع « طريدة » ، كانت تستخدم فى نقل الخيل • ومنها ، « الشلنديات » جمع « شلندى » ، وهى من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم فى نقل البضائع ؛ وقد عرفت للاوربيين باسم « Chaland » • ومنها ، «القراقير» جمع «قرقورة» ؛ وهى من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للاسطول • ومنها ، « الحمالات » جميع « حمالة » ، التى تحمل الذخيرة للاسطول •

وبالاضافة الى هذه القطع الرئيسية ، عرف المسلمون قطعا اخرى اصغر ؛ منها : « الطرادات » جمع « طراد » او « طرادة » ، وهى سفن حربية صغيرة على هيئة البراميل ، بدون سطح ، تستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها • ومنها ، الشبابيك » جمع « شبك » او « شباك » ، وهى سفن ذات ثلاثة قلاع ، وقد تسير بالمجاذيف • ومنها ، « الفلايك » جمع « فلوكة » و « الزوارق » او « الزواريق » جمع

(١) الخطط ، ٢ ص ٣٦٩ س ١٣ • يسميها المقريزى : « بطشة » •

« زورق » و « والقوارب » جمع « قارب » ، و « القياسات » جمع « قياسة » (١) ، وجميعها مراكب تسير غالبا من غير شراع ؛ وتستعمل فى نقل الاشخاص والازواد .

ولدينا أسماء مراكب خاصة بالانهار ، مثل تلك التي وجدت في الفرات ، وهي : « الطيارات » و « السميريات » و « الزبازب » (٢) ، وتلك التي وجدت في النيل ، وهى «العشاريات» جمع«عشارى»(٣)، التي أصبحت تعرف أيضا باسم « حراقة » ، ومما كان يستعمله الخليفة الفاطمى منها عرف باسم «دواميس» جمع «ديماس» (٤) ، توصف على ان طول الواحدة منها خمسون ذراعا ، وعرضها ستون ، وعليها بيت اى قبة . كذلك المراكب المسماة : « العلابيات » و « الحمائم » و « السنابك » كانت تسير فى النيل (٥) .

اما معلوماتنا عن مراكب المحيطات ، فيظهر من كتب الجغرافيين المسلمين انها كانت تسير فى معظمها ، فمنذ ان فتح سندباد ، الأمير الهندي الأسطورى ، طريق تجارة الهند الى الشرق (٦) ؛ فان هذا الطريق اصبح معروفا للمسلمين ، وتوسعوا فيه الى ان وصلوا الى سواحل الصين عند ميناء خنفو (خانكوا) (٧) ، او كانتونج الحالية . وقد كانت مراكب المحيطات كبيرة جدا تتألف غالبا من طبقة واحدة ، وذات سارية « دقل » واحدة ، وكان الوصول الى سطحها يضطر الراكب

(١) عن هذه ، انظر . السلوك ، ٢ ص ٣٣ س ٤ وهامش (٢) ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, P. 431.

(٢) الكامل ، ٧ ص ٥٩ ؛ انظر . متز ، تاريخ الحضارة ، ترجمة أبى ريدة ، ط ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٥ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٧٣ ؛ صبح ٣ ص ٥١٧ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٨٦ ــ ٨٧ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٢٩٢ س ١٩ .

(٦) انظر . Mazahéri : La Vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age ; Xe au XIII le siécle. Paris, 1951, P. 280.

(٧) عنه ، انظر . ماجد والبنا ، الأطلس التاريخى ، خريطة رقم ١٦ .

الى استعمال الســلاليم عشرات من الاقدام (١) . ويصف الرحالة ابن جبير (٢) (ت ٦٠٦/٥٠٢) ، نوعا من المراكب ، التى كانت تسير فى البحر الاحمر (القلزم) ، لنقل الحجاج الى الحجاز ، وهى تسمى « جلاب » جمع « جلبة » ، يبنى بطريقة عجيبة ، لا يستعمل فيها مسار البتة ، وانما خشبها مخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخيل ، ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع او بدهن سمك القرش ــ وهو احســنها ــ وذلك لتليين الأعواد ؛ فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير ، وتجعلها غير صالحة ، وكانت هذه المراكب لخفتها تحمل على ظهور الجمال ، وهى تسير بالمجاذيف او الشراع المفتول من الخوص .

اما عن رجال الأسطول ، فكان معظم الملاحين فى اول الأمر من اهالى البلاد المفتوحة ؛ وان كان المقاتلة من العرب . ولما اسلم أهالى البلاد المفتوحة ، اصبحت الخدمة فى الأسطول منهم ، وكانت قائمة دائما على اساس مبدأ التطوع ، وذلك لأن الخليفة عثمان حينما امر بتاسيس الأسطول العربى ، قرر ذلك بقوله : فمن اختار الغزو طائعا فاحمله (٣) . وحتى فى القرن الرابع الهجرى فى مصر ، لم تكن الدولة الفاطمية تجبر احد على العمل فى الاسطول ، ومن يعملون فيه يسمون : « المجاهدين فى سبيل الله ، والغزاة فى اعداء الله » . ولكن فى عصور اخرى مثل فى اواخر حكم الأيوبيين وعصر المماليك، الذين لم يهتموا بالأسطول بقدر اهتمامهم بالجيش ، كان النــــاس يجبرون على العمل فى الأسطول ، ويسمى الواحد منهم : «اسطولى» وهى تسمية لم تكن تعجب العاملين فيه .

وقد كانت الخدمة فى اسطول الفاطميين مثلا فى غاية التنظيم ؛ وان كانت معلوماتنا عنها قليلة . فقد كان عدد قواد الأسطول المدرجين

(١) انظر . Marco Polo 1, 18 ; III, 1. ، نقلا عن : متز ، ترجمة عربية ، ٢ ص ٣١٤ ــ ٣١٥ ـ كلمة الدقل تسمية لمراكب بحر الصين بدلا من الصارى . مروج ، ط . مصر ، ١ ص ٧٤ .

(٢) تحقيق نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٤ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٥ .

فى ديوان الجهاد يزيد على خمسة آلاف فى آخر عهد الدولة ؛ على راسهم عشرة من اعيان القواد البحريين ، يراسهم جميعا رئيس عرف باسم : « رئيس الأسطول » أو « مقدم » . وهذا العدد لا يدل بطبيعة الحال على عدد المقاتلة أو البحـــارة ، الذين كان عددهم ولابد كبيرا جدا . كذلك كان يغلب على من يقود الأسطول اسم : « أمير البحر » ، وهذه الكلمة انتقلت الى أوربا فى لغة فرنسا باسم : « Amiral » وفى الانجليزية باسم : « Admiral » ، وفى البرتغالية باسم : « Almirante » .

أما أسلحة الأسطول ، فكانت تشبه من اوجه كثيرة أسلحة الجيش ؛ نميز منها – كما هو فى قول القلقشندى (١) – القسى – التى تشـــد باليد وهى العربية ، وبالرجل وهى الأفرنجية . وكانت المراكب الكبيرة تزود على الخصوص بالمنجنيقات لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، وبالكلاليب (٢) ؛ وفائدتها أنها تلقى على مراكب العدو ، فيوقفونها ، ثم يشدونها ؛ ويرمون عليها الألواح كالجسر ، فينتقلون اليهـــا ، ليقاتلوا من فيها . وكان ضمن معدات السفن الحربية ايضـــا ادوات الحصار ، مثل الأبراج والدبابات والسلاليم ، وحتى الحبـــال (٣) التى انتقلت الى اللغات الأوربية باسم : « Cable » . كذلك كان الأسطول الاسلامى يستعمل النـــار الاغريقية منذ العصر الأموى ، ويستخدم نوعا من النفط يسير على الماء دون ان ينطفىء ؛ فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو (٤) . وكانت ومراكب المسلمين ، تحتمى من نار العدو بتغطية هيكلها بدرع من الخارج سمى : « لبوس » ، عليه غطاء ســمى : « لبود » ، من جلود البقر الطـــرية أو من البسط (٥) ، اما الرجال فيحتمون من الحريق ، بدهن اجســـامهم

(١) صبح ، ٣ ص ٥٠٨ س ٢ – ٣ .

(٢) الكامل ، تحقيق Tornberg ، ١٠ ص ٣٤٣ س ٨ . عنها ، انظر . Dozy : Suppl, 2. P. 481. ؛ نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٢٦ .

(٣) صبح ، ١٠ ص ٤١٣ س ١١ .

(٤) انظر . مصنف مجهول ، تحقيق وترجمـــة Cahen ، نص ، ص ١٢٢ – ١٢٣ ؛ ترجمة نص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ س ١٤ .

بالبلسان (١) ؛ وهو نوع من النبات .

وجرى العرف عند الخلفاء الفاطميين على ان يقوموا بتوديع الاسطول قبل خروجه للحـــــرب ، وهو ما عرف بالمودعة . فيحضر الخليفة بصحبة وزيره والاعيان الى ساحل النيل عند ميناء المقس ؛ فكانت المراكب قبل ان ترحل تقوم أمام الخليفة « بالحركة » ، أى المناورات ؛ كما يفعل تماما فى حالة القتال . فكان الخليفة الفاطمى فى هذه المناسبة يدعو للأسطول بالنصرة والسلامة ، ويوزع النفقة على رجال الاسطول ، كما يمنح القواد الخلع .

ولم يترك لنــــا المؤرخون معلومات وافية عن الملاحة البحرية ؛ ولكن يمكننا أن نؤكد أن العرب ساعدوا على تقدم فن الملاحة . فيشير المؤرخ المسعودى (ت ٣٤٥/٩٥٦) الى تلك العلوم البحرية (٢) ، التى يتوارثها الملاحون ويسترشدون باحكامها ؛ فيستطيعون التنبؤ بمجىء الرياح ، فيقول : « ولكل من يركب هذه البحار من الناس ، ارياح يعرفونها فى اوقات تكون فيها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ودلائل وعلامات ، يعلمون بها ابان هيجانه واحوال ركوبه وثورانه » . بل الفوا الكتب العديدة فى فن الملاحة ، الذين اشهرهم على الاطلاق ابن ماجد (القرن التاسع/١٥ م) ، الذى يوصف « بالمعــــلم » « Malemo » ؛ فترك مؤلفات بحرية قيمة بالنثر والشعر ، اشهرها : « كتاب الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد (٣) » .

(١) صبح ، ١٠ ص ٤١٣ .
(٢) مروج ، طبعة مصر ، ١ ص ٥٣ .
(٣) مخطوط بالمكتبة الاهلية فى باريس ، برقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ . عنه ، انظر ايضا .
Ency (art Shibâb al — Dîn Ahmed B. Mâdjid) (4, 375. sqq.

كذلك اخترع المسلمون البوصلة (١) « Boussola » ؛ او نقلوها عن الصينيين ، وسموها الحك ، وهى الابرة المغنطيسية . ويقول المسعودى انه شاهد فى مصر آلة من حديد او من نحاس على شكل ثعبان تتحرك اذا جاء مغنطيس . فكان المسافرون فى البحر يضعون قدرا او طاسة به ماء بعيدا عن الرياح ، ويلقون فيه بابرة موضوعة فى خشب او بوصة على شكل صليب ، وياتون بحجر ممغطس كبير على حجم اليد ، ويحركونها نحو اليمين ، وبذلك تتحركالابرة من نفسها نحو الجنـــوب ونحو الشـــمال . ومن الطريف ان نذكر ان مراكب المسلمين ، كانت تتصل وهى فى البحر ببعضها البعض او حتى بمن فى البر عن طريق الحمام الزاجل(٢) ؛ وبيان ذلك انه كانفى مركب قائد الاسطول والمراكب الأخرى اقفاص الحمـــام الزاجل . كما كان مركب رئيس الأسطول الفاطمى يزود بفانوس خاص لكى تراه المراكب الأخرى ، فتهتدى به (٣) .

اما عن الدفاع الساحلى ضد غارات الأعداء ؛ فهو يشبه ما كان يتبع فى موانىء العصور الوسطى . فقد كانت كلمة ميناء تطلق على المكان ، الذى ترسو فيه السفن ، ويشبهونها بالاسطبل (٤) ، ظهره ناحية المدينة ، ولها حائطان داخلان فى البحر ، وعلى امتدادهمـا

(١) ابن ماجد ، المخطوطة السابقة ، ورقة (٦) ؛ مروج ، ط . مصر ، ١ ص ١٧٣ ؛ الخطط ، ١ ص ٣١٦ ؛ انظر . Sédillot :

Matériaux pour servir à l'histoire composée des sciences mathémitiques chez les Grecs et les Orientaux : Klaproth. ; Paris, P. 31 sqq.
Lettre sur l'invention de la Boussole. Paris, 1834 ; Ency. (art Maghnatîs) t3, p. 109 — 111.

؛ بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥٠ ، ص ٢ .

(٢) الكامل ، ٩ ص ١٩ ؛ انظر . Amari :
Bibliotheca Arabd — Siculia. Lepsia., 1887, p. 293
ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٢٧ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٢٧٣ س ٢٢ – ٢٣ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ، ص ٣١٣ .

مدخل مفتوح ، وقد شدت السلاسل بين الحائطين ، فاذا اريد ادخال سفينة الى الميناء ، ارخيت السلسلة (١) ، حتى تغوص فى الماء ، فتمر السفينة فوقها ؛ ثم تشد السلسلة حتى لا تتمكن مراكب العدو من دخول الميناء . كذلك توضع العرادات – وهى منجنيقات – حول الموانىء لضرب السفن التى تهاجمها ، او تبنى القلاع(٢) لحمايتها؛ وتوضع فيها المدافع أو المكاحل (٣) .

وكان الاسرى الذين يؤتى بهم ، ياخذهم الخليفة ؛ اما المال والغنائم فلرجال الاسطول . وكان الخليفة الفاطمى ياخذ الاسرى من النساء ويدخلهن فىحريمه ، او يهدى بعضهن الىكبار رجال الدولة ، كما كان يلحق الصبيان (٤) من الاسرى بحرسه الخاص ، او يتربون فى اماكن خاصة ؛ بحيث انه كان فى عهد المماليك يرتقى بعضهم الى رتبة الامراء . اما من يستراب به من الاسرى ، او من كان من الشيوخ الذين لا ينتفع بهم ؛ فانه كان لا يتردد فى امضاء حكم السيف فيهم .

*

هذا هو ملخص للتنظيم السياسى الدقيق ، الذى كان يعم خلافة الاسلام .

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٣٤٧ س ١٦ – ١٨ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٢٩٣ س ٨ .
(٣) ابن ايلس ، ٣ ص ٩ س ٢٥
(٤) يسمون الترابى . انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٦٩ س ٢١ .



الفصل الثانى

المجتمع

تكوين المجتمع ـ المدينة ـ الزى ـ الحياة الاجتماعية ـ خصائص القصور ـ الرسوم ـ انواع التسلية ٠

مالدينا من حياة المسلمين ، لا يعرفنا عنهم كثيرا ؛ لأن قليلين من الكتاب تعرضوا للناحية الاجتماعية ؛ ومع ذلك ؛ فان مالدينا من معلومات ، يعطينا صورة واضحة عن المجتمع الاسلامى ٠

* * *

وقد كان المجتمع الاسلامى معقدا من الناحية الاثنلوجية ، يتكون من اجناس متعددة ؛ وان كان الاسلام دينا ، وليس جنسا كما هو الحال عند اليهودية مثلا ، كذلك لم يصحب الفتح الاسلامى هجرات او موجات كبرى ، كتلك التى حدثت فى أوربا فى اوائل العصور الوسطى ؛ ذلك لأن العرب دخلو البلاد كفاتحين ، ولم ينتقلوا اليها كمهاجرين ؛ وان حدثت لهم هجرات محددة فيما بعد ٠ ونستطيع ان نميز فى المجتمع الاسلامى الأول عنصرين هامين : اولا : العرب ، وثانيا : اهالى البلاد المفتوحة ٠

فالعنصر الأول وهو العرب : وجد فى داخل الجزيرة العربية واطرافها ، وفى رجال الجيش والقبائل ، الذين انتقلوا مع حركة الفتوح ليسكنوا الامصار ٠ وقد كان اغلب العرب عند بدء حركة الفتوح من المسلمين ، ومن لم يكن منهم على غير الاسلام ، فيسمى : بالعرب المتنصرة او روم العرب كما فى الشام (١) ، او بالعباد للدلالة على

---

(١) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١٢١ ؛ الطبرى ١ : ٢١٠١ .

انهم عرب العراق النصارى (١) ؛ وان كان سرعان ما تحول هؤلاء الى الاسلام ، واصبح العرب عموما يكونون مادة الاسلام .

اما اهالى البلاد المفتوحة : فكانوا يسمون فى اول الامر : « رعية » (٢) ، بمعنى ان العرب رعاتهم ، أو اهل ذمة وكتاب ، اى انهم غير مسلمين ؛ وان كانت لهم كتب سماوية أو شبه سماوية ، يكونون فى ذمة العرب الذين يدافعون عنهم ، ويدخل فيهم النصارى واليهود والمجوس والصابئة (٣) . وكان معظمهم يقيمون فى بلادهم بناء على معاهدات امان أو صلح ، أو انهم خضعوا للعرب بحكم فتح بلادهم عنوة . وقد اصبح امان نجران (٤) ، الذى امضاه النبى مع نصارى هذه المدينة ، النموذج الذى يعترف بحقوق اهل الذمة فى بلاد الاسلام . ولكن عمر بن الخطاب هو الذى وضع لهم شروط تنظيم تصرفاتهم فى المجتمع الاسلامى ؛ عرفت بالشروط العمرية (٥) . وبعد ذلك ، زاد عليها الفقهاء او الخلفاء ، مثل الزى الذى عرف باسم : « الغيار » (٦) . فكان غيار الرجال خيطا ملونا على الكتف ، أو حزاما حول الوسط « زنارا » ، او صليبا او طوقا حول العنق ، وغيار النساء خفين احدهما ابيض والآخر اسود ؛ وغير ذلك .

ولما اختلط العرب ببعض اهالى البلاد المفتوحه عرف اولادهم

---

(١) المسعودى ، التنبيه ، ص ٧ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٠ س ٨ ؛ انظر . أحمد بن محمد ، المصباح المنير ، القاهرة ١٩٠٩ ، ١ ص ٣٥٤ .

(٣) الاحكام ، ص ١٢٨ .

(٤) مؤلف مجهول ، تاريخ النسطوريين ، نشر وترجمة Scher (فى مجموعة . Pat. Or.) ، ص ٦٠٠ ــ ٦١٨ ؛ انظر . حميد الدين ، مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٨٥ وما بعدها (٩٦ ــ ٩٧) .

(٥) الكامل ، ٧ ص ٢٤٠ وهامش .

(٦) نهاية الرتبة ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ؛ انظر . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٤٣ .

« بالابناء » (١) اى تجرى فى عروقهم دماء عربية ، وهو اسم قديم ظهر فى اليمن قبل الاسلام . ولما اسلم بعض اهالى البلاد المفتوحة اصبح يطلق عليهم فى عهد الدولة الأموية « الموالى » (٢) ، اى انهم يدينون بالولاء للعرب ، او حتى «المولدين»(٣) ، اى الذين هم من اصل عربى واسلموا ، ولا سيما فى اسبانيا . ولما سقطت الخلافة الأموية التى اعتمدت على عنصر العرب وحدهم ، وقامت الخلافة العباسية التى اعتمدت على الشعوب المفتوحة ، وتحول معظم هؤلاء للاسلام ، اصبحوا يعرفون بالمسلمين ، وسميت بلاد الخلافة ذاتها بدار الاسلام ؛ بمعنى اصطلاحى يشمل المسلمين وغير المسلمين .

اما من ناحية تقسيم المجتمع الاسلامى ؛ فانه وان كان لابد ان ينقسم الى طبقات ـ شأن اى مجتمع آخر ـ الا انه من المفروض ان لا يقسم الى درجات ؛ لما جعلته العقيدة الاسلامية من اخوة بين المسلمين ، كافراد متساوين فى اطار امة واحدة . ومع ذلك ؛ فقد وجدنا تقسيما للمجتمع الاسلامى فى ايام العباسيين ، تظهر فيه عقلية العصر فى تصور طبقاته . فهو ينقسم الى اربع طبقات (٤) : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية انهضهم اليسار ، واوساط الحقهم بهم التأدب ، اما الناس بعدهم فزبد وجفاء .. لكع ولكاع .. وفى رأينا ان هذا التقسيم للمجتمع الاسلامى غير دقيق أو محدد ، وانما يكون كالآتى :

اولا : طبقة الحكام ، وهم الخليفة والأمراء والوزراء والولاة .. الخ ، اى بعامة رجال الحكم فى الدولة الاسلامية . وهم عادة يكونون منعصبية واحدة ؛ اذ ان ابن خلدون لا يرىرياسة بدون

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٤٦ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٠٥ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ ؛ لسان ، ٢٠ ص ٢٨٨ وما بعدها ؛ انظر . النجار ، الموالى فى العصر الأموى ، القاهرة ١٩٤٩ ؛
Kremer ; Ency (art Mawlá) t3 p. 479 : Giuturgeschichte, des Islams unter den Chalifen. Vienne, 1875-1877, 2, p. 154 suiv.

(٣) مالك ، الموطا ، ط . كلكتا ، النكاح ، ص ١٩٦ .

(٤) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ط . Leiden ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١ ؛ انظر . متز ، الحضارة الاسلامية ، ترجمة ، ١ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

عصبية (١) ؛ وان كان استقرار الحكم قد يجعل الحكام يستغنون عن العصبية . وهؤلاء جميعا كانوا من العرب فى اول الامر ، ثم اصبحوا من اجناس مختلفة من اهالى البلاد المفتوحة ، او حتى من الرقيق الذى كان الحكام يشترونه بالمال ويربونه ؛ ليعاونهم فى الحكم .

وقد كان افراد اسرة النبى او اهل البيت او بنى هاشم ، يدخلون فى هذه الطبقة الارستقراطية منذ عهد مبكر ، وتميزوا فيها باسم : الاشراف . فقد نص القرآن على حب آل البيت ، واعتبر ذلك قربى لله (٢) . وقد احصى هؤلاء ايام المامون العباسى (١٩٨ ــ ٨١٣/٢١٨ ــ ٨٣٢) ، فكانوا ثلاثين الفا بين رجال واناث (٣) ، واحصى مثلهم ايام العاضد الفاطمى (٥٥٥ ــ ١١٦٠/٥٦٧ ــ ١١٧١) ، فبلغوا عشرة آلاف شريف وشريفة (٤) لذلك اصبحوا يكونون نقابة عرفت باسم : نقابة العباسيين او الطالبيين او الاشراف (٥) ؛ لهــا ديوان يثبت فيه انسابهم ، وشيخ له حق القضاء بينهم ، والتدخل فى زواجهم ، حتى لا يمتهن النسب الشريف . بل وفى عهد المماليك ، كان الاشراف يتميزون بزى خاص ، وهو ان يجعلوا زوائد « شطفات » فى عمائم خضر (٦) .

ومع ذلك ؛ فان وجود هذه الارستقراطية الجماعية لم يكن لهــا وجود قبل الاسلام ؛ اذ ان الارستقراطية عند العرب فردية ، تقوم على الصفات الشخصية ؛ وحتى فى اوائل الاسلام ، فهى ارستقراطية التقى (٧) . ولكنها ــ كما راينا ــ بعد ذلك ، اصبحت ارستقراطية

---

(١) المقدمة ، ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) القرآن ٤٢ : ٢٣ ، عنهم ، انظر .
Ency. (art Ahl al-Baït) t1, p. 187 ; (art Sharif) t4, p. 336-34.

(٣) المقدمة ، ص ١٣٨ س ١٣ . يقول المسعودى ثلاثة وثلاثين الفا ، مروج ، ط مصر ١٢٨٣ هـ ، ٢ ص ٢٥٩ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٣٩٦ س ٨ .

(٥) الاحكام ، ص ٨٢ وما بعدها ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٥ ــ ٤٨٩ .

(٦) ابن اياس ، ١ ص ٢٢٧ س ٥ ؛ انظر . Dozy : Suppl. I, P. 759.

(٧) القرآن ٤٩ : ١٣ .

اسرات او عصبيات . فلدينا كتب تتناول تاريخ هذه الارستقراطيات ، مثل : « انساب الاشراف » للبلاذرى(١) (ت٢٧٩/٨٩٢) .

ثانيا : طبقة رجال الدين ، وهم فى الاسلام قوام المساجد والقراء والفقهاء والخطباء والقضاة والشهود ... ومع ذلك ؛ فلم يكن لهذه الطبقة الدينية مظهر كهنوتي ؛ ذلك لأن الاسلام لم ينشىء طبقة رجال دين ، كما هو الحال بالنسبة للأديان الأخرى ؛ وانما ظهرت هذه الطبقة نتيجة لحاجة المسلمين القيام بواجبات دينهم . ولكن الحكام المسلمين ، لغايات سياسية ، جعلوا لرجال هذه الطبقة سلطة كبيرة ، لم يخو لها لهم الاسلام .

ثالثا : طبقة ارباب السيوف ، وهم كما يظهر من اسمهم يشتغلون بالحرب . وفى اول الامر ، كان معظمهم من العرب ؛ لأن اهالى البلاد المفتوحة لا يحاربون ، وانما فى ذمة العرب ، الذين يدافعون عنهم . ولكن لما اسلم اهالى البلاد المفتوحة ، من عناصر الفرس والترك والديالمة والسودانيين والمصريين ، كونوا قسما هاما فى الجيش الاسلامى . ولأهمية هذه الطبقة المحاربة ؛ اصبح لها امتيازات خاصة ، مثل ركوب الخيل ، فى حين ان المدنيين لا يسمح لهم الا بركوب الحمير (٢) . وهذه الطبقة اذا ما ضعفت الطبقة الحاكمة سيطرت على شئون الحكم .

رابعا : طبقة ارباب الاقلام ، وهم كما يظهر من اسمهم يعتمدون على صناعة القلم ، اى الكتابة ؛ فكان يطلق عليهم الكتاب ، مفردها كاتب . وهذه الطبقة معظمها فى اول الامر من رجال اهل الذمة ؛ لمعرفة هؤلاء بالكتابة دون العرب ؛ فكانوا يشتغلون فى دواوين الخلافة ؛ مما جعل المجتمع الاسلامى فى حقيقة الامر محكوما باهل الذمة . وقد كان

---

(١) حققت منه اجزاء ، ويوجد كاملا فى القسطنطينية فى جزءين عنه ، انظر :

Les Livres des Généologies d'al - Baladhury. Bull, : Hamidullah d'Et. Or. tXIV. Damas, 1952-54.

(٢) سفر نامه ، ٦٢ .

هؤلاء يكتبون بلغاتهم الأصلية فى الدواوين ، ولكن منذ عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد ، صار قلم الدولة هو العربية .

خامسا : طبقة ذوى المهن من سكان المدن ، وهم من أصحاب الحرف والتجار ؛ لأن هؤلاء يتجمعون فى المدن . وكان معظمهم من أهالى البلاد المفتوحة أو حتى من العبيد ؛ لأن العرب اشتغلوا بالجندية بعد اسلامهم ، ومن الأصل أبعد الناس عن الصنائع لبداوتهم ؛ كما يقول ابن خلدون(١) . وقد كان من اثر الفتح العربى استقرار الحياة فى المدن ؛ مما أوجد نهضة صناعية وتجارية فى دار الاسلام . وكانت العصور الوسطى الاسلامية تتميز بالتخصص فى الصناعات والتجارة (٢) ؛ مما أدى الى نشأة نظام النقابات ، الذى يعتبر النظام الشعبى الوحيد فى الخلافة الاسلامية . فقد كانت كل طائفة من التجار وأصحاب الحرف ، تتجمع فى مكان واحد تتسمى به . وكان نتيجة ذلك،ايجاد تدرج مهنى فى الجماعة الواحدة من : شيخ ومعلم ومتعلم وصانع وصبيان ؛ كما وجدت تقاليد معينة لكل صناعة وتجارة . ومثل هذا النظام النقابى عرف عند الرومان والروم ، وفى مدن اوربا ؛ باسم : « Collegia » (٣) . ولكن بينما كانت بيزنطة لا تجيز لليهود الالتحاق بالنقابات ؛ فان الدولة الاسلامية اجازته لأهل الذمة ؛ ولا سيما أن العرب اشتغلوا بالجندية بعد اسلامهم ، وتركوا الصنائع كما ذكرنا .

ونعرف من أسماء بعض طوائف الصنائع والتجار فى مدن الاسلام فى العصور الوسطى ، الآتى (٤) : الحبوبيين ، والدقاقين ،

---

(١) المقدمة ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ .

(٢) نهاية الرتبة ، ص ١١ ؛ انظر . Clerget :

Le Caire. Etude de géographie urbaine et d'histoire, économique. 2 Vols. Le Caire, 1939

Ency. (art Cinf) t4. p. 455-6 ;

؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

(٣) انظر ، cf. : Rostovtseff, History of the Roman Empire.

; Pirenne : Mediaeval cities. Princeton, 1939. ؛ الباز العرينى ، كتاب عن الحسبة فى بيزنطة ، فصلة كلية الآداب ١٩٥٧ ، ص ١٣٦ ؛ عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٢ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٤) نهاية الرتبة ، ص ٢١ وما بعدها ؛ وغيره .

والخبازين ، والفرانين ، وصناع الزلابية - نوع من الحلوى - ، والجزارين - يذبحون الماشية - ، والقصابين - يبيعون اللحم - ، والشوائين ، والرواسين - بائعي الروس والاكارع (جمع اكرع) - وقلائي السمك ، والطباخين ، والهراسيين ، والنقانقيين - صناع المصارين المحشوة باللحم والتوابل والبصل - والحلوانيين ، والصيادلة ، والعطارين ؛ والشرابيين - كالصيادلة - والسمانيين - بائعي السمن - ، والبزازين - بائعي الثياب - ، والدلالين - المتوسطين في البيع - ، والمنادين ، والحبالين ، والبذوريين - بائعي التوابل - ، والطباقين - صانعي الصواني - ، والابارين - بائعي الابر - ، والحاكة - ينسجون الغزل قماشا - ، والخياطين ، والقطانيين - يندفون القطن - والكتانين ، والحريريين ، والصباغين ، والاساكفة ، والصاغة ، والنحاسين ، والحدادين ، والبيطرة ، ونخاسي العبيد والدواب ، وقوام الحمامات ، والفصادين ، والحجامين - التشريط مثل الفصد - والاطباء ، والكحالين - لامراض العيون - ، والمجبرين ، والجرائحيين ، والجنائزيين ، والوراقين ، ومؤدبي الصبيان .

سادسا : طبقة الفلاحين او الزراع ، وهم غالبية سكان البلاد المفتوحة ؛ حيث ان العصور الوطسى لم تكن تعتمد في حياتها الا على الزراعة ، اما الاعتماد على الصناعة ؛ فلم يظهر الا في العصور الحديثة ، التي يؤرخ لها بظهور حركة التصنيع . وقد كانت هذه الطبقة تسكن القرى والمراكز أو النواحي (١) ، وهذه الاخيرة هي مجموعة قرى ؛ وان سميت قديما في مصر « بالكور » ، نقلا عن الكلمة اليونانية « Curia » (٢) ، وفي فارس « بالرساتيق » (٣) ، وهي كلمة فارسية . وهذه الطبقة في دول الاسلام في العصور الوسطى ، كانت في حالة اجتماعية سيئة ؛ لان الاراضي اصبحت ملكا

---

(١) ابو صالح : الكنائس ، تحقيق Evetts ، (١٧ - ١٩) ص ١٠ - ١١ . مفردها ناحية .

(٢) الخطط ، ٢١٦١ . مفردها كُورة .

(٣) روستاق من روستاى أوروستا . انظر : Steingass

A Comprehensive Persian English Dictionary. 3 ed. London, 1947, P. 594.

للحكام ، ويعمل الفلاحون فيها بالاجر او بالسخرة ؛ اذ انه لم يفرق بين البلاد التى فتحت عنوة والبلاد التى فتحت صلحا . وفى العصر العباسى ، ظهرت طبقة من كبار المزارعين نتيجة لظهور نظام التزايد ، وهو الالتزام او قبالات الارض ، بتاجير مقاطعة كبيرة من الارض لمدة معينة الى شخص واحد ، يسمى متقبل او ضامن او ملتزم (١) ، اما بقية الفلاحين فهم اشبه برقيق الارض . ونجد ذكر الصراع ضد الهاربين من العمل فى الارض ، فى جميع كتب مؤرخى الاسلام (٢) ؛ ولمنع هروب الفلاحين ؛ فانه كان يحرم على الفلاحين الهجرة الى المدن . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ٧١٧/١٠١ - ٧٢١) السماح لاهل القرى فى ان يذهبوا الى الامصار او المدن للاستقرر فيها (٣) ؛ ولكن الحال ما لبث ان عادت الى ما كانت عليه بعد وفاته . ومع ذلك ، لم يعرف الاسلام الاقطاع كما عرفته اوربا ، وهو النظام الذى يجعل الفلاحين ملكا للمقطع « Serfs » ؛ وان كانوا فى دول الاسلام ملكا للارض .

سابعا : طبقة اخيرة فى هذا المجتمع ؛ وهم الرقيق . وقد كان الاسلام على عكس القوانين السائدة قبله ، يضع قيودا صريحة للحد من نظام الرق ؛ كما انه وجد فى الاسلام تشريع يضمن لمن يعتنق الاسلام حق المواطن.ومع ذلك ؛ فالرقيق وجد فى المجتمع الاسلامى؛ كما وجد فى كل مجتمع آخر فى ذلك الزمن ، ولم يستطع الاسلام ان يزيله ، على الرغم من ان نظام الرق لا يعمل على احترام النفس البشرية . وعلى النقيض اكثر المجتمع الاسلامى من اى مجتمع آخر سابق من استخدام الرقيق ، وبالغ فى ذلك مبالغة زائدة ؛ فكانت قصور المسلمين وبيوتهم مليئة به . وقد كان اكثر الرقيق فى الشرق الاسلامى من السود ، بسبب ان الدولة الاسلامية امتدت الى القارة السوداء فى اكثر من مكان ، ونجد السود فى عصر الخلافة العباسية

---

(١) انظر . قبله .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٣٣ س ٥ .

(٣) مصنف مجهول (لعله جزء من كتاب انساب الاشراف للبلاذرى) تحقيق Ahlwardt ، طبعة Greifswald ، ١٨٨٣ ، ص ٣ . ايضا العقد ، ٢ ص ٩٢ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٦٣ .

يقومون بثورة عارمة ، عرفت بثورة الزنج (١) ، دامت من ٢٠٥ – ٨٦٨/٢٧٠ – ٨٨٣ . ولكن بعد هذه الثورة وحتى قبلها ؛ اكثر الشرق من استخدام رقيق ابيض من عنصر الترك فى وسط آسيا ، الذين كانوا يبيعون اولادهم ليعيشوا (٢) . كذلك بالنسبة لمسلمى المغرب والأندلس ؛ فانهم جروا على استخدام رقيق ابيض من عنصر الصقالبة " Eslavos " – مفردها صقلب او سقلب – الذين يجلبون من وسط اوربا (٣) .

ومع ذلك ؛ فان الرق فى الاسلام كان احسن حالا من مثيله فى اوربا ؛ وذلك لأن الاسلام يبيح الزواج من الاماء والجوارى ، وهن مؤنث عبد او عبيد (٤) ، وان الأمة اذا انجبت فتسمى ام ولد (٥) ، وتصبح حرة بموت سيدها قانونيا " Ipso Jure " ، وابنها او ابنتها يكون حرا . هذا مع أن الشرع المسيحى يمنع اقتراب الرجل من امته ويعده زنا ، ويخول الزوجة بيع جاريتها . كذلك كان العبد يستطيع أن يشترى حريته بدفع قدر من المال ، وفى هذه الحالة يكتب له صك بحريته(٦) . وقد دعا الاسلام نفسه الى تحرير الرقيق ، وهو ما عبر عنه بقوله : « فك رقبة » و « تحرير رقبة » (٧) ، واعتبر قربى لله .

---

(١) الطبرى (ط . de Goeje) ٣ ص ١٤٧٢ – ١٧٨٧ ؛ ١٨٣٥–٢١٠٣ ؛ انظر . Ency. (art Zandj) t4, P. 1281-2

(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢ ؛ صبح ، ٤ ص ٨ ، ٤٥٨ .

(٣) الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ٤ ص ١٨٤ ؛ انظر . مختار العبادى ، الصقالبة فى اسبانيا ، مدريد ١٩٥٣ ؛ Ency. (art Sakâliba) t4, p. 79-80 ; (art Slaves) t4, p. 487 sqq
اخذت من هذه الكلمة الكلمات الاوربية التى تدل على الرقيق ، كما فى الفرنسية والانجليزية . "Esclave" و "Slave"

(٤) لسان ، ١٢ ص ٣٨٣ ؛ انظر . Ency. 2ed, (art Abd) t1. P. 25 sqq

(٥) الموطا ، كتاب النكاح ، ص ١٩٥ ؛ ابن حنبل ، مسند ، القاهرة ، ١٣١٣ هـ ، ٦ ص ٣٦٠ ؛ ابن سعد ، ٨ ص ١٥٥ س ٢٠ ؛ النويرى ، ٩ ص ١٣٥ ؛ انظر . Ency. (art Umm al - Wald) t4, P. 1066-9.

(٦) السرخسى ، كتاب المبسوط ، مصر ١٣٢٤ هـ ، ص ١٠٨ – ١٣٢ ؛ انظر . جبور ، الجوارى ، كتاب اقرأ ، رقم ٦٠ ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١١٧ .

(٧) القرآن ٩٠ : ١٣ ، ٢٤ : ٩٢ ، ٥٨ : ٣٥ ؛ البخارى ؛ كتاب العتق ، انظر

وحفظا لكرامة الرقيق ؛ فانه جرى العرف منذ العصر الاسلامى الأول على أن يسمى الصبى فتى والأمة فتاة . ولا ادل على ان حالة الرقيق فى الاسلام افضل من غيرها ، من ان الرقيق كونوا طبقة تبلغ طبقة الأرستقراطية الملكية ، نتيجة لضعف السلطة المركزية فى معظم دول الاسلام ؛ وانه فى مصر بالذات ظهرت لهم دولة كبيرة ، عرفت بدولة المماليك ، استمرت اربعة قرون ، وكذا فى شمال الهند ظهرت لهم دولة ايضا .

اما من ناحية الجنس ؛ فاننا نلاحظ أن المجتمع الاسلامى فى العصور الوسطى له صفة مجتمع مذكر ، لا تشارك المراة الرجل فى الحياة العامة ؛ وقد اتت هذه الصفة من طبيعة التشريع الاسلامى . حقا ان الاسلام سوى ما بين الرجل والمراة امام الله ؛ الا انه لم يسو بينهما امام القانون ؛ فجعل للرجل درجة على المراة ؛ نظرا لأنه ينفق عليها ولقوته ؛ فاعطاه الحق فى وعظها او هجرها فى المضاجع اذا لم ترتدع ؛ او حتى ضربها(١) . كما اباح للرجل التزوج باربع نساء ، واخذ بنظام نكاح الاماء وهن الجوارى(٢) ، بل ذهبت بعض مذاهبه مثل الشيعة الى تحليل زواج المتعة ، الذى كان يوجد فى الجاهلية(٣) . ومع ذلك ؛ فان الاسلام كان مقيدا بنظم اجتماعية سابقة على مجيئه ؛ اذ ساد نظام تعدد الزوجات قبل الاسلام ؛ فلدينا أنواع متعددة منه ، كلها تدل على مدى الاباحية القائمة قبل الاسلام منها ؛ زواج المقت ووراثة نكاح الأمهات والأخوات .. الخ(٤) . فلم يكن اذن الاسلام يستطيع الخروج على هذه النظم الا بما يصححها ، ثم هو لم يرد أن ياخذ المجتمع الاسلامى بطريقة الطفرة او القوة ؛ لما يترتب على ذلك من اخطار قد تدمر اسس المجتمع ، وتاتى على اصوله . ولا يعنى هذا أن الاسلام هدفه مضايقة المراة ، او حتى

---

(١) نفسه ٤ : ٣٤ .

(٢) نفسه ، ٤ : ٣ ، ٢٤ : ٣٣ .

(٣) الأغانى ، ١٦ ص ٦٣ ؛ الموطا ، كتاب النكاح ، ص ١٩٦ ؛ انظر . Ency. (art Mut'a) t3, P. 826-7.

(٤) القرآن ٤ : ٢٣ ؛ النويرى ، ٣ ص ١٢٠ ؛ انظر . الآلوسى ، بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٢٤ ــ ١٩٢٥ ، ٣ ص ٥٣ .

اطلاق الامر على غاربه للجنس ، فالاسلام رفع من شـأن المرأة فى التشريع مما كانت عليه قبل الاسلام ، مثل حفظ حقوقها فى الزواج والاولاد والطلاق والاجور والمهر (١) ـ الذى اصبح حقا لها ـ وطلب استئذان البكر والايم فى نفسيهما قبل الزواج (٢) ؛ وحسن معاملة الزوجة ، بل اصبح للزوجة حق مفارقة الزوج ، اذا كانت العصمة بيدها ، او على الخلع منه " In Jure cessio " ؛ بان تقدم لزوجها المال ليطلقها اذا تبرمت بعشرته (٣) .

وفوق ذلك ، كان هدف الاسلام هو بناء المجتمع العائلى المستقر ، الذى تقابله فى اللاتينية كلمة : " Familia " ؛ فيشير القرآن كثيرا الى الاسرة مثـل : الاهـل ورحم البطن ، كما جعلت الجنة ـ فى الحديث النبوى ـ تحت اقدام الامهات . وقد نقل الاسلام الروح العائلية الى الشعوب المفتوحة ، التى طغت عليها المادية . وعلى هذا ، فكل ما يسعى الى هدم الاسرة من مذاهب فى وقتنا الحديث ، هو مخالف لروح الاسـلام .

اما من ناحية السياسة ؛ فان المجتمع الاسلامى لم يعرف الفرقة السياسية الا منذ الخليفة عثمان بن عفان ؛ بسبب التنافس على الزعامة فى حكم المسلمين ؛ وذلك لان الاسلام لم يشرع لصفة الحكم بعد موت النبى . وقد اخذ هذا التنافس السياسى صبغة دينية ؛ بحيث ظهرت فرق لها نظريات عقيدية ، تشمل السياسة والدين . فكانت هذه الفرق السياسية ـ الدينية تظهر وتختفى حسب تطور المجتمع الاسـلامى . واهم الفرق التى بقيت وقتا طويلا ؛ وقسمت المسلمين قسمين ، ولا تزال باقية الى الآن ، هما فرقتا الشيعة والسنة . فالاولى تعتبر من اقـدم الفرق ، ظهرت منذ عهد الخلفاء الراشدين او حتى قبل ذلك فى ايام النبى ؛ والثانية ظهرت فى العهد العباسى للرد على المذهب الشيعى فالشـيعة تقول بمبدأ الوراثة او المبدأ الملكى ، والسـنة تقول بمبدأ

---

(١) القرآن : سورة النساء ، انظر .

(٢) مالك ، الموطأ ، كتاب النكاح ، ص ١٨٩ .

(٣) نفسه ، كتاب الطلاق ، ص ٢٠٥ ؛ انظر . تاج العروس ، ٥ ، ص ٢٢١ (مادة خلع) .

الاختيار أو الجمهورى . بل اصبح لكل منهما عقيدة دينيـة معينة ، فعقيدة الشيعة : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، على ولى الله »؛ وذلك بقصد ان تكون الخلافة وراثية فى اسرة على ، بينما عقيـدة السنة : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ، دون ان تشير الى فـرد معين . فكان اغلب معتنقى مذهب السنة من نســل الفاتحين ، اما الشيعة فاغلبهم من اهالى البلاد المفتوحة من الفرس فى ايران ، وحتى فى مصر وجدت دولة شيعية ، هى الدولة الفاطمية .

* *

هذا المجتمع الذى وجد فى البلاد المفتوحة ، كان اهله يعيشون فى مدن وقرى ، تختلف فى طابعها عن اماكن سكنى اغلبية العـرب فى الجزيرة العربية ؛ الذين يسكنون الخيام من الوبر ؛ وان كان العرب المخضر قد عرفوا ايضا مدنا وقرى ، مثل تلك التى وجدت فى البـلاد المفتوحة . ولكن لأن العرب اصبحوا مسلمين ، لأنهم وصلوا الى البلاد المتحضرة ، كان ذلك سببا فى ان ظهر نمط جديد من المدينة ، يتناسب مع طبيعة العرب ، ومـــع روح الدين الجديد ، وحتى مع طبيعــة الشعوب المفتوحة . فكانت المدينة الاسلامية فى ظهورها متاثرة على الخصوص بالطابع الدينى لمدينة النبى ، التى كانت تسمى قبـــل الاسلام يثرب(١) ، وبالطابع الحربى للامصار ــ جمع مصر ــ وهى مدن انشئت لجنود الفتح لتكون معسكرات . هذا بالاضافة الى انهـا كانت متاثرة بنسق المدن التى عرفتها الشعوب فى البلاد المفتوحة . فهذا الخليط من التاثرات ، اوجد نمطا لمدينة اسلامية ، عم فى جميع بلاد دار الاسلام .

وقد كان المجتمع الاسلام فى اول الأمر مانعا من المغالاة والاسراف فى البناء ؛ فعمر بن الخطاب ينصح بعدم المطاولة فى البنـــاء فى الأمصار(٢) . ولكن بعد ذلك ، ظهر ان حكام الاسـلام يحبون اقامة المبانى الشامخة ؛ فكانت الملوك تبنى على حسب اقدارها ؛ بحيث كان الناس فى زمان الخليفة الأموى الوليد (٨٦ــ٩٦/٧٠٥ــ٧١٥) ، اذا

(١) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٢٤ وما بعدها .
(٢) الكامل ، ٢ ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ .

التقوا يسأل بعضهم بعضا عن النبأ(١) ؛ وذلك من كثرة ما بناه هذا الخليفة من مبان فخمة باقية ؛ فكان ذلك عاملا على تطور المدينـــة الاسلامية . وكان انفراط عقد الوحدة الاسلامية ، والمنافسة بين الحكام المسلمين ، الذين كانوا يجمعون العمال والمهندسين(٢) ، ويستفيدون بكل مؤهلات رعاياهم فى البناء ، ويخصصون الاموال الطائلة للصرف على العمائر ؛ حتى أنه خصصت للعمائر فى ميزانية الفاطميين مائـة الف دينار سنويا(٣) ؛ فساعد ذلك كذلك على تطور المدينة الاسلامية.

ولقد اصبح بناء مدينة جديدة فى الاسلام ، يتكافأ مع ظهور دولة جديدة . بلوجدنا من المؤرخينمن يؤلف فى تاريخ المدن : كالخطيب البغدادى(٤) ، (ت ٤٦٣/١٠٧٠) ، الذى الف : « تاريخ بغـــداد أو مدينة السلام » (٥) ، وكالمقريزى (ت ٨٤٥/١٤٤٢) الذى الف : « الخطط المقريزية » ، وهو تاريخ خاص لمدينة القاهرة وخططها ، التى انشاها الفاطميون ، وهى عاصمة مصر للآن . وقد كانت عادة المسلمين ان يتم بنـــاء المـدن على حسـب تنبؤات الفلكيين والمنجمين لمعرفة حظها المكتوب .

وقد كانت المدينة الاسلامية تخضع لقواعد عامة محددة . ولا ريب ان اهم شىء فيها هو المسجد(٦)؛فهو الذىيدل علىطابعها الاسلامى.

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١٣٧ .

(٢) انظر . أحمد تيمور باشا ، المهندسون فى العصر الاسلامى ، طبـع القـاهرة .

(٣) الخطط ، ١ ص ١٣٣ . تشمل أيضا مصاريف استقبال الضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم .

(٤) فى ١٤ جـزءا ، ط . مصر ١٣٤٩/١٩٣١ [أبـو بكر أحمـد بن على بن ثابت] .

(٥) وتسمى أيضا : المنصورية والزوراء ؛ وهذا الاسم الأخير مبهم الأصل.

(٦) أنظر المقالة القيمة جـدا فى Ency. (art Masdjid) t3, P. 362 sqq
وأيضا Hautecour et Wiet : Les Mosquées du Caire. Paris. ،
Lambert : Les origines de la mosquée. Stvdia Islamica, Paris, 1956, P. 5 sqq ؛انظر . بعده .

وقد وردت كلمة مسجد فى القرآن (١) ، وعرفت في الجاهلية على انها اسم الكعبة التى يطوف حولها الحجاج(٢) ؛ ولكن فى الاســلام اصبح المسجد هو مكان العبادة ؛ ولذا سمى ايضا : « بيت الله » . وكما كانت ساحة الكعبة لا يجوز القتال فيها ؛ وتعرف «بالحمى» او « الحرم »(٣) ؛ كذلك اصبح مجموع المسجد فى الاسلام « حرما » ، لا يجوز القتال فيـــه ، وغير قابل للتنجيس (٤) . ومع ذلك ، كان المسجد في أول امره مكانا ايضا تفصل فيه الجماعة الاسلامية فى كـل ما يتعلق بأمورها ؛ فهو ندوة للنقاش السياسى ، او مجلس للقضاء ، أو حتى مدرسة . ولهذا اصبح المسجد يعرف ايضا « بالجامع(٥) »، وهى ترجمة للكلمة اليونانية " Ekklesia " ؛ لتعنى مكان التجمع ، التى اشتقت ايضـــا منها الكلمـــات الأوربية التى تتعلق بالعبـــادة المســـيحية .

وقد كان المسجد فى اول امره بناء بسيطا ؛ وهو أول ما ظهر فى المدينة ، بعد هجرة النبى اليها . فلم يكن يوجد مسجد للمســـلمين فى مكة ؛ وانما كان المسلمون يصـــلون فى شـــعابها ، أو فى جانب الكعبة ، او حتى فى بيت النبى (٦) . فكان مسجد المدينة عبارة عن فناء ضيق مربع الشكل ، يحيط به جدار من اللبن ــ طوب محروق فى الشمس ــ وليس فيه غير مكان واحد مسقف ، يغطيه الجريد المثبت على جذوع النخيل ، فسمى صفة المسجد او الظلة(٧) ، اى المكان المسقف؛ اما بقية اجزاء المسجد فكانت مكشوفة .

---

(١) القرآن ٢ : ١٤٤ ، ١٨٧ ؛ ٨ : ٣٤ .

(٢) المقدمة ، ص ٢٧٨ ؛ لسان العرب ، ٤ ص ١٨٨ . هذه الكلمات وجدت أيضا فى النقوش الارامية والنبطية والعبرية وحتى الحبشية . أنظر .
Ency. t3, p. 362

(٣) انظر . Demombynes : Le Péleirnage de la Mekke. Etude d'Histoire Religieuse, Paris, 1923. P. 1.

(٤) النويرى ، ٤ ص ٤ .

(٥) استعملت هذه التسمية فى ازمنة متاخرة . فون كريمر ، الحضـــارة الاسلامية ، تعريب طه بدر ، ص ٥٨ هامش (١) .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٦ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٤٣٠ .

(٧) الكامل ، ٢ ص ٣٦٩ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٤٨ .

ولكن بناء المسجد تطور على يد الامويين ومن جاء بعدهم ، وكثرت طرزه واشكاله . فتحولت جذوع النخيل الى اعمدة رخامية ، قد تبلغ المئات (١) ، لها تيجان وعقود واقواس ، وشقت خلال المسجد الاورقة ـ مفـردها رواق ـ او الايـوانات او اللواوين ـ مفـردها ايوان او ليوان ـ ربما اخذت فكرتها من الكنائس أو المعابد الهندية ، واحاطت بالمسجد من داخلـه وخارجه ، كما وجدت فى داخل المسجد نماذج متعددة من الشـبابيك . اما المكـان غير المسـقوف ، ويعرف بالصحن او الفناء(٢)، فانشئت فيه الفساقي ـ مفرده فسقية او فسقية ـ او فوارة(٣) ، وميضة او ميضاة ـ هى احواض للوضـوء ـ ويكون حولهـا بلاط او أشـجار . وقـد تفنن المسلمون فى ايصال الماء اليهـا ، باستعمال انابيب من النحاس ، فكان الماء يتفجر منها دون ان يعرف مدخله .

كذلك ادخل فى المسجد المحراب ، وهو فجوة ، ولعلها الحنيـة فى الكنائس ، وان كانت كلمة المحراب وجدت قبل الاسلام ، وذكرت في القرآن على انها جزء من معبد(٤) . ومع ذلك ، فالقبلة فى اول الامر ، لم تكن معلمة بفجوة ، وانما بعلامة او بحجر ، وربما تكون وجدت منذ عهد الأمويين (٥) . اما المنبر او المبنر ـ وهى كلمة عربية او حبشية ـ الذى يوضع بجوار المحراب ، فقد وجد منذ عهد الرسول ، وكان معروفا فى الجاهلية يستخدمه الخطباء ، او فى معابد الهنود . وبعد ان كان المنبر درجتين ومقعدا على عهد الرسول (٦) ، اصـبح يرتفع الى عديد من الدرجات ، مع ان عمر بن الخطاب عارض فى

---

(١) سفر نامة ، ص ٥٩ ، كان مسجد عمرو قائماً على اربعمائة عمود من الرخـام .

(٢) الكامل ، ٢ ص ٣٦٩ س ٣ ؛ الخطط ، ٤ ص ٦ س ٢٥ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٣٥ س ٢٠ ؛ الخطط ، ٤ ص ٤٠ س ٥ .

(٤) القرآن ١٩ : ١١ ؛ ٣٨ : ٢١ ؛ انظر .
Ency. (art Mihrâb) t3, P. 55 sqq.

(٥) الخطط ، ٤ ص ٦ س ١٦ ؛ انظر .
L'Art de L'Islam. Paris, P. 24-25. : Marçais

(٦) الطبرى : ١ ، ١٥٩١ ؛ ابن قتيبة ، الامامة ، ٢ ص ٢٩٦ ؛ المقدمة ، ص ٢٣١ ؛ انظر .
Ency. (art Minbar) t3 p. 567 sqq.

ان يعلى بالمنبر ، ويرقى فيه الامام على رقاب المسلمين . ولقد اصبح منبر الرسول جزءا من علامات الخلافة ؛ واول من نقله الى بغــداد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣/٧٨٦-٨٠٩) . وكذلك انشئت المقصورة – جمعها مقاصير او مقصـورات – وهى من فعـل قصر – لتعنى المكان المحاط بسياج بجوار المنبر ، أو الحائط الذى فيهـا شباك ، خصص لصلاة الخليفة بقصد حمايته او للمشاورة ، وهى لم تعرف للعرب قبل الاسلام ، وربما يكون ظهورها فى عهد الخلفـاء الراشدين أو الأمويين . وقد تتعدد المقصورات فىالجامع الواحد(٢) ، ويخصص بعضها لكبار الموظفين كالقاضى ، او للامام ، او للنساء ، او حتى لبيت المال ؛ وان نقل هذا الأخير الى مقر الأمير(٣) . ولعل نشأة المقصورات قد اخذ من الحجرات التى كان النبى بناها حـول المسجد ، وخصصها لزوجاته .

وبعد أن كانت ارض المسجد فضاء مغطاة بالتراب والحصباء ؛ اصبحتتفرش بالحصر والسجاد وغيره ؛ وذلكمنذ عهد الأمويين(٤) . كذلك اضىء المسجد من الداخل والخـارج بالمصـابيح والقناديل والثريات – وهى مصـابيح – والمسرجات المفضضة والمذهبـة ، والتنـانير – مفردها تنور – وهى شـمعدانات كبيرة – والفوانيس والمشاعل ، وحتى بالشموع كما فى الكنائس . فكانت شموع مسجد قبـة الصخرة يبلغ طولها سبعة أذرع ، وقطرها ثلاثة اشبار (٥) ، ويزيد وزن الشمعة الواحدة على القنطار(٦) ، كما ان احد التنانير

---

(١) المقدمة ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ؛ لسان ، ٦ ص ٤١١ ؛ انظر .
Creswell : Early Moslim Architecture 1, Umayyads, Oxford, 1932, p. 33 ; Sauvaget : La mosquée omeyyade, de Medine. Paris, 1947, P. 150 . . انشئت فى عهـد مـروان او معاوية ، أو حتى فى عهد عثمان (عن هذه الأخيرة ، انظر . الخطط ، ٤ ص ٧ س ٥) ؛ وان يبدو أن الأمويين هم أول من عملوها فى الاسلام .
(٢) الخطط ، ٤ ص ١٢ ، ٢٠ ، ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) الطبرى : ٢٤٨٩ ، ٢٤٩١ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٨٠ .
(٤) الخطط ، ٤ ص ٨ س ٢ .
(٥) سفر نامـه ، ص ٣٠ .
(٦) نفسـه ، ٣ ص ١٥٦ س ١٤ .

كان يوقد فيه الف ومائتا فتيلة (١) . وكذلك احراق البخور فى المسجد ، اصبح جزءا من تقاليد المسلمين(٢) .

وقد تطور شكل المسجد الخارجى ، فظهرت فيه ما عرف بالمأذنة او المئذنة او المنارة او حتى الصومعة ، وهى التى تعطى المسـجد مظهره الخاص . ويبدو انها اول ما ظهرت فى عهد الامويين ؛ فقد ورد فى خطط المقريزى عند الكلام عن الخليفة معاوية بانه امر واليه فى مصر مسلمة بن مخلد الانصارى ، ان يبنى صوامع للاذان ؛ فبنى فى مسـجد عمرو اربع صـوامع فى الاركان الاربعة(٣) ؛ فكانت المآذن . وبعدها انتشرت المآذن ؛ فكان الجامع الاموى الكبير بمناراته . وقد اصبح شكل المآذن يختلف من بلد لاخر ؛ فمثلا المآذن فى المغرب مربعة ، وفى مصر ملفوفة مدورة ، كما وجدت مآذن مثمنة . وقـد دخلت المسجد القباب وانصاف القبـاب كما فى الكنائس ، وكسيت بالقيشانى الازرق والاخضر وتعددت .

وفى اول الامر ، لم يكن فى البلد الذى يقيم فيه المسلمون غـير مسجد كبير واحد(٤) ، يعرف : بالمسجد الاعظم او الاكبر او الكبير او الجماعة ، وان غلب عليه اسم المسجد الجامع . فلم يوجد فى المدينة او البصرة او الكوفة او الفسطاط او دمشق فى اول نشأتها غير مسجد كبير واحد ؛ وان وجدت مساجد ثانوية للقبائل ، التى كانت اشـبه بمحـال او نـدوات لها . وقد اسـتمر ذلك الى ان جـاء العباسيون ، فاستكثروا من المساجد الكبيرة . فنجد فى بغداد مسجدين ، احدهمـا فى الشط الغربى من دجلة ، والاخر فى الشط الشرقى منه . وظهـر فى مصر بجانب مسجد عمرو جامع ابن طولون ، واخذت فى الزيادة فى عهد الفاطميين حتى بلغت فى مصر والقاهرة خمسة عشر مسجدا جامعا ، موزعة على احيائها(٥) . وكذلك ظهر نوع من المسـاجد

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ ، ٤ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ .

(٢) الخطط ، ٤ ص ٥١ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٤٤ س ٩ ــ ١٠ .

(٤) نفسه ، ٤ص٤ ؛ فتوح البلدان ، ص٢٨٩ ؛ انظر .
Ency. 13, p. 375.

(٥) سفر نامه ، ص ٥٩ س ٥ .

في الهواء الطلق عرف بالمصلى(١) ، وهى مكان منبسط فيه فجـــوة ومنبر ومن غيره اروقة او صحن ، ربما ظهر من ايام النبى ، لبعض المثوبات فى الأعياد والمناسبات . وقد نقل الفاطميون هذا النوع من المساجد بالمغرب الى مصر ، وكانت تقام فيه الصــلاة وقت اشـــتداد الحر ، وكثر على ضفاف النيل والترع . كذلك ظهر جامع صـــغير ، سمى لصــــغره زاوية او ركنا . وفى القرن الرابع الهجرى ، كثرت المسجد لدرجة انهـــا بلغت فى بغداد ثلاثين الفا(٢) ، وفى مصر ـ الفسطاط ـ وحدها ســـتة وثلاثون الفا(٣) ، وفى الاسكندرية فى أو اخر القرن السادس اثنا عشر الف مسجد (٤) ، وفى بلرم (بالرمو بصقلية) اكثر من ثلاثمائة مسجد (٥) .

وقد كانت الدولة الاسلامية تشرف على صيانة المساجد ، وتنفق على موظفيها من امام وخطيب ومؤذن وخدم ؛ فتوقف عليها الأموال الكثيرة(٦) . ولدينا سجلات وقف عديدة من عهد المماليك ؛ حيث كانت الوقفية توضع فى المســجد عادة(٧) . وفى عهد الفاطميين ، كان المسئولون يطوفون بالمساجد قبل شهر رمضان ، للنظر فى قناديلها وحصرها وعمارتها وما تشعث منهـــا . وغالبـــا ما كان يقوم قاضى القضاة بالخطابة والامامة فى المساجد الكبرى ؛ حيث كان يكفل اليه الاشراف على عموم المساجد .

---

(١) عنها : الخطط ، ٤ ص ٣٣٤ وما بعدها ، انظر .
Ency. (art Musalla), t3, P. 797-8.

(٢) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، (B. G. A. VII) ، ص ٢٥٠ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ١٢٩ (آخر الصفحة) ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٢٨٤ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ، تحقيق نصار ، ص ١٢ .

(٥) معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٦ .

(٦) الخطط ، ٤ ص ٨٣ وما بعدها ؛ سفر نامه ، ص ٦٥ .

(٧) انظر . Matériaux Pour un Corpus, : Van Berchem.
• Inscriptionum Arabicarum (C. I. A.) nos 247 ; 252 ; 528 ;
الخطط ، ٤ ص ٧٦ .

ولوقوع المسجد فى وسط المدينة غالبا ، احيطت به الأسواق(١) ، التى تحتاج اليها المدينة الاسلامية . وقد تطورت الأســواق على يد المسلمين ايضا ؛ والدليل على ذلك الاصطلاحات الكثيرة التي ظهرت لتدل عليها ، وان كانت غير محددة المعاني ، منهـــا : فندق وخانة ورباع وبازار ودار وكالة ودكان وقيسارية . فمثلا « الفنـــادق » ، تعنى مكان التجار الأجانب ، وتتكون من غرف مختلفة وصـــحن مكشوف ومخازن ؛ وقد انتشرت انتشارا كبيرا فى كل مكان ، وبخاصة فى مصر ؛ فكانت توجد من الاسكندرية الى اسوان ، التى يذكر الرحالة ابن جبير أنه يوجد فيها فندق كبير(٢) ، كما ان الخـــانات توصف بانها عبـــارة عن مساحات واســـعة (٣) ، والقيســـارية (٤) ـ أو القيصـارية ـ لعلهـــا محـــرفة من اللاتينى « Caesarea » ؛ حيث كان الرومان يقيمونها فى المدن كمستودع لبضـــائعهم وتكثر حجراتها ؛ وكثرت بمصر ، حتى ان المقريزى يذكر اسماء قياسر كثيرة .

وكانت هذه الأسواق اما ان يبنيها النـــاس او الدولة ، فيقول الرحالة ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى ، ان الفاطميين بنوا فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان ، يؤجر كل منها بعشرة دنانير ، وليس بينها مالا تقل أجرته عن دينارين(٥) . وقد جرى العرف عند المسلمين فى العصور الوسطى على ان يسكنوا فى اماكن عملهم ، وان اقلع المسلمون عن ذلك فى العصر الحديث ، وانتقل هذا التقليد الى اوربا ، ولا يزال فيها حتى الآن . وقد كانت معظم الأسواق مبلطة ، او يكون من جانبيها افريزان يمشي عليهمـــا الناس فى زمن الشتاء ، اذا لم يكن السوق مبلطا(٦) ، كما ان اغلبها مغطى بالسقائف ، وبعضها يضاء ليلا ونهارا بالقناديل ، لأن الضــوء

(١) الكامل ، ٢ ص ٣٦٩ س ٥ ـ ٦ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٣٧ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٤٩ وما بعدها .

(٣) منها ، انظر ، الخطط ، ٣ ص ١٤٩ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ١٤٠ وما بعدها ؛ انظر . Ency, (art Kaisariya) Suppl, 2, P. 432. : Dozy ; t2, P. 700-701.

(٥) سفر نامه ، ص ٤٨ .

(٦) نهاية الرتبة ، ٥ ص ١١ .

لا يصل الى داخلها(١) • وقد ظهرت مسالة الاضاءة متاخرة فى المدن الكبرى ، حتى ان القـــاهرة لم تضـــا ليلا الا زمن الخليفة الحاكم الفاطمى(٢) (٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢٠) • ولتسهيل الانتقـال فى الأسواق الاسلامية ، وجدت على نواصيها الحمر المسرجة ، عليهـــا براذع مزينة ، تكون فى خدمة من يريد الركوب(٣) • فمثل هذه الوسائل تليق بحارات المدينة الاسلامية ، التى كانت شوارعها فى اغلبهـــا عبارة عن ازقة •

وكان اهم شيء في المدينة بعد المسجد هو دار الامارة ، الـذى تحول الى قصر منذ عهد معاوية • وهذا مع بساطته فى اول الأمر ، تدرج الى الفخامة ، خصوصا لما تعددت دول الاسلام ، وتنافس الحكام في البناء ؛ فاصبح يعرف من دون المبانى الأخرى بأسماء تدل عليـه وتميزه•ففى القاهرة فى عصر الفاطميين عرفت قصورهم بالقصـور الزاهرة ، وان اطلق على مجموعها القصر ، اشـــهرها القصر الكبير الشرقى والقصر الصغير الغربى وقصر الذهب وقصر الشجرة وقصـــر الحريم ؛ حيث خصص المقريزى مئات الصفحات لوصفها(٤) • وفى بغداد فى عصر العباسيين ، عرف من قصورها المشهورة : قصر الذهب(٥) المسمى ايضا القبة الخضراء ، وقصر الخلد ،وقصر السلام،وقصر الرصافة• وفي قرطبة فى عصر الخلفاء الأمويين عرف من قصورها الزهراء ، بمعنى

---

(١) سفر نامه ، ص ٥٨ •

(٢) الخطط ، ٣ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ؛ انظر • ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٩٢ •

(٣) سفر نامه ، ص ٦١ ـ ٦٢ •

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢١٤ وما بعدها ؛ انظر • Ravaisse : Essai sur, l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Maqrizi (Palais des Cailfes fatimides) M. M. A. F. tII; tIII. 2. Paris, 1887-90.

؛ لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة حسن وعلى ابراهيم ، ط ٢ ، ص ١٢٥ ومـا بعـدها •

(٥) معجم البلدان ، ١ ص ٢٣٥ ؛ الخطيب البغدادى ، ١ ص ٧٣ ، ٨٠، ٩٧ ؛ انظر • شلبى ، قصور الخلفاء العباسيين ، القاهرة ١٩٥٤ •

الأبيض المشرق ، فى مدينة الزهراء من ضواحيها(١) . وما يزال لدينا نمط من هذه القصور الاسلامية الفخمة ، يتمثل فى قصر الحمراء بغرناطة ، الذى يشعر من يدخله بشعور الفخامة والعظمة ؛ فتوجد فيه القاعات والأروقة وأحواض الماء والتماثيل .

وبعد أن كانت مساكن الخلفاء الراشدين حجرات قليلة لا تفترق من بيوت الناس الا بما فيها من الدواوين ، أصبحت فى عهد الامويين ومن اتى بعدهم قصورا ، اشبه بالجبل لكثرة ما فيها من الابنية(٢) ، وارتفاع اسوارها ، وابوابها العديدة التى قد تبلغ عشرة ابواب - فاصبحت تشتمل على ابهاء واسعه ، وقاعات للجلوس ذات اعمدة عرفت باسم ايوان ، ودهاليز ، ودور خاصة للخلفاء وعائلاتهم ومستخدميهم وحريمهم . فمثلا عدد المرافق التى كانت لسكنى قصر المامون ما بين حجر وغيرها ، بلغ ثلاثمائة وستين مرفقا(٣) . كما وجد فى هذه القصور ملاعب وساحات ، ومخازن واسعة تلحق بها ، عرفت باسم خزائن - مفردها خزانة - او خانات - مفردها خانة - وقد تعددت ، فمنها(٤) : خزانة الكتب - وهذه بلغت فى قصور الفاطميين اربعين حجرة - ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وخزائن الفرش والامتعة ، وخزائن السلاح ، وخزائن الدرق ، وخزائن السروج ، وخزائن الخيم ، وخزانة الشراب - اى الدواء - وخزانة التوابل ، وخزانة البنود ، وخزائن الأزهار . اضف الى هذه المبانى ما كان يعرف بالحواصل(٥) - جمع حاصل - وهى اصطبلات الخيل ومناخات الجمال والفيلة ، واهراء

(١) معجم البلدان ، ٤ ص ٤٢٠ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، ط . رفاعى ، ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) سفر نامه ، ص ٤٨ .

(٣) ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، حققه مصطفى جواد ، دار المعارف ، ص ٧٤ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٥٣ وما بعدها ؛ انظر : ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٤ وما بعدها .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٧٨ - ٤٧٩ ؛ انظر : ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٢٥ - ٢٨ . « الحواصل » جمع « حاصل » من « حصل » بمعنى خزن .

لمخزن الغلال ، وشون للاتبــان ، ومخازن البضائع ، والطواحين ، والمطابخ .

هـــذا بجانب حدائق الحقت بالقصـــور ، ابدع المسلمون فى زرعها ، حتى انه ظهر ما يعرف بالحديقة الاسلامية ، التى تميزت بزروعها بحيث سميت البســتان او الروضة(١) . ولا شك فى ان الحديقة الاسلامية ظهرت متاثرة بحدائق الشـــعوب المفتوحة من المصريين والفرس ؛ وان وجد اصلها فى القرآن ، الذى تحدث طويلا عن الجنة وابسطتها السندسية ، وانها مكان النعيم . وكان يزيد من جمال الحديقة الاسلامية تبليط مماشيها ، ووجود البرك والقنوات الجارية والفساقى فيها . كما وضعت فيها بروج خشبية او فى اوكار فى جوف الحيطان طيور مشجية حسنة الصوت . كذلك وضعت فيها بيوت الحيوان المفترس من السباع والفهود والنمور ، وكانت تنظف بطريقة ماهرة . ولا يزال يوجد الى وقتنـــــا اثر من تلك الحدائق الاسلامية ، التى لم يكن لها نظير ، ممثلة فى جنة العريف ، الملحقة بقصور الحمراء بالاندلس ، والتى نسقت على شكل مدرجات ، او حدائق جنة ابى فهر فى تونس ؛ وهى شبيهة بحدائق جنـة العريف .

وكان يحيط غالبا بقصر الخليفة او الامير ثكنات للجند عرفت باسم : القطائع او الحارات أو الخطط(٢) ؛ اذ لا يطمئن الحـــاكم المســلم على دولته الا بوجود الاجنــاد بجواره . فمثلا مدينــة كالبصرة قسمت سبعة اقسام «دساكر»(٣) يسكنها الاجناد على حسب قبائلهم. كذلك اشتهرت القاهرة «بحاراتها» ، التى يصفها المقريزى بدقة فى كتابه الخطط(٤) ؛ فكانت كل حارة مخصصــة لطــائفة معينة من الجند . هذه المعسكرات كانت اشبه بمدن كاملة ، يوجد فيها البيوت والدكاكين والاسواق والحمامات .

(١) الخطط ، ٢ ص ١٠٨ وما بعدها ، ٣٧٩ – ٣٨١ ، ٣ ص ٣٤١ص٢٤ .
(٢) نفسه ، ٢ ص ٧٦ ؛ انظر . قبله .
(٣) عنها : معجم البلدان ، ٢ ص ١٩٢ وما بعدها .
(٤) الخطط ، ٣ ص ٢ وما بعدها ؛ سفر نامه ، ص ٥٧ ؛ انظر . قبله .

اما عن البيوت التى يسكنها العرب في البادية ،فاغلبها مصنوعة من الوبر ؛ لذلك سمى البدو بأهل الوبر ، وان عرفوا فى اماكن الحضر بيوتا مبنية من الحجر ؛ بحيث ان بعض الحضر كانت تسمى الحجر (١) . وعلي العكس ، كان اغلب اهالي البلاد المفتوحة - وهم من الحضر - يبنون بيوتهم من الحجر أو من الآجر - وهو الطوب - وغير ذلك . ومع ان مدينة كالبصرة بنيت بيوتها في اول امرها بالقصب ؛ الا انه في القرن الرابع الهجرى - وهو زمن هام لازدهار الحضارة الاسلامية - تطور بناء البيوت ، وزالت عنه بساطته الأولى.

وقد توصلت الدولة الاسلامية في العصور الوسطى الى بناء بيوت شعبية ، كما ظهرت عمارات ضخمة . فيذكر الرحالة ناصر خسرو (٢) (ت حوالى ٤٤٥/١٠٦٣) ، ان احدى العمارات في القاهرة تسع خمسين وثلاث مائة ساكن ؛ وانه راي بيوتا مكونة من اربعة عشر طابقا ؛ وان كانت غالبيتها من خمس أو ست طبقات ، وهو نفسه لما جاء مصر سكن في بيت من اربع طبقات . وقال ايضا انه راى فى القاهرة ومصر ثمانية آلاف بيت ملكا للخليفة ، يؤجرها ويحصل على اجرتها كل شهر ، وهذا يكون برغبة الناس ، ولا يجبر عليها احدا(٣) . وكانت هذه البيوت من النظافة والبهاء(٤) ؛ بحيث يقال انها بنيت من الجواهر الثمينة ؛ لا من الحجارة والطوب ، وانها بعيدة عن بعضها ، تفصلها الحدائق ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم واصلاح ، دون ان يضايق جاره . وقد أصبح من عادات اهل القاهرة وضع الزهور في الأصص، يضعونها فوق الاسطح(٥) . ويقول ايضا انه سمع ان شخصا غرس حديقة على سطح بيته المكون من سبعة ادوار ، وحمل اليها عجلا ونصبه فى ساقيه ، وكان هذا الثور يديرها ، فيرتفع الماء للحديقة من بئر . وقد زرع هذا الشخص فى الحديقة شجر النارنج والموز

(١) انظر . قبله .

(٢) سفر نامه ، ص ٤٨ ، ٥٠ .

(٣) نفسه ، ص ٤٨ .

(٤) نفسه ، ص ٥٠ .

(٥) نفسه ، ص ٧٠ .

والورد والريحان وانواع الزهور الاخرى ، وقد اثمرت كلها (١) .

وقد وجدت وسائل لتهوية هذه البيوت بالمشربيات والأفنية ، وكان الهواء يتخللها عبر المناور أو السقف بالقاعات أو المندرة ، او حتى أن بعض حجراتها – مثلما في العراق – تبنى تحت الأرض ، او على شط البحيرات والانهار .

وكانت المياه تتوافر فى البيوت بوضعها فى صهاريج ؛ حيث يتولى السقاءون نقل المياه اليها . فيقول الرحالة ناصر خسرو انه كان فى القاهرة ومصر اثنان وخمسون الف جمل ، يحمل عليها السقاءون الروايا (٢) . وقد كان من عل المحتسب – كما يقول المقريزى (٣) – الاشراف على نظافة نقل الميـــاه ؛ فيرى اذا كانت الروايا مغطـــاة بالأكسية ، ويجبر السقائين على لبس السراويلات القصيرة ذات اللون الأزرق ، التى تغطى عوراتهم . وقد انتشرت كلمة السبيل (٤) ، وهى تعنى الطريق ، ولكنها اصبحت تعنى اعطاء المياه مجانا كما ان الماء كان يوضع فى ازيار فى شوارع القاهرة امام كل دكان او بيت لاخماد الحريق .

وفى بعض المدن الكبرى القريبة من الانهار – او حتى البعيدة منها – كان يتفنن فى انشاء القنوات(٥) ، لاحضار الماء . فكانت سمرقند ، احدى مدن بلاد ما وراء النهر ، توجد فيها شبكة مائيـــة تامة ، تتكون من مواســـير صـفيح ، تاخـــذ ماءها من خزانات كبيرة (٦) . كذلك كانت قرطبة ، احدى مدن الاندلس ، تجلب لهـــا المياه من جبالها عنى مسافات بعيدة عن طريق قناة من حجر متقنة.

---

(١) نفسه ، ص ٨ .

(٢) نفسه ، ص ٤٩ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٦١ س ٣٠ .

(٥) معجم البلدان (بغداد) ، ٢ ص ٢٣٦ . عن القنوات ، انظر ، تاج العروس ، ٣ ص ٥٠٩ ؛ انظر : Ency. (art Kanât), t2, P. 751-753

(٦) الاصطخرى ، مسالك الممالك ، تحقية de Geoje ، طبعة Leyden ، ١٨٧٠ (B. G. A) ، ص ٢٩٠ .

البناء محكمة الهندسة ، اودع في جوفها انابيب الرصاص ، لتحفظ من كل دنس(١) ٠

وكانت المدن التى تتغذى بماء المطر ، يقام فيها احواض (٢) ، تعرف باسم : « مصانع » ، لجمع مياه المطر ، مثل تلك المصانع الباقية حتى الآن بجوار مدينة القيروان ٠ اما القلاع العالية ، مثل قلعة الجبل فى عهد المماليك ؛ فكانت ترتفع اليها المياه لتدخل الى جميع ما فيها من قصور ودور وحمامات ؛ وذلك بدواليب تديرها الابقار من مكان الى مكان الى ان تصل الى القلعة ؛ فكان ذلك ـ كما يقول المقريزى (٣) ـ من عجائب الاعمال ، لرفع المياه من الأرض الى ارتفاع اكثر من خمسمائة ذراع ٠ كذلك لا تزال توجد فى القاهرة اجزاء من بقايا قناة محفورة فى السطح العلوى لقناطر معلقة ؛ بنيت خصيصا لهذا الغرض تمتد من مجرى النيل الى القلعة٠

اما مسالة تصريف الافرازات الانسانية ؛ فيكون عن طريق الخزانات ، ولها اناس يشرفون على تجارتها(٤) ، او عن طريق جمعها فى قناة تحت الأرض لحمل الثقل وللصرف(٥) ، أو أن يمعن فى حفر المرحاض حتى يصل الى الماء الجوفى ، فلا يحتاج الى الكسح (٦) ، وربما كانت توجد مراحيض عامة ، حتى انها كانت تسمى بلاليع (٧) ٠

وكانت المدن الاسلامية تزود بحمامات(٨) ـ مفردها حمام ـ

---

(١) مثلا ٠ المقرى ، نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ١٣٠٢ هـ ، ١ ص ٢١٦ ٠

(٢) سفر نامه ، ص ١٩ ٠

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤١ ٠

(٤) عيون الأخبار ، ط ٠ Brockl ، ص ٢٦٥ س ١٠ ؛ انظر ٠ متز ، الحضارة ، ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ٠

(٥) سفر نامه ، ص ٨ ٠

(٦) البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار ، طبعة القاهرة ، ص ٣٩ ٠

(٧) الطبرى ، ط ٠ الحسينية ، ٩ ص ٢٦٨ ٠

(٨) الخطط ، ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها ؛ نهاية الرتبة ، ص ٨٦ ـ ٨٨ ؛

وهى فى معناها اللغوى تعنى الماء الحار . وهذه ليست من ابتكار المسلمين ، ولكنها اخذت من الشعوب التى كانت قبلهم ، وبخاصـــة اليونان ؛ فحينما دخل العـــرب الاسكندرية ، وجدوا فيهـــا آلاف الحمامات . وقد دخل الحمام ضمن نظم الاسلام منذ عهد مبكر ؛ لارتباطه على الخصوص بفريضة الوضـــوء ، بحيث ان الفقهاء اعتبروه من الأماكن الدينية . فنص الاسلام على النظافة ، واعتبرها من جوهر العقيدة ، كما وردت فى القرآن والأحاديث النبوية دعـــوة الى التزين والتطيب (١) . ومن ناحيـــة اخرى يبدو ان الغسل بالصابون لم يستعمل الا فى العصور الوسطى ، وربما على يد المسلمين(٢) ؛ بدليل انتقال هذه الكلمة الى لغـــات اوربا باسم : « Savon » او « Soap » .

وقد اخذ الحمام مظهرا اســـلاميا ، فازيلت منـــه الصـــور والتماثيل(٣) ؛ فيقول الامام احمد بن حنبل ان الانسان اذا دخـــل الحمام ورأى فيه صورة ؛ فينبغى ان يحكها ؛ فاذا لم يستطع فليخرج . كذلك وجدت آداب معينة فى دخول الحمـــام ، وذلك بعـــدم كشف العورات ودخوله بمئزر ــ جمعها ميازر ــ وحفظ ملابس المستحمين ؛ ومتى ضـــاع شىء التزم بدفع التعويض ، ولا يدخله المجذوم ولا الأبرص ؛ كما افردت حمامات للنساء . وقد وجدت الحمامات بنوعيها ؛ الخـــاص والشعبى « Bain Public » ؛ وقـــد كثرت هـــذه الأخيرة فى

=

الكواكبى (القرن ١٢/١٩) ، حدائق التمام فى الكلام على ما يتعلق بالحمـــام (مكتبة احمد تيمور) ؛ باللاس Ballâs ، الأبنية الاسلامية ، تعريب علية العنانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، عدد خاص ، السنة الأولى ١٣٧٢/١٩٥٣ ، الترجمة العربية ص ٩٧ وما بعدها ؛ والنص ص ٩٢ وما بعدها ؛ انظر ايضا : Pauty : Les Hammams du Caire, 1933.
Ency. (art Hammâm) t2, p. 269.

(١) العقد ، مصر ١٢٩٣ هـ ، ٣ ص ٣٤٩ . " (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسـجد) " .

(٢) الموفق ، كتاب الابانة عن حقـــائق الأدوية ؛ تحقيق Seligman ، ص ١٦٦ ؛ اغاثة الامة ، ط ٢ ، ص ٢٠ . (ذكر فيها الصابون ، والاتجار فيـه ايام الفاطميين) . انظر . Ency. (art Sâbûn) t4, P. 9.

(٣) الغزالى ، احياء علوم الدين ، مصر ١٣٤٦ هـ ، ٢ ص ٢٩٧ .

المدن الاسلامية ؛ بحيث انه فى القرن الثالث الهجرى كان فى الجانب الشرقى وحده من بغداد خمســة آلاف حمــام ، وفى القرن الرابع الهجرى ، كان على الجانبين منهـــا عشرة آلاف(١) ، وفى مصر الفسطاط ايام الفاطميين وجد سبعون ومائة والف حمام(٢) ، وفى قرطبة بالأندلس ثلثمائة(٣) .

وقد كان الحمام الاســلامى فى الغالب مظلمــا ، ترتفع عليه قباب ، فيها طاقات لجلب النور ؛ فضلا عن تزويق سقفه ، وترخيــم ارضه . ويشمل الحمام عدة قاعات ، منها : الغرفة الأولى واســمها « برانى » فيها مصاطب للجلوس ، وبجوارها « الأدبخانة » ، وحجرة وسط « وسطانى » لعلها لخلع الملابس ، ثم مكان الاستحمام واسـمه « تحميم » يدخله البخار من ثقوب فى الأرض تتصل بخزانة المــاء الذى يغلى على الموقـد « التنور » ، أو فيه انابيب رصاص تمتد الى احواض مصنوعة من الرخام او الحجر او الطوب تسمى « صهاريج »، او ان الماء الحار والبارد يدخل من ميزابين فى حوض صغير ، يصب فى حوض كبير (٤) ؛ وكان المســتحم يلبس قبقابا حتى لا تحتـرق قدماه . ومجمل النظام غرفة باردة أو ما يسمى « البيت البارد » لخلع الملابس ، تليها غرفة تدفئة او « البيت الساخن » للاســتحمام . كذلك يوجد فى الحمام خلوات للأفراد او مقاصــير للخاصـــة حتى لا يختلطوا بالعامة(٥) ، كما توجد حجر مخصصة لخزن الوقــود تسمى « افنية » ، لها مداخل مستقلة . وقد ظهر للحمام موظفـون مخصصون له ، حتى انهم بلغوا فى حمام واحد بالقاهرة سبعين(٦) ، منهم : حمامى وقيم وزبــال ووقاد وســقاء وحلاق او مزين ومدلك ،

---

(١) اليعقوبى ، البـلدان ، B. G. A. ، ص ٢٥٤ ؛ ابن الخطيب ، ط سلمون ، ص٣٦وما بعدها ؛ انظر ، متز ، الحضارة ، ترجمة ، ٢ص ١٦٢-١٦٣

(٢) الخطط ، ٣ ص ١٢٩ س ١٤ ــ ١٥ .

(٣) أورد العدد بلاس فى مقالته : الترجمة ، ص ١٠٩ (نقلا عن ابن عذارى) .

(٤) البغدادى ، كتاب الافادة والاعتبار ، ط ، القاهرة ، ص ٤٠ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ، ط ٢ ، مصر ، ١ ص ١٤١ .

(٦) الخطط ، ٢ ص ١٣١ س ١١ .

وناطور وهو الذى يحفظ ملابس الداخلين(١) .

اما حمامات النســاء ، فهى فى الواقع اشــبه بمعهد للتجميل " Institut de beauté " ؛ حيث وجدت فيها متخصصات اســمهن : الماشطات أو البلانات (٢) ؛ اللاتى يصففن الشــعر ويصبغنه بالحنــاء . ونعرف من تصفيف الشعر انواعا ، بعضها كان من اختراع اعلام سيدات المجتمع وقتذاك . فمن انواع التصفيف ما اخترعته سكينة بنت الحسين بشكل جميل خاص ، عرف بالجمة او الطرة السكينيه (٣) ، التى شاعت بين النساء ، او ان يضفرن شــعرهن الى ذوائب تنسدل على الظهر تسمى غدائر قد تبلغ موطىء القدمين ، كما ان المراة المسلمة قد تتخذ القصة فى مقدمة راسها(٤) ، وتضع عصابة مزركشة عليها الدر(٥). وعلى العكس كانت بعض الفتيــات يحلقــن شــعورهن ، ويتشــبهن بالفتيات ، وهن المسميات الغلاميات . يضاف الى ذلك العناية بالحواجب وترقيقها ، ووضع الكحــل فى العين ، وتصقيل الوجـــه ، واطالة اشفار الجفون .

كذلك ظهر فى المدن الاسلامية نظـــام المستشفيات ، وهو على ما يظهر نقل عن الفرس ؛ لذلك عرف للمسلمين باســمه الفارسى : « البيمارستانات (٦) » ، وهى تختصر الى مارستان او مرستان ؛ وان كان اول من بناها المصريون القدماء ، كذلك نسمع عن دار الصــحة او دار الشفاء فى بغداد ، وربما كلمة مارستان اصبحت تدل فقط فى

(١) مثلا : سفر نامه ، ص ٩٨ ؛ نهاية الرتبة ، ص ٨٨ .

(٢) ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٢ . عن كلمة بلانة ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 115.

(٣) الاغانى ، ١٤ ص ١٦٥ ؛ انظر . بهيم المراة فى حضارة العــرب ، ص ١٢٥ ــ ١٣٦ .

(٤) لسان ، ٨ ص ٣٤١ .

(٥) نهاية الارب ، ٢ ص ١٩ ــ ٢٠ ؛ العقد ص ، ٣ ص ٢٨٣ . لاســيما العصب من اليمن .

(٦) عنها : الخطط ، ٤ ص ٧٥٨ وما بعدها ؛ انظر : Isâ Bey : Histoire, des bimaristâns à l'époque islamique Congrès international des maladies tropicales. Le Caire, 1929 ، Ency. (art Bimâristân), 2ed, t1, P. 125 sqq.

بيمر بمعنى مريض ، وستان بمعنى مكان .

اللغة الدارجة على مكان المجانين ، كما هى فى وقتنـــا • وقد كان المسلمون يختارون بعنـــاية اماكن مستشفاهم ، ويرون ضرورة كونه صـــحيا •

ويبدو ان المستشفيات ظهرت لأول مرة فى عهد الامويين ، فقد جمع الخليفة الوليد بن عبد الملك المجذومين والعميـــان وعمل لهم البيمارستانات فى عام ٧٠٧/٨٨ ؛ فكان اول من فعل ذلك • ولكنهـــا كثرت فى عهد العباسيين ، وانتشرت فى جميع مدن الاسلام ، وكان الخلفاء والحكام يقيمونها فى اماكن واسعة ، ويوقفون عليها الأموال الطائلة ، ويجمعون لها الأطباء وانواع الأشربة • فمثلا مارستان صلاح الدين بمصر (١) ، وكان عبارة عن قصر سابق من قصور الفاطميين ــ اذ انه هو الذى قضى على دولتهم فى مصر ــ قسم الى غرف ومقاصير ، وضعت فيها الأسرة ؛ ليتخذها المرضى مضاجع ، وافرد لهم خـدم يتكفلون بتفقد احوالهم فى الصباح والمساء ، كما خصص فيها موضع خاص للنساء ، ولهن من يقوم بالاشراف عليهن ، وفيها ايضـا قسم للمجانين « محابس » مقفولة بشبابيك من الحديد ، ولهم من يتفقد احوالهم • كذلك جعـــل بيمارســـتان قلاوون الكبير اقساما (٢) « ايوانات » خصص معظمهـا للحميـــات ، وافردت قاعة للرمد ، واخـــرى للعمليـات « قاعـــة للجرحى » ، ومكان لتدريس الطب ، وخزانة كتب ، ومكان لتركيب الأدوية ، ومطبخ للطعام ، وحواصل للأدوية وغيرها ، وقبة للصلاة ، وفسقية • ولما جاء الاوربيون الى الشرق ، عرفوا نظام المستشـفيات ، فنقلوه الى بلادهم • ولا تزال بقايا المارستانات الاسلامية موجودة حتى الآن فى القاهرة ، ممثلة فى المارستان المؤيدى ، الذى بناه المؤيد الشيخ(٣) ؛ وان تحـــول الى جامع الى يومنا •

اما مقابر المسلمين ، او ما يسمى بالتربة او القرافة ؛ فكانت عادة

(١) عنه بتفصيل ، انظر • رحلة ابن جبير ، ص ٢٠ ــ ٢١ ؛ الخطط ، ص ٢٥١ • فتح للمرضى عام ١١٨١/٥٧٧ •

(٢) على الخصوص : الخطط ، ٤ص ٢٥٩-٢٦٣ • بناه عام ١٢٨٤/٦٨٣ •

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٦٣ • بناه عام ١٤١٨/٨٢١ •

منفصلة عن مقابر غير المسلمين من اهل الأديان الأخـرى . وكان المسلمون فى اول الأمر يموتون ويدفنون بدون كلفة اقتداء بالرسول ولكن فى العصر العباسى بدء فى بناء مقابر خاصة اشـبه بجوامع جنائزية لأهل البركة والاولياء ، عرفت بأسماء : قباب او مقابر او اضرحة او مشاهد ، وهذه الأخيرة عرفت على انهـا للعلويين على أساس الشهادة اى الايمـان ، أو انهم اسـتشهدوا فى سبيل نصرة عقائدهم (١) ؛ مع ان الاسلام لا يميز بين مسلم وآخر . وقد وردت احاديث نبوية تبين ان الصلاة فى المقابر مكروه (٢) ؛ مما يدل على قيام مثل هذه المقابر الخاصة بعد موت النبى . فكانت بعض هـذه المقابر تشمل فقط الراس كما فى مشهد الحسين ، بل ان بعضها يقام حتى ولو لم يوجد شىء من الميت ، مثل تلك الأضرحة التى اقيمت لسيدنا عبد القادر الجيلانى فى انحاء بلاد الاسلام . كذلك فى القرن الرابع الهجرى ، بدىء فى وضع شواهد او تنصب على القبور ، مع ان الاسلام ينهى عن ذلك ، ولا يزال المسلمون يقيمون الشـواهد على مقابرهم الى الآن .

وقد كانت مدن الاسلام مسورة ، فيها عـدة ابواب من حديد ؛ وهى – أى الأسوار – تزدوج غالبا او تكون ثلاثة (٣) ، وتحيط بها الابراج أو الشرفات ، أو القلاع التى انتشرت فى الشرق لكل مدينة ، او الخنادق التى يدخلون احيانا فيها ماء من ماء البحـر وقت الضرورة (٤) ، كما كان الحال بالنسبة لأسوار الاسكندرية .

❋ ❋

والثابت ان البلاد التى فتحها العرب كان اهلها يلبسون ما تعودوا عليه ؛ اما العرب فيلبسون زيهم فى الجزيرة العربية ، وهو بسـيط مصنوع من الوبر وهو الصوف ، كما انه فى اثناء حركة الفتوح كان بعضهم عرايا لا يلبسون شيئا (٥) . ولـما تحولت غالبية اهالى البلاد

(١) انظر . Les Mosquées I, P. 100 : Haut et Wiet.

(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب ٤٨ و ٥٢ ، كتاب الجنائز ، باب ٦٢

(٣) سفر نامه ، ص ٤ ، ٨ .

(٤) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، تحقيق Ravaisse ، طبعـة Paris ، ١٨٩٤ ، ص ٣٩ .

(٥) الواقدى ، فتوح الشام ، ١ ص ٦٢ ، ١٢٤ ، ١٣٨ .

المفتوحة للاسلام ، بدا يظهر للمسلمين عرب وغير عرب زى خاص بهم ، يختلف عن الزى القديم او حتى الزى الحديث ؛ فضلا عن تطوره على ايديهم .

وقد ازدهرت صناعة النسيج فى بلاد الاسلام ، واعتبرت من اهم الصناعات ؛ بحيث ان اغلب حكومات الاسلام جعلته احتكارا لهـا نعرفت مصانعه باسم : « طراز » (١) ، وهى كلمة فارســـية تعنى التطريز او الملابس ، ولا سيما الدار التى ينسج فيها القماش ، وذلك عن طريق الانوال . وقد انتشر الطراز الحكومى فى المدن والقـرى الاسلامية على السواء ؛ واصبحت له هيئة كبيرة من العمال والموظفين، ووسائل نقل كثيرة خاصة به من مراكب ودواب (٢) . كذلك نسمع عن طراز العامة وطراز الخاصة (٣) ؛ مما يدل على ازادهار هــذه الصناعة اهلية كانت ام حكومية . ولا ريب فى ان صناعة الاقمشة وبيع الثياب « البز »(٤) ، كانت لها سوق رائجة فى بلاد الاســـلام ، ولاتزال كذلك الى وقتنا .

واشتهرت دور الطراز الاسـلامية بجودة اقمشتها ، التى اصبحت اسماؤها تجرى على كل لسان ، كما طبق صيتها الآفاق ، ودخلت بعض اسمائها اللغات الاوربية ، ولا تزال باقية فيها . فلا نجـد فى العصور الوسطى صناعة اقمشة جيدة الا فى دور طراز الاسلام ؛ حتى ان الدول خارج دار الاسلام ، كانت تتزاحم على شرائها (٥) . كذلك تطورت صناعتها على ايدى المسلمين؛فدخلتها الخيوط المتنوعة؛فيقال الخيط: « المصرى » و « العراقى » و « العالى »(٦) . كما دخلتها الزخرفة

---

(١) المقدمة ، ص ٢١٠ ــ ٢٢١ ؛ انظر . Ency. (art Tirâz) t4, p. 825 sqq . اصلها من كلمة درزى من دوختن ؛ بمعنى الخياطة .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) انظر . Répertoire chronologique d' Epigraphie Arabe. t6. p. 40; 48; 95. 112.

(٤) نهاية الرتبة ، ص ٦١ ــ ٦٣ ؛ الولاة ، ص ٥٦٢ .

(٥) سفر نامه ، ص ٣٨ .

(٦) الخطط ، ٢ ص ٢٥٦ س ١١ وما بعدها ؛ انظر . Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. trad. Furcy — Raynaud. Leipzig, 1952, 2. P. 677 - 678

؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٥١ وهامش ٦ .

باشكال متعددة ، رسمت بمختلف انواع الاصـــبغة ، ولدينا تعابير مختلفة عن ذلك ، مثل : الرسم والمقلم اى المخطط ، والمجـــاوم اى المرسوم(١) ، والموشح اى المطرز بالذهب . وقد اصبحت زخرفتهـا مظهرا للاناقة ؛ وان اعتاضوا فيها عن الصور ـ لكره الاسلام لهـا ـ بكلمات او تفريعات أو توريقات ، او بصور وحوش وطيور . ولا تزال بقايا الأقمشة الاسلامية فى العصور الوسطى موجـــودة الى الآن فى مختلف المتاحف (٢) .

وقد اخذت الأقمشة الاسلامية اسماءها غالبا من اسماء المدن التى صنعت فيها ؛ حيث أن بعض المدن الاسلامية قد تخصصت فى صـــنع أنواع من الأقمشة اشتهرت بها . فنذكر من انواع الأقمشة الاسلاميـــة الآتى (٣) : التيل وصناعته انتقلت من مصر القديمة عن القبط ، والبز او النسيج القطنى (٤) ، والحرير وصناعته ادخلت من الصين عن طريق الفرس ، و " الديباج » (٥) وهو قماش لامع او ملون رقيق ، يعتبر تقليـدا للحرير الصينى ، وهى كلمة فارسية تعنى لباس الروح؛ فكانت لـــه فى مصر دار خاصـــة عرفت بدار الديبـــــاج (٦) ،

---

(١) لفظه « مجاوم » اصلها فارسى . Inost, P. 105.

(٢) صبح ، ٤ ص ٥٤ ؛ انظر . مرزوق ، الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ ؛ وزارة المعارف ، دليل متحف الفن الاسلامى « دار الآثار العربية سابقا » ، القاهرة ١٩٢٢ ، ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) انظر . Catalogue of Mohammadan Textiles, : Kendrick. of the Medieval Period (Victor and Albernt Museum) London. Las Manufactures d étoffes en Egypte, : Bahgat ; 1924. Materil for, : Serjeant ; au Moyen Age. Mem de Inst. E. Avril 1903. A history of Islamic.Texliles up to the Mongol Conquest. Rev. ARS. Islamica. vol. (X — XII). 1942 — 1946 ' XII — XIV. 1948

(٤) انظر . Cotton in Medieval textiles of the Near East : Lamm. Paris, 1937, p. vll.

(٥) ابن سيده ، المخصص ، ٤ ص ٧٦ ؛ انظر . Ency. (Art Dibâj) tl, P. 993 - 4 · Suppl, P. 421 : Dozy.

(٦) الخطط ، ٢ ص ٢٤٣ ـ ٤ ؛ انظر . ماجـد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٥ وهامش (٥) .

والسقلاطون (١) وهو نوع آخر من الحرير الموشح بالذهب ، وكان المصنوع منه في بغداد له شهرة عالمية ، كما كثر استعماله فى مصر والاندلس ، والوشى(٢) وهو قماش من الحرير الملون مثقل بالذهب كان يعمل باليمن والعراق ومصر ، والخز او القطف(٣) وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الارانب ، والطميم(٤) وهو قماش لعله الديباج مطرز بالذهب ، والموصلى الذى اشتهر بالموسلين " Mousseline " ، وهو قماش من حرير او قطن اشتق اسمه من اسم الموصل ، والسندسى (٥) وهو رقيق كالديباج ، والشرب (٦) وهو نوع من القماش الشفاف " Chiffon " ، تدخله خيوط حريرية او مذهبة يوجد منه الشفاف جدا ؛ بحيث ان الشخص كان يستطيع ان يلبس منه عمامة طولها مائة ذراع (خمسين مترا) (٧) ، والمقصب الأبيض او الملون(٨) ، وهو قماش مطرز لا ينسج الا فى دمياط وتنيس ، ولعله رقيق جدا ، والاسكندرانى (٩) وهو قماش رقيق ، والسمور (١٠) وهو قماش رقيق من الوبر اشتهرت صناعته فى

---

(١) انظر ، المقري ، نفح الطيب ، القاهرة ١٩٣٦ ، ١ ص ٣١٨ ، نسبة الى بلد بالروم . Dozy : Suppl, 1, p. 663; Inost, p. 42 وهو بالالمانية "Ciclat" ، وبالفرنسية والانجليزية "Ciclaton" ، وبالاسبانية "Siglaton" عن استعماله فى مصر ، الخطط ، ٢ ص ٣١٥ .

(٢) المسعودى (ط Paris) ، ٥ ص ٤٠٠ – ٤٠١ ، (ط ، مصر ١٢٨٣ هـ) ، ٢ ص ١٢٨ ؛ ابن سيده ، ٤ ص ٦٦ . عنه ، انظر . Dozy : Suppl, I, P. 693.

(٣) مروج (ط ، مصر ١٢٨٣ هـ) ٢ ص ١٤٢ ؛ ابن سيده ، المخصص ، ٤ ص ٦٨ .

(٤) مرزوق ، الزخرفة ، ص ٤٦ وهامش (٢) .

(٥) انظر . Dozy : Suppl, 2, P. 809.

(٦) انظر . Ibid, I, P. 740.

(٧) الخطط ، ١ ص ٣٦٥ .

(٨) سفر نامه ، ص ٣٨ .

(٩) الخطط ، ٢ ص ٢٦٢ س ١٠ ؛ انظر . Marzouk : History of Textile industry in Alexandria. 331 B. C. — 1517 A.D, p. 60.

(١٠) معجم البلدان ، ٥ ص ٧١ – ٧٣ .

الأندلس بمدينة سرقسطة ، ولذا سمي ايضا بالمرقسطية ، والبوقلمون او الأبوقلمون (١) وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وهى كلمة تبدو يونانية الأصل من " Kalimun " ، وقد اشتهرت صناعته فى عصر ، والدبيقى او الدبيقية (٢) وهو نوع من القماش المزركش ينسج فى مدينة دابق او دبيق الواقعة قرب دمياط ، والدمشقى ، الذى اشتهر ايضا بالدمسكس " Damascus " اشتق اسمه من اسم دمشق ، والحلبى وهو منسوج فى حلب ، والمخمل (٣) وهو قماش له وبـر ، والصوف المصرى (٤) الذى يصنع فى الصعيد من صوف الغنم ، وكان من الرقة بحيث شبه بالحرير ، والمثقل (٥) وهو منسوج بالذهب ، والأطلس(٦) وهو ما كان املس ، والقباطى (٧) وهو قماش ينسب صنعه الى القبط فى مصر .

وليس لدينا مادة تاريخية كافية تجعلنا نتكلم بالتفصيل عن الزى الاسلامى سواء اكان زى العامة او زى الخاصـة ، ولا سيما ان الزى كانفن سريع الحساسية والتطور من عصر الى عصر ؛ ومن بلد الى بلد ، ويتغير بتغير العصـور ، ويعتبره ابن خلدون من مظاهر الحضـارة وفنونها(٨) . ولحسن الحظ ، وجـد فى الاسـلام بعض الرجال النابهين ، ذوى الذوق الرفيع والحساسية للألوان ، ولا سـيما بين خلفـاء الاسلام ، فعملوا على تقدم الزى عند المسلمين . فنعرف من اعلام الأناقة الاسلامية فى العصر الأموى الخليفة سليمان بن عبد الملك(٩).

---

(١) سفر نامه ، ص ٣٨ .
(٢) الخطط ، ١ ص ٣٦٥ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٣٤ .
(٣) عنه ، انظر . Suppl, 1, P. 406 : Dozy.
(٤) سفر نامه ، ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٥) الخطط ، ٣ ص ١٠ (أسفل الصفحة) .
(٦) عنه ، انظر . Suppl, 2, P. 53 : Dozy.
(٧) الخطط ، ١ ص ٣٦٥ س ٦ .
(٨) المقدمة ، ص ٣٢٦ .
(٩) مروج (ط Paris) ، ٥ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ (ط . مصر) ، ٣ ص ١٢٨ .

(٩٦ ـ ٩٩ / ٧١٥ ـ ٧١٧) ، الذى ادخل ـ كما يقول المسعودى ـ زى الوشى ، وهى الثياب الحريرية المثقلة بالذهب ؛ فيلبسه الناس جبابا واردية ومراويلات وعمـــائم وقلانس . وهشـــام بن عبد الملك (١) (١٠٥ ـ ١٢٥ / ٧٢٤ ـ ٧٤٣) ، الذى ادخـــل زى الخز او القطف ، اى القماش الناعم ، فسلك الناس جميعا فى ايامه مذهبه . وفى العصر العباسى ، نذكر الخليفة المتوكل على الله (٢) (٢٣٢ ـ ٢٤٧/٨٣٧ ـ ٨٦١) ، الذى اوجد زيا عرف بالمتوكلية ، وهو نـــوع من الملحـــم اى المبطن ، وفضله على كل زى ، والخليفة المستعين بالله(٣) (٢٤٨ ـ ٢٥٢ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦) ، الذى احدث الكمام الواسعة التى كانت تقوم مقام الجيوب ، فيحتفظ فيها لابسها بكل ما يحتاج اليه من اقـــــلام وكراريس ودواة وغيرها . وفى مصر ، وجد بعض سلاطين المماليك ، الذين كان لهـــــم راى فى الزى يغيرون فيـــــه ؛ فمثلا الأمير سلار المملوكى(٤) (ت ٧١٠ / ١٣١٠) ، ايام السلطان محمد بن قلاوون، اقترح اشياء كثيرة فى الملبوس ؛ بحيث ســـميت العمائم باســـمه : المناديل السلارية ، ؛ كما ان بعض السلاطين كان يعارض زيا معينا ، مثلما عورض زى اكمام القمصان الواسعة للنســـاء (٥) . وفى الاندلس ، ظهر رجل فنان ، هو المغنى المشهور زرياب ـ ابو الحسن بن نافع (٦) ـ (ت ٢٤٣ / ٨٥٧) ـ الذى تحكم فى ابتداع الازياء ، وحث النـــاس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ؛ فالبياض فى الصيف والملون بقية شهور السنة ؛ والمبطن فى الشتاء ، وخفائف الثياب فى غيرها .

---

(١) مروج (ط . مصر) ٢ ص ١٤٢ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٣٢٧ .

(٤) ابن اياس ، ١ ص ١٥٥ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٩٣ .

(٦) المقرى ، نفح الطيب ، ط . ٢ . ١٣٠٢ هـ ، ٢ ص ١٠٩ وما بعـدها ؛ ابن دحية ، المطرب من اشعار المغرب ، تحقيق الابيـــارى وغيره ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٤٧ ؛ أنظر .
Histoire de l,Espagne musulmane, P. 190 : Lévi - Provencal

زرياب لقب غلب عليـه من أجل ســـواد لونـه مع فصـــاحة لســانه ، وهو اسم لطائر فـرد .

فعن زى عامة الرجال المسلمين ، لا نستطيع ان نعطى صـــورة دقيقة . ولكن نصا قديما ذكر ان القرشيين لقبوا المسلمين الذين هاجروا الى يثرب : جلاليب قريش (١) ، والجلاليب واحدها جلباب عبــارة عن ثوب غليظ . فلعل الجلاليب التى لبسها المســلمون وقتئذ كانت تدل عليهم وعلى عقيدتهم ؛ بحيث اصبحت لباس المسلمين المميز ، ولازالت الى وقتنا الحاضر . كذلك كانت الملابس الحريرية تكاد تكون محرمة على الرجال ومباحة للنساء(٢)؛الا اذا اشتمل الثوب على كمية ضئيلة من خيوط الحرير ؛ ولكن الرجال تخلصوا من ذلك التقليد تباعا ؛ الى ان صـــنع الثوب كله من الحرير الخالص . ولدينا تعابير قليلة غــير محددة عن أزياء عامةالرجال(٣) ، مثل: قميص، دراعة ــ وهوقميص ــ، رداء ، سترة ، عباءة ، جبة ، قفطان ، قباء ، ازار ، كوفية (٤) وهذه الأخيرة للرأس .

اما عن زى عامة النساء المسلمات ؛ فلدينا تعابير قليلة غير محددة ايضا ، مثل : رداء ، مطرف ــ وهو رداء طويل لــه طرف ــ ، دراعة ــ وهى قميص ــ ملاية . اما النقاب ؛ فمع انه كان معروفا لرجال العرب، الذين لبسوا اللثام ليقيهم من لفح الحر ؛ الا انه لم يكن معروفا كزى عند عامة نساء العرب ، قبل أن يجعله النبى لزوجاته ؛ حيث اراد ان يميزهن عن بقية نساء العرب ، وذلك للرفع من شانهن(٥) . ولكن بقية النساء المسلمات اردن تقليد نساء النبى ، ثم انتشر النقاب بين نساء

---

(١) الخشنى ، شرح السيرة النبوية ، تحقيق Bronnle ، القـــاهرة ١٩١١/١٣٢٩ ، ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب ١٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٥ ؛ مروج (ط . مصر) ، ٢ ص ١٨٢ .

(٣) عنها ، وعن زى النساء ، انظر بتفصيل : الخابرى ، كتب اللباس ؛ وانظــر . : Dozy .

Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les, Arabes. Amesterdam, 1845

Notes on, : Reuben Levy ; Costume from Arabic Sources. J. R. A. S. Avril, 1935

(٤) لعلها من صنع الكوفة .

(٥) القرآن ٣٣ : ٥٣ . عن الحجاب بعامة ، انظر .

Ency de l' Isl, (art Hidjâb) 2 ed, t3, P. 370 — 2.

الشعوب المفتوحة ، فلم يعد يقتصر حتى على دين خاص . وقد فسر نوع الحجاب بان للمراة الحق فى ان تظهر وجهها وكفيها وذراعيها وقدميها. ومع ذلك ؛ فملايين النساء المسلمات طوال العصور الوسطى سافرات، لا يضعن النقاب ، واقتصر وضعه على وسط خاص ، وهى الطبقة الارستقراطية . ومن اللازم ان نذكر ان الاسلام لم يعتبر النظر الى النساء حراما (١) ؛ حيث يؤيد الجاحظ ذلك باحاديث نبوية . كذلك وجدت احاديث نبوية كثيرة تدعو النساء الى لبس السروال (٢) ـ جمعها سراويل ـ منها : « يرحم الله المتسرولات من النساء » ، وهو لباس على ما يبدو اصله فارسى ، وان وجد فى لبس العرب الأول ، وعرف عند الاوربيين باسم " Pantalon " . وهذه السراويل تلبس على الجسد ، وتربط بالتكة ، وقد ذكر ان احد خلفاء الاسلام كان يملك عشرة الاف تكة حرير (٣) . اما ارجل النساء ، فتلبس فيها القباقيب او الزرابيل ، وهذه الأخيرة نوع من الخفاف ، شاع لبسه بين الجوارى (٤) .

اما عن الزى الرسمى ـ وهو الزى الخاص ـ فهو لم يكن موجودا فى اول عهد الخلافة الاسلامية ، اذ كان خلفاء الاسلام الأوائل يعيبون على موظفيهم ، الذين يتزيون بزى الأعاجم (٥) . وينسب للخليفة المعتصم العباسى انه اول من اتخذ الزى الفارسى زيا رسميا ؛ فقد كان هذا الخليفة يعتمد على عناصر غير عربية فى جيشه من الترك على الخصوص ، فاسقط العرب من الديوان ، وخلع لبسهم وزيهم . وقد

---

(١) الجاحظ ، رسالة القيان ، تحقيق Finkel القاهرة ١٩٢٦ . ص ٥٦ ، ٦١ .

(٢)عنها ، انظر . البخارى ، كتاب اللباس ، باب السراويل ١٤ ؛ الجاحظ ، التاج ، تحقيق زكى باشا ، ص ١٥٤ ؛ ابن سيدة ، المخصص ، ٤ ص ٥٨٣ ؛ انظر . Ency. (art Sirwâl) t4., p. 471 — 473. هى كلمة فارسية معربة .

(٣) وهو هشام بن عبد الملك . نقلها الخربوطلى فى كتابه : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٢٣ (لم يذكر المصدر) .

(٤) النجوم ، ٥ ص ٣١١ .

(٥) العقد ، ١ ص ٦٩ (آخر الصفحة) ؛ السلوك ١/١ ص ١٦ .

زاد فى تطور الزى الرسمى انقسام وحدة الخلافة الاسلامية وتعـددها دولها ؛ فاصبح الزى يطابق عقيدة الدولة ؛ بحيث ان الخلافة الفطمية اختارت اللون الأبيض شعارا لزى الخليفة وموظفيه ورجال دولتـه وجيشه ، اما الخلافة العباسية ، فقد اختارت اللون الاسود . وحتى وقتنا الحاضر نجـد الشيعة فى وقت حزنهم يلبسون البياض ؛ حتى لا يتشبهون بالسنة . وقد كانت الدولة الاسلامية تتكفل بزى موظفيها من العمامة الى السراويل على حد تعبير المقريزى المؤرخ(١) ؛ اذ كانت تهتم بكل ما يتصل بموظفيها . فكان الزى الرسمى يسمى غالبا : خلعة أو تشريفة(٢) ، وهى تتميز بوجود اسم الخيفة او الأمير عليها . وقد اتخذ الزى فى وقت ما شكلا ثابتا ـ كما فى الدولة الفاطميـة ـ فكان للرجال يسمى بدلة وللنساء يسمى حلة ، وكلاهما يتكون من عـدة اجزاء ، تبلغ احيانا خمس عشرة قطعة (٣) .

اما زى الراس الرسمى ؛ فقـد اصابه تغيير كبير ، وان كـان اساسه العمائم التى شبهها على بن ابى طالب بانها تيجان العرب ؛ فقد اصبح لف العمامة يدل على صاحبها . ففى الخـلافة الفاطمية مثلا ؛ كان الخليفة يشد عمامته ـ التى سميت التاج الشريف ـ بشكل معين فىهيئة مستطيلة عرفت بشدة الوقار او الشـدة العربية(٤) ، ورجال القصر يدورون طرف العمامة على الحنـك ، وعرفت لذلك بزى الحنك (٥) ، ورجال الدين يرخون طرف العامة على الظهر ، وسميت ذؤابة أو عذبة (٦) ؛ ولعلهـا اخذت عن سنة السلف ، فابن عمر بن الخطاب كان يرخى عمـامته الى خلفه ، ورجال القـلم

---

(١) الخطط ، ٢ س ٢٥٥ .

(٢) السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، سجل برقم ٤٨ ص ١٦٤ س ٦.

(٣) الخطط ، ٢ ص ٢٥٧ س ١٠ . فمثلا أحدهم لبس سبعة قمص ، بعضها اقصر من بعض . الأغانى ، ١٧ ص ٨٩ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٣١٧ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٧٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٦٥ وهامش ٣ .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٨١ ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ٢ ص ٥٥ .

(٦) الخطط ، ٢ ص ٣٠٤ س ٢٦ ـ ٢٧ ، ص ٣٠٥ س ١٧ ؛ انظر :
Vét p. 307 ; 331, : Dozy

يضخمون عمامتهم ، وسموا بسبب ذلك : ارباب العمائم (١) ، ورجال السيف يلبسون العمائم من القماش المطرز بالذهب والمرصع بقطع صغيرة من الصفيح مذهبة او مفضضة (٢) ؛ اما زى الراس لزوجات الخليفة ـ الجهات العالية ـ فانه عرف باسماء متعددة ، مثل : معجر، وسداسى (٣) ، وهو يمتد من الراس حتى القدم .

اما اللبس الرسمى نفسه ، فقد كان للخلفاء فى اول الامر بسيطا ساذجا ؛ ولكن سرعان ما تطور تطورا كبيرا ؛ ولا سيما اننا راينا ان اعلام الاناقة ومن عملوا على تطور الزى كانوا من الخلفاء . فدخلته الالوان واصناف الزخارف ، واصبح يصنع من الحرير المذهب ، ويتميز فى كل مناسبة . كذلك كثر عدده الى حد ان الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥/٧٢٤ ـ ٧٤٣) ؛ حمل ملابسه الداخلية فقط « ثياب ظهره » على ستمائة جمل (٤) ، اما الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤) ؛ فكان عنده فى خزائنه ثمانمائة بدلة (٥) . ومثلا كان الخليفة الفاطمى يلبس فى عيد الاضحى لباسا احمر موشحا ؛ ليتناسب مع ذبح الضحايا (٦) ، وفى الصلاة فى يوم الجمع يلبس الابيض غير المزخرف توقيرا للصلاة (٧) ، وفى يوم فتح الخليج يلبس البدنة (٨) وهى من

---

(١) الخطط ، ١ ص ٣٦٥ ، ٢ ص ٣٥٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ٢ ص ٦٠ ـ ٦١ وهامش (٣) .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٣٠٥ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 354. منذ العصر الايوبى ، كان الجند يلبسون الكلوتات بدل العمائم ، وهى لا تلف حولها شاش ، وان لفت الشاش بعد ذلك فى عهد المماليك .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٢٥٧ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 96; I, p. 642. ; ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤) العقد ، ٢ ص ٣٣٨ . يقول المقريزى سبعمائة جمل . السلوك ١/١ ص٩٤ .

(٥) الخطط ، ٢ ص ٢٦١ س ٢٤ ؛ انظر . ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٢ .

(٦) مثلا : صبح ، ٣ ص ٥١٥ س ٥ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٥١٠ س ٩ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٥١٩ س ٢٢ .

الحرير المخطط المزخرف ؛ مصنوعة بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل او خياطة ، وفى مناسبات اخرى يلبس البياض ، ولكن بطراز من الذهب ورســوم ، ويكون له ذيل طويل : « موشح مجــاوم مذايل (١) » .

ووجدت بعض الملابس الرسمية ، التى تميز طائفة عن اخرى ، فزى الوزير سمى دراعة (٢) ، وهو لباس مشقوق من الامام ومحلى بعرى وازرار ، وهو ايضا زى الكتاب ، وان كان اقل زخرفة ، ورجال القضاء يلبســون الطيالس أو الطيالسة ومفردها طيلسان (٣) ، وهى طرحة توضع على المنكب ، وامراء الجيش يلبسون الاقبية القصيرة والثيــاب المزركشــة (٤) ، اما الجنــد فكانت تغطى افخــاذهم بشرائط (٥) ، وتحيط وسطها باحزمة .

هذه تفاصيل الزى الاسلامى فى العصور الوسطى ، يتبين منها مدى التانق والابتكار .

* *

اما عن الحياة الاجتماعية الاسلامية ؛ فانها لا ترد كثيرا فى كتب المؤرخين ، وهى ان وردت فانها تتناول الخاصة قبل العامة ؛

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٥٦ س ١٠ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٣٠٤ ؛ انظر ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٨٩ — ٩٠ ، ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ؛ الولاة ، ص ٦٠٤ س ٢ ؛ ابن سيده ، المخصص ، ٤ ص ٧٨ ؛ انظر - نظم الفاطميين ، ١ ص ٩٠ وهامش (٣) . ولعلها تحريف من الكلمة الفارسية « طالش » أو « طلشان » او اصلها من الكلمة العبرية « طالث » . انظر .

: Reuben Levy
Notes on Costume from Arabic sources, J.R.A.S, Avril, 1935, p. 334. N. 5.

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٥٥ ؛ صــبح ، ٤ ص ٣٠ ؛ انظــر ، نظــم الفاطميين ، ٢ ص ٥٨ .

(٥) سفر نامه ، ص ٥٤ .

شأن كل مجتمع . ونحن لا نستطيع ان نتتبع كل ما فى حياة المسلمين الاجتماعية ، وانما نذكر ما يميزها عن غيرها . وقد كانت حياة المسلمين الاجتماعية فى اول عهد الاسلام ساذجة ؛ لان الاسلام ظهر فى بيئة بدوية ، كما ان روح الدين الاسلامى لم تكن تبيح من التمتع فى الحياة غير التمتع الذى يبيحه الشرع ، فوجدنا حياة المسلمين الاوائل تطابق روح الدين الاسلامى ، وروح المجتمع العربى الساذج . ولكن اتصال العرب بالشعوب المفتوحة ، وتحول هذه الشعوب الى الاسلام، ادخل فى حياة المسلمين كثيرا من مظاهر المجتمعات المتحضرة السابقة على الاسلام . كذلك كانت الثروة التى تدفقت على المسلمين من مصادر متعددة ، ونشاط حركة التجارة بسبب الاستقرار الذى اوجدته الخلافة الاسلامية ؛ له اثره البالغ فى ظهور حياة اجتماعية زاهية عند المسلمين .

وما لبث ان بالغ المسلمون فى البذخ والترف ؛ بحيث اصبح الشرق يعرف ببذخه وترفه ولين الحياة . وفى بعض الاحيان كان يحدث رد فعل من جانب الخلفاء الاتقياء ؛ لما عليه من حال المسلمين من ترف وبذخ ؛ فيحاولون ان يخضعوا الحياة الاجتماعية الاسلامية لنصوص القرآن الحرفية . كذلك ظهرت بين المسلمين طبقة متزمتة ، هى طبقة الحنابلة ، الذين كانوا حربا على اللهو ؛ فكانوا يقومون بكسر اوانى الخمر والآلات الموسيقية ، كما ظهرت احاديث نبوية تدعو الناس الى ترك البدع (١) ؛ وهو التغيير فى تقاليد المجتمع .

* *

وعلى العموم كانت قصور الارستقراطية ، تتميز بثلاث خصال :

اولا : وجود الحريم ـ وجمعها حرائم ـ وهى كلمة تعنى كل ما يتحرم به ويمنع منه ويدافع عنه (٢) . وقد انتقلت الى القاموس

---

(١) انظر . الطرطوشى ، كتاب الحوادث والبدع ، تحقيق طالبى ، تونس ١٩٥٩ ؛ انظر . Talbi :
Les Bidâ. Stvdia Islamica. 1960, XII, p. 43 sqq.

(٢) انظر . لسان ، ١٥ ص ٩ وما بعدها ؛ انظر . Dozy :
Suppl, I, p. 277 — 8 .

الأوربى بلفظة " Harem " ، واصبحت تعنى عند المسلمين اهـــل الرجال من نساء واطفال ، حتى ولو كانت امرأة واحـــدة • فكان وجود الحريم بهـذا المعنى ان جعله ينتقل ايضا الى افـراد الشعب ؛ بحيث صار الحريم اساس الحياة العائلية الاسلامية • وهذه الطبقة من النساء فى قصور المسلمين ، تتكون من الزوجات ، ومن الاماء ـ مفردها امة ـ ومن الجوارى او القيـــان ، او حتى الوصـــائف والمولدات والسرارى (١) • وهذه الأخيرة بسـبب اباحة الاســـلام استخدامها ، بولغ فى الاكثار منهـــا ، وان وصف القيـــان بعدم الاخلاص ؛ كما كن من الجائز تداولهن ، فهن ـ كما يقول الجاحظ ـ بمنزلة التفاح الذى يتهاداه الناس بينهم (٢) •

ومن الطريفان نذكر ان زوجة الخليفة الفاطمي او حظيته ، كانت تسمى : « جهة » والجمع « جهات » ؛ كمـــا ان بعضهن يسمون : « الجهات العالية » ، اى المقربات (٣) ؛ وهؤلاء يكتب عقـدهن على القماش مثل الحرير او القماش القبطى ؛ وذلك حتى يبقى مدة طويلة؛ على عكس عقود الناس العاديين ؛ فنه يكتب على البردي ثم الورق(٤) ولم يكن عند الخلفاء المسلمين تعصب فى الزواج بالأجنبيات (٥) بحيث ان اغلب خلفاء الاسلام من امهات غير عربيات • فمثلا فى قصر الخليفة الفاطمي بمصر حينما سقطت دولته على يد صلاح الدين الايوبى ، كان يوجد فيه اثنتا عشرة الف نسمة ، ليس فيهم فحل غير الخليفة واهله واولاده (٦) • اما حريم بغداد ، فمن كثرتهن اصبحن

---

(١) الجوارى جمع جارية ، والقيان جمع قينة ، والوصائف جمع وصيفه والمولدات جمع مولدة ، والسرارى جمع سريرية • انظر • Dozy : Suppl cf,

(٢) الجاحظ ، رسالة القيان ، ص ٥٦ ، ٦٩ •

(٣) ابن الساعى ، نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفـاء من الحرائر والاماء ، ط: دار المعارف ، القاهرة ، ص ٤٣ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٥٧ س ٢١ ، ص ٢٥٨ س ٧ ؛ انظر • ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٣٧ •

(٤) انظر •

Un contrat de Mariage, : Râgib
sur soie d'Egypte Fatimide. Ann Islamo, t XVI, 1980, p. 7 sqq.

(٥) العقد ، ٣ ص ٢٨٣ س ٨ ـ ٩ •

(٦) الخطط ، ٢ ، ٣٩٦ ، س ١٠ •

بمقدار ثلث سكان بغداد ، ويسكن في وسطها (١) ، وكان للخليفة المتوكل على الله وحده أربعة آلاف امرأة وطئهن كلهن (٢) اما في قصر الزهراء بقرطبة ؛ فكان فيه ستة آلاف وثلثمائة امرأة واربع عشرة (٣) .

ولكن يجب ان نشير انه وان كان تعدد الزوجات ؛ وما ملكه الرجال من الجوارى مسموحا به في الدين ؛ فانه لم يكن قاعدة عامة؛ لان الاحتفاظ بعدد كبير من النسوة لا يتفق مع اذواق الناس جميعا ، او مع استعداداتهم المالية ؛ حيث ان دفع المهر وتقديم الهدايا كان يثقل جيوب كثير من المسلمين . كما اننا سمعنا ان بعض الخلفاء كان يحتفظ بزوجة واحدة ، مثل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، الذى كان ينصح رعاياه بالاقتصار على زوجة واحدة (٤) .

ومن الطريف أن نذكر ان العرب عموما كانوا يفضلون من النساء النحيلات الاعلى الجسيمات الأدنى ؛ او كما يقولون عنهن : اللواتى اعلاهن قضيب ، واسفلهن كثيب (٥) . كذلك كان العرب يفضلن البيض من الجوارى ، وان لاحظوا ان لكل جنسية ميزة (٦) ؛ فمثلا : التركيات لهن البياض ، والروميات لهن زرقة العيون ونعومة الشعر،

---

(١) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد او مدينة السلام ، تحقيق Salmon ص ٤٩ وما بعدها ؛ Ency (art Baghdād) tI, p. 58.

(٢) مروج ، ط مصر ، ٢ ص ٣٠٨ ؛ انظر . أحمد أمين ، ضحى الاسلام ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٩ .

(٣) المقرى ، نفح ، ط . أحمد رفاعى ، ٥ ص ٥٩ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ١٦٤ س ١٩ .

(٥) نهاية الأرب ، ٢ ص ١٠٠ ؛ انظر . جبور ، الجوارى ، سلسلة اقرأ ؛ دار المعارف ، رقم ٦٠ ، اكتوبر ١٩٤٧ ، ص ٧ وما بعدها . عن رأى الجاحظ فى جمال النساء . انظر . رسالة فى العشق والنساء ، ضمن رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٦٩ .

(٦) ابن بطلان ، رسالة فى شراء الرقيق، مخطوط ببرلين ؛ انظر . ضحى الاسلام ، ص ٨٥ — ٨٧ .

والنوبيات لا يوجد لهن مثيل فى الجمال لرقة شفاههن ، وشعرهن المرســـل (١) .

ثانيا : وجود الخصيان او الاخصياء - مفردها خصى - وهذه غلبت عليها اسماء منها : الاستاذين مفردها استاذ ، او الطواشى وهى كلمة تركية مفرد وجمع ، ولعل اصلها من الطـــاووس للتعبير عن الرجل الجميل (٢) ، وكلتا الكلمتين تتوافق ايضا مع كلمــة خـادم ، وينسب استخدام هذه الطبقة فى الاسلام الى معاوية (٣) ، نقله عن الروم - البيزنطيين - الذين كانوا يخصون من يعمل من الرجال فى اديرة النساء . فكان من يحضر هذه الطبقة الى قصور المسلمين ، هم التجار اليهود او المسيحيون ؛ ذلك لأن الاسلام يحرم الاخصاء ، وان كان قد تعلم الاخصاء قـــوم من المسلمين فى الاندلس ؛ فصـــاروا يخصون ويستحلون المثـلة (٤) . وكذلك كان الخصـيان اغلبهم من عناصر مسيحية من اصل صقلبى - وهو عنصر اوروبى - او حتى من الترك والفرس والهنود ، وان كان خصيان الحبشة والنوبة والسودان لم تكن لهم نفس القيمة (٥) . وقد كان الخصيان فى قصـور الخلفاء طبقات منهم امراء ، ومنهم طبقة دنيا تقوم بالاعمال المنزلية . وقد بلغت هـــذه الطبقـــة فى مصر فى قصــــور الفاطميين الوفـا من

---

(١) عنهن على الخصوص ، انظر . الادريسى ، المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، تحقيق de Goeje و Dozy ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ ، ص ١٣ .

(٢) عن هذه الكلمة ، انظر .
Ency. (art Tawashi) t4, p. 740. ; Suppl, 2, p. 67 : Dozy
اصلها التركى طابوش .

(٣) الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق هارون ، ١ ص ١٢٤ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ، ط . احمد رفـــاعى ، القـاهرة ١٩٣٦ ، ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ؛ الخوارزمى ، مفيـد العـــلوم ، مصر ١٣١٠ هـ ، ص ١٠٨ ؛ الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ انظـر . فون كريمر ، الحضارة ، ترجمة عربية ، ص ٩٢ . التمثيل هوتشويه الخلقة .

(٥) الحيوان ، ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

الاستاذين (١) ، كما انه كان يوجد فى القصر العباسى احد عشر الف عبد خصى (٢) ، وفى قصر الزهراء بقرطبة ثلاثة الاف وسبعمائة وخمسون صقلبيا(٣) . ولدينا اوصاف لما يطرأ على الخصيان من تغيير بسبب الاخصاء ؛ فهم يعمهم العرق ، وتعوج اصابعهم ، ويصابون بالتكرش ، ولا يصلعون مثل النساء . كذلك تصير طباعهم مقسومة على طباع الذكر والأنثى ، وتكثر دمعتهم ، ويحبون النميمة كالنساء (٤) ، كما يتميزون بالاخلاص لسيدهم ، وهم أشبه بالحيوانات الأليفة .

ثالثا : وجود الغلمان ـ مفردها غلام ـ فى قصور المسلمين ، ومؤنثها جارية ؛ وهى فى بادىء الأمر غريبة عليهم ؛ اذ هى مأخوذة عن البيزنطيين . وربما يكون ذلك منذ عهد العباسيين ، ولا سيما الرشيد ، الذى رمى بأمر الغلمان (٥) . ومسألة عشق الأولاد القبيحة ، التى كانت تجد سبيلها الى اوساط المسلمين ؛ نجدها فى اقوال الشعراء المعاصرين ؛ ولا سيما عند الشاعر الداعر المحظوظ ابى نواس ، دليلا على هذا الانحلال الفظيع ، الذى كان يخرج عن الترف الشرقى . كذلك كانوا يتفننون فى اختيار اسماء ملائمة لغلمانهم ، مثل : فاتن ورائق ونسيم ووصيف وريحان وبشرى (٦) .

* *

ويجرنا الكلام عن الحياة الاجتماعية عند المسلمين الى الكلام عن حفلاتهم ؛ وان لم يكن لدينا عن الحفلات الخاصة الا القليل .

---

(١) سفر نامه ، ص ٤٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨١ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٥٨ س ٨، ٣١٤ س ٢ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠ ـ ١١ . هذه الكلمة من اصل فارسى ، تعنى : عريف أو سيد أو معلم ؛ وان أصبحت فى العصر الفاطمى تدل على عبيد القصر .

(٢) النجوم ، ٢ ص ٢٤٨ .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ٥ ص ٥٩ .

(٤) الحيوان ، ١ ص ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٥ ، ١٦٧ .

(٥) المقدمة ، ص ١٥ .

(٦) جمعها أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، ٢ ص ١٢٩ وما بعدها .

ولعل اهم هذه الحفلات الخاصة هي حفلات الزواج وحفلات الختان. فالاولى يعبر عنها بالعرس في حالة ما اذا اقيمت في عشيرة الرجل، وبالعمـرة في حالة ما اذا اقيمت في عشيرة المراة (١) . وفي هـذه الحالة كان لابد أن يقام الزفاف او الزفة ، وما يتبعها من وليمة الفرح او العرس (٢) . فقد كان للمجتمع الاسلامي تقاليد خاصة بالزواج ؛ فان الزواج نفسه قد ياتي عن طريق الخاطبة كما يشير الجاحظ (٣) ، فيقدم للعروس المهـر او الصـداق ، وهو بمعنى الصـداقة او الهديـة . ولذا تسمى المراة مهيرة ، وهو تقليد يرجع الى عصر سـابق على الاسلام (٤) ، اما العقـد فهو دلالة قيام الزواج .

وقد بين لنا المؤرخون الترف والمبالغة ؛ اللذين كان يبذلهمـا الشرقيون في حفلات زواجهم ، التي قـد تستمر اسبوعا (٥) . ففي حفل زواج المامون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل (٦) ، استمر دار الطبخ يستعد ليوم وليمة العرس مدة عام كامل ، وينقـل من الجريد مائة واربعين بغلا ثلاث مرات في كل يوم . وقد قدم لكبار المدعوين بندق المسك ، الذي بداخله كتب العقار والمال والجـواري والدواب ، وعلى طبقة ثانية بدرت الدنانير في كل بدرة عشرة الاف، وعلى طبقة ثالثة الدراهم . اما المهر الذي قدم للعروس ؛ فكان الف حصاة من الياقوت . ولدينا ايضا وصف حفل زواج قطر الندى (٧) ، بنت خمارويه ، والى مصر ، للخليفة العباسي المعتضد بالله ، التي جهزت بجهاز لا يكاد ان يوجد مثله

---

(١) لسان ، ٦ ص ٢٨٣ ؛ انظر Ency. (art Urs) t4, p. 1094 sqq.

(٢) البخاري ، نكاح ، باب ٦٠ ، ٦٤ .

(٣) الجاحظ ، رسائل (رسالة في العشق والنساء) ، ١٣٢٤ هـ ، ص ١٦٨

(٤) القرآن ٤ : ٤ ؛ ٥ : ٥ ؛ ٦٠ : ١٠ ؛ انظر .

Kinship and, : Smith ; Ency. (art Mahr) t3, p. 142 sqq Marriage, in Early Arabia. Cambridge, 1885.

(٥) الاغاني ، ١٢ ص ١٤٥ س ٢ .

(٦) المقدمة ، ص ١٣٦ — ١٣٧ ؛ ابن الساعي ، نساء الخلفـاء ، ص ٦٧ وما بعدها ؛ مروج (ط. مصر) ، ٢ ص ٢٦٠ ؛ ابن طباطبا ، تاريخ الدول ، بيروت ، ص ٢٢٢ .

(٧) ابن الساعي ، نساء الخلفاء ، ص ١٠٤ وما بعدها .

اما عن الختان ، فهو للذكر يســمى ختن أو اعذار ، وللانثى خفض ، واصــل الختن القطــع (١) ، وهو تقليد عربى ، ذكــر فى القرآن على أساس أنه من الطهارة . وكان المسلم يكره أن يختن ابنه منفردا ، وتفرق الأموال والكسوات ، لاسيما اذا كان الختــان لابناء الخلفاء والحكام . فمثلا السلطان بيبرس (٢) لما ختن ولــده ، استمرت الاحتفالات اسبوعا ، فرسم للامراء والجند وبقية الرعيــة ان كل من كان له ولد ، فليطلع بــه الى القلعة حتى يختن مع ولده . فاحضر الناس اولادهم فبلغ عددهم نحو الف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا غير أولاد الأمراء والأعيان ، الذين رسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام ابيه ، اما أولاد الرعية فرسم لكل واحد منهم بكسوة ومائة درهم ورأس غنم .

اما الحفلات العامة ، فهى تقوم عادة فى الأعياد والمناسبات . فكانت فى أول الأمر بسيطة ساذجة ، تقوم فى ايام محدودة مثل : ليلة أول رجب ونصفه وليلة النصف من شعبان وليلتى العيدين ومولد النبى ورأس السنة الهجرية (٣) . ولعل أول من وضع اسسها الرسمية هــم الامويون ، الذين وضعوا حدودا للعلاقة بين الأمير والرعية . ولكن فى ايام العباسيين حينما نقلت تقاليد الشعوب المفتوحة وعاداتها فى احتفالاتهم ، نرى البذخ والترف والتعقيد فى الحفــلات العامة ؛ بحيث اصبح الاحتفال بالأعياد والمناسبات له شكل ثابت دقيق ، اطلق عليه لفظــه « رسوم » (٤) ، جمع « رســم » ، واصبح اشبه بالبرتوكول في وقتنا هذا . بل تعددت الأعياد والمناسبات عن ذى قبل ، فلم تعــد

(١) لسان ، ١٦ ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ؛ انظر .
Ency. (art Khitân) t2. p. 1013-1016

(٢) ابن اياس ، ١ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٣٤٩ س ٤ وما بعدها ؛ الدميرى ، حياة الحيوان ط. مصر ١٢٧٤ هـ ، ١ ص ١ .

(٤) مثلا : الخطط ، ٣ ص ٧٧ (آخر الصفحة) ص ٧٨ س ٩ ؛ انظر ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، ٢ ص ٣٩ وما بعدها ؛ Sourdel :
Question de cérémonial abbaside. R.E 1 1960. TXXVII p. 121 — 148

تشمل الأعياد الدينية الاسلامية فقط ، وانما ايضا الأعياد التى جاءت نتيجة للتقاليد القومية عند الشعوب المفتوحة ، مثل الاحتفال بوفاء النيل عند المصريين (١) ، والاحتفال باول العــام او النوروز ـ او النيروز ـ عند الايرانيين وغيرهم (٢) ، والأعيــاد المذهبيــة مثــل اعياد الشيعة والسنة ، واعياد الاديان الأخرى ، مثل اعيــاد القبط فى مصر (٣) . ولا نجـد لهـذه الرسوم اساسـا فى تقـاليد المسلمين الأوائل ؛ ولكن اغلبها ماخوذ من تقاليد الشعوب المفتوحة او المجاورة، ولاسيما الفرس والبيزنطيين ؛ وذلك بعد صبغها بالصبغة الاسلامية .

واهم مظاهر الرسوم الاســـلامية هى المواكب ؛ فهذه في اول الأمر لم تكن دقيقة او لها نظام معين . وكان اهمها الموكب الذى يخرج فيه الحجاج الى مكة ؛ وخصوصا اذا صحبهم الخليفة . ونحن نعرف ان الخلفاء العباسيين بعد هرون الرشيد لم يحجوا الى وقت سـقوط بغداد (٤) ، وحتى بعد ان انتقلت الخلافة العباسية الى مصر ـ نتيجة لاستيلاء المغول على الشرق الاسلامى ـ فكان السلطان يحج والخليفة لا يحج . كذلك لم يحج خلفاء الشيعة الفاطميين فى المغرب او فى مصر . كما ان خلفــاء بنى امية فى الأندلس لا يحجون هم وشعبهم خوفا من بنى العباس ، ولم يبح لهم الحج الا أيام ملوك الطوائف .

وقد اصـبح لموكب الحج من مصر اهمية خاصـــة منذ مجىء

---

(١) سفر نامه ، ص ٥٢ وما بعدها ؛انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، تحقيق Caetani ، ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧، ٤٩٩ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٠ ـ ٣٣ ؛ صبح ، ٢ ص ٤٠٨ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ؛ انظر .

Ency. (art Nawrūz) t3, p 949 — 50

اليوم الجديد « نوروز آمد » ، من شهر « فرافردين » فى التقويم الايرانى . الصياد ، النوروز ، بيروت ١٩٧٢ .

(٣) عن ذلك بتفصيل ، انظر . كتابنا نظم الفاطميين ، الجزء الثانى .

(٤) عن ذلك ، انظر . المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق الشيال ، ١٩٥٤ .

الفاطميين ، وذلك بسبب ان مصر كانت ترسل الكسوة ، التى كانت دمشق وبغداد ترسلانها قبلا ، وسميت الشمسية فى عهد الفاطميين ، والمحمل في عهـد المماليك (١) . وهذه الكسـوة فى الجاهلية من الجـلد ، ثم اصبحت في الاسلام من القماش (٢) ، ولا ســـيما من القماش المصرى او ما عرف بالقباطى ؛ وكانت تصـنع منـه حتي ولـو ارسلت من بغداد (٣) . وهى عبارة عن ستارة واحدة ، ثم اصبحت على يـد معاوية اثنتين ، وفى العهد العباسى ثلاث ، كما انها سوداء علي يد العباسيين ؛ وبيضاء علي يد الفاطميين .

وبعد ذلك ، وجدنا مواكب فى غاية التنظيم فى الأعياد والمناسبات الرسمية ؛ بحيث اصبح يطلق عليها الركوبات ، أو حتى المواسم (٤) . فكانت الدولة بخليفتها وموظفيها وجيشها ورجال اسطولها ، تخرج الى الشارع امام نظر الشعب . وقد تميز تـالمواكب بمظاهر شرقية باطلاق البخور وضرب الصفافير والصنوج وقـرع الطبول ، وتحريك النشـاب ؛ بفتلهـا فتـــلا متدارك الدوران . وقـد كانت مواكب خلفـاء الفاطميين فى مصر ، تشتمل بالضرورة على حاملى سـيوف الدم برسم قطع الاعناق . كذلك كان اهم شيء فى هذه المواكب هو المظهر الحربى ؛ لاظهار قوة الدولة .

وقد كانت عادة الخلفاء او الحكام في هذه المواكب ان يحملوا معهم علامات خاصة او اشعرة او آلات تدل عليهم . فمثلا فى عهد

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٢١٧ وما بعدها ؛ صبح ، ٤ ص ٥٧ – ٥٨ ، ٢٧٩ – ٢٩٨ ؛ ابن بطـــوطة ، رحـــلة ، ١ ص ٢٠٦ ؛ زبدة كشـــف الممالك ، ص ٩٢ ؛ انظـر . Jomier ؛
Le Mahmal et la Caravnae égyptienne des Pélerins de la Mecque, XIII — XXe Siècle. Le Caire, 1953.

(٢) صبح ، ٤ ص ٢٧٩ .

(٣) الازرقى ، كتاب اخبار مكة شرفها الله ، تحقيق Wust طبعـة Leipzig ، ١٨٥٨ ، ١ ص ١٦٨ .

(٤) انظر بتفصيل : الخطط ، ٢ ص ٣١٣ وما بعدها ؛ صـبح ، ٣ ص ٥٠٣ وما بعدها ؛ انظر Ency. (art Mawsim) t3, p 484 ؛ ماجد ، نظم ، ٢ ص ٤٥ وما بعـدها .

الامويين والعباسيين ؛ كان الخليفة يلبس البردة (١) ، التى كانت للنبى وكساها للشاعر كعب بن زهير بن ابى سلمى ، فاشتراها منه معاوية بعد ذلك ، ولبسها الخلفاء فى الاعياد ، وتوجد فى مخلفات خلفاء تركيا • ويحملون ايضا القضيب ــ وهو عصا ــ على عادة الملوك القدامى ، والسـيف ، وعمامة بالجوهر • اما الفاطميون ؛ فانهم على الخصوص يحملون على رأس الخليفة مظلة ثمينة ؛ مرصعة ومكللة بالجوهر ، وقد اصبحت ترمز الى شخصه • كما تحمل فى هـــذه المواكب الاعلام ، التى تنوعت باسمائها واشكالها والوانها ، فهى : راية اولواء او بند او جاليش او سنجق ، والعماريات اى الهوادج ، واسلحة فخمة من رماح ونشاب واقواس وسيوف ، بعضها مشهور مثل السيف المسمى ذى الفقار ، الذى توارثه العباسيون ثم الفاطميون • كذلك يحملون معهم علامات خاصة بكبـــار رجال الدولة والموظفين المدنيين ، مثل الدواة التى كانت تخرج لكبـــــار رجال الدواوين • اما رجال الجيش والاسطول ؛ فيكونون فى زيهم الكامل ، واسلحتهم واعلامهم •

واغلب المواكب كانت تنتهى الى احد الجوامع للصلاة ، وبخاصة فى الاعياد الاسلامية ، وفى ايـام الجمع المشهورة فى رمضان ، وفى مناسبات مذهبية • فاذا وصل الخليفة الى الجـــامع دخل من باب خاص ، يعرف بباب الامام ، ثم يستريح فى المقصورة ؛ ليكون بمناى عن بقية المصلين ، وهى تحاط بالحرس (٢) • وقد كان اغلب الخلفاء يقومون بالخطبة بانفسهم ، من فوق منبر وضعت على جانبيه الاعلام، التى كتب عليها آيات قرآنية ، وبجواره صوان كبار فضية ، فيهـــا يحرق البخور • ولكن نظرا لانه كان بينهم الصبى والعيى ؛ فانــه كان

---

(١) الرازى ، الزينة ، تحقيق الهمدانى ، ١ ص ٥٣ ؛ القدمة ، ص ٢١٠؛ مروج ، ٢ ص ٣٢٩ ؛ مصنف مجهول ، العيون والحدائق ، ط Lugd Bat ١٨٧١ ، تحقيق de Goeje ، ٣ ص ٨٢ ؛ الخل •

;Ency. (art Burda) t1, p. 815

Dict. des. noms de vêt. p. 59 — 64 : Dozy;

(٢) الفخرى ، تحقيق Ahlwardt ، ط • Greifswald ، ١٨٥٨ ،ص٤٢٩•

يزر عليهم وهم على المنبر ، بما يشبه الستر او القبة (١) . وقــد كان الخلفاء يقومون بالخطبة ، وقد امسك الواحد منهم فى يده عصـــا او رمحا تسمى « العنزة (٢) » ، ولعلها عصـــا رسول الله ؛ فهــو فى هذا يشبه الخطباء فى ايام الجاهلية ، وهذا يدل على قدم هذه العادة . وفى ايام الفاطميين كان الخليفة يخطب من مسطور ، يحضر من ديوان الانشاء ، ثم يؤم المصلين بالصلاة على طراحات او مخدات. كذلك اصبح من التقليد عندهم ان يجعلوا كبار رجال الدولة يصعدون معهم على المنبر ، ربما لتشريفهم . ولقد اصبح الدعاء للخلفاء من على المنبر من اختصاص اصحاب السلطان ، واول من دعى له منهم هو على بن ابى طالب (٣) .

وكان من الرسوم ايضا حفلات الاستقبال الرسمى ، التى تقـام فى القصر ، وهى تعـــــرف بالجلوس (٤) ؛ لتتميز عن الركـوب ، وما زالت قاعة الاستقبال فى البيوت الشرقية تعرف للآن بقـــــاعة الجلوس . فكانت الجلوسات الرسمية تقام عادة فى قاعة خاصة او فى بهــو قصور الخلفاء يعــرف « بالايوان (٥) » كما عند الفرس ، وهى القاعة المحاطة باعمدة . ولدينا اوصاف لمثل هـــــذه القاعات الرسمية ، المحلاة جدرانها بصور منقوشة بالذهب والفضة ، وقــد علقت على أبوابها ونوافذها ستائر الحرير بشعار الدولة ، وفرشت ارضها ببسط مذهبة فائقة . وقد كان الخلفاء منذ معاوية يجلسون على عرش مرتفع ، مصنوع من الذهب وعليه الرسوم والكتابات ، وضع فى صدر المجلس ، يعرف بالسرير او سرير الملك او التخت او

---

(١) عن ذلك بتفصيل ، مثلا : صبح ، ٣ ص ٥٠٩ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) لسان ، ٧ ص ٢٥١ ؛ ابن سعد ، ٣ ص ١٦٧ ــ ١٦٨ ؛ انظر .
;Ency. (art 'Anza) t1, p. 350; (art Khutba) t2, p. 1033 sqq ;
(art Khatīb) t2, p. 979-80.

(٣) المقدمة ، ص ٢١٣ س ٧ ــ ٨ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٩٨ وما بعدها ؛ سفر نامه ، ص ٦٣ ــ ٦٤ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١١٠ وما بعدها .

(٥) مثلا : الخطط ، ٢ ص ٢٢٢ .

الكرسى او المنبر (١) ؛ وذلك خلف ستر على أساس النظم الفارسية ، ويجواره المبـــاخر .

ويبدا حفل الجلوس عادة بالتحية ، حينمـــا يرفع الستر عن الخليفة ؛ فيتقدم اليه رعاياه بالتحية على الطريقة الفارسية ، مثلا : تقبيل اليد او الذيل او الأرض او الستر ، مع القاء السلام . فاذا تكلم شخص كانت مخاطبته للخليفة على أساس الضمير الثالث ؛ فيقول : امير المؤمنين ، ولا يخرج فى كلامه عن صـــيغة معينة . وقد كان للجلوس الفاطمى موظفون خصوصيون ، مثل : متولى الستر الذى يرفع الستر ، والحجاب او حتى البوابين ـ كمـــا كان يحدث ايام الأمويين(٢) ـ وامـــير المجلس الــذى يشرف على تنظيم وقـــوف الحاضرين ، فيما عدا الوزير ، الذى كانت توضع له مخدة بجـانب عرش الخليفة .

ولعل اهم رسوم القصور الخليفية هى الأسمطة (٣) ـ جمــع سـماط ـ وهى الولائم ، التى كانت تقام فى الأعياد وشــهر رمضـان على الخصوص ، او فى المناسبات ، ويبدو أن معاوية اول من مد السماط . وقد كانت الأســمطة تتميز بطابعهـــا الشرقى ؛ فيجلس الحاضرون على مخدات او دكك بقرب موائد واطئة ، توضع عليهـا الأزهار ، وانواع الماكولات فى صحون متعددة الأنواع من الصينى والخزف والذهب والفضة ، بعضها يبلغ فى طوله طول قامة رجل ، وقد كان يقوم بالخدمة على موائد الخلفاء فى القصـــور موظفون مخصصون يلبسون ملابس رسمية ، فمثلا : خـــدم الخليفة الأموى سليمان كانوا يلبسون الوشى(٤) .

وقد وجدنا ذوقا خاصا فى الأكل عند المسلمين ، وربما يكون

(١) المقدمة ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) نفســه ، ص ١٩٠ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٥١٤ ـ ٥١٥ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ؛ انظر ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٤) مروج ، ط . مصر ١٢٨٣ هـ ، ٢ ص ١٢٨ .

ذلك قد بدا من ايام الامويين ، الذين اتخذوا منه اصنافا ؛ حتى ان احد ولاتهم يرى ان مال ولايته ـ خراسان ـ لا يكفى لمطبخه (١) ؛ مع ان العـــــرب فى اول الامر لم يكونوا يعرفون الكثير من انواع الطعام ؛ فكان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح (٢) . ولكن المغنى الاندلسى المعروف زرياب جدد فى انـواع الطعـــام وصـــنفه (٣) ؛ والخليفة المتوكل ينسب الى صنعه نوع من الحساء يعرف باسمه المتوكلية (٤) ؛ كما وجدنا من المؤلفين العرب ، من يؤلف فى فن الطبخ ، وظهر ما يعرف بكتب المطابخ (٥) . بل كان الخـــلفاء العباسيون يقيمون مباريات فى فن الطبخ ، ويكافئون طباخيهم على مهارتهم . فالخليفة المعتصم العباسى اقام مبــــاراة فى الطبخ بين ندمائه ، واحضر من يحكم على جودته ؛ فكان بعضه قد كثر فلفله ، وآخر كثر خله وقل زيته ، وثالث اعتدلت توابله ، ورابع قل ماؤه كذلك ملأ الخليفة المتوكل قدرا من دراهم الفضة لمن جود طبخ قــدر اعجب به (٦) . ويبدو ان صنع الاطعمة غدا فنا ؛ تتمايز به الدول الاسلامية ، فكان متقدما جدا ايام الفاطميين فى مصر (٧) ، حتى

---

(١) الاغانى ، ١٣ ص ٥٦ .

(٢) الابشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف ، مصر ١٣٠٦ هـ ، ص ١٦٢

(٣) عنه : ابن دحية ، المطرب ، ص ١٤٧ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، المطبعة الازهرية ١٣٠٢ هـ ، ٢ ص ١١٢ ؛ انظر . Lévi-Provençal. La Civil. Arabe. p. 73 ;

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٥٨ س ٣ ؛ انظر ، ما جد ، الحاكم بامر الله ص ٩١ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق Flugel ، ط . Leipzig ١٨٧١ ـ ٧٢ ، ص ١٤٥ ؛ الهمذانى ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق Muller ، ط . Leiden ، ١٨٩١ (يقول ، ولهم مع ذلك الوان الطعام والحـلاوى والشربة التى تؤثر على غايات الوان كتب المطابخ) . ورد ذلك فى كتاب متز الحضارة الاسلامية ، ترجمة ابى ريدة ، ط ٢ ، ٢ ص ١٧٥ . كذلك لدينا مثلا كتاب الطبيخ ، من تاليف محمد بن الحسن البغدادى (ت ٦٢٣/١٢٢٦) ط دمشق ، ١٩٦٤ ؛ وكتاب الطبيخ فى المغرب والاندلس فى عصر الموحدين ، تحقيق Miranda ، نشر معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٦٥ .

(٦) مروج ، ٢ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٧) الخطط ، ٢ ص ١٨٩ .

انه اشتهرت فيها طباخات ، كن اشبه بالاساتيذ فى فن الطبخ .

وكان اعظم ماكول هو اللحم من حيـوان وطير ، ولاســيما الفراريج اى الدجاج . ويجب أن نذكر هنا معامل التنانير ، التى كان يعمل فيها البيض ، ويوقد عليها النار ؛ فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة ، فيخرج منها الفراريج ، ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر (١) .كذلك عرفنا من أنواع المآكل العربى اصنافا ، ذكرت لهـا أسماء خاصة ، منها (٢) : الوشيقة وهى اللحم المغلى او القديد ، والربيكة وهى الطبخ ، والبسيـسة وهى الخلط ، والعريقة شىء يعمل من اللبن ، والثريدة شىء بالفلفل ، والهريسة التى تهرس ، والعصيدة التى تعصد ، والسخينة وهى الحساء ، وغيرها .

اما صناعة الحلوى ، فقد برع المسلمون فى صنعها وشكلوها على هيئة القصور والحيوان والطيور والشجر (٣) ، بحيث ان الخليفة الفاطمى العزيز خصص دارا لصناعة الحلوى والكعك ، تسمى دار الفطرة (٤) ، كانت تقوم بعملها فى مناسبة عيد الفطر او غيره . ولدينا أسماء بعض انواع هذه الحلوى الاسلامية ؛ وان لاحظنا ان معظمها فارسية ؛ وان كان اساسها جميعا السكر والدقيق والسمن ، مثل (٥) : الجوذاب والخشاف والجلاب واللوزينج والفالوذج والزلابية والخشكنانج والبستدود ؛ وان كان اشهرها على الاطـــلاق الهريسة والفطير ؛ بحيث وجد لهما فى معظم مدن الاسلام متخصصون فى صنعهما . كذلك كانت أصناف المكسرات (٦) ، من أنـواع الأكـــل المحبوب عند المسلمين .

---

(١) ابن اياس ، ١ ص ٥ .

(٢) العقد ، ٣ ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

(٣) سفر نامة ، ص ٦٤ ؛ صبح ، ٣ ص ٥١٨ و ٥٢٠ .

٣ ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٨١ ــ ٢٨٣ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(٥) نهاية الرتبة ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ؛ ٣٥ ــ ٣٦ ، ٤٠ ــ ٤١ . عن هــذه الكلمات ، انظر .

Persian - English Dictionary. London. : Steingass

(٦) الخطط ، ٢ ص ١٤٧ (أسفل الصفحة) .

وكانت موائد اغلب المسلمين تخلو من انواع الشراب ؛ لتحريم الدين الاسلامى لشرب الخمر . ونعرف ان شرب الخمر لم يحرم دفعة واحدة ، وكان التحريم النهائى فى الســـنة الرابعة او الخـــامسة الهجرية (١) . ومع ان نص الحديث النبوى عن الخمر يقول : (كل مسكر حرام كثيره وقليله) ؛ فانه منذ الرشيد شرب بعض الخلفـــاء العبـــاسيين نوعا من النبيذ الحـــلو ، حللوا شربه على مذهب ابى حنيفة (٢) . كذلك الأمويون قبلهم ؛ قد شربوا الخمر ، حتى ان يزيد بن معاوية ، سمى يزيد الخمور لشربه الخمر (٣) ، وذلك بتسمية اعدائه له . ويبدو ان هذا التحليل اتى من ان الناس كانت قد تعودت على عمل مشروبات لا تسكر الا اذا تخمرت ، وينســب الى عمر بن الخطاب انه سمح بمشروب اسمه الطلاء ، وهـــو من العنب (٤) . وقد اشتهرت بعض انواع من الخمور فى بلاد الاسلام ، مثل (٥) : الفقاع او البيرة ، والمزر وصنعه من الشعير ، والفضيخ وهو من انواع البلح ، والبتع وهو من العسل . كذلك كانت توجد فى بلاد الاسلام خمارات او مواخير ، ولاسيما فى مصر التى كانت صناعة الخمور فيها من اقدم الصناعات ؛ وان كانت تقام فى اماكن متوارية .

ومع ذلك ؛ فقد وجد عند المسلمين انواع من الشراب البرىء ، كالقهوة ، التى ظهرت منذ ايام الأمويين (٦) ، وربما قبل ذلك ؛

---

(١) القرآن ٢ : ٢١٩ ، ٤ : ٤٣ ، ٥ : ٩٠ – ٩١ ؛ النويرى ، ٤ ص ٧٣ وما بعدها ؛ انظر . الخربوطلى ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) المقدمة ، ص ١٤ ؛ العقد ، ٣ ص ٤٠٠ وما بعدها ؛ صبح ، ٢ ص ١٤٤ – ١٤٦ ؛ انظر . Ency. (art Khamr) t2, p. 946-49 .

(٣) الجاحظ ، التاج فى اخبار الملوك ، القاهرة ١٣٣٢ هـ ، ص ١٥١ ؛ العقـد ، ٣ ص ٤٠٦ .

(٤) مالك ، الموطا ، اشربة ، باب ٤١ .

(٥) لسان ، ٧ ص ١٩ ؛ البخارى ، كتاب الاشربة ، باب ٣ ، ٢١ ؛ الخطط ، ١ ص ١٦٩ ؛ انظر . Ency. (art Nabidh) t3, p, 858-9 .

(٦) مروج ، ط . مصر ، ٢ ص ١٤٦ ؛ تاج العروس ، ٩ ص ٤٤٥ ، ١٠ —

كما اختلف فى وقت دخولها فى كل بلد الاسلامى • وهى تصنع من البن ، الذى هو حب كالبندق يتفرطح ، وشاع اسمه بالقهوة اذ احمص وطبخ ، وان قيل انها سميت هكذا ، لانها تقهى شاربها عن الطعام ، اى تذهب بشهيته • وتوجد شجرة البن فى اليمن ؛ حيث انتقلت اليها من الحبشة وقت ان غزاها الاحباش ؛ اذ كلمة بن كلمة حبشية وقد كانت القهوة فى اول امرها محرمة ، ولهم فى حلها وحرمتها وطبائعها وخواصها اقوال ، حتى ان تاج العروس يسمى القهـــوة الخمر • فهى لكى تشرب فى مصر صدرت بصددها فتوى ؛ ولعـــل الصوفية هم اول من شربوها • وعلى العكس ، عرف العرب شرب الشاى المنعنع منذ وقت مبكر ، وكانت المكوس تفرض عليه (١) اما التدخين باى نوع ، فلم يعرف فى العصور الوسطى ؛ وان كانت العرب يمضغون نوعا من النبات يؤتى به من الهند ، بدلا من الطين الأحمر ، الذى كان يمضغه اهل الحجاز (٢) •

وقد كان ما يقدم للشراب غالبا على الموائد هو الماء المبرد (٣) ، فقد استخدم المسلمون الثلج فى تبريد المياه منذ الأموين • كذلك كان الفاطميون فى مصر (٤) ، يستخدمون الثلج فى قصورهم ، ويحملونه معهم فى مواكب الحج ، وحتى فى ساحات القتال • وكذا المماليك

=

ص ٣٠٨ ؛ الجزيرى ، عمـــدة الصـــفوة فى حل القهوة ، نقل وترجمـــة دى De Sacy Chrest. arabe
2ed. Paris 1826. 1. texte, p. 138 Suiv; trad. p. 412 suiv.
Ency. (art Kahwa) t2, p. 671-676. ;

انتقلت للاوربيين باسمها : « Café » ، كما انتقل اسم الوعاء الذي تشرب فيه وهو الطاسة أو الطاس « Tasse » .

(١) اوردها متز ، الحضارة الاسلامية ، ط ٢ ، ٢ ص ١٨٤ • نقلا عن سلسلة التواريخ ، ط • Reinaud ، ص ٤١ •

(٢) اوردها متز ، الحضارة ، ٢ ص ١٨٤ • نقلا عن مروج (ط•باريس) ٢ ص ٨٤ •

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٤٢ •

(٤) سفر نامه ، ص ٦٤ ؛ ابو المحاسن ، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٥ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٣ ص ١٠٢ وهامش (٤) •

الذين كانوا يجلبونه من دمشق فى البر على الهجين أو فى البحــر على السفن (١) ، ثم ينقل الى خزائن الشراب او الشراب خاناه ، ويخزن فى صهريج . ويذكر احد المستشرقين انه اطلع على مخطوط قديم يظهر فيه ان العرب كانوا يصنعون الثلج(٢) .

ولم يكن الاكل بالشوك (٣) والمكاكين معروفا لذلك الوقت ؛ ولكن بالاصابع ؛ وان كانت تغسل دائما فى أباريق وصحون واســعة معدة لذلك ؛ وان استخدمت الملاعق احيانا . وقد وجدت آداب (٤) معينة فى الاكل والطعام ايدت بأحاديث نبوية ، مثل ان يكون الشرب باليمين ، مع ذكر عبارات دينية ، والاكل باليمين ، والبعد عن النهم « البطنة » ، واجادة المضغ . كما نصح بتنظيف الأســنان بالسواك بعد الاكل ـ لاسيما من خشب الاراك ـ حتى كاد ان يكون فرضا ؛ بناء على احاديث نبوية (٥) .

ومن الطريف ان نذكر اسم الوجبات التى كان يتناولها عامة العرب بأسمائها العربية ، وهى الفطور صــباحا ، ثم الغذاء عند الظهر ، والعشاء بعد صلاة العصر . ومع ذلك ؛ ففى زمن المماليك فى مصر ؛ وجدنا ان الاكل عندهم لا يتعدى وجبتين ؛ وهى فى الغــذاء والعشاء (٦) . كذلك نذكر اسماء لوجبات اخرى (٧) ، منهــا :

---

(١) صبح ، ١٤ ص ٣٩٥ ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .

(٢) انظر .
La Civilisation Arabe. Paris, 1955, p. 160, : Risler
لعله اعتمد فى ذلك على كتاب : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، بيروت ١٩٦٥ . ص ١٢٤ ، ورد فيه عناصر صناعته باستخدام الشب اليمانى .

(٣) ومع هذا كان العرب يعرفون الشوكات . صبح ، ٤ ص ٨٠ .

(٤) ابو داوود ، اشربة ، باب ٢١ ؛ العقد ، ٣ ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٥) البخارى ، فضائل الصحابة ، باب ٣٠ ؛ انظر .
Ency. (art Miswāk) t3, p 598-9 .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٤١ – ٣٤٢ .

(٧) العقد ، ٣ ص ٣٨١ .

الوليمة لطعام العرس ، والاعذار لطعام الختان ، والخرس لطعام الولادة ، والوكيرة لطعام الاحتفاء ببناء الدور ، والمادبة للدعوات .

* *

ويجدر بنا بعد ذلك ان نتعرض بصفة عامة لانواع التسلية عند المسلمين فى مجتمعهم ، اذ لا يمكن ان توجد بيئة صارمة كلية ، دون ان يوجد فيها انواع التسلية . ويمكننا ان نقول ان روح الدين الاسلامى لم تشجع التسلية المتسمة بالعنف ، كما هى عند الشعوب الاخرى مثل مصارعة الثيران ، التى كانت عند القوط ، او مصارعة الرجال التى كانت عند الرومان .

وكان اهم مظاهر التسلية عند المسلمين وكبارهم سماع الشعر والمناظرات والقصص ، ومشاهدة رقص الجوارى وسماع الغناء (١) . فكان الخليفة او الامير يقضى وقته مع ذوى الحيثية من شعراء وادباء وقصاص وغيرهم ، وحينما يتقدم الليل تحضر القيان ، وكل ما هو فى صنعة الغناء والرقص . وربما يكون الانغماس فى الغناء والرقص ؛ قد حدث ابتداء من عهد الامويين ؛ اذ ينسب الى يزيد ابن معاوية انه اول من ادخل الملاهى (٢) . وقد ترتب على ذلك ظهور طبقة السمار والندماء والظرفاء والمتطفلين (٣) ؛ وبخاصة السميريات (٤) ، وهن القيان البارعات فى فنون الغواية من غناء ورقص ، حتى انه كانت لهن تماثيل خيل من الخشب « الكرج » معلقة باطراف يلبسنها ليحاكين بها مثلا امتطاء الخيل والكر والفر (٥) . كما ظهر فى قصور المسلمين المضحك ، وسمى « بالمساخر » (٦) « Clown » ، وهو الذى كان فى بلاط الفرس من

(١) الخطط ، ٢ ص ١٠٩ . مثلا عن خمارويه ، امير مصر الطولونى

(٢) الاغانى ، ١٦ ص ٧٠ .

(٣) نفسه ، ٢٠ ص ٦٥ ؛ العقد ، ٣ ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٤) الاغانى ، ١٣ ص ١١٦ – ١١٧ .

(٥) المقدمة ، ص ١٣٩ . الكرج كلمة فارسية معربة ؛ اذ كره هو تمثال مهر من خشب . انظر . Suppl, 2p 453-4 : Dozy

(٦) السلوك (ط ٣) ، ٢/١ ص ٢٩٤ س ٨ ؛ انظر . Suppl, 1, p. 638 : Dozy

قبل ، والحواة وهؤلاء كثروا فى مصر (١) . ونجد فى قصور المسلمين قاعات خاصة للهو ، مثل قاعة الاسود بقصر الحمراء – التى لا تزال باقية للآن – خاصة بحفلات الغناء والرقص ، فيها شرفة ، تطل على صحن محاط بالاعمدة للمغنين فى وسطه حوض ماء ، يجلس حواليه المدعوون .

كذلك وجدنا عند كبار المسلمين انوعا للتسلية متعددة اخذوها عن الشعوب قبلهم ، مثل : لعبة الشطرنج (٢) ، التى عرفها المصريون القدماء والهنود . ويظهر ان الفرس هم الذين جعلوها قائمة على اصول رياضية ، اذ ينسبونها الى الملك اردشير ؛ وقد زاد فيها الروم الحصن (الطابية) . فشغف العرب بهذه اللعبة شغفا كبيرا ؛ وكانت ادواتها تصنع بدقة متناهية ، روعى فيها البذخ الشرقى . فقد ارسل هرون الرشيد شطرنجا رائعا – كما يبدو من وصفه – الى شرلمان ملك الفرنجة باوربا . ويبدو ولع المسلمين بهذا اللعبة فى ان الحجاج حينما كانوا فى طريقهم للحج ، كانوا يركبون الشقاديف ، وهى اسم لحوامل واسعة من صلب توضع على الجمال وعليها مظلة ، حتى يستطيع شخصان ان يلعبا الشطرنج (٣) . ومثل الشطرنج ، عرفوا لعبة : النرد (٤) وسموها ايضا الكعاب – وهى فصوص النرد – وهى بالفارسية تسمى نردشير – اى اكبر نرد – عبارة عن طاولة مقسمة مثل الشطرنج . ومع ان لعبة الشطرنج قد حللها الفقهاء على اساس الا يتراهن فيها او تشغل عن الصلاة ؛ فان الثانية قد حرمت بناء على احاديث نبوية (٥) .

---

(١) الخطط ، ٤ ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٢) صبح ، ٢ ص ١٤١ – ١٤٣ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٠١ ؛ الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة الشواربى وغيره ، ص ٤٦٧ وما بعدها ؛ انظر . Ency. "art Shatrandj" t4 p. 350.

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٣٨ – ٣٩ .

(٤) صبح ، ٢ ص ١٤١ – ١٤٣ ؛ مروج ، ط ١٢٨٣ هـ ، ٢ ص ٤٠٥ وما بعدها ؛ نهاية الرتبة ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٥) انظر : ابو بكر الخوارزمى ، كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم ، مصر ١٣١٠ هـ ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

وكان ضمن انواع التسلية العربية ايضا سـباق الخيل ، الذى اقيمت له الميادين . وكان السباق معروفا عند العرب فى الجاهلية ، وجرى فى امثالهم ، فكانوا يقولون : حاز قصب السبق ، وذلك لان العرب كانت تسابق وتضع فى آخر الغاية قصبة من قصب الرماح (١) . كذلك يوم داحس والغبراء وهو من وقائع العـرب المشـهورة فى الجاهلية ، سمى على اسم حصانين كانتا لعبس وذبيان يتراهنـان عليهما ، وهى الحرب التى استمرت اربعين سنة (٢) . وقد كان العرب فى سباقهم يرسلون خيولهم عشرة عشرة (٣) ؛ وعندهم اسماء لمراتبها فى السباق ، فاولها السابق ، ثم المصلى لان راسه عنـد صلوى السابق ، ثم الثالث والرابع الى التاسع ، والعاشر المكيت ، اما الفسكل ، فالذى يجيء فى آخر الحلبة .

كذلك احب المسلمون السباق بالخيل ؛ لان النبى ربط بين الجهاد وبين الخيل ، وهو ما عرف برباط الخيل (٤) . وقد نقلت احاديث كثيرة عن حب النبى للخيل ، حتى قيل انه كان يمسح فرسه بثوبه ، ويجرى الخيل ويسابق بها ، ويراهن عليها (٥) . وقد اتفق المؤرخون على خمسة من اسماء الجياد ، التى حظيت باهتمام الرسول ، وهى : لزاز ولحاف والمرتجز والسكب واليعسوب . كذلك اجاز خلفاء الاسلام قيام السباق ، فامر عمر بن الخطاب به فى الكوفة (٦) ، كما ان هشام بن عبد الملك اقام الحلبة ـ وهى مجمع الخيل ـ واجتمع له

---

(١) ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، دار المعارف ، ص ١٤١ .

(٢) ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق Wust ، ط . Cottingen ١٨٥ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ؛ الكامل ، ١ ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٣) العقد ، ١ ص ٦٥ ـ ٦٦ ؛ مروج ، ٢ ص ١٤٨ . المصلى لانه يكون عند صلوى السابق وهما جانبا ذنبة ، والسكيت لانه آخر العدد ، والسكت هو الوقوف .

(٤) ابن هذيل ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ؛ انساب الخيل فى الجاهلية والاسـلام ، نشر احمد زكى باشا ، تعليق ص ٠٧ ؛ انظر . بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة لوقا ، ص ١٦٩ .

(٦) ابن هذيل ، ص ١٤٣ .

فيها من خيله وخيل غيره اربعة الاف فرس ؛ فلم يعرف ذلك فى جاهلية ولا فى اسلام (١) ، بل اصبح عرض الخيل جزءا من رسوم الخلافة الفاطمية فى مصر (٢) ؛ فكان يخصص يوم قبل قيـام الموكب الرسمى ، لعرض الخيل يحضره الخليفة وكبـــار رجال دولته . اما المماليك ، فاقاموا للسباق الميادين الخاصة ، ويحضره السلطان والأمراء فيجرون بالخيل ، وكانت عدتها مائة وخمسين فرسا فمـا فـوق (٣) .

وقد عرف العرب عن الخيل اشياء كثيرة (٤) ، واطلقوا عليهـا اسماء متعددة قد تبلغ الف كلمة فى لغتهم . فالحصان او الفرس او الفحل هو الذكر من الخيل ، والكميت هو المريع ، والمسوم هـو الذى خص بعلامة ، والأجرد هو القصير الشعر ، وعتاق الخيـل او كرامها هى الخيل حسنة الاعضاء . كذلك عرفوا كثيرا من صفاتها من سائر اعضائها ، وفضلوا منها غليظ العنق لاخراج النفس ، وطول اللسان لكثرة الريق ، وكثرة لحم البطن واتساع الصـهوة للركوب ، وعظم الحافر والركب وحدة السنبك لصك الأرض واحتمال ما فوقـه من الثقل . وكانوا يعرفون ايضا فى الخيل المرعة والطاعة وجمال الخلق ؛ فالحصان المدرب لا يتبول طالما يركبه فارسه ، ولا يسـمح لأحد يركبه غير مدربه . ولا تزال الخيل العربية الى الآن هى التى تظهر فى السباق فى جميع ميادين السباق ، وترجع اصالة هـذه الخيل الى ان العرب منذ القدم كانت تعتنى بتجويد الخيل وتحسين نسلها . ولذلك ولع العرب بالكلام عن الخيل ، والتاليف عنها وعن

(١) مروج ، ٢ ص ١٤٢ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٥٠٤ ــ ٥٠٥ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفـاطميين ، ٢ ص ٨١ .

(٣) الخطط ، ٣ ص ٣٦٦ س ١٢ ــ ١٣ .

(٤) مثلا : ابن هذيل ، ص ٨٤ وما بعدها ؛ العقد ، ١ ص ٥٧ وما بعدها؛ ابن سيده ، المخصص ، ص ١٣٥ وما بعدها ؛ انظر .
Ency (art al-Faras) i2, p. 63.

طريقة ركوبها ، واستخدامها فى الحـــرب (١) ؛ واصبح للحلبات اخبـــار (٢) .

كذلك عرف نوع من السباق - وهو لطبقة خاصة - هو السباق بالحمام ، مثلما فعل الخليفة العزيز الفاطمى ، الذى سابق بحمامه وزيره ابن كلس (٣) .

وكان من اهم انواع التسلية عند العرب ايضا الصيد والقنص فهذا الصـــيد الذى عاش عليه الانســـان فى اول عهده ، اصبح فى زمن الحضارة الاسلامية رياضة ومتعة . وكانت العرب تمارس الصـــيد فى الجاهلية ، وورد فى كثير من اشعارهم ، وقد استمر فى الاسلام . فكان خروج ملوك المسلمين للصيد من مظاهر الملك وابهته ، فمثـــلا يزيد ابن معاوية كان اذا خرج للصـــيد جعل على كلابه الأساور والاجـــلة الذهب ، ولكل كلب عبد يخدمه (٤) . كذلك كان الخليفة العـــزيز الفاطمى ، يخرج للصيد ومعه عشرون جمـلا عليها محامل فيها كلاب الصيد ، ولولعه بالصيد عرف بالخليفة الصياد (٥) . وقد بلغ مجموع ما اصطاده السلطان ملكشاه السلجوقى عشرة الاف ؛ حتى انه بنى من حوافز الحمر الوحشية وقرون الظباء منارة (٦) ، عرفت بمنارة القرون . ولذلك كانت بيوت الملوك توجد فيهـا حديقة الحيوانات ،

---

(١) مثل كتاب وهب بن منبه ، كتاب الفروسية برسم الجهاد فى سبيل الله . مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٩٩٣ ، وايضـا : انســـاب الخيل فى الجاهلية والاسلام ، تحقيق احمد زكى باشا .

(٢) صبح ، ١٤ ص ٣٩١ .

(٣) مروج ، ٢ ص ١٤٩ .

(٤) ابن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، تحقيق Ahlwardt ، ص ٦٧ .

(٥) ابن الحسين ، كتـــاب البيزرة ، تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٧ ، ٢٤٩ .

(٦) وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ ، ٢ ص ٥٨٧ ؛ انظر . جورجى زيدان ، التمدن ، ٥ ص ١٢٧ .

التى تحبس فى حظائر او اقفاص ، وهى ما عرفت «بالحير» (١) كما ان بعضهم يضعها فى مجلسه مثل خمارويه وعضد الدولة البويهى؛ وكلاهما كان يضع اسـدا بجواره (٢) ، كما كان عضد الدولة يضع ايضا نمورا وفيلة فى سلاسل .

وقد كان القنص بالطيور الجوارح كالباز والشاهين ـ جمعهـا شواهين ، وهى صقور بيضاء ـ والعقاب والصقر . كما كانوا يطلقون الطير فى الهواء ، ثم يلقى لها الحب لتهبط ، وعندئذ يصيدون منهـا بالفـخ او بالبنـدق (٣) . وهـذه الاخيرة كلمـة فارسـية ، تعنى الرصاص او الطين أو الحجر ، وتطلق بالمزاريق ، وهى انابيب ترسلها بضغط الهواء ، او بالنشـاب او بالاقواس ، او بما يسمى ايضا بقوس البندق او الجلاهق ـ جمعها الجلاهقات ـ أو الزبطانة (٤) ، ولعلهـا البنـدقية . كذلك يطلقون النعـام والظباء وبقر الوحش والخنازير وعنـدئذ يطاردونها بالكلاب أو الفهـود أو بالخيل .

وقـد ترتب على الاهتمام بالصيد ، اهتمـام علمـاء المسلمين بدراسة حيـاة الحيوانات والطير ، كما اطلعـوا على كتب اليونان وغيرهم عنهـا ، والفـوا فيهـا الكتب الكثيرة . فنـذكر من كبـار المؤلفين عن الحيـوان : الجاحظ (ت ٢٥٥/٨٦٩) فى كتـابه الحيوان (٥) ، ولعله اهم من الف فيه ، والدميرى (ت ٧٤٢/١٣٤١) فى كتـابه : حيـاة الحيوان الكبرى . هذا بالاضافة الى كتب عديدة

---

(١) البيزرة ، ص ٢٢ ؛ ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، ص ٧٦ ؛ العقد ص ١٥٠ .

(٢) الفخرى ، تحقيق Ahlwardt ، ط ١٨٦٠ ، ص ٢٧ .

(٣) صبح ، ١٤ ص ١٦٩ ـ ١٧١ ؛ السلوك ١/١ ص ٢١٣ س ١٢ . مفردة البنـدقية .

(٤) نفسه ، ٢ ص ١٣٨ . كانت توضع فى جراوة .

(٥) مثلا : تحقيق محمد هارون ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨ .

(٦) فى جزءين ، ط . بـولاق ١٢٨٤ هـ ، مصر ١٣١٩ هـ ، ولترجمـة Jayker بعنـوان : Zoological Lexicon 2 Vols. London, 1906. الف فيه قبله الاصمعى (ت ٢١٣/٨٢٨) : كتاب الوحوش ، تحقيق Geyer نشر Vienne ، ١٨٨٧ .

تخصصت فى البيطرة ، وهى علاج الدواب ، منها كتاب الفلاحة (١) لابن العوام (حوالى ١٢/٥م) ، الذى اعتمد فيه على كتب يونانية ، وهو يتناول مرض الحيوان . بل وجد البياطرة فى كل مدن الاسلام لعلاج الحيوان . كذلك وجدنا كتبا فى دراسة طيور الصيد ، مثل ابن الحسين (ت؟) فى كتابه : البيزرة او البزدرة (٢) ، وهى كلمة فارسية تعنى علم الجوارح او الجارح ، من حيث صحتها ومرضها ، ومعرفة العلائم الدالة على قوتها فى الصيد . بل بعض الفاظ الصيد انتقلت للاوربيين ، مثل : غزال العربية " Gazal " (Gazelle) .

كذلك ظهرت عند المسلمين الرياضة بلعبة الكرة او الاكرة ، وقد عرفت فى كتب العرب باسماء متعددة اغلبها فارسى ، مثل : الصولجة أو الصولجان او الطشجان او الجوكان ، وهى ما تعرف الآن بالبولو (Polo) ، وذلك بضرب الكرة من على ظهور الخيل ؛ فكان هرون الرشيد أول من لعبها . وقد تقدمت هذه اللعبة تقدما كبيرا على يد المماليك فى مصر ، الذين اقاموا لها الملاعب الخاصة وزرعوها ؛ فكان لسلطانهم مشرف خاص بلعبها هو الجوكندار (٣) ، الذى كان شعاره عصوين ، لأنه يحمل العصوين اللذين يلعب بهما السلطان الكرة ، كما كانوا يعلمونها فى المدارس الحربية

---

(١) ترجمه الى الفرنسية Clément Mullet ، بعنوان : Le livre de l'agriculture, 2 Vols. Paris. 1867 ، كما ترجم الى اليونانية منذ وقت مبكر على يد Grynoeus ، طبعة Basle ، ١٥٣٧ م .

(٢) تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٩٥٢ . عن هذه الكلمة ، انظر ، Ency (art Bayzara) 2ed. 1, p. 1186 sqq.

(٣) مثلا : السلوك ، ١/١ ص ١٦ س ٣ ، ص ٤٤٤ س ٣ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٧ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ س ١١ - ١٢ ، ٣٧١ ؛ انظر :
La chasse, : Mercier.
et les sports chez les Arabes. Paris, 1927, p. 205-223.

الجوكان : المحجن الذى تضرب به الكرة ، وهو أيضا الصولجان ، ودار معناها ممسك او صاحب ، والكلمة بمعنى حامل الجوكان . عنه ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٥٨ ؛
Persian - English Dict. cf : Steingass,

« الطبـاق » . وربمـا تكون ايضا لعبـة « الطبطاب » (١) ، وهى خشبة عريضـة ، تشبه لعبـة التنس الحاليـة ، التى ربما اشـتق اسمها من البلدة المصرية تنيس ، التى أشتهرت بصنع قماش معين .

وغير ذلك من اصناف الرياضـة عند العرب ، نذكر : السباحة ، التى كانت ضمن مقررات التلاميذ فى المدارس ، والتحطيب (٢) ـ وهو لعبـة مصرية قديمة ـ كانت من ضمن الرياضـة فى مصر ، ولعلها اصبحت المبارزة فى العصور الوسطى ، ويسميها العـرب اللبخة ، والجريد وهى حربـة يلعب بهـا من على ظهـر الخيـل (٣) ، والقبق او القباق (٤) وهو اسم تركى للقرعـة ، يضعونها او يضعون فيهـا طيرا ، ويرمونهـا بالنشـاب او من على ظهور الخيل .

وقد ظهر نوع من التسلية بالمشاهدة ـ ربما منذ أيام الفاطميين ، وبخاصـة على يـد الاتراك تـدل على طبيعتهم الاسيوية ـ مثـل : مناقره الديوك ، ومناطحة الكباش ، وتحريش الكلاب (٥) . وفى آخر دولة سلاطين المماليك فى مصر ، ظهرت مصارعة الرجال لبعضهم ، بأن يتصارع الرجل مع خصمه ويرميه على الارض ، ويركب فوقه ، حتى يكاد يعصره (٦) . كذلك فى الأندلس كانت تقـام حفـلات مصارعة الرجال للثيران ـ ويسمونها البقر الوحشى ـ ربما ورثوهـا عن القـوط (٧) ، وان كان قبل المصـارعة يطلق عليهـا الكلاب ،

---

(١) انظر . حتى ، العرب ، تاريخ موجز ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ١٢٧ . اوردها بدون مصدر .

(٢) انظر الشعرانى ، لواقح الانوار ، ترجمة عثمـان الحطاب ، المتوفى سنة نيف وثمانى مئة . اوردها احمد تيمور ، خيال الظل واللعب ، ص ٤٠ .

(٣) انظر . Mercier : Op. Cit., P. 206-210.

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٥١٨ ـ ٥١٩ وهامش ٦ ؛ الخطط ، ٣ ص ١٨٠ وما بعـدها .

(٥) السلوك ، ١/١ ص ٤٠٦ س ٣ ؛ الاغانى ، ٦ ص ٧٥ ؛ الخوارزمى ، مفيد العلوم ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن أياس ، بدائع ، ٣ ص ٢٠٦ .

(٧) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة « نسخة الاسكوريال » .

فتاخـذ فى نهشـها واثارتهـا ، وقد اعتبرت هـذه التسـلية حراما ، ومن يشهدها يعتبر من الفاسقين .

وفى وقت متاخر من الحضارة الاسلامية ظهر نوع من التسلية فى مصر ، كان يستمتع بـه الكبـار وغير الكبـار اشبه بـدار الخيـالة الساذجة ، او ما كان يسـمى وقتئذ بشـخوص خيال الظـل او ظل الخيال او طيف الخيـال او مسرح الدمى (١) . ومنشا هـذه اللعبة غير واضح وربما يكون اصلها هنديا ، وان كان اول من نشرها هم الفاطميون ، ومن بعدهم انتشرت انتشارا كبيرا ، ولا سيما على يـد المماليك والترك العثمانيين ؛ حيث بلغت اوجها فى القـاهرة . وقد كان اساسها التمثيليات او تقليـد النـاس ؛ فهى اذن اسـاس المسرح الشرقى . وفى سـبيل ذلك اسـتوعبوا من اجلهـا الادب الفصيح والعامى ، وظهر لها مؤلفون مشهورون (٢) . فكانت تقص الشخوص اللازمة لهـذه التمثيليات من جلود البقر او الجاموس ، ويعالجونها حتى تصـبح شـفافة ، ويصبغونها بالالوان ، ويتركون فتحـات فى مفاصلها . وكان العرض يتم فى المساء ؛ حيث يجلس الجمهور امام السـتار ، وقـد اطفئت الانـوار ، وعندما يبـدا اللعب تضاء الانوار الداخليـة خلف الشخوص والسـتار . وقـد يعمـد من يقومون بها الى انشـاد المدائح التمهيدية ، وفى النهاية يعـاد التسبيح وطلب الغفران ، ولعلهـم كانوا يفعلون ذلك ليتحاشوا تزمت رجال الدين . وقـد اصبح خيال الظل فى مصر اداة لمقاومة السلطان الجائر ؛ ولذلك

---

٢ ص ٦ ـ ٧ ؛ انظر . مختار العبادى ، مشاهدات ابن الخطيب ، نشر وتحقيق ، ص ٦ هامش ٢ .

(١) ابن اياس ، ١ ص ١٠٥ ؛ ابن دانيال ، خيال الظل ، حققه جمادة ، القاهرة ١٩٦٣ ؛ انظر . احمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصـورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٧ وما بعدها ؛ رشدى صالح ، مسرح خيال الظل فى العالم الاسلامى ، المجلة ، عـدد ٣٣ ، سـبتمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٥ وما بعدها ؛ يونس ، خيال الظل ، المكتبة الثقافية عدد ١٣٨ ، اغسطس ١٩٦٥ .

(٢) مثلا : پاول كاولة ، منارة الإسكندرية فى خيال الظل المصرى ، وهى مجموعة من الازجال والقصص كانت تمثل فى خيال الظل فى العصر المملوكى ، قام بنشرها مع مقدمة ، ط . Stuttgart ، ١٩٣٠ .

كثيرا ما قاومه سلاطين المماليك واحرقوه . ومع ذلك ، فالحكام العادلون مثل صلاح الدين كانوا يرون فيه على حسب قولهم « موعظة عظيمة ، ودولا تمضى ، ودولا تاتى » .

وعن لعب السيرك ، فيذكر ابن اياس (١) ان شخصا من حلب هو بهلوان ، اسمه يوسف ، نصب له صوارى وحبالا ؛ فلما صعد على الحبال اظهر اشياء غريبة فى صنعة البهلوانية ، وهو واقف على الحبال ، منها انه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب ، وتحته الواح صابون ، او وقف على سيوف مسلولة ، ومنها ايضا انه مشي على الحبال مقلوبا ، وهو مغمى العينين ، واظهر من هذه الألعاب العجائب والغرائب . ويبدو ان مصر كان لها باع طويل فى هذا النوع من الفنون ؛ حتى انه كانت البهلونية معروفة لها منذ ايام السلطان برسباى ؛ وان كان يوسف هذا علم بعض عبيد مصر المشى على الحبال .

وحتى العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون اللعب بالدمى او العرائس او التماثيل ؛ حيث اطلقوا عليها الجوارى او البنات . فقد تحدث الشاعر امرؤ القيس عن ذلك ، حينما اثار ذكريات طفولته ؛ فقد كانت صاحبته لها بيت جوارى للعب . وقد استمر اللعب بالدمى فى الاسلام ، وكان يوجد لها سوق خاص لصنعها فى بغداد . وقد جاء فى الاحكام السلطانية ان اللعب بالعرائس مباح للبنت (٢) ؛ اذ ليس القصد بها المعاصى ، وانما القصد بها الف البنات لتربية الأولاد ، وفيها وجه من وجوه التدبير . فعائشة زوج النبى ، كانت تلعب بالعرائس وهى صغيرة ؛ فاقرها النبى . كذلك اللعب بالمراجيح

---

(١) ابن اياس ، بدائع ، ٣ ص ١٦٢ .

(٢) الماوردى ، الأحكام ، ص ٢١٨ ؛ انظر . احمد تيمور ، خيال الظل ، ص ٣٣ .

وجـد عند العرب ـ لاسيما للأطفـال ـ وان اعتبر على عكس الأول مكروها (١) .

* * *

هذه هى بعض نواحى المجتمع في الحضارة الاسلامية ، نرى منه مدى ترفهه وتانقه وترفعه وبذخه .

---

(١) الخوارزمي ، مفيد العلوم ، ص ١٠٨ .

الفصل الثالث

الثقـــافة

مشكلة الاصول ـ دعائم الثقافة : اللغة والتعليم ـ العلوم الدينية ـ علم التفسير ـ علم القراءات ـ علم الحديث ـ علم الفقه ـ علم الكلام ـ علم التصوف ـ علم الادب ـ النظم ـ النثر ـ علم التاريخ الاسلامى ـ العلوم العقلية : علم الفلسفة : العلوم الرياضية ـ علم الهيئة ـ علم الجغرافيــا ـ علم الخرائط ـ علم الطب ـ علم الصيدلة ـ علم الكيمياء ـ علم الطبيعية ـ الفنون ـ الموسيقى ·

تعودنا ان نربط الحضارة بالثقافة ، باعتبارها اهم وسيلة يمكننا بهــا حفظ تراث الانسانية ؛ وانهــا من صميم خصائص الحضـــارة ومخلداتها · فكلمة ثقــافة العربية من ثقف (١) ؛ تقابلها فى اللاتينية كلمــة Cultura من Cultus ، التى اشتقت منهــا الكلمات الاوربيــة الحــديثة الدالة على الثقافة ، مثل : الكلمـــة الفرنســـية Culture والانجليزية Culture والالمانية Kultur · وللثقافة معان متعددة منهــا على الاخص المعرفة الانسانية ومجهودها للاحتفاظ بكيانهــا ، او ما يحلى ويزيــد بهجــة الحياة · وهى فى رأينــا تعنى ما قــام بــه الانســان فى الآداب والعــلوم والفنون ، والمستوى العقلى الذى وصل اليــه على العموم · وحينما نتعرض للثقافة الاسلامية بالذات ، نقصــد بهــا انواع المعرفة التى انشاها المسلمون انشــاء ، او ادخلوها من الحضارات الســابقة ·

ولم تظهر الثقافة الاسلامية بظهور دولة الاسلام ؛ بسبب كون اغلب العرب فى طور البداوة (٢) ، يخيم عليهم الجهل الا من تــلك

---

(١) عنها ، انظر ، المعاجم ؛ ثلاثى : « ثقف » ؛ انظر ، Dozy : Suppl. I. P. 160-1.

(٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، استنبول ١٣١١ هـ ، ١ ص ٢٥ ·

العلوم الساذجة التى اكتسبوها من بيئتهم كعلم النجوم والعرافة والكهانة والأنساب والقصص والشعر ؛ وقليل منهم من كان يعرف القراءة والكتابة ؛ حيث ظلوا قرونا طويلة لا يتداولون الكتب ؛ وان جبلوا على ملكة الحفظ (١) ، الذى اصبح الوسيلة الوحيدة فى تحصيل ثقافة عصرهم المحدود . فكان الرواة يحفظون الاشعار ، والنسابون يحفظون الأنساب ، والقصاصون يحفظون الاخبار والإساطير . اما عن ثقافة حضاراتهم القديمة ؛ فهذه كانت قد نسيت ، ولم تفك الغازها الا حديثا . وما وصلنا من نصوص هذه الحضارات لا تظهر فيه الثقافة الا بقدر ضئيل ، انما اغلبه يدور حول تولية الملوك والضرائب . لذلك ظلت نواحي المعرفة في العصر الاسلامى الأول مهجورة من العرب ، وخاصة ان انشغال العرب بالفتوح ، وعدم الاستقرار السياسى بقيام الفتن ، ابعدهم عن صنوف الثقافة .

ولما تحولت الشعوب المغلوبة الى الاسلام فى اواسط عصر الخلافة الأموية ، وهى التى تمتلك نواصي الحضارات السابقة ، بدات تظهر بوادر الثقافة الاسلامية . وقد كانت الخلافة الأموية لا تنظر الى الشعوب المغلوبة نظرة تليق بماضيها ، وتعتبرها اقل درجة من العرب الفاتحين ؛ وتسميهم الموالى . فوجدت هذه الشعوب الاهتمام بالثقافة كوسيلة لارجاع مجدها القديم ؛ فكان ذلك داعيا الى ظهور بعض صنوف للثقافة الاسلامية . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك ، فذكر في مقدمته فصلا بعنوان : « ان حملة العلم فى الاسلام اكثرهم العجم (٢) » . وقد كانت الحاجة الى الثقافة فى اول عهدها بسيطة ، لا تتعدى الاهتمام بالعلوم الدينية والنقل عن السلف ، وذلك لحاجة المسلمين الملحة لضبط الشرائع ؛ فكانت علوم كثيرة اخرى مهجورة (٣) .

ولكن قيام الخلافة العباسية نتيجة لتأييد الشعوب المفتوحة

---

(١) نفسه ، ١ ص ٢٥ — ٢٦ .
(٢) المقدمة ، ص ٤٥١ ؛ حاجى خليفة ، ١ ص ٣١ .
(٣) حاجى خليفة ، ص ٣٦ ؛ ابن صاعد ، ص ٤٧ .

أو ما عرف بحركة الشعوبية ، بقضائها على الخلافة الأموية أو دولة العرب ؛ فان الخلافة العباسية صارت اشبه بدولة الموالى ؛ لذلك توسعت الثقافة الاسلامية ؛ لأن الموالى كانوا هم حملة العلوم ، كما ذكرنا . وقد بدا التوسع عن طريق النقل بالترجمة من علوم الاوائل كالفرس واليونان والهنود والمصريين (١) ؛ وان اقتصر فى اول الأمر على ترجمة ما يتفق وحاجتهم مثل الرياضيات والطب ، وبعد ذلك شملت الترجمة نواحى المعرفة المختلفة . وساعد على ذلك ، ان مراكز الثقافة فى العالم القديم ، كان اغلبها ضمن دار الاسلام؛ فكانت توجد فى منطقة البحر الأبيض فى الاسكندرية (٢) ، وفى الأماكن المجاورة فى بلاد الجزيرة فى حران (٣) ، وفى بلاد فارس فى جند يسابور (٤) .

ونلاحظ ان الثقافة القديمة قد تركزت على ايام العرب فى بلاد الجزيرة فى حران على الخصوص ؛ بسبب ان مدرسة الاسكندرية قد ضعفت ، فضلا عن انه ينسب الى العرب والى غيرهم حرق مكتبتها الضخمة (٥) « Bibliothêkê » . كذلك كان اغلب الذين قاموا بالترجمة والنقل من السريان "Surianus" ، وهى لفظة اطلقها اليونان على عنصر مسيحى نسطورى فى بلاد الجزيرة - يسكن بين نهرى

---

(١) حاجى خليفة ، ١ ص ٢٣ .

(٢) المسعودى ، التنبيه ، ص ١٥٧ - ١١٨ ؛ انظر Meyerhof
La fin de l'école d'Alexandrie d'après quelques auteurs arabes. Le Caire, 1933.

(٣) القفطى ، تاريخ الحكماء ، تحقيق Lippert ؛ ط . Leipzig ؛ ص ٣١١ عنها ؛ انظر ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٤٩ - ١٥١ ، ٤٨٩ ؛ القفطى ، ص ١٥٨ - ١٦٠ ، ٢٨٣ ؛ انظر ، بعده .

(٥) يظهر أن قصة حرق العرب هذه المكتبة لم يظهر الا أخيرا ؛ ولعل البيزنطيين هم الذين بددوها ، كما انها كانت احترقت حينما جاء يوليوس قيصر مطاردا بومبى ، عن ذلك بتفصيل ، انظر ، ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، تحقيق صالحانى ؛ بيروت ١٨٩٠ ص ١٧٦ ؛ انظر ، ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ٢٢٢ وهامش .

دجلة والفرات ، ولاسيما في حران – يتكلم لغة آرامية (١) تشبه فى أصلها اللغة العربية ، وقريبة منها ؛ وان كانت تغايرها ، بسبب كتابتها بحروف يونانية ، وانهم استعملوا اليونانية فى الصلاة . وقبل الاسلام كانت السريانية « " Surave " » لغة حضارية ؛ حتى انها عرفت فى مناطق بعيدة عن بلاد السريان فى فرنسا ، فى عهد الدولة الميروفنجية . فلما قامت حركة النقل كان هؤلاء السريان يترجمون بسهولة الآثار السريانية واليونانية الى العربية . ولكننا يجب ان نشير ايضا الى عناصر آسيوية ، ولا سيما من الفرس – وان كانت قلة – قامت بترجمة التراث الفارسى والهندى او غيرهما الى العربية ؛ فيذكر المؤرخون عظم هذا التراث الاسيوى ، الذى طرح العرب بعضه فى النار او الماء ، لما استولوا على فارس (٢) . ولا ريب انه كان يوجد فى دار الاسلام متعصبون لأحد التراثين : اليونانى او الآسيوى ، كما يوجد متعصبون لاى تيار ثقافى آخر ، فى أى وقت .

ولدينا اسماء مترجمين كثيرين ؛ نكتفى بذكر بعض المشهور منهم . ولعل أول من ترجم من الفارسية هو عبد الله بن المقفع (٣) (ت ١٤٠/٧٥٧) ، وهو فارسى ، ترجم من الفارسية القديمة كتبا عديدة ، يوجد بعضها تحت ايدينا ؛ كما ترجم كتبا يونانية ، ربما من ترجمات فارسية ، وله كتب من تاليفه . كذلك فضل ابن نوبخت ، الذى ولاه هرون خزانة كتب الحكمة ، وينقل من الفارسية الى العربية ما يجده فيها من كتب فارسية (٤) .

---

(١) عن ذلك بتفصيل ، أنظر . مراد كامل والبكرى ، الأدب السريانى ، ص ٥ .

(٢) المقدمة ، ص ٣٨٠ .

(٣) ابن صاعد ، ص ٤٩ . من كتبه : كليلة ودمنه ، وخدا ينامه وهو عن ملوك الفرس ، وآيين نامه أى الشرائع ، ومزدك والتاج فى سيرة انو شروان ، والادب الكبير ، والادب الصغير ، واليتيمة فى طاعة السلطان . مروج ، ١ ص ١٠٩ ؛ الفهرست ، تحقيق Flügel ، ط . Leipzig ، ١٨٧١ ، ص ١١٨ ؛ انظر . احمد أمين ، ضحى الاسلام ، ط ٢ ، ص ١٧٧ ، ١٩٥ وما بعدها .

(٤) انظر . Cafini : Bibl. Arabio Hispàna t1, p. 421

اما حذاق المترجمين من السريانية واليونانية الى العربية ، فنذكر منهم: ابو يعقوب حنين بن اسحق (١) (١٩٤ – ٨٠٩/٢٦٠ – ٨٧٣) ، الذى ولد فى الحيرة ، ودرس الطب فى مدرسة جند يسابور ، وارتحل الى بلاد الروم ، وتعلم اللسان اليونانى ؛ واصبح فصيحا فيه ، ثم رجع الى العراق فى عهد المامون ، فترجم خمسة وتسعين كتابا للسريانية ، وتسعة وثلاثين كتابا للعربية ؛ فضلا عن تآليفه العديدة فى الطب . وقد كان معه فى الترجمة ابنه اسحق بن حنين العبادى النصرانى (٢) (+ ٩١١/٢٩٨) ، الذى اشتهر هو الآخر شهرة ابيه . ويلى حنين فى الشهرة ابو الحسن ثابت بن قرة الحرانى (٣) (٢٢١ – ٨٣٦/٢٨٨ – ٩٠١) ، وهو من هؤلاء الذين راجعوا وصححوا الترجمات العربية السابقة ، فضلا عن ترجماته – اذ كان هو الآخر يجيد اليونانية والسريانية والعربية – وعن تآليفه فى الرياضة والفلك والطب والفلسفة ؛ فكان ما الفه بالعربية حوالى خمسين ومائة بحث ، وبالسريانية خمسة عشر بحثا .

وقد بدا النقل فى عهد الخليفة العباسى الثانى ابو جعفر المنصور ، الذى يقال انه كان اعلم من فى عصره (٤) . ولكن النقل

---

(١) وفيات ، ١ ص ٢٩٨ ؛ ابن ابى اصيبعة ، طبقات الاطباء ، تحقيق Muller ، ط . القاهرة ١٢٩٩/١٨٨٢ ، ١ ص ١٨٤ – ٢٠٠ ؛ ابن القفطى ، ص ١٧١ – ١٧٧ ؛ ابن صاعد ، ص ٣٦ – ٣٧ ؛ الفهرست ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ ؛ انظر . Meyerhof :
New light on Hunain ibn Ishâq and his period. Isis VIII 1926. p. 685-724.
Ency. (art Hunain B. Ishâk) t2, p. 357; 2ed t2 p. 598 sqq.
او ليرى ، مسالك الثقافة ، ترجمة تمام حسان ، ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٢) ابن ابى اصيبعة ، ١ ص ٢٠٠ ؛ ابن صاعد ، ص ٣٧ .

(٣) ابن صاعد ، ص ٣٧ ؛ وفيات ، ١ ص ١٧٧ – ١٧٩ ؛ ابن ابى اصيبعة ، ١ ص ٢١٥ وما بعدها ؛ انظر . او ليرى ، مسالك ، ترجمة ، ص ٢٥٧ ؛
Ency. (art Thâbit B. Kurra) t4, p. 770-1.

(٤) ابن صاعد ، ص ٤٨ ؛ المقدمة ، ص ١٤ .

بلغ اشده فى عهد المأمون (١) ، الدي حرص على نقل التراث الهليني والشرقي الى العربية ؛ فكان يأخذ منه ما يتلاءم مع عقلية العرب . ولكى يتم هذا النقل على اكمل وجه انشا فى بغداد ما عرف بدار الحكمة او دار العلم فى سنة ٢١٥/٨٣٠ ، جمع فيها عددا كبيرا من النساخ والمترجمين ، الذين اتقنوا عدة لغات والحق بها مكتبة . ومن اغرب ما وصل الينا من هذا الخليفة انه ترك الجهاد وتداخل مع ملوك الروم واتحفهم بالهدايا ؛ لقاء ان يرسلوا له بالمخطوطات ، مما يدل على اهتمامه بنشر الثقافة . ففى عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى ، مثل كتب : افلاطون وارسطو فى الفلسفة وابقراط وجالينوس فى الطب ، واقليدس وارخميدس وبطلميوس فى الرياضيات ، وغير ذلك .

وبذلك توسعت الثقافة الاسلامية ونضج الفكر الاسلامى بالنقل ؛ بسبب ما جد فيه من الثقافات الاجنبية ، وخاصة أن المسلمين اجادوا التلمذة ، وهضموا ما نقلوه . وقد كان الاسلام ـ على عكس اديان اخرى ـ لا يحرم علوم الآخرين ، ويحث على طلب العلم . يتبين ذلك من احاديث نبوية وغيرها (٢) ، فمن ذلك مثلا : « مداد العلماء عند الله خير من دم الشهداء » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » و « العلماء ورثة الانبياء » . ومن بعض الاقوال المأثورة « تعلموا العلم ؛ فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة » . ثم ان العرب هم اصحاب المثل القائل : « العلم نور » . ومع ذلك فمن وقت لآخر هوجم العلم بسبب التعصب الدينى ؛ فكانت كلمة زنديق تطلق على المفكر الحر . وكذلك ، بسبب الاختلاف فى المذهب ، مثلما

---

(١) نفسه ؛ نفسه ص ٣٠ ؛ انظر . Meyerhof :
Transmission of Science to Arabs. Isl. Cult Vol VI, 1930
؛ احمد رفاعى ، عصر المامون ، القاهرة ١٩٢٧ ، ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) الغزالى ، احياء علوم الدين ، ط . الحلبى ١٣٤٦ هـ ، ١ ص ٥ ـ ١٧ ؛ حاجى خليفة ، ١ ص ١٥ ، ٣٩ .

فعلت السنة بحرق كتب الشيعة في مصر ؛ بحيث جعلت الكتب كيمانا عرفت بتلال الكتب (١) .

وقد بقيت الحركة الثقافية متقدمة على الرغم من انفصام وحدة المسلمين السياسية ؛ فبفضل تنافس دول الاسلام تعددت البيئات الفكرية ، واصبح لكل دولة اسلامية شهرة فى ناحية خاصة من الثقافة. ولم تمنع الخصومات السياسية بين الدول الاسلامية التعاون الثقافى ؛ فكانت رحلة العلماء هي العامل الأساسى فى نشر الثقافة من مكان الى مكان (٢) . كذلك كان كل خليفة او امير يجمع اكبر عدده من الكتب . ومع ذلك ، فان نظام المكتبات ـ في وقتنا ـ لم يكن قد عرف وقتئذ ، وانما استخدموا الخزائن ؛ وحتى فى اوربا كان يستخدم لفظة خزانة : « " Armorium " » (٣) . فمثلا : خزانة الكتب عند خلفاء الفاطميين تكونت من اربعين حجرة (٤) ، من جملتها ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة ـ اى العلوم الأجنبية ـ من مجموع مائتى الف كتاب ؛ هذا بالاضافة الى كتب دار الحكمة ، التى جمعت فى سبع عشرة خزانة ، ومكتبة الأمويين فى الأندلس التى اشتملت على اربعمائة الف مجلد (٥) ، كما انشأ البهويهيون مكتبة ضخمة فى بغداد (٦) .

وبمجىء المغول وعناصر الترك ، ظن الناس ان الثقافة الاسلامية قد ضاعت،نظرا لهمجية هؤلاء وقتئذ واحراقهم المدارس(٧) ،

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) حاجى خليفة ، ١ ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) انظر . عاشور وانيس ، النهضات الأوربية ، ط . ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٠٥ ؛

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٥٣ ـ ٢٨٥ ؛
Ency. (art Kitâbkhâna) t2, p. 1105-8.

(٥) نفح الطيب ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ، ص ١ ص ١٨٤ ؛ انظر . Ribera Bibli ofilos y Bibliotecas en la Espana Musulmana. Saragossa 1896; (Disert. y. Opusc. TI). Madrid, 1928 .

(٦) معجم البلدان (مادة بغداد) .

(٧) ابن بطوطة ، رحلة ، ط . مصر ؛ انظر ، بعده .

وان لغتهم ليست العربية . والواقع ان مجيء المغول لم يقض على الثقافة الاسلامية ؛ وان احدث حركة تنقل فى مراكزها . ولقد اصبحت القاهرة بعد سقوط بغداد في ايدى المغول ؛ تحمل وحدها مشعل الثقافة الاسلامية فى دار الاسلام ، ولا سيما ان قرطبة سقطت هى الاخرى فى ايدى الفرنجة . ثم انه بعد اسلام المغول عادت الثاقفة الاسلامية الى بغداد ، وان اصبحت مصبوغة اكثر بطابع اسيوى .

* *

ونلمس دعامتين هامتين لنشر الثقافة الاسلامية ، هما : اللغة العربية والتعليم .

فاللغة العربية قديمة (١) ، ظهرت ابجديتها (٢) فى نقوش الممالك البدوية السابقة على الاسلام مثل : اللحيانيين والثموديين والنبط فى شمال الحجاز ؛ مما جعل العلماء تفكر فى أن اللغة العربية انتشرت من الشمال الى الجنوب . ومع ذلك ؛ فان اللغة العربية كما وردت فى القرآن تحتوى على الفاظ حبشية ، فضلا عن اشتراكها فى القواعد والمفردات والأبجدية مع لغة المسند ـ اللغة اليمنية القديمة ـ وكلتا اللغتين الحبشية والمسند من لغات الجنوب . كذلك يروى العلماء العرب بأن اول من كتب بها اسماعيل ابن ابراهيم (٣) ـ الذى ينسب اليه عرب الحجاز ـ وهو الذى تعلمها من ولد يعرب بن قحطان ـ جد اليمنيين ـ فلعل هذا يشير الى انها منقولة عن اليمنيين . ومن ناحية أخرى ، وردت فى اساطير رواة العرب ان رجالا من مكة ـ وهى فى وسط الجزيرة العربية ـ هم أول من وضعوا الخط العربى ، فعلى حسب قولهم وضعها ؛ ابجد ، وهوز ، وحطى ، وكلمن ، وغيرهم (٤) ؛ وان كنا لا نعرف

---

(١) عنها بتفصيل ، انظر .
Ency. (art'Arabiyya) 2ed t1, p. 561sqq

(٢) المقدمة ، ص ٣٣١ وما وبعدها ؛ انظر . يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره ، بحث مستخرج منمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٣٥ .

(٣) الزينة ، ص ٨٨ .

(٤) كشف الظنون ، ١ ص ٤٦٤ .

من هؤلاء شيئا ، وربما كانوا ملوكا . كذلك لم تصلنا للخط العربى نقوش من قبل الاسلام ؛ فلعل هذا الخط العربى لم يكن قد تميز بعد ؛ على عكس الخطوط الاخرى فى الجزيرة ، وايضا لأن طبيعة السكان في الحجاز لم تكن تميل الى الكتابة . فالنقوش القليلة التى بين ايدينا بالعربية مكتوبة بالخط النبطى (١) ؛ حيث ان اقدمها نقش نمارة الخاص بقبر الشاعر امرىء القيس ، وذلك من عام ٣٢٨ م ؛ فلعل هذا يؤيد ان النبط استولت على الحجاز ونقلت لغتها . كل هذا يجعل مشكلة اصل ظهور اللغة العربية غير معروف .

ومن المحقق ان قيمة اللغة العربية زادت بمجيء الاسلام ؛ وعلى الخصوص لما جمع عثمان القرآن فى كتاب موحد ، وعرب عبد الملك بن مروان وابنه الوليد الدواوين ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية . فما لبثت العربية ان اكتسحت لغات الشعوب المفتوحة ، مثل (٢) : الفارسية والقبطية والبربرية والأندلسية واليونانية ، ولغات سامية مثل السريانية والعبرانية ، واصبحت وحدها شائعة فى دار الاسلام . ولا ريب ان اللغة العربية نالت هذه المكانة فى الاسلام ؛ لأنها لغة الفاتح القوى ، ولأنها اللغة المقدسة التى نزل بها القرآن ؛ فكلمة اقرأ معناها اقرأ القرآن ، ثم لدقتها ومؤهلاتها ؛ فهى تحتوى على مترادفات كثيرة ، بحيث اعتبرت تامة الحروف (٣) ، تختص بحروف لا مثيل لها فى اية لغة اخرى ، كاملة الالفاظ لم ينقصها شيء . حقا ان اللغة العربية قد اثبتت جدارتها قبل الاسلام بسيطرتها على معظم لغات الجزيرة العربية ؛ حتى اللغات الجنوبية او الشمالية ؛ اذ ان معظم سكان الجزيرة العربية قبل الاسلام كانوا يتكلمون العربية ، التى سماها القرآن : « بلسان عربى مبين ٢٦ : ١٩٥ » . ومن ناحية اخرى ، كانت لغات الشعوب المفتوحة فى فقر مدقع ، بينما كان اللسان العربى فى

---

(١) انظر . Wiet و Sauvaget و Combe :
Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t1, p. 1-4

(٢) كشف ، ١ ص ٤٦١ .

(٣) الزينة ، ص ١٠ .

دروته ؛ فمثلا : اللغة الفارسية لكثرة حروب الفرس كانت مهملة ، والقبطية مضطهدة ، والأندلسية ناشئة ؛ وحتى السريانية أو العبرية فى مركز ضعيف . والواقع ان اللغة العربية ليست اول لغة سامية دولية ؛ فقد سبقتها اللغة الآرامية فى القرن الثامن ق . م (١) ؛ فكانت لغة الحضارة فى آشوروبابل والشام ، وهى التى اكتسحتها اللغة اليونانية ؛ وان بقى فى اللغة الآرامية رمق فى بقايا السريانية ، التى وجدها العرب فى ديار الجزيرة .

ولم تكن اللغة العربية فى أول الأمر سهلة فى قراءتها بالنسبة للشعوب المفتوحة ؛ وذلك لأنها لم تكن منقطة ، فكانت حروفها متشابهة ؛ ولذلك سعت الشعوب المتحضرة التى فتحها العرب الى ان تجعلها مفهومة بايجاد نقط لها . وقد كلف الحجاج بن يوسف الثقفى ، عامل الأمويين فى المشرق ، جماعة من الاعاجم بايجاد نقط اللغة العربية ، فعرفت بالنقط الأعاجم (٢) .

كذلك سعت الشعوب المفتوحة الى ايجاد قواعد اللغة العربية وهو ما اصطلح على تسميته بالنحو (٣) ؛ بمعنى القصد والحذو الى مثل ما فى اللغات الأخرى من اشتقاق وتغيير ؛ او حتى بالاعراب وهى العلامات الملزمة ؛ بقصد تقويم اللغة . ولا يعنى هذا أن النحو او الاعراب مستحدث ؛ فاللغة العربية كما تظهر من الشعر الجاهلى والقرآن الكريم تدل على انها مكتملة القواعد . وقد بدىء ذلك فى عصر الحجاج ايضا ، وحينما نذكر اسماء بعض الذين وضعوا قواعد اللغة العربية ، نجدهم ايضا من العجم . والسبب فى هذا هو أن علماء اجانب اسلموا ورغبوا فى تعلم العربية على الوجه الصحيح ؛ وكانوا يسعون الى تلقيها من أهل البادية . فنذكر من النحاة المجيدين وائمتهم (٤) : ابا الأسود الدؤلى (٥)

---

(١) انظر . مراد كامل والبكرى ، تاريخ الادب السريانى ، ص ٦ .

(٢) وفيات ، ١ ص ٢١٨ — ٢٢٤ .

(٣) الزينة ، ١ ص ٢٤ — ٢٨ ؛ المقدمة ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ؛ انظر .
Ency. (art Nahw) t3 p. 894-5.

(٤) عن ذلك عموما ؛ انظر أيضا : الزينة ، ١ ص ١٨ وما بعدها .

(٥) عنه ، انظر . وفيات ، ١ ص ٤٢٩ — ٤٣٢ .

(ت ٦٩/٦٨٨) ، الذى عاش الى ايام الأمويين ، ويقال ان على ابن ابى طالب هو الذى لقنه اصول قواعد لغة العرب ، وهو يعتبر واضع علم النحو ، والخليل بن احمد (١) (ت ١٧٥/٧٩١) ، فى ايام الرشيد ، فهذب ما كتبه ابو الاسود وبوبه فى كتابه المشهور بكتاب : العين ، وسيبويه (٢) (ت ١٨٣/٧٩٩) ، وهى كلمة فارسية معناها رائحة التفاح ، اكمل ما كتب فى النحو ووضع كتابا عرف باسمه ؛ بحيث صار اماما لكل من تناول النحو بعده ، مثل : الكسائى (٣) (ت ١٨٩/٨٠٥) ، والاصمعى (٤) (ت ٢١٣/ ٨٢٨) ، والاخفش الصغير (٥) (ت ٣١٥/٩٢٧) ، والزجاجى (٦) (ت ٣٣٩/٩٥٠) ، وابن فارس (٧) (ت ٣٩٠/١٠٠٠) .

وبعد الاعراب او علم النحو اهتم المسلمون بتحليل تراكيب اللغة لتصنع قواعد للقول البليغ ، وهو ما عرف بالبلاغة او البيان او البديع (٨) . فاذا كان النحو يعتنى باللغة من حيث صحتها ؛ فان البلاغة او البيان او البديع تعنى باللغة من حيث

---

(١) عنه ، انظر ، نفسه ، ١ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩ ؛ درويش ، المعاجم العربية ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) عنه ، انظر ، وفيات ، ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٥ ؛
Ency. (art Sibawaihi) t4, p. 412-413.

كتابه فى جزمين ، ط ، مصر ١٣١٦ هـ .

(٣) عنه ، انظر ، وفيات ، ٢ ص ٣ ـ ٥ ؛ انظر .
Ency. (art Kisâ'I) t2, p. 1096.

له رسالة فى لحن العامة تحقيق Brockl ؛ فى :
—Zeitschr f. Assyriol XII(1899, p. 29-46.

(٤) عنه ، انظر .
Ency. (art al — Asmâ'I) t1, p 497

(٥) وفيات ، ٢ ص ٢ ـ ٣ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٧) نفسه ، ١ ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ انظر .
Ency. (art Ibn Fâris) t2, p. 399-400.

له عدة كتب منها : الصحيح فى فقه اللغة ، وسنن العرب فى كلامها ، ط مصر ١٩١٠ م .

(٨) المقدمة ، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٩ .

الحسن والجمال ؛ بتنميق بسجع او تجنيس او تورية او استعارة او تشبيه • واشهر من الف فى ذلك : الجاحظ (ت ٢٥٥/٨٦٨ ـ ٨٦٩) (١) ؛ والسكاكى (٢) (ت ٦٢٦/١٢٢٩) •

وحينما اصبحت اللغة العربية مفهومة ؛ اعتبرت افضل اللغات ؛ بحيث ان غير المسلمين حرصوا على تعلمها ورغبوا فيها ، ونقلوا اليها كتبهم المقدسة مثل التوراة والانجيل والزبور ، وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية الى العربية • كذلك اصبحت لغة الكتابة "Les Belles Lettres" ، ونقلت اليها سائر العلوم من فلسفة وطب وفلك وحساب وهندسة ؛ مما يدل على قدرتها على مواجهة تطور الحضارة • ولما ضعف نفوذ العرب بظهور الفرس والترك ، فهرت ايضا لغاتهما ؛ واصبحت نسبة كبيرة من الفارسية والتركية من اصل عربى • بل غزت لغات اجنبية حتى خارج دار الاسلام ، مثل الأردية والمالوية فى آسيا ، والسواحلية فى افريقيا • والى وقتنا الحاضر ـ بعد زوال دولة العرب فى العصور الوسطى ـ نجد شعوبا كثيرة تتكلم العربية وتكتب بها ، فان انتصار العرب ولا ريب هو قبل كل شيء انتصار لغة •

*

والدعامة الثانية لنشر الثقافة هى التعليم ، وقبل الاسلام لم يكن منظما لبداوة العرب وقلة العارفين بالكتابة ؛ وذلك على عكس ما وجد عند الشعوب المتحضرة ، التى كان يوجد فيها تعليم بلغ درجة التعليم الجامعى ، مثلما كان عند المصريين القدماء واليونان والفرس • ولما جاء الاسلام ظهر ميل للتعليم عند العرب ، وكان رجال القلم فى اول الأمر هم رجال الدين مثل القراء (٣) ، الذين يقراون

---

(١) عنه ، انظر • وفيات ٢ ص ١٠٨ ـ ١١١ ؛ خليل مردم ، الجاحظ ، دمشق ١٩٣٠ ؛ انظر • Pellat :

Le Milieu Baçrien et la Formation de Gâhiz. Paris, 1953.

(٨) عنه ، انظر : Ency. (art al — Sâkkaki) t4. p. 83—4.

اشهر كتبه : مفتاح العلوم ، ط • القاهرة ١٣١٧ أو ١٣١٨ هـ •

(٣) المقدمة ، ص ٢٥٣ •

القرآن ، وكان النبى يرسلهم لتعليم المسلمين قواعد الدين ، أى ان التعليم ظهر بظهور الاسلام .

ويبدو ان التعليم الابتدائى بدأ منذ عهد النبى ، الذى كان يطلق الأسرى على اساس ان يعلموا اولاد المسلمين ، ولا يعنى هذا ان تعليم الصبيان لم يكن موجودا قبلا ؛ فانه كان معروفا عند العرب اليهود (١) ، وكان من يعرف الكتابة فى الجاهلية يسمى : « كاملا » (٢) . وفى عهد عمر بن الخطاب بدىء فى تنظيم وتعليم الصبيان ؛ فنسمع عن الكتاب (٣) . وقد توسع فى هذا التعليم فيما بعد ؛فظهرت كلمات عديدة تدل عليه ، ولا سيما فى عهد العباسيين ؛ فنسمع عن المكاتب ـ مفردها مكتب ـ او مكاتب الصبيان (٤) ، او حتى حوانيت (٥) ، ومن يقوم به اسمه معلم او مؤدب (٦) . بل سمعنا ان احد مؤدبى الصبيان كان عنده ثلاثة الاف (٧) ، وآخر كان عنده تسعمائة (٨) . وكذلك نجد ادراكا للنواحى التربوية ـ البيداجوجية ـ فى هذا التعليم الابتدائى ؛ فقد كانت الدولة تشرف عليه عن طريق المحتسب ، الذى كان من عمله ان ينذر معلمى المكاتب بان لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل (٩) . وقد نص على انه يمكن ضربهم الى ثلاثة أسواط (١٠)

(١) فتوح البلدان ، ص ٤٧٣ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ط . Leyden ، ٢/٣ ص ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ وما بعدها ؛ انظر . الدالى ، الخطاطة ، ١٩٨٠ ، ص ١٦ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٤٢ ؛ انظر . Tritton :
Materials on muslim education in the Middle Ages London, 1957.

(٤) الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ ص ٣٥ ، ٤ ص ٢٢٣ ص ٣ ؛ المقدمة ، ص ٤٤٨ انظر . Ency. (art Makatab) t3, p. 180 sqq

(٥) نهاية الرتبة ، ص ١٠٣ .

(٦) نفسه ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ .

(٧) ياقوت ، ادباء ، تحقيق Margoliouth ، ٤ ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٩) النجوم ، ٥ ص ٦١ س ٤ ـ ٥ .

(٨) الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ .

(١٠) المقدمة ، ص ١٠١ .

اما اذا ضربوا بالعصا ، فانه لا يكون بعصا غليظة وانما يكون بعصا وسط (١) ، ويكون الضرب على اللوايا والافخاذ واسفل الرجلين ، كما ان استخدام الفلكة (٢) ، قد يكون غير مستجاز احيانا ؛ وهى الاداة من الخشب التى فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها ارجل المذنب ، الذى يستلقى على الارض لضربه على بطن الرجل . ويبدو ان التهذيب الخلقى كان اهم جانب من هذا التعليم ؛ ولذا فان مكان الدرس يسمى مجلس الادب (٣) ، والمدرس يسمى مؤدبا كما ذكرنا .

ونعرف ايضا تفاصيل قليلة عن مقررات هذا التعليم ؛ التى - ولا ريب - ان اساسها التعليم الدينى ، ولا سيما تحفيظ القرآن والحديث . فيقول ابن خلدون ان التربية الدينية يجب ان تبدأ من سن مبكرة ؛ ذلك لانه فى هذه السن يكون الصبى مستعدا لقبول العقائد ، بمجرد الايمان بها (٤) . كذلك الخط والحساب وربما بعض الشعر والسباحة هى جزء من المقررات ، وقد وجد فى زمن المماليك معلمون يتخصصون فى قوانين واحكام وضع كل حرف (٥) .

ولدينا صورة عن هذا التعليم الاولى خاصة بابناء الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان ، الذى وضع بنفسه برامج دراستهم ، وهى تشمل العلم والخلق ؛ فقال لمعلمهم (٦) : « وعلمهم كتاب

---

(١) نهاية الرتبة ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن سحنون ، اداب المعلمين عبد الوهاب ، تونس ١٩٣١ ، ص ٥١ ؛ انظر . Canard :
Falaqa. Arabica. Rev. d'Et. An. Ext, 11. Sept. 1954, Fasc 3, p. 333.

(٣) الاغانى ، ١٨ ص ١٠١ .

(٤) المقدمة ، ص ٤٤٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٣١ . وقبل ذلك ، ظهر ابن مقلة (حوالى ٣٠٠ هـ) ، الذى يعتبر المهندس الاول للخط المنسوب له لتناسبه فى اشكاله الهندسية المتقنة المجودة ، ونسبتها الى امام من ائمته . الدالى ، الخطاطة ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٦) لدينا نصائح أخرى مشابهة من الرشيد لمعلم ولده الامين . المقدمة ، ص ٤٥٠ .

الله عز وجل حتى يحفظوه ، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الأخلاق بأحسنها ، ومن الآداب بأجمعها ، ورَوِّهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أصدقه ، وجنبهم محادثة النساء ، ومجالسة الأظفاء ، ومخالطة السفهاء ، وخوفهم بي ، ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه ؛ فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم » .

وقد اهتم علماء المسلمين بتعليم الصبيان والتعليم عموما ، وخصصوا كتبا في ذلك . فألف الغزالى (ت ٥٠٥/١١١٢) كتابا سماه : « احياء علوم الدين (١) » ؛ بين فيه ان عملية التربية تتعاون فيها طبيعة التلميذ وبيئته ، وان دراسة المعلم لنفسية تلاميذه بقصد ايجاد الصلة العاطفية بين المعلم وتلميذه . ويرى ضرورة أن لا ترفع الكلفة مع التلميذ ، حتى لا يفسد خلقه ، وأن يبتعد به عن التدليل ، ويعود الخشونة ، حتى لا يغلب عليه الكسل . وينبغى ان يعود الأخلاق الكريمة ؛ فيقوم لمن فوقه ، ويعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب . كذلك لدينا كتاب عن هؤلاء المؤدبين اسمه : « آداب المعلمين » لابن سحنون (٢) ، يذكر فيه مؤلفه طرفا عنهم ؛ فانهم كانوا يسرون بوقوع الحبر على ثيابهم ؛ دلالة على اجتهادهم الشديد في تعليم الصبيان .

بعد ذلك ظهر نوع من التعليم المتوسط متمثلا في شكل المدرسة (٣) ؛ وهي كلمة مأخوذة من درس ، ظهرت في المشرق في القرن الخامس الهجرى ، ولازم التدريس فيها المذهب السنى وحده . ويبدو ان هذا النوع من التعليم تقدم على الخصوص على يد الوزير نظام الملك (ت ٤٨٥/١١٩٢) ، الذى انشأ في

---

(١) طبعة الحلبى ، ١ ص ٦٣ « الباب الاول » . انظر . أيضا . فتحية بهيج ، مذاهب في التربية ، بحث في المذهب التربوى عند الغزالى ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ . للغزالى كتب اخرى مثل : أيها الولد ، وفاتحة العلوم .

(٢) ط . تونس ١٩٣١ .

(٣) انظر . الخطط ، ٤ ص ١٩١ وما بعدها ؛ النعيمى ، الدارس في تاريخ المدارس ، في جزءين ، نشر جعفر الحسنى ، دمشق ١٩٤٨ – ١٩٥١ .

بغداد المدرسة النظامية فى عام ١٠٦٥/٤٥٧ ؛ وفرغ منها فى عام ١٠٦٧/٤٥٩ (١) ؛ وان كانت المدارس وجدت قبله . ولدينا وصف احدى هذه المدارس ؛ فقد انشأ المستنصر العباسي المدرسة التى عرفت باسمه : المدرسة المستنصرية فى عام ١٢٣٤/٦٣١ (٢) ؛ وقد كانت اشبه بمدينة فيها اربعة اروقة ، كل منها يختص بمذهب خاص من مذاهب السنة ، وكان عدد طلابها ثلاثمائة ، موزعين على الأروقة يتلقون العلم داخليا وبالمجان ، ويعطى الطالب اعانة مالية . وقد ازداد عدد المدارس الى حد كبير فى بلاد الاسلام ، واستمر بناؤها طول فترة عصر الاسلام المزدهر ؛ وفى جميع دوله ؛ ينشئها الملوك والأمراء والتجار وحتى النساء (٣) . ويبدو ان بناء المدرسة المثالى هو ان يتكون من صحن اى فناء ، ومن ايوانات تحيط به عليها القباب ؛ كما كانت تلحق بها مكتبة ؛ ففى احدى مدارس مصر فى ايام المماليك ، الحقت مكتبة بها مائة الف مجلد (٤) .

وكان للدروس فى المدارس مقرر يومى ينقسم الى قسمين : فيه جزء اجبارى هو القرآن والقراءة ، واختيارى هو الحساب والتاريخ والشعر والقواعد والبلاغة . ومن دراسة كتب برامج العلماء (٥) ، وهى تسجيل لما قراوه من مؤلفات فى مختلف

(١) عنها على الخصوص ، انظر : Talas :
La Madrasa Nnzamiyya et son Histoire. Paris. 1939
The Nizâmiyya and Bagdàd Topography. J. R.A.S 1928 : Bowen.

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ، ط . مصر ، ط ٢ ، ١ ص ١٣١ ـ ١٤٢
انظر على الخصوص كوركيس ، المدرسة المستنصرية ببغداد ، بغداد ١٩٤٥
حسين امين ، المدرسة المستنصرية ١٩٦٠ .

(٣) النعيمى (١٥٢١/٩٢٧) ، تنبيه الطالب وارشاد الدارس ، تحقيق Sauvaire فى J. A 9éme Série ؛ وانظر . iEncy. t3 p. 405

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٩٧ س ٩ .

(٥) مثل فهرسة ابن خير الأندلسية وغيرها التى تذكر اسماء شيوخه . من هذه البرامج ، انظر المقالة القيمة من الاهوانى : كتب برامج العلماء فى الأندلس ، ونص برنامج ابن أبي الربيع ، القاهرة ١٩٥٥ . وتوجد فهارس =

العلوم ؛ نكشف اى الكتب كان مفضلا للدارسين واسماء اشياخهم ، وقد غلب على هذه البرامج لفظة : ثبت او معجم او مشيخة او فهرسة او برنامج . ويبدو ان التعليم بهذه المدارس كان يختلف من مكان لآخر على حسب البلاد ؛ فيقال الطريقة القيروانية والقرطبية والبغدادية والمصرية (١) . وقد رؤى ان الطريقة المشرقية افضل من المغربية ؛ لانها تفصل فن الكتابة عن تعليم القرآن . كذلك اختلفت مدة الدراسة ؛ فكانت فى المغرب على ايام ابن خلدون ست عشرة سنة ، بينما هى بتونس خمس سنين ؛ وربما امتداد الاولى بسبب قلة الجودة فى التعليم . بيد ان اساس التعليم فى هذه المدارس كان الحفظ عن ظهر قلب ؛ ومازال هذا المنهج ماخوذا به حتى عصرنا الحاضر ؛ فحتى فى ايامنا هذه نجد من الادباء من يحفظ الافا من الابيات . وكان من ينجح من التلاميذ ياخذ اجازة (٢) ، ولا ياخذها الا اذا احسن الاعتراض ويقول لأستاذه : « لم » ؛ وهى انواع منها ما يؤهل للتدريس او للفتوى أو للفقه ؛ وهى تكتب بالنثر او الشعر . ولدينا نص الاجازة التى منحها ابن خلدون لابن حجر العسقلانى (٣) ؛ يظهر منها انها اشبه بتقرير من الاستاذ عن تلميذه الناجح .

= متعددة باسماء الكتب فى كل علم اشهرها : الفهرست لابن النديم « ق ٤ هـ » ؛ ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده « ق ١٠ » ، وكشف الظنون لحاجى خليفة « ق ١١ » ، وثلاثتها مطبوع .

(١) المقدمة ، ص ٤٤٢ .

(٢) صبح الاعشى ؛ ١٤ ص ٣١٢ ــ ٣٢٦ ؛ تاج العروس ، ٤ ص ٢١-٢٢ ؛ بخارى ، اجازة ، باب ١٦ ؛ انظر. Ency (art Idjaza) t 2, p. 473-4. ؛ احمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٩ وما بعدها . قد تتعدد ، وتكون تحريرية أو شفهية ، كما أن لها معنى آخر ، يظهر فى كتب الفهارس ، فقد تعنى أن ياخذ التلميذ رخصة أو اذن عن استاذه أو شيخه ، لنقل علومه .

(٣) وذلك فى منتصف شعبان سنة ٧٩٧ / يونية ١٣٩٥ ؛ ونصها فى كتاب ابن حجر ، التذكرة الجديدة ، الجزء السادس ، مخطوطة فى مكتبة ايا صوفيا باستنبول ، برقم ٣١٣٩ ، انظر النص فى كتاب : عنان ، ابن خلدون وحياته وتراثه الفكرى ، ط ٢ ، ص ٦٠ وما بعدها .

ونجد من يقوم بالتعليم فى المدارس هم المدرسون والمعيدون (١) : فالمدرس هو من يتصدى لتدريس العلم ، وكان احيانا يعين بسجل من الخليفة : كما يحدث لكبار الموظفين ، اما المعيد فيلى رتبة المدرس ، والأصل فيه انه اذا القى المدرس الدرس وانصرف اعاد المعيد على الطلبة ما القاه المدرس اليهم ليفهموه ويحسنوه ؛ وقد يتعدد عدد المعيدين . اما كلمة استاذ (٢) ؛ فهو على ما يبدو لقب شرفى ؛ ليعنى انه حريف او سيد او معلم ، فهى كلمة من اصل فارسى ، وان كان هو اللقب الذى بقى حتى الآن . ويبدو أن المدرسين كانوا نقابة (٣) ؛ مما يدل على مدى نفوذهم .

ومن الطريف ان نذكر ان طلب الأجر لقاء التعليم لم يكن امرا مقبولا فى المجتمع الاسلامى ، ومن يقبل من المعلمين المال لا يجد الاحترام الكافى . فيشير الغزالى الى ذلك بقوله (٤) : « أن من طلب بالعلم المال ، كمن مسح اسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما » . فكان المعلم يحصل غالبا على المال عن طريق الهبات ؛ كما نظم اجر المدرس فى عهد الأيوبيين والمماليك ، فهو فى ايام صلاح الدين اربعون دينارا (اى حوالى عشرون جنيها) للمدرس ، وعشرون دينارا للمعيد ، وكل يوم له ستون رطلا من العيش (٥) ، هذا غير كعك ولحم فى عيدى الفطر والأضحى ، وكان يطلق على اجر المعلمين وغيرهم فى ايام المماليك جامكية ، جمعها جوامك .

اما عن التعليم العالى ؛ فانه نهض على الخصوص لما اهتم الخلفاء العباسيون بحركة النقل ؛ فانشا المامون دار العلم ومرصدها وزودها بمكتبة ، وهذه كانت اساسا للتعليم العالى ؛ وكان

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤٦٤ ؛ الخطط ، ٤ ص ٢٦١ ص ١٢ .

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، تحقيق Margoliouth ، ١ ص ١١٣ ، ٢٠٩ ، ٧ ص ٢٧١ ، ٥ ص ٣٥٣ ، ٣٥٨ .

(٣) زبدة ، كشف الممالك ، ص ٩٢ ص ٦ ـ ٧ .

(٤) احياء ، ١ ص ٥٠ .

(٥) القفطى ، تاريخ الحكماء ص ٩٨ ؛ الفهرست ، ص ٢٤٣ .

الطلبة يقيمون بها . وقد قلد حكام المسلمين هذه فى كل مكان ، فمثلا نجد الفاطميين ينشئون دار الحكمة او حتى دار العلم (١) ، التى كانت اشبه بعدة كليات لدراسة الطب والرياضيات وغير ذلك . ويبدو ان مثلها تعددت فى عهد الحاكم بامر الله فى الفسطاط ، حتى بلغت ثمانمائة مكان كل منهم يسمى دار العلم . ويجب أن نشير الى انه كانت تقام دراسات على مستوى عال فى الجوامع الكبرى ؛ حيث كان لها مثيل فى الجامع الأزهر ، الذى انشأه الفاطميون لتعليم الرجال والنساء المذهب الشيعى ، وجعلت له جماعة خاصة تكون نواة لهيئة التدريس فيه ، تتكون من خمسة وثلاثين شخصا (٢) ، انشئت لهم مساكن بجوار الأزهر . وكانت طريقة التعليم فى الجوامع عن طريق التحلق باقامة حلقات ـ مفردها حلقة ـ او تسمى ايضا بالمجالس ، فكانت هذه الحلقات تتعدد فى الجامع الواحد ، حتى تبلغ اكثر من بضع واربعين حلقة (٣) . ونظن ان التعليم فى الجوامع لم يكن الا فى العلوم الدينية ، وانّ العلماء كانوا هم القصاص والخطباء والقضاة والفقهاء ، وحتى الوزراء . ومثل هذا التحلق وجد منذ ايام النبى ، الذى قام بتلقين الحديث للصحابة (٤) . فكان هذا التعليم العالى سابقا على ما ظهر فى القرن الثانى عشر الميلادى فى اوروبا من نظام الجامعات (٥) « Universitas » ، وهو الذى كان يتناول الدراسات اللاهوتية على الخصوص .

كذلك عرف المسلمون نوعا من التعليم العسكرى ظهر فى القرن

---

(١) عنها ، انظر . الخطط ، ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها . اسس الأزهر بالقاهرة فى ٩٦٩/٣٥٩ ؛ فاخذ طلاب العلم يتوافدون اليه ، وكانوا من بلاد متعددة ، يلازمونه ليلا ونهارا ، بلغوا سبعمائة وخمسين ، ما بين عجم ومغاربة ، ومن ابناء القرى البعيدة عن القاهرة ، ولهم ارزاقهم .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٤٩ .

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢١ .

(٤) البخارى ، علم ، باب ٨ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٢ .

(٥) انظر . عاشور ، اوربا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٢ ص ١٣٦ وما بعدها ؛ عاشور وانيس ، النهضات الأوربية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٧٨ وما بعدها .

الرابع الهجرى فى شكل نظام الحجر فى عهد الفاطميين ، ونظام الطباق فى عهد المماليك . وهذه الحجر أو الطباق اشبه بمدارس حربية (١) ، يعلم فيها الملتحقون القراءة والكتابة ، والتربية العسكرية .

ومن المفيد ان نعرف شيئا عن تعليم النساء المسلمات ؛ وان وجدنا اول نداء لتعليمهن من قبل النبى ؛ حيث اعتبرت زوجته عائشة حجة فى الدين الاسلامى . كذلك الغزالي يرى ان العلم واجب على الرجال والنساء على السواء . وقد وجدنا نساء شاعرات واديبات وقابلات ، وهن اللاتى كان وجودهن ضروريا لشئون الولادة (٢) . كذلك كانت تلقى دروس خاصة للسيدات الفاطميات ، فى مكان مخصص لهن فى قصر الخليفة يعرف بالمحول (٣) ؛ ليتعلمن شئون العقائد الفاطمية . كما كان النساء يحضرن مجالس الوعاظ ، وتكون بينهن وبين الرجال ستارة (٤) . ولكننا لم نسمع عن وجود مدارس للفتيات أو وجود تعليم مهنى لهن فى بلاد الاسلام ، او حتى فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى ؛ مما يدل على ان تعليمهن كان خاصا .

* *

ويجب علينا بعد هذا ان نلقى نظرة عامة على صنوف الثقافة الاسلامية من العلوم والفنون . فمن العلوم نعرف ان الدين كان يرتبط بها اشد الارتباط ؛ بحيث ان اغلب العلوم كانت مستمدة من الدين . ولكن بظهور الترجمة ظهرت علوم متعددة لا علاقة لها بالدين ، وقد ظهرت بدافع الحاجة . وفى اول الامر نجد العلوم

---

(١) عن الحجرية ، انظر ، الخطط ، ٢ ص ٣٠٩ – ٣١١ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠٧ ؛ انظر ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ٩٧ – ١٩٩ . عن الطباق ، انظر ، الخطط ، ٣ ص ٣٢٧ – وما بعدها .

(٢) المقدمة ، ص ٣٢٧ – ٣٧٩ .

(٣) الخطط ، ٢ ص ٢٢٤ ؛ انظر ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٨٦ .

(٤) نهاية الرتبة ، ص ١١٠ س ١ – ٣ .

متداخلة بعضها فى بعض ، ولكن بتقدم الحضارة الاسلامية ، أصبح هناك تخصص .

وقد اتخذت العلوم الدينية المكان الأول لارتباطها بالاسلام ، وعرفت بالعلوم الشرعية أو النقلية أو الوضعية او الطبيعية (١) ؛ لأنها مستمدة من الدين او منقولة عنه ، واعتبر القائمون بها من أهم العلماء ؛ بحيث ان صفة العلم كانت تقتصر عليهم دون غيرهم ؛ فقد كان أول علماء الاسلام هم القراء . وعلى الرغم من ان حضارتنا الحديثة قد غيرت الوضع فسوت بين العلماء الدينيين وغير الدينيين ـ بل رفعت من شان هؤلاء ـ فانه لا يزال فى الشرق يطلق اسم العالم على العالم الدينى . والعلوم الدينية اصناف ؛ فالغزالى يقسمها الى اربعة : الاصول والفروع والمقدمات المتممات ؛ فالاصول القرآن والحديث ، والفروع الفقه ، والمقدمات هى الآلات التى لا غنى عنها فى دراسة الاصول كعلم اللغة والنحو ؛ والمتممات مثل القراءات والتفسير . ونحن سنعرضها على الوجه الآتى ، دون أن نخرج بها عن المنطوق الذى وضعه الغزالى .

ولنبدأ الكلام عن علم التفسير (٢) ، وموضوعه كلام الله . ولم يكن العرب فى اول الأمر بحاجة الى تفسير القرآن ؛ ذلك لأنه نزل بلغتهم وعلى اساليبهم ، وكانوا على علم بمناسبات نزول آياته ومقاصدها ؛ فكانوا يفهمونه ويدركون معانيه . ثم انهم فى اول الامر لم يكونوا يسمحون بتفسير القرآن ، اعتمادا على قول النبى : (من قال فى القرآن برايه ، فليتبوأ مقعده من النار) . كذلك كانوا يتحرجون فى الاقدام على تفسير الفاظ القرآن وبحثها على ضوء ما ورد منها فى نصوص اخرى شعرية او نثرية . ولكن العلماء المسلمين تخلصوا من هذا الحرج فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، بسبب انهم بعدوا عن وقت ظهور القرآن ؛ مما جعل مقاصد الفاظ

(١) المقدمة ، ص ٣٤٥ ؛ الغزالى ، احياء ، ١ ص ١٣ ، ١٥ ـ ١٦ ؛ انظر .
Ency. (art'Ulm) t2, p. 498—9.

(٢) عنه بصفة عامة : المقدمة ، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ ؛ كشف الظنون ، ١ ، ص ٣٠ .

القرآن مبهمة(١) ، وخصوصا على الذين اسلموا من الشعوب غير العربية ؛ بحيث كانوا فى حاجة ملحة الى تفسير نص القرآن .

وقد لجاوا فى سبيل ذلك الى الطريقة ذاتها التى لجاوا اليها فى الحديث النبوى بالنقل عن النبى والصحابة التابعين وتابعى التابعين ؛ واصبح علم التفسير جزءا من علم الحديث ، وان استقل عنه فيما بعد . وقد تعرض هذا النقل لكثير من التشويش والدس ودخله القصص اليهودى والمسيحى ، واصبح موضع نزاع بين المفسرين ، وهذا النقل هو ما عرف بالتفسير النقلى او التفسير بالمأثور . وبعد ذلك ، ظهرت طريقة اخرى للتفسير تعتمد على اللغة ومعانى الالفاظ ؛ مما كان سببا فى ظهور معاجم اللغة ؛ مما لم يعرف له مثيل من قبل فى اى لغة سابقة ؛ فكان يبحث عن احوال الالفاظ ومفردات الآيات وما ورد فيها من معان ، وشرح غوامض الاعراب ، والتعرض للآية وسبب نزولها ؛ مما جعل التفسير يحتاج فى الواقع الى علوم متعددة ؛ وقد سمى هذا التفسير تفسير الدراية او الراى او العقل ؛ فلقد اصبح تفسير القرآن يحتاج الى اجتهاد ومنهج خاص(٢) .

ولكن الشيعة حفظا لتفسير القرآن من الدس لجأت الى نقله عن طريق ائمتهم وحدهم ، وادعوا ان الائمة ورثوه عن النبى ؛ من كتب وغيرها كان اورثها النبى لعلى ، ونقلوا عن النبى قوله (٣) : انا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل

ولقد اطلق الشيعة على تفسير القرآن كلمة تاويل ، وهى تفعيل من اول - يؤول ، او حتى العلم اللدنى بسبب وراثته عن النبى ؛

---

(١) مثلا ، انظر . الراغب الاصفهانى « المائة الخامسة » ؛ المفردات فى غرائب القرآن ، مصر ١٣٢٤ هـ .

(٢) مثلا ، انظر : الصاوى « مصطفى » ، منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان اعجازه ، ط . دار المعارف بالقاهرة ؛ مصطفى مندور ، مذاهب التفسير الاسلامى ، حوليات كلية آداب عين شمس ، المجلد ٩ ، ١٩٦٤ ، ص ٩-١٠ .

(٣) سيرة المؤيد فى الدين - احد الدعاة - تحقيق محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٧ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ١ ص ١٧٩ .

اما اعداؤهم فقـد اطلقوا على تفسير الشيعة علم الباطن ، ظنـا منهم انهم احلوا التفسير الذى وضعوه محل الشريعة (١) ، واطلقوا على الشـيعة بسبب ذلك الباطنية . وقد تميز التفسير الشيعى على الخصـوص ، باسـتخدام علم الكلام او ما عـرف عندهم بعـلم الحقائق(٢) ، الذى كان من شـانه ان يهب الـدارس قـوة فى الاسـتدلال ، وقـدرة على البحث فى حقيقة الدين .

ومن اشهر المفسرين ومؤلفاتهم نذكـر : الطبرى (ت ٣١٠/ ٩٢٢) : جامع البيان فى تفسير القرآن (٣) ، والبغوى (ت ٥١٦/ ١١٢٢) : معـالم التنزيل (٤) ، والزمخشرى (ت ١١٤٤/٥٣٨) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٥) ، والرازى (فخر الدين) (ت ١٢٠٩/٦٠٦) : التفسير الكبير (٦) ، والبيضـاوى (ت ٦٨٥/ ١٢٨٦) : انوار التنزيل واسرار التاويل (٧) ، وابو حيان (ت ٧٥٤/ ١٣٥٣) : التفسير الكبير (٨) .

علم القراءات (٩) ، وهـو من عـلوم الدين التى تبحث فى كيفية قـراءة الفـاظ القـرآن ، وذلك لان تبـاين لهجـات العـرب والمسـلمين من الشعوب المفتوحة ، اوجد اختلافا فى النطق بحروف

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩١٠ ، ص ٢٨٠ .

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، ط . London ، ١٨٤٦ ، ص ١٤٧ .

(٣) فى ٣٠ جزءا ، ط . بـولاق ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ ومـا بعـدها ؛ و ط دار المعـارف .

(٤) فى جزءين ، ط . بومباى ١٨٩١/١٣٠٩ ؛ وبولاق ١٢٩١ ؛ والقـاهرة فى ١٣٠٨ و ١٣٤٨ هـ .

(٥) فى جزءين ، ط . مصر ١٣٠٧ هـ ؛ وفى ٤ اجزاء ، مصر ١٩٤٦/١٣٦٥ وتحقيق Lees ، كلكتا ١٨٥٦ .

(٦) فى ٦ مجلدات ، القاهرة ١٨٦٢/١٢٧٨ ؛ وفى ٨ اجزاء ، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠ .

(٧) فى جزءين ، بولاق ١٨٦٥/١٢٨٣ ـ ٦ ؛ وتحقيق Fleischer فى جزءين ، Lipsiae ، ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧ .

(٨) فى ٨ اجزاء ، القاهرة ١٣٢٨ ـ ١٣٢٩ هـ / ١٩١٠ ـ ١٩١١ .

(٩) عنه بصفة عامة ؛ المقدمة ، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

القـرآن . ثم ان القـرآن يشتمل اصلا على الفـاظ القبائل العربية المختلفة بما فيها من عدنانية وقحطـانية (١) ؛ وان كانت الفـاظ قريش هى الغالبة تليهـا هذيل وكنانة وحمير وغيرهم من قبـائل الجزيرة . ولذلك اتفق بعد البحث والاستقصاء على قراءات معينة، او ما سمى ايضـا بالتجويد ، ايـدت باحاديث نبوية ، وروايات للصحابة والتابعين ، وقصـد من تنوعها التسهيل . وقد يكون اساس التنوع ايضـا ؛ بسبب اختلاف القـراء فى قراءة القرآن من مصاحف الصحابة قبل ان يصلهم مصحف عثمان ، الذى كان خاليا من النقط والشكل ؛ حتى ان عثمان اطلق للنـاس القراءة على اي حرف ، اى لهجـة (٢) . وقـد اصبحت هـذه القراءات علمـا مدونا توضع فيه المصنفات ؛ التى ربمـا صحبها الرسم لاوضـاع الحروف ، واعتبرت المعرفة بهـا فرضا . كذلك تنـاول علمـاء كثيرون فى جميع ارجاء البلاد الاسلامية هذه القراءات بالشرح ، وابراز قواعدها واحكامها ؛ اذ كانت كل بـلد تاخـذ من القـراءات ما يلائم طبع اهلهـا ، مثل المذاهب تماما .

وقـد اختلف فى عدد القراءات ، فبعضهم جعلها سبع قراءات، وبعضهم جعلهـا خمسـا وعشرين قـراءة ؛ وان رجحت سـبع قراءات (٣) ، واصبح يعرف اصحابها باصـحاب القـراءات ؛ وهى لنافع من المدينـة ، وابن كثير من مكـة ، وابن عامر من الشام ، وابى عمر من البصرة ، وعاصم وحمزة والكسائى من الكوفة ، واعتبر نافـع اهمهم بسبب ان مالك مؤسس المذهب المالكى كان يقـرا على نافـع (٤) . وهـؤلاء ادوا القراءات موافقة لنص مصحف عثمان ؛ ولكل منهم رجال نقلوا عنهم . ومع ذلك ؛ فقـد اضيف اليهم ثلاثـة

---

(١) اسماعيل بن عمرو ، كتاب اللغات فى القرآن ، صححه صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ .

(٢) ابن ابي داوود ، كتاب المصـاحف ، تحقيق Jeffery ، ط . Leiden ، ١٩٣٧ ، ص ٣٦ .

(٣) ابو عمرو الدانى ، التيسير في القراءات السبع ، نشر Pretzl ط . استنبول ١٩٣٠ .

(٤) انظر ابن برى ، شرح المارغنى ، الدرر اللوامع فى اصل مقرا الامام نافع ، ١٢٣١ هـ .

واصبحوا عشرة (١) وهم : حفص وابو جعفر ويعقوب ؛ أما ما عـداهم فقد اعتبر شـــاذا (٢) .

اما القراءة بالألحان وهى ما تعرف ايضا بالتلاوة ، وهى التى يسير عليهـا معظـــم القــراء فى وقتنـــا ؛ فقـد اختلف فى وقت ظهورها ؛ فقيل انها بدات فى عهد النبى ، او ظهرت فى القـــرن الرابع الهجرى ؛ كما اختلفت المذاهب فى استجازتها ؛ فمالك لم يجز القراءة بالتلحين ، بينما اجازها الشافعى (٣) .

*

عـلم الحديث ، (٤) ونقصـــد به ما صدر عن النبى من قـــول او فعـل او تقـرير- بمعنى استحسانه شـيئا - وهو ما اصطلح على تسـميته ايضا بالسنة ، اى طريقة سلوكه « Usus » ، ولـــه حجيته مثـل القــرآن . وكان بعض الحـديث قـد كتب فى صحائف تعرف بصحائف الحديث ، وان حفظ اغلبـه فى صـــدور الصحابة والتابعين . وكان العـــرب يفضلون ان يبقى الحـديث محفوظا فى الصدور ؛ وان لا يجمع كالقرآن ، خوفا من التباس الحديث بالقرآن، ونقـلوا عن النبى احاديث تنهى عن كتـــابة اى شىء غير القرآن

---

(١) ابن الجزرى ، النشر فى القراءات العشر ، دمشق ١٣٤٥ هـ .

(٢) ابن خالويه ، مختصر فى شـــواذ القرآن من كتـــاب البديع ، تحقيق Bergsträsser ، مصر ١٩٣٤ . مثل قراءة الحسن البصرى وابن مسعود وابى بن كعب .

(٣) المقـــدمة ، ص ٣٣٧ .

(٤) عنه بصفة عامة مثلا : المقدمة ، ص ٣٤٩ وما بعدها ؛ حاجى خليفة ، ص ٤٢٢ وما بعدها ؛ صبحى الصـــالح ، علوم الحديث ومصطلحـه ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٥ ؛ انظر .

Etudes sur, : Coldziher ; Ency. (art Hadith) t2, p. 201 sqq.
la tradition islamique. Extraites du tome 11 des " Mudemmedanische Studien ", traduites par Léon Percher Paris, 1952.

منها (١) : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فلا حرج » .

وقد ظهرت محاولات فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب لتدوين الحديث ؛ ولكنه رفض ان يقوم بذلك ، وقال : « وانى والله لا البس كتاب الله بشىء (٢) » . ولما كتب بعض الناس عن ابي موسى الأشعرى ، اخذ ابو موسى ما كتبوه وغسله ، وقال لهم : « احفظوا عنا كما حفظنا » . وكان مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة قد اراد ان يدون الحديث بالحيلة ؛ فدعا المحدث المشهور ابا هريرة (٣) (ت ٥٧ او ٦٧٦/٥٨ ـ ٦٧٨) ، الذى كان يجلس للنبى ويلازمه ليستمع اليه بينما يذهب الناس الى عملهم ؛ بحيث انه لكثرة ما استمع اليه ينسب اليه خمسمائة وثلاثة آلاف حديث صحيح ؛ فاخفى مروان بجانبه احد الكتاب ، وطلب من ابى هريرة أن يحدثه ، ولكن ابا هريرة ادرك السبب ، فتوقف عن سرد الحديث .

وينسب الى عمر بن عبد العزيز انه هو الذى دون الحديث لأول مرة (٤) ؛ ومنذ ذلك الوقت اخذ فى تدوينه . وقد كان تدوين الحديث يعتمد على نقله من صدور الحفاظ ؛ فكان لابد من ايجاد طريقة لضبط صحته ،فلجأوا الى الاسناد او الأسانيد جمع سند ، بمعنى رفع القول الى قائله ، وهى التى اصبحت جزءا من الحديث ، وذلك بنقل متن الحديث من فلان عن فلان ، أو ما عبر عنه ايضا بالعنعنة . كذلك كان لابد من الارتحال للبحث عن

---

(١) صحيح مسلم ، ٨ ص ٢٢٩ ؛ احمد امين ، فجر الاسلام ، ط ١ ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ٣٥٠ .

(٢) انظر . احمد امين ، فجر ، ص ٢٦٥ . روى ذلك عن الزهرى .

(٣) عنه : اسد الغابة ، ط . مصر ١٢٨٥ هـ ، ٥ ص ٣١٥ ؛ ابو نعيم الاصبهانى ، حلية الاولياء ، ١ ص ٣٧٦ وما بعدها ؛ عجاج ، ابو هريرة ، راوية الاسلام ، اعلام العرب ٢٣ اكتوبر ١٩٦٣ ؛ انظر .

Ency. (art Abû Huraira) t1, p. 96.

كنى هكذا بهرة صغيرة كان يلعب بها صغيرا .

(٤) ابن سعد ، ص ٢٧٦ .

الحفاظ ، ولا سيما في الحجاز او في الامصار التى انتقل اليهـــا العرب ، والنقل عنهـــم بحضورهم ؛ وان استجيز بعد ذلك جمـــع الحديث دون مقابلة الشخص الذى ينقل عنـــه الحديث . وفوق ذلك ، ظهرت عـــدة طرق اخرى لضبط الحديث ، منها علم التاريخ (١) ، الذي اول ما ظهر كعـــلم مساعد يضبط تاريخ نقلة الحديث واحوالهم ووجـــودهم أيام النبى والصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وايضا علم الجـــرح والتعديل ، الذى يبحث فى انساب الرجـــال والحفاظ ودرجـــة اتصـــالها او انقطاعها وسلامتها .

ولقـــد ظهرت اصطلاحات عديدة تـــدل على مـــدى صـــحة الحديث ، لم تظهـــر دفعـــة واحـــدة ، وانما اتفق عليهـــا بالتدريج . فمنها بالنسبة لصحة الحديث بصفة عامـــة : الصحيح الذى ليس به علة اطلاقا ، والحسن اى ان اسناده ليس صحيحا تماما ، والضعيف الذى يمكن نقضه من داخـــله ومن اسناده ، والغريب او الشاذ اى فى داخـــله غرابة وشذوذ . ومنهـــا بالنسبة لقيمة الحديث ، مثل : مدرج اى يشتبك فيـــه قول النبى باحـــد اقـــوال النقلة كشرح له ، ومتروك اى لا قيمة له ، وموضوع اى مخترع . ومنها بالنســـبة لبعد الحديث عن النبى ، مثل : المرفوع الذى يصل الى النبى مباشرة ، والموقوف الذى يصل الى الصحابة ، والمقطوع الذى يصل الى التابعين فقط . ومنها بالنسبة للاسناد فى ذاته ، مثل : الممتد الذى نقله كثيرون ، والعـــالى اذا كان نقلته قلة الى حد ما ، والمرسل اذا اتصلت سلسلة اســـناده ، والمنقطع وهـــو العكس ، والمعضل وهو القليل فى نقلته ، اذ هم اثنـــان او اكثر ، والمبهم اذا نقـــل عن رواة مجهولين . ومنها ما هو بالنسبة لطريقـــة جمع الحديث ، مثل : المتواتر اى جمـــع بصحة من مصادر وطرق متعددة ، والمشهور الذى جمع من ثلاثـــة اشخاص على الاقل ، والعزيز الذى جمع من شخصين او من آحاد ، اى من شخص واحد . هذا بالاضافة الى ما عرف بالحديث القدسى (٢) ، وهو غير الحديث النبوى ؛ يشتمل على كلمات الله ، وليس له اسناد؛ نقـــله النبى عن طريق الالهام والرؤيـــة .

---

(١) السخاوى ، الاعلان بالتوبيخ ، دمشق ١٣٤٩ هـ ، ص ١٢٩ .

(٢) انظر ، بالتفصيل .
Ency of Isl (art Hadith Kudsi) 2ed, t3, p. 28 - 29.

ومن اشهر جامعى الحديث ستة وصلوا القمة فى جمعه ، فنذكر فى المقام الاول اثنين هما : محمد بن اسماعيل البخارى (١) (ت ٨٧٠/٢٥٦) ، وهو مشهود له بالاجتهاد فى جمع الحديث ، حتى سمى امام المحدثين ، لجمعه عددا كبيرا منه ، اذ جمع مائتين وتسعة آلاف حديث ، منها ثلاثة آلاف حديث متكررة ، وابو مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢) (ت ٨٧٥/٢٦١) ، الذى اظهر هو الآخر نشاطا كبيرا فى جمع الحديث ، وان حذف منه المتكرر . ثم نذكر الباقى وهم : ابن ماجه (٣)(ت٨٨٦/٢٧٣) ، وابا داوود (٤) (٨٨٨/٢٧٥) ، والترمذى (٥) (٨٩٢/٢٧٩ ـ ٣) ، والنسائى (٦) (ت ٩١٥/٣٠٣) . ولاهمية جمع هؤلاء الستة ؛ فقد عرفت مصنفاتهم عموما بالصحاح الستة ؛ وان خصص اسم الجامع الصحيحين على الاولين ؛ اما الاربعة الباقون ، فانه نظرا لاقتصارهم فى جمعهم على الاحاديث التى تمتد الى النبى وحده ، فان كتبهم عرفت باسم : السنن ، وفى هذه المصنفات جميعا ، وزعت الاحاديث على ابواب .

وبعد هؤلاء الستة الكبار ، ظهرت جماعة لم تهتم بجمع الحديث ، وانما بشرحه وتلخيصه والتعليق عليه ؛ مثل : البغوى (ت ١١١٦/٥١٠) : مصابيح السنة (٧) ، والنووى (ت ٦٧٦ / ١٢٧٧) شرح النووى على صحيح الامام مسلم (٨) ، والعسقلانى

---

(١) كتابه : الصحيح ، فى ٤ اجزاء القاهرة ١٨٦١/١٢٧٨ ؛ فى ٨ اجزاء ، ط . بولاق ١٢٩٦ هـ .

(٢) كتابه : الجامع الصحيح ، فى مجلدين ، بولاق ١٨٧٣/١٢٩٠ وفى ٨ اجزاء ، القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ هـ .

(٣) كتابه : السنن ، فى مجلدين ، القاهرة ١٨٩٥/١٣١٣ .

(٤) كتابه : السنن ، القاهرة ١٨٦٤/١٢٨١ .

(٥) كتابه السنن ، فى مجلدين ، بولاق ١٨٧٥/١٢٩٢ .

(٦) كتابه : السنن ، فى مجلدين ، القاهرة ١٨٩٤/١٣٢٢ .

(٧) ط . مصر ١٢٩٠ هـ .

(٨) فى ٥ مجلدات ، ١٢٨٣ هـ . وعلى هامش كتاب القسطلانى . انظر ، بعده . كان النووى ينوى كتابة شرحه فى مائة مجلد ، ولكنه اختصره هكذا .

(ت ١٤٤٩/٨٥٢) : فتــح البارى بشرح صـــحيح البخــارى (١) والعينى (ت ١٤٥١/٨٨٥) : عمـــدة القــــارىء فى شرح صحيح البخارى (٤) ، والسيوطى (ت ١٥٠٥/٩١١) : جمع الجوامــع او الجمع الصغير (٥) ، والقسطلانى (ت ١٥١٧/٩٢٣) : ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى (٤) .

واخيرا نلاحظ ان كلمــة شيعة وسنة ، لا تعنى ان الشيعة ليس لهــا احاديث ؛ فقــد روى اهل الشيعة احاديث كثيرة ، مثل تــلك التى عند السنة ، وهو ما عرف عنــدهم بالاخبار (٥) ، ردوها الى ائمتهم زيــادة فى الحيطة . ومن اشهر جامعى اخبار الشــيعة عن ائمتهم هــم : الكلينى (ت ٩٣٩/٣٢٨) ، والنعمــان بن حيــون (ت ٩٧٤/٣٦٣) ، والطــوسى (محمـــد بن الحسن) (ت ٤٦٠ ١٠٦٧) ، ونجم الدين المحقق (ت ١٢٧٧/٦٧٦) .

*

علم الفقــه (٦) : وهو العلم الذى يتنــاول القــرآن والحــديث بقصــد الفهم واستخراج الاحكام لمــا يعن للمسلمين من مشاكل دينهم « عبــادات » او دنياهم « معاملات » ؛ وهو بذلك يرادف التشريع ، ومن يقوم به يسمى فقيها جمعها فقهــاء . كذلك يسمى بعلم الفروع؛ لان علمــاء الدين فى الاسلام جــروا على تشبيه التشريع بشجرة لها اصول وفروع . ويقابل هــذا العلم عند اللاتين ــ وهم من الشعوب

(١) فى ١٣ جزءا ، مصر ١٩٢٩/١٣٤٨ ؛ ١٣٠١ هـ .

(٢) فى ١١ جزءا ؛ ط . القسطنطينية ١٣٠٩ ــ ١٨٩١/١٣١٠ ــ ١٨٩٣

(٣) بولاق ١٢٨٦ هـ .

(٤) فى ١٢ جزءا ، مصر ١٣٢٦ هـ ؛ وفى ١٠ اجزاء ، ط . بولاق ١٣٠٤هـ

(٥) انظر . قبله : النعمان ، دعائم ، ١ ص ٦٤ ؛ انظر . بعده .

(٦) المقدمة ، ص ٣٥٩ وما بعدها ؛ الشوكانى ، كتاب ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ص ٣ وما بعدها ؛ والغزالى ، كتاب المستصفى من علم الاصول ، بولاق ١٣٢٢ هـ ، ص ٤ وما بعدها ؛ والنسفى ، كشف الاسرار ، بولاق ١٣١٦ هـ ، ص ٦ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. (art Fikh) t2, p. 106 sqq .

التى اهتمت بالتشريع ـ كلمة « "Jurisprudentia" » ، بمعنى العلوم الالهية .

ولم يظهر الفقه كعلم فى اول الأمر لوجود الصحابة والتابعين، ولكن لما تعددت مشاكل الاسلام ، وبعد العهد بظهور الاسلام ، احتيج الى ضبط الشرع . وقد ظهرت عدة طرق فقهية ، وهى ليست فرقا ، وانما دراسات دينية ؛ لذلك اطلق عليها مذاهب ، وهى تسير فى دائرة الاسلام ؛ بحيث يمكن لاتباع احداها ان ينتقلوا الى اخرى . ونلاحظ ان بعض المذاهب الاسلامية لم يعمر طويلا بسبب أنها لم تجار التطور الدائم فى المجتمع ، او انها لم تترك مؤلفات تحتوى على اتجاهاتها ، مثل : الأوزاعية نسبة الى عبد الرحمن الأوزاعى (١) (ت ١٥٧/٧٧٤) ، التى ظهرت فى الشام والاندلس ، والثورية نسبة الى سفيان الثورى (٢) (ت ١٦١/ ٧٧٨) ، التى ظهرت فى الشام ، وبقيت الى القرن الخامس الهجرى فقط (٣) . كذلك اغلب الفقهاء اصحاب المذاهب لم يؤلفوا فى مذاهبهم ، وانما ما ورد عن مذاهبهم كان من تسجيل تلامذتهم ؛ وربما يكون السبب هو تحرجهم من ان فتواهم تقع فى غير موقعها ؛ فينقل عن احدهم ـ وهو ابن حنبل ـ قوله : « لا تقلدنى ولا مالكا ولا الشافعى ولا الثورى ، وخذ من حيث اخذوا (٤) » . ومع ذلك ؛ فيجب ان نذكر اربعة مذاهب سنية هامة ، تركت مؤلفات ، صار الفقهاء مقيدين بها ؛ لاجماع الأمة الاسلامية عليها ، والرضى بها .

اولا : مذهب ابى حنيفة (٥) (٨٠ ـ ١٥٠ / ٦٦٩ ـ ٧٦٧) ،

---

(١) عنه : وفيات ، ١ ص ٤٩٢ ـ ٣ ؛ انظر .
Ency. (art al—Awzā'ī) t1, p. 533.

(٢) عنه : وفيات ، ١ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ؛ انظر .
Ency. (art Sufyân al—Thawrī) t4, p. 523 sqq.

(٣) النجوم ، ٤ ص ٢٣٨ .

(٤) ابن القيم ، اعلام الموقعين ، ٣ ص ١ .

(٥) وفيات ، ٣ ص ٧٤ـ٨٠ ؛ انظر . ابو زهرة ، ابو حنيفة ، القاهرة ١٩٤٧
Ency. (art Abû Hanîfa) t1, p. 92-3.

الذى ولد فى العراق ، واعتمد على تحكيم الراى فى النص للحصول على حكم شرعى . وينسب الى ابى حنيفة نفســه الكتاب المسمى : مسـند الامام الأعظم او الفقــه الاكبر (١) ، كما لدينــا كتاب بدائع الصنائع فى فقــه ابى حنيفة لعــلاء الدين الكاشانى (٢) (ت ٥٨٧ / ١١٩١) ، وكتــاب شرح فتــح القــدير لابن همـــام الحنفى (٣) (ت ١٢٨٢/٦٨١) ، وكتــاب كنز الدقائــق فى فـــروع الحنيفية النسفى (٤) (ت ١٣١٠/٧١٠) .

ثانيا : مذهب مالك (٥) (٩٧ ـ ٧١٥/١٧٩ ـ ٧٩٥) ، الــذى ولــد فى الحجاز ، واعتمد فى استخراج الاحكام على ظاهر النص، فسمى اتباعه بالظاهرية ؛ لأنهمجعلوا احكامهم منحصرة فى النصوص بالاجماع ، وهو ما عــرف ايضــا بالمصالح المرســلة ، اى كل مصــلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع او تدرا ضررا ، ولا تعارض النص . ولمالك كتــاب فى الفقه اســمه « الموطا » ، وهو اقــدم ما الف فى الفقـــه ، ســمى (٦) هكذا لانــه صنفه بنــاء على امـــر الخليفـــة العباسى المنصـــور ووطاه للناس ، اى انه اوضــح الشرع لهم ، او لان فقهــاء المدينــة واطئــوه عليــه اى وافقــوه . وهــذا المذهب المالكى تلاءم مع عقلية اهل الحجاز والمغاربة والأندلسيين ، وبصفة عامــة مع سكان المناطق التى لم تكن اهل جدل ونظر . وقد ظهرت كتب كثيرة تناولت مذهب مالك بالشرح ، منها على الخصـــوص : « المدونة الكبرى » ، لسحنون بن سعيد (٧) (ت ٨٥٤/٢٤٠)،

---

(١) فى ٤ اجزاء ، ط . الهند .

(٢) ط . القاهرة ١٩١٠ .

(٣) فى ٨ اجزاء ، بولاق ١٣١٥ هـ .

(٤) شرح معين الدين المعروف بملامكين ، فى ٣ اجزاء ، ط . أولى ، القـــاهرة ١٢٨٧ هـ .

(٥) عنه : وفيات ، ٢ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ؛ انظر . Ency. (art Mālik b. Anas) t3, 218 sqq.

(٦) المقدمة ، ص ١٤ ، طبع فى : دلهى ١٢١٦ هـ ، ولاهور ١٢٨٩ هـ ، والقاهرة ١٢٨٠ هـ (فى ٤ اجزاء) .

(٧) عنه : وفيات ، ١ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤ ؛ الدباغ ، معالم الايمان فى طبقات

=

كما ظهرت للمذهب ملخصات ، مثل : « المختصر فى الفقـه على مذهب الامام مالك (١) » ، لخليل بن اسحق (القرن ١٤/٧) .

ثالثا : مذهب الشافعى (٢) (١٥٠ ـ ٧٦٧/٢٠٤ ـ ٨٢٠) .
وهـو صاحب مالك فى الحجـاز ، وارتحـل الى العراق ، وجمع بين الطريقتين الحجازية والعراقية ، اى بين ظاهر النص وطريقة الراى ؛ فتميز بمذهب خاص . ولقـد اعتبر الشافعى بحـق واضع علم اصول الفقـه اى طرقه ؛ اذ كان الفقهـاء قبـله يجتهـدون من غير أن تكون بين أيديهم حـدود مرسومة . فجـاء الشافعى فوضع الحـدود والرسوم ، وضبط القواعد والموازين ؛ بحيث قال الرازى الفيلسـوف عنه (٣) : « ان نسـبة الشـافعى الى علم الاصـول كنسبة ارسطو الى علم المنطق » . فظهرت عنده وعند اتباعه صنوف فى علم الفقـه (٤) ، منهـا : الاجتهـاد فى البحث بقصـد الحصـول على حكم شرعى بالاستنباط من النص ، والقياس وهو النقـد ، والاستحسان لوجهـة نظر قويـة ؛ والتقليد لما حـدث ، والنظر او النقد بالتعمق ، وخاصة الاجماع اى اتفاق راى جملة من المجتهدين؛

=

فقهاء القيروان ، تونس ١٣٢٠ ـ ٥ ، ٢ ص ٤٩ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. (art Sahnûn) t4, p. 66-67.

عن المدونة نفسها ، انظر طبعتها فى ١٦ جزءا ، مصر ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤ .

(١) طبع Paris فى ١٨٥٥/١٢٧٢ ، وترجمـه الى الفرنسية Seignette ، بعنوان : Code Musulman. Constantine, 1878

والى الطليانية Guidi ، بعنوان :
il Mukhtaçer. Hoepli. 2 Vols. Milano, 1919.

(٢) عنه : وفيات ، ٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٨ ؛ ابو زهرة ، الشافعى ، القاهرة ١٩٤٨ ؛ انظر .
; Ency. (art al -Shâfi'î) t4, p. 261-263
Wust : Imâm, Esch-Schafi'i. 3 Vols.Gottingen, 1870.

(٣) أبو زهرة فى كتابه : الشافعى ، ص ١٧٨ ؛ الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، ط ٢ ، ص ٨٦ .

(٤) الجرجانى ، كتاب التعريفات ، انظر .

فكان الاجماع « Consensus » ـ فى رأى المستشرقين ـ (١) أشبه بصــوت شعبى « Vox Populi » ، أو رأى حـــر Liberum Veto . ولدينـا من الشافعى عدة كتب ، منهـا : كتاب « الأم » جمع البلقينى (٢) (ت ١٤٠٣/٨٠٥) ، ورسالة (٣) نظمت فيها مسألة الرأى ، وكتاب : « الفقه الأكبر فى التوحيد » (٤) . كما لدينـا شروح مثل : الوجيز للغــزالى (٥) (ت ١١٢/٥٠٥) ، والأشباه والنظائر فى الفروع للسيوطى (٦) (ت ١٥٠٥/٩١١) .

رابعا : مذهب ابن حنبل (٧) (١٦٤ ـ ٧٨٠/٢٤١ ـ ٨٥٥) ، الذى ولـد فى بلاد المشرق ، ووجـد فى المذاهب السابقة ليونة ، رأى أن يكون الفقه على حسب « ظاهر » النص ، وكره الجـــدل والنقاش . وقد تلاءم مذهبه مع البيئــات الحديثـــة فى الاسلام ؛ فانتشر بين الأتراك ، ودخل فى مصر مع المماليك ، وفى آســـية الصغرى مع العثمانيين . ولدينا من أحمـد بن حنبل نفسه كتاب : « المسند (٨) » جمع فيـه من الأحاديث أربعين ألف حديث ، مرتبـة بحسب الرواة ؛ بحيث اعتبر أول من استن الرحـلة فى ســبيل جمعهـا . كما لدينا عن مذهبه شروح مثل : خصائص المغنى فى فقه الحنابلة للموفق (ت ١٢٢٣/٦٢٠) ، وشرحـه الكبير لابن قدامـة المقدسى (ت ١٢٨٣/٦٨٢) (٩) .

---

(١) انظر . Gardet : La Cité Musulmane. Vie Sociale et politique. Paris, 1954, p. 122-4 . عن الاجماع خاصة ، انظر . مقالة . Ency. (art Idjmâ ') t2, p. 475-6.

(٢) فى ٧ أجزاء القاهرة من ١٣٢١ ـ ١٩٠٣/١٣٢٥ ـ ٧ .

(٣) تحقيق القبانى ، ط ٢ ، مصر ١٣١٢ هـ .

(٤) طبعة الأزبكية ، على نفقة أحمد محمد .

(٥) فى جزءين ، مصر ١٣١٧ هـ .

(٦) مكة ٣٣١ هـ .

(٧) عنه : وفيات ، ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ ؛ انظر . أبو زهرة ، ابن حنبل ، القـــاهرة ١٩٤٧ .

(٨) فى ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد شاكر ، ط . دار المعارف ١٩٤٦ـ١٩٥١ .

(٩) فى ١٠ أجزاء ، ١٢٤٢ هـ وما بعدها .

واخيرا ، مذاهب الشيعة ، التى بلغ عددها حوالى ثلثمائة فرقة (١) ، اشتهرت منها : الامامية ـ الاثنا عشرية أو الجعفرية ـ والاسماعيلية . ويرى معظمها ان الفقه من اختصاص الامام وحده (٢) ، ولقبوه بالمجتهد المطلق بسبب ما غذاه الله من العلم اللدنى او ما عرف ايضا بالتاويل ، اما غيره من الفقهاء فهو مجتهد مقيد (٣) . معنى هذا أن المذاهب الشيعية فى مجموعها لا تختلف عن المذاهب السنية التى تقول بالاجتهاد ؛ وان جعل النصيب الاكبر منه للامام . وقد انتشرت المذاهب الشيعية فى المناطق التى كان لها تراث سابق فى الأخذ بمبدأ الحق الالهى المقدس مثل ايران ، التى اعتنقت ـ ولا تزال ـ مذهب الاثنا عشرية ؛ كما أن المذهب الاسماعيلى دخل مصر والشام والمغرب مع الفاطميين . ولدينا من كتبهم كتاب الفقه الاسماعيلى المشهور : دعائم الاسلام وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، عن اهل بيت رسول الله وعليهم افضل السلام ، للفقيه النعمان بن حيون (٤) (ت ٩٧٤/٣٦٣) ، الذى اشترك فى تاليفه الامام المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ ـ ٩٥٢/٣٦٥ ـ ٩٧٥) . كما لدينا من الفقه الامامى كتاب الكافى للكلينى (٥) (ت ٣٢٨/ ٩٣٩) ،وكتاب النهاية فى الفقه للطوسى (محمد بن الحسن ت ١٠٦٧/٧٦٠) ، وكتاب شريعة الاسلام فى مسائل الحلال والحرام ، لنجم الدين المحقق (٦) (ت ١٢٧٧/٦٧٦) ؛ وغيرها .

●

علم الكلام (٧) ، وهو يتناول العقائد الايمانية بالادلة

---

(١) الخطط ، ٤ ص ١٧٣ س ١٢ ، يقول ان المشهور منها عشرون فرقة .

(٢) تاج العقائد ، ص ٤٧ ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ١ ص ١٣٨-١٣٩ .

(٣) انظر . Sanhoury : Le Califat, p. 63.

(٤) انظر . تحقيق فيظى ، ط . القاهرة .

(٥) ط . طهران ، ١٢٨١ هـ .

(٦) عن هؤلاء ، انظر . Querry :

Droit musulman. Recueil de lois Concernant les Musulmans Schyites. 2 Vols. Paris, 1871.

وهو ترجمة فرنسة لشرائع الفرق الامامية .

(٧) المقدمة ، ص ٣٠٣ وما بعدها ؛ الاشعرى ، الابانة عن أصول الديانة ،

العقلية . ولم يظهر هذا العلم بظهور الاسلام ، ولكنه ظهر لما انتشر الاســلام بين الشــعوب المتحضرة . ولم يكن فى العهــد الاســلامى الاول من يجسر من العــرب المسلمين على الكلام فى العقائد ؛ ولكن الشعوب المتحضرة ، التى اسلمت عملت على التكلم فيها ؛ لانهــا رات ان العقــل فــوق النفس ، وآمنت بالتحرر من القيود بحكــم تحضرها . كذلك قــد يكون ظهــور هــذا العلم بسبب الهجوم على الاسلام ؛ حيث كثر النقاش حوله بين معتنقى الاديان الاخرى (١) ، فظهر للدفاع عن الاســلام ، والــرد على الاديان الاخرى . وهــو بذلك قــد سبق الاوربيين ، الذين اســتباحوا لانفسهم فى العصر الحديث فقــط الكلام فى العقــائد . يضاف الى ذلك ، ان علم الكلام سبق علم الفلسفة فى الاسلام (٢) ، الذى اشتق من فلسفة اليونان ، بل كان له اثره فى ان الفلسفة دارت هى الاخرى فى فلك عقــائد الاسلام . فظهور علم الكــلام الاســلامى هو اكبر انقلاب فكرى فى تاريخ العقيــدة بصفة عامة .

ولعل هــذا العلــم بسمى علم الكلام ؛ لان اهم مســالة وقع فيها الخلاف هي مسالة كلام الله ــ اى القرآن ــ او انها صفة لله او لذاته ، او لان موضــوعه كلامى صرف ، او لان المتكلمين تكلمــوا حيث كان الســلف يسكت عما تكلمــوا فيــه ، او لانه اشبه بالمنطق فى طــرق اســتدلاله . فكان هــذا العلم يتناول مسائل عقيدية دقيقة ، مثل : التوحيــد والاخــرة وحقائق الصفات الالهيــة والقــدر والخير والشر وحقيقــة النبــوة وخــلق القــرآن .

ط . حيدر آباد ١٣٢١ هـ/٣ ١٩ ، ص ٢٢ وما بعدها ؛ لسان ، ١٥ ص ٤٢٧ و ط بعدها ؛

: Ency (art Kalâm) t2, p. 712-717.

Die philosophischen, : Horten.

Systeme der Spekulativen Theologen im Islam. Bonn,1912.

(١) انظر . Islmstudien. Leipzig. 1924, p. 432-449. : Becker

(٢) انظر . Essai sur les Mo'tazélites. : Galland Paris, s. d.

وقد تكلمت فرق دينية كثيرة فى هذه المواضيع ، ويكفى ان نرجع الى كتب العقائد لنعرف أسماء هذه الفرق العديدة ، مثل : فرق الشيعة للنوبختى (١) (٣ هـ / ٩ م) ، والفرق بين الفرق للبغدادى (٢) (ت ١٠٣٧/٤٢٩) ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣) (ت ١٠٦٤/٤٥٦) ، والملل والنحل للشهرستانى (٤) (ت ١١٥٣/٥٤٨) ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازى (٥) (ت ١٢٠٩/٦٠٦) .

فمن اشهر الفرق المتكلمة : فرق الشيعة ولا سيما الفاطمية ، التى تكلمت فى طبيعة الله ووصفوه بالعقل الأول ، وفى الوحى ، وفى الرجعة ، وغير ذلك ، وسموا مثل هذا الكلام علم الحقائق (٦) ، لغوصه وراء المعرفة الدينية ، والمعتزلة التى نفت صفات الله وايدت خلق القرآن ، والمرجئة الذين تكلموا من العذاب وهونوا منه ، والقدرية التى تقول بحرية الارادة ، والجهمية التى تقول بالجبر ، وغير هذه الفرق فرق وطوائف دينية كثيرة تكلمت فى هذه المواضيع وغيرها ، مثل : اخوان الصفا والصوفية والحنابلة .

اما اشهر المتكلمين من السنة ، فهم : التسترى (ت ٢٨٣ / ٨٩٦) : المعارضات والرد على اهل الفرق (٧) ، والباقلانى (حوالى ٤٠٣ / ١٠٦٣) : اعجاز القرآن (٨) ، والرد على الملحدة

(١) صححه محمد صادق ، النجف ١٩٣٦/١٣٥٥ .

(٢) مصر ١٩١٠/١٣٢٨ .

(٣) فى ٥ اجزاء ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

(٤) تحقيق Cureton ، ط London ، ١٨٤٦ .

(٥) تحقيق النشار ، القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٦ .

(٦) الملل والنحل ، ص ١٤٢ .

(٧) هو مخطوط باستنبول ، انظر .

Ency. (art Sahl al — Tustarî) t4, p. 65

(٨) ط . القاهرة ١٣١٥ هـ . عن الباقلانى ، انظر ، وفيات ، ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ :

Ency (art al - Bâkillânî) t 1, p. 616.

والمعطلة والرافضة والمعتزلة (١) ، والأشعرى (ت ٩٣٥/٣٢٤) - امام المتكلمين (٢) - الابانة عن أصول الديانة (٣) ، ورسالة فى استحسان الخوض فى الكلام (٤) ، ومقالات الاسلاميين (٥) ، والغزالى (ت ١١١٢/٥٠٥) : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة (٦) ، والمنقذ من الضلال (٧) ومشكاة الأنوار (٨) ، والنسفى (ابو المعين ت ١١١٤/٨٠٥) : بحر الكلام (٩) ، والتفتازانى (١٢) (ت ١٣٨٩/٧٩١) : شرح عقائد النسفى (نجم الدين ت ١١٤٢/٥٣٧ - ٣) .

اما اشهر المتكلمين من الشيعة ، فهم : السجستانى (ت ٨٤٥/٢٣١) : اثبات النبوة (١١) ، وابو حاتم الرازى (ت ٩٣٥/٣٢٣) : اعلام النبوة (١٢) ، والقاضى النعمان بن حيون (ت ٩٧٤/٣٦٣) : المجالس والمسايرات (١٣) . وحميد الدين

---

(١) مخطوط فى باريس ، برقم ٦٠٦٠ .

(٢) عنه : وفيات ، ١ ص ٥٨٦ - ٥٨٧ ؛ انظر .
ency (art al - Ash'ari) t1 p. 487-488.

(٣) ط ، حيدر آباد ١٩٠٣/١٣٢١ .

(٤) ط ، حيدر آباد ١٣٢٣ هـ .

(٥) تحقيق Ritter ، استنبول ١٩٣٠م .

(٦) القاهرة ١٩٠١/١٣١٩ .

(٧) دمشق ١٩٣٤/١٣٤٣ .

(٨) القاهرة ١٣٢٢ هـ .

(٩) ط ، مصر ١٩١١/١٣٢٩ . عنه ، انظر .
القاهرة ، ١٣٢١ هـ . عن التفتازانى ، انظر .
Ency. (art al-Nsafi) t3., p. 905.

(١١) الكتاب نفسه ، نشره Cureton . اما كتاب التفتازانى ط ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ . عن التفتازانى ، انظر :
Ency. (art al-Taftâzânî) t4, p. 634 sqq.

(١١) معظم كتبه توجد فى مكاتب الشيعة الخاصة ، أنظر . حسين الهمدانى ، الصليحيون ، ص ٢٥٣ هامش (١) .

(١٢) نشر اجزاء منه على يد Kraus فى مجموعة :
Razinna 11. Orient. V

(١٣) ثلاثة مجلدات ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٦٠٦٠ . ولها طبعة حالية من تونس .

الكرمانى (ت ٤١١ / ١٠٢٠) ـ شيخ علماء الشيعة ـ : راحة العقل (١) ، وناصر خسرو (حوالى ١٠٥٢/٤٤٤) : خوان الاخوان (٢) ، والمؤيد فى الدين (ت ١٠٨٧/٤٧٠) : المجالس المؤيدية (٣) .

*

علم التصوف (٤) : ويعنى العكوف على العبادة ، والزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الدنيا ، وليس بمعنى الرهبنة ؛ والانقطاع عن الدنيا . وهى كلمة غير معروفة الأصل ؛ فهى اما مأخوذة من لباس الصوف الذى يتزيا به من يعكف على العبادة ـ لمخالفة من لبسوا الثياب الفاخرة ـ او من الصفاء وهو صفاء النفس ؛ او من الصف الاول من المؤمنين ، او من صفة مسجد النبى لأنه حوى الفقراء ، وربما يكون أصلها هنديا ، حيث ان الأفكار البوذية فى اليوجا ـ وهى السيطرة على النفس ـ قد دخلت الاسلام. ويقابل الصوفى لفظة فقير ، أو اخوان ، او حتى مجذوب اى وله بالله ، أو الكلمة الفارسية درويش اى فقير ، كما وجد اللفظ المغربى مرابط " Marabout " ؛ اى ان يعيش عيشة العكوف والزهد فى الرباط .

والتصوف بهذا المعنى كان معروفا عند اتقياء المسلمين من الصحابة والتابعين ، وحض القرآن عليه لما فيه من تقرب لله واطمئنان للنفس (٥) . ولكن اقبال الناس على الدنيا فى القرن

(١) تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٢) حققه يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٠ (ط . المعهد الفرنسى بالقاهرة) .

(٣) فى ٨ جزاء ، توجد فى مكاتب الشيعة الخاصة . الصليحيون ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٤) المقدمة ، ص ٣٧٠ وما بعدها ؛ وكتب التصوف ، انظر ، بعده الكاشى ، مصطلاحات الصوفية ، تحقيق Sprenger ؛ الخطط ، ٤ ص ١٧١ وما بعدها ؛

Ency. (art Tasawwuf) t4, p. 717 : (art Madjdhûb) t3, p. 99

(٥) القرآن : ٣ : ١٤ ؛

Essai sur les origines du, : Massignon
Mystique Musulmane. Paris, 1922.

؛ زكى مبارك ، التصوف الاسلامى ، القاهرة ١٩٣٨ .

الثانى الهجرى وما بعده ، جعل جماعة تحل مكان الصحابة والتابعين ، واصبحت لها طرق خاصة فى اخذها الحياة ، اطلق عليها التصوف ، ويقال لواحدهم متصوف او صوفى . كذلك ما لبثت هذه الطرق ان تطورت الى علم مدون ؛ عمل اناس كثيرون على الكتابة فيه .

وقد كان اساس التصوف البعد عن العالم الدنيوى بما فيه من منكوحات ومطعومات ، والتحكم فى النفس ، حتى تموت القوى الحسية . فقد كان الوجود فى رايهم خيالا وسرابا ؛ والهدف من الحياة هو تطهير النفس ومحاولة السمو بها شيئا فشيئا ؛ حتى تتشبه بالعالم الالهى . فمنهم من لا ياكل الا ما يمسك عليه رمقه ، ومنهم من يتزوجون او ان يتزوج فى الظاهر وهو ما عرف بالزواج الصوفى بان يطلق قبل الدخول ، أو أن بعضهم ياتى بافعال غريبة مثل حلق راسه ولحيته وحاجبيه ورموش عينيه ؛ حتى ينفر منه الناس ، ويتهيا له الابتعاد التام عن الماديات . وكان معظمهم يتبعون نظام المحاسبة على اعمالهم ؛ والغزالى يسمح باستخدام الجريدة ؛ بقصد المحاسبة وكتابة اعماله اليومية من حسنات وسيئات . كذلك كانوا عموما يلبسون الخرقة المعروفة بخرقة التصوف لأنها من الصوف ؛ دلالة الزهد ، كما يضعون على رءوسهم فوطة (عمامة) .

وقد كان سبيلهم الى ذلك فيما عبروا عنه « بالارتياض » ، او « الرياضة » او « المجاهدة » ـ اى اخذ النفس بشدة ـ ويكون ذلك على عدة مراحل « مقامات » ، اساسها صفات عالية من توبة وصبر وتوكل ورضاء ، وتزكية للنفس . كما ان بعضهم يرى ان الجنون بمعنى الحماس الفياض "Enthousiasmos" ، او طغيان الشعور على العقل ، هو اقصى ما يصل اليه الصوفى الوله بالله . فكان ذلك بقصد الاتحاد بالله او الحضرة الالهية (١) ، او ايضا «الفناء» فى الله ، او « البقاء » بالله ؛ بحيث لا يصبح هناك تمييز بين النفس والله ، وهو ما عبروا عنه بالوصول الى الحقيقة ، وهى صفات

(١) انظر . Ency. (art Hadra) t2, p. 220

(٢) انظر . Ibid. (art Hakika) t2, p. 237 - 8; 2ed, t3, p. 77 - 8

الله ، او الحق(١) ، وهو ذاته . وقد يؤدي بهم الوصول الى هذه الدرجة الى ما يعرف بالتجلى أو الكشف او كشف المحجوب ـ اى تجلى الذات على نفسه ـ مما قد يؤدى بالتالى الى الكرامات او الخوارق . وقد نعى المعتزلة على المتصوفة اتحاد المخلوق مع خالقه ـ الحلول ـ؛ مما يوجد للخالق صفة « تشبيح » .

وقد ظهرت لكل جماعة متصوفة طريقتها ـ جمعها طرق ـ فى ايجاد الهيام الصوفى ؛ منها طائفة كان يصبحها التفكير فى حجرة مظلمة ، وطائفة ترى التصوف بالتعذيب بان لا ينام افرادها الا نادرا ، وطائفة تقوم بانشاد الادوار والاحزاب وهى ادعية دينية ، تتخلل اغلبها عبارات ذكر الجلالة ، مثل : يا لطيف او الله ، بالقلب او باللسان ، وهو ما عرف بالذكر (٢) . وقد يصحبها التغنى بحب الله او الموسيقى او حركات للجسم مما يفضى بهم الى الرقص ، وهو ما عرف عندهم بالسماع . فبذلك دخلت الموسيقى العبادة الاسلامية ؛ كما هو الحال بالنسبة للمسيحية ؛ اما الرقص فكان عند قدماء المصريين ، او حتى عند البدائيين . ولا ندرى متى ادخل الصوفية الرقص المقدس ؛ وان سمعنا عنه فى مصر زمن الفاطميين ؛ فقد كانوا يرقصون والمجامر بالالوية موضوعة بين ايديهم والشموع الكثيرة . وقد كان العوام من كثرة رقص الصوفية يظنون ان مذهب الصوفية يقتصر على الرقص ، ويعيبون عليهم ذلك ؛ حتى انه صدر فى ايام المماليك قرار يعارض رقصهم (٣) . كذلك كانت للصوفية سبحة او سبحة (٤) ، وقد انتشرت بينهم قبل انتشارها بين عامة الناس؛ بقصد التسبيح او الدعوات .

---

(١) انظر . Ibid. (art Hakk) tI, P. 240; 2ed t3, P 84 - 85.

(٢) القرآن ٣٣ : ٢١ ؛ الخطط ، ٤ ص ٣٣٣ ، انظر ، Ency. (art Dhikr) tI, P. 983 - 4.

(٣) السخاوى ، التبر المسبوك ، بولاق ١٨٩٦ ، ص ٢٢٠ . وذلك فى سنة ٨٥٢/١٤٤٨ .

(٤) انظر . الترمذى، دعوات، باب ١١٣ ; Le rosaire dans, : Gold; L'Islam R. H. R. Vol XXI'295 suiv; Ency. (art Subha) t4, P. 515.

كذلك كان للتصوف الاسلامي شعر اشهره ما ورد في شعر المتصوفة الايرانيين والترك . فقد كانت الغزليات والخمريات احب المنظومات لشعراء الصوفية ، وهي تتناول احلام الصوفية من حب وخمر . فقد كان في رايهم ان عشق الله هو العشق الحقيقي ؛ بينما ان اى شيء آخر هو عشق المجاز . فكانوا يعبرون عن ذلك بمختلف المعانى ؛ حتى عرفوا باهل المعانى . وهذا تطور للعلاقة بين الله والانسان ؛ فلم تعد الخشية هى حبه الله ، وانما حبه لذات الله ؛ بقصد الوصول الى الانسان الكامل (١) ، الذى يجمع في نفسه الله والكون . وبسبب هذه الغزليات والخمريات وصف الصوفية بانهم قوم متهالكون على الشهوات الحسية واللذات العملية (٢) . لكنها تهم كاذبة تلقي دائما لرجال التقوى ؛ فان الالفاظ الغزلية والخمرية ما هي الا رموز للحب الالهى ؛ اذ كلامهم بالله ولله ومع الله . كذلك جاء الهجوم عليهم من المتزمتين مثل الحنابلة ، الذين كانوا ينعون عليهم التامل اكثر من العبادة .

وقد كان للمتصوفة اماكن للعزلة وطمانينة البال تشبه الاديرة ؛ عرفت باسماء اشهرها : المصاطب في عهد الفاطميين ، والتكايا والخوانق ـ او الخوانك ـ في عهد الايوبيين والمماليك ـ وهما كلمتان فارسيتان بمعنى مكان العكوف ـ أو حتى باسم الرباط والزوايا والصوامع . والفرق في اصل هذه التسميات هى على حسب المكان الذى توجد فيه ؛ فمثلا في المغرب غلب عليها اسم رباط ، ولا يوجد بها اسم خانقاه . وقد انتشرت اماكن الصوفية في كل مكان ابتداء من القرن الخامس الهجرى ؛ حتى انه كان في المغرب منها حوالى سبعمائة (٣) . وقد اصبح لمثل هذه

---

(١) ابن العربى ، فصوص ، فصل (١) ؛ انظر .
Ency. (art al - Insân al - Kâmil) t2, p. 542—3.

(٢) عبد الله الحبشى ، النزاع بين الصوفية والفقهاء ، رسالة ماجستير بالقاهرة ١٩٤١ .

(٣) المقدسى ، احسن التقاسيم (B.G.A. 1877) ، ص ٢٣٨ س ١٥ .

الاماكن نظام معمارى خاص (١) ؛ فهى تشتمل على الخلوات مفردها خلوة ، ويوجد بها الجامع ، والمطبخ ، والحمام ، ومكان برسم ضيافة الواردين . وربما كان فى بعض الخوانق فساد ؛ اذ لدينا ذكر وجود حمام للنساء فيها (٢) . كذلك اصبح لهذه الاماكن نظام متدرج خاص على حسب تقواهم ، على راسه شيخ يسمى : قطب أو شيخ الشيوخ أو شيخ السجادة دليل تقواه ، يأتى بعده المريدون والاخوان وغيرهم ؛ كما يوجد ايضا الخدم والقراء والجند . وقد كانت الدولتان الايوبية والمملوكية تهتمان بهذا النظام وتغدقان عليه ؛ فتصرف للمتصوفة فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا وحلوى وكسوة واردية ؛ وفى رمضان تبيض لهم القدور .

ومن الطرق الصوفية المشهورة (٣) ، نذكر : القادرية او الجيلانية او الكيلانية نسبة الى عبد القادر الجيلانى او الكيلانى (٤) (ت ٥٦٠/١١٦٦) ، والكيزانية نسبة الى ابن ثابت المصرى (٥) (ت ٥٦٢/١١٦٧) ، الذى كان يعمل الكوز ، وقد انتشرت فرقته فى مصر ، والرفاعية نسبة الى احمد الرفاعى (٦) (ت ٥٧٨/١١٨٣) ، والشاذلية نسبة الى على الشاذلى التونسى (٧)

---

(١) مثلا : الخطط ، ٤ ص ٢٨٥ ؛ السلوك ، ٢ ص ٢٦١ س ٩ – ١١ انظر . فرأى ، فى الثقافة الاسلامية ، جمع خلف الله ، ٣٥٦ وما بعدها .

(٢) الخطط ، ؛ ص ٢٨٦ ص ٣ . كذلك كان لبعض الصوفية نساء . ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ص ٧٦ .

(٣) انظر . Ency. (art TarîKa) t4 p. 700 — 705

(٤) الشطنوفى ، بهجة الاسرار ، القاهرة ١٣٠٤ هـ . انظر Ency. (art Kâdiriyâ) t2, p. 647 sqq.

(٥) النجوم ، ٥ ص ٣٦٧ – ٨ (يقول سنة ٥٦٠ هـ) ؛ وفيات ، ٢ ص ٣٩١ ؛ انظر . كامل حسين ، بين التشيع وادب الصوفية بمصر ، فصله من مجلة كلية الآداب ، الجزء الثانى ، المجلد ١٦ ، ديسمبر ١٩٥٤ ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٦) ابو الهدى الرفاعى ، تنوير الابصار ، القاهرة ١٣٠٦ هـ ؛ انظر Ency. (art al-Rifâ'î) t3. p. 1236 — 7. ;

(٧) عنه ، انظر . Ency. (al - Shâdhilî) t4, p. 256.
Ency. (art Shâdhilîya) t4, p. 256 — 9,

(ت ١٢٥٣/٦٥١) ، والمولوية او الجلالية اسمها الشاعر جلال الدين الرومى (١) (ت ١٢٧٣/٦٧٢) ، ويسميهم الاوربيون المتجولين او الراقصين او الدائرين ، والاحمدية نسبة الى احمد البدوى (٢) (ت ١٢٧٦/٦٧٥) ، والنقشبندية الذين ينتسبون الى بهاء الدين نقشبند (٣) (ت ٧٩١ / ١٣٨٩) ؛ او لانهم كانوا يضعون النقش في جسمهم ، او من النقش الابدى ؛ وغير هؤلاء كثيرون

ولدينا اعداد كبيرة من اسماء المتصوفة ، حتى ان احد المؤلفين المتقدمين جمع اسماءهم الى وقته فى عشر مجلدات(٤) . ومع ذلك نذكر منهم اشهرهم من اصحاب الاسماء اللامعة مثل : الحسن البصرى (٥) (ت ١١٠ / ٧٢٨) ، ورابعة العدوية (٦) (ت ١٨٥/٨٠١) ، وابو يزيد البسطامى (٧) (ت ٢٦١/٨٧٤) ،

---

(١) جلال الدين الرومى ، مناقب العارفين ، ترجمة Huart ، بعنوان :
Les Saints Derviches Tourneurs, Paris, 1918 — 22 ;
Ency. (art Mawlawly) t3, p. 479-481 ; (art Galâl al-Din) t1, p. 1033 — 4.

(٢) الخفاجى النفحات الاحمدية والجواهر الصمدانية ، القاهرة ١٣٢١ هـ انظر .
Ency. (art Ahmed al-Badawi) t1. p. 196 — 9.

(٣) عبد الماجد الخانى ، الحدائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية القاهرة ١٣٠٦ هـ ؛ انظر .
Ency. (art Nakshband) t3, p. 899 — 900.

(٤) أبو نعيم الاصبهانى (ت ٤٣٠ / ١٠٣٨) ، كتاب حلية الأولياء وطبقات الاصفياء ، تحقيق مصر ١٣٥١ / ١٩٣٢ وما بعدها .

(٥) وفيات ، ١ ص ٢٢٧ — ٢٢٩ ؛
Ency. (art al-Hasan) t2, p. 290.

(٦) نفسه ، ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٥ ؛ انظر .
Ibid (art Râbi'a) t3. p. 1165 — 7.

(٧) الرسالة القشيرية ، ط . مصر ١٣١٥ ، ص ١٤٠ .

والحـــلاج (١) (ت ٩٢٢/٣٠٩) ، وابن الفــــارض المصرى (٢) (ت ١٢٣٥/٦٣٢) ، وابن العربى (٣) (١٢٤٠/٦٨٣) ، وجلال الدين الرومى (٤) (ت ١٢٧٣/٦٧٢) ، وغيرهم .

كذلك عمـل اناس كثيرون على الكتابة فى عـلم التصوف ، واخـذ بيده شخصيات اسلامية كبرى ؛ ليس فقط من بين المتصوفة ، وانما ايضا علماء من كل لون ، ولا سيما من علماء الكلام والفلاسفة ، الذين كانوا يرون ان التصـــوف مذهب عقلى (٥) . فنذكر منهم : الحلاج (ت ٩٢٢/٣٠٩) : كتاب الطواسين (٦) ، والطوسى (ت ٣٧٨/ ٩٨٨) : اللمع فى التصوف (٧) ؛ والهجويرى (ت ١٠٧٢/٤٦٥) : كشف المحجـوب (٨) ، والقشيرى (ت ١٠٧٢/٤٦٥) : الرسالة القشيرية فى علم التصـــوف (٩) ، والغزالى (ت ١١٢/٥٠٥) : المنقـــذ

---

(١) وفيات ، ١ ص ٢٦١ ــ ٢٧١ ؛ انظر .
Ibid, (art al-Hallâdj) t2, 254-255.

(٢) له ديـــوان ، ط . مصر ١٢٨٩ هـ . عنه ، انظـــر . وفيات ، ٢ ص ٩٩ ــ ١٠٠ ؛
Ency (art 'Omar B 'Alî) t3, p. 1047 — 8.

(٣) له ديوان باسم : ترجمان الاشواق ، تحقيق وترجمة Nicholson ، ط . London ، ١٩١١ ، وله طبعة بولاق ١٢٧١ هـ ، وبومباى ١٩٨٠ . عن ابن العربى ، انظر .
Ency. (art Ibn al-'Arabî) t4, p. 383 — 4.

(٤) انظر . قبله .

(٥) مثلا ، انظر : عبد الحليم ، التصوف عند ابن سينا ، القـــاهرة . انظر : تاريخ الشعرانى ، ذيل لواقع الأنوار القدسية فى طبقات العلمـاء الصوفية ، مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٩٣ (تاريخ) .

(٦) تحقيق Massignon ، ط . Paris ، ١٩١٣ .

(٧) تحقيق وترجمة Nicholson ، ط . Leiden ، ١٩١٤ ؛ وحققه عبد الحليم وطه عبد الباقى ، القاهرة .

(٨) هو نص فارسى ، تحقيق Shukovcki ، ١٩٢٦ ، وترجمـــة Nicholson ، ١٩١١ .

(٩) ط . القاهرة ١٣١٥ هـ .
انظـر . Hartmann : Al-Kuschairî Darstellung des Sûfîmtus. Berlin, 1914.

من الضلال (١) ، والسهروردى (ت ١٢٣٤/٦٣٢ ـ ٥) : عوارف المعارف (٢) ، وابن العربى (ت ١٢٤٠/٦٣٨) : فصوص الحكم (٣) ، وغيرهم .

*

علم الأدب ، وهو ايضا من العلوم النقلية ؛ لأن العرب عرفوه قبل الاسلام ، واعتبر من العلوم المباحة لاستيحائه من القرآن . ولا نستطيع أن نتتبع بداية الأدب العربى ، حيث انه اقدم من النصوص التى وصلتنا ، بينما من الممكن تتبع بداية آداب اخرى كاللاتينية والفارسية . ومع أن المسلمين اخذوا من اليونان علوما كثيرة ؛ الا انهم لم ياخذوا شيئا هاما من ادبهم ، على الرغم من روعة الادب اليونانى ؛ كما ان الأدب العربى لم يتأثر بالطابع اليونانى ؛ وان اطلعوا على بعض الكتب الأدبية اليونانية مثل كتاب الشعر لأرسطو وسموه بوطيقا (٤) ، وان الالياذة والأوديسا ـ ملحمتى اليونان المعروفتين ـ قد ترجمتا الى العربية منذ وقت مبكر (٤) . وعلى العكس ؛ فان الادب العربى كان له أثره فى الآداب الأوربية، التى تفرعت من الأدبين اليونانى واللاتينى . ولا ريب ؛ فان الأدب يعبر عن روح الأمة ؛ فالأدب العربى هو كذلك من صميم الروح العربية والاسلامية .

---

(١) تحقيق عبد الحليم محمود ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٢) هو نص فارسى ، ترجمة انجليزية من Kashânî ، ط London ، ١٨٩١ . عن السهر وردى ، انظر . وفيات ، ١ ص ٥٣٥ ؛ ويوجد مطبوعا على هامش احياء للغزالى ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .

(٣) نشره وعلق عليه ابو العلا عفيفى ، القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ . ولأهمية هذا النص له شرح من عبد الغنى النابلسى بعنوان : شرح جواهر النصوص فى حل كلمات النصوص ، مطبعة الزمان ١٣٠٤ هـ .

(٤) ترجمة ابو بشر متى (٦٤٠/٣٢٨) ، حققه Margoliouth بل لدينا عنه شروحا من كبار المسلمين ، مثل شرح ابن رشد . انظر . Lasinio : Il commento medio di Averroes alla Poetica di Aristotele, 1872.

انظر ايضا : المقدمة ، ص ٤٨٢ . يذكر شعراء اليونان بمن فيهم هو ميروس

(٥) ترجمتا فى عهد المهدى العباسى ، انظر .

Islamic Culture, p. 11. : Fyzee .

واصل كلمة ادب مجهولة ؛ فضلا عن تطورها خــلال العصر الاسـلامى : بسبب ان العـرب غيرت حياتهـا باتصـالها بالبــلاد المفتوحة التى كانت لها آداب سابقة ، وبانتشار الاسـلام بين أهالى هـذه البلاد . فكان لكلمـة ادب فى اول عهـد الاسلام معنى دينى يدل على السنة ، ثم اصـبح يدل على الأسلوب فى اى عمـل ، ثم على الثقافة العامة والأخـذ من كل علم بطرف ؛ وان كان آخـر الأمر اقتصر ـ بصفة عامة ـ على الاجادة فى فنى النظم والنثر (١) .

*

فعـن النظـم ، ونقصد به الكلام الموزون على روى واحــد ، أى الحرف الأخير من القافية ، وهو الشعر (٢) . وكلمة شعر مأخوذة من شعر (٣) ، بمعنى علم او عرف ، او شعر بما لا يشـعر به غيره . ولقـدم الشعر عند العرب ، اعتبرمن اعظم معارفهم . ومنذ زمن بعيـد تطور عندهم ؛ ذلك لأن اللغـة العربية كانت مسـتعدة لمثـل هـذا التطور ؛ بما فيهـا من المتوارد والمترادف . وربما يكون الشعر العربى بـدا بالأمثـال ، ثم جعل المثـل شـطرين . وعلى العموم الشعر الذى وصلنـا من الجاهلية له قواعـده المشـدودة والموزونة ، ونظمـه العرب بانواعـه المختلفـة ، التى سميت فيمـا بعـد : بالرجـز والهزج والقريض والمقبوض والمبسوط (٤) . وكان العرب فى الجاهلية يعقـدون لشعرائهم الاسواق فى مواعيد محددة يجتمع فيهـا الفحول لالقـاء قصائدهم ، ومن ينبغ منهم تعـلق قصيدته باركان الكعبة (٥) ، وتسمى معلقة . وقد عرفنا اسـماء اخرى لقصائد فى الجاهلية غير المعلقات مثل : المجمهرات والمنتقيات والمذهبـات والملحمـات ؛ وان كنـا لا نستطيع أن نحـدد سـبب هـذه التسميات .

---

(١) المقدمة ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٢) نفسه ، ص ٤٧ وما بعدها ؛ الزينة ، ١ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) لسان ، ٦ ص ٧٧ وما بعدها ؛ انظر . جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ط ٢ ، ١٦ ص ٥١ ـ ٥٢ . تطورت هذه الكلمة في معناها ، فهى تعنى الكلام المقفى .

(٤) ابن هشام ، سيرة ، تحقيق Wust ، ١ ص ١٧١ .

(٥) المقـدمة ، ص ٤٨١ .

وكان الشاعر الجاهلي يستفتح قصيدته عادة باللوعة والبكاء على دار الاحبة واطلالها ورسومها شوقا الى السكان . وان لم يكن الشعر الجنسي من سمات الشعر العربي ؛ بل كان الشعر العربي على العكس مدرسة عالية تحوى مشاعر نبيلة . فلم يقف شعراء الجاهلية عند جمال المرأة الجسدى ، وانما فطنوا ايضا الى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة . وبعد ذلك ينتقل الشاعر الى الكلام عن جمال الطبيعة ؛ فيذكر الآبار والمراعي والنار التى مر بها ، وهو الذى عرف سر جمال باديته ، وحركت حيواناتها خياله ؛ بحيث كان بعضهم يعيب على العرب سكنى الحضر . ومع ذلك ؛ فقد خص الشاعر الجاهلى ناقته بالوصف المسهب ، حتى شبهها بالقصر ، وقوائمها بالاعمدة ، او بالسفينة، ويديها بيدى السابح . واخير يعرض الشاعر الى موضوع قصيدته حسب مزاج شاعريته ؛ وان كانت موضوعاته محددة تعبر عن بيئته ، وتدور على تمجيد حياة القبائل ومعاركها وكرائم اخلاقها .

ويختلف المؤرخون فى عدد موضوعات الشعر العربى القديم ؛ فبعضهم يقسمها الى تسعة او ستة ابواب ، منها : الفخر والمديح والهجاء والمراثي والوصف والنسيب والتشبيب . ونحن لا نستطيع ان نرتب موضوعات الشعر الجاهلى ترتيبا تاريخيا ؛ كما ان ظهورها قد يعلل باساس دينى ؛ اذ يربط القرآن بين الشعر والسحر . وعلى كل حال ابرز موضوعات الشعر فى الجاهلية هى : المفاخرة ، التى يقال لها ايضا المنافرة والمخاجلة ، ويقصد بها المباهاة والتمدح بالعصبية من نسب وحسب ـ اى خلال الآباء ـ التى تبين طبيعة العرب . وقد كانت المفاخرات تقع بحضور حكمين فى الغالب او طرف محترم ، ويقال لمثل هذه الايام يوم المفاخرة ويوم الفخار . وفى الكتب العربية امثلة كثيرة من المفاخرات التى وقعت فى الجاهلية بين شعراء القبائل ، وهى بالذات كانت تؤدى الى وقوع حروب وسفك دماء ؛ بحيث ان الاسلام كان قد حاربها بما نص عليه فى قوله : (والله لا يحب كل مختال فخور ٥٧ : ٢٣) .

ومن اهم الشعراء العرب الجاهلين : مهلهل ، وامرؤ القيس ابن حجر ، والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفه بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، وعامر بن الطفيل ، والاعشى ، ولبيد بن ربيعة ، وامية بن ابى الصلت ؛ كما عرفنا ايضا شاعرات ، مثل هند ، والخنساء .

ولكن مجىء الاسلام اوقف نهضة الشعر ، ذلك لأن هدف الشعر قبل الاسلام كان هو القبيلة كما ذكرنا ، وبخاصة تقاليدها من عصبية ، وهى التى جرت الى تفرقة العرب والحرب فيما بينهم . ولما كان الاسلام جاء ليوحد العرب ويقضى على تقاليدهم الشاذة كالعصبية ، لم يجد الشعر مع الاسلام نهضة فى اول الامر ، وخصوصا ان القرآن اتهم الشعراء بانهم يستوحون قصائدهم من الجن اعداء الله ، فنزلت آيات قرآنية بتهجين الشعر وتكذيبه منها : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له ٣٦ : ٦٦) ؛ (والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر انهم فى كل واد يهيمون ؛ وانهم يقولون مالا يفعلون ٢٦ : ٢٢٤) ؛ كما ان النبى كان يقول : « لست بشاعر » . ومع ذلك ؛ فان تفسير هذه العبارات الدينية الاسلامية المعادية للشعر والشعراء ؛ قد لا تعنى الا الشعراء المشركين وحدهم ؛ ولا سيما ان العرب كانوا يعتبرون الشعراء بمنزلة الانبياء فى الامم (١) ؛ كما لم يصل الينا ان النبى منع الشعر ، وعلى النقيض وصلنا قوله : « ان من الشعر لحكمة (٢) » ، وان الشعر « ديوان العرب (٣) » ، اى سجلهم . ومع هذا ؛ فانه من الغريب ان الشعر فى ايام الاسلام الاولى لم يتأثر بالدين ــ كما كان ينتظر ــ وانما معظم القصائد التى وصلتنا كانت فى مدح الرسول فقط . كذلك لا نعرف من شعراء عصر الاسلام الأول الا عددا قليلا ، معظمهم من المخضرمين اى

---

(١) الرازى ، الزينة ، ١ ص ٤٢ ، ٤٣ ــ ٤٤ .

(٢) نفسه ، ص ٤٨ ؛ ابن رشيق ، العمدة ، حققه عبد الحميد ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤ ، ص ١٣ .

(٣) المقدمة ، ص ٤٨١ ؛ القرشى ، كتاب جمهرة اشعار العرب ، بولاق ١٣٠٨ هـ ، ص ١٧ س ٢٥ .

الذين عاصروا الجاهلية والاسلام ، مثل : حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة ، والحطيئة .

ولكن في النصف الأول من العصر الأول الهجري حدث تطور في المجتمع الاسلامي الجديد ارجع دولة الشعر في مكة والمدينة ، مهدي الاسلام ؛ لان هاتين المدينتين قد اغتنتا بسبب الفتوح وما جلبته من الغنائم والثروة ، وبسبب كثرة الزوار للحجاج ؛ مما اوجدتا فيهما جيلا جديدا يرمي الى التنعم بالثروة ، وخصوصا ان الحروب اصبحت مشغلة اهل مدن الامصار في العراق والشام ؛ ثم لان العلوم لم تكن معروفة في ذلك العهد . وقد صحب التمتع بالحياة في هاتين المدينتين رجوع دولة الشعر ؛ وان ظهرت في شكل جديد يلائم المجتمع الجديد ؛ فاصبح من اهم مقاصده الغزل في النساء ؛ بحيث ان الغزل بعد ان كان في الجاهلية يشغل جزءا صغيرا من القصيدة ، خصصت له القصائد الطوال، وهو ما اصطلح على تسميته بالغزل العذري ، ويطلق عليه ايضا التشبيب او النسيب او الغزل ، وهو الغزل العف . ووجدنا من الشعراء في ذلك الوقت ، من برح به العشق الى درجة الموت به ؛ كما ظهر عند هؤلاء الشعراء مرض عرف بلوثة العشق (١) ؛ ولدينا كتاب اسمه : مصارع العشاق يتناول مصارعهم (٢) . ومن اشهر شعراء النسيب هؤلاء : عمر بن ابي ربيعة المخزومي ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، وقيس بن الملوح (٣) ، الذي عرف بالمجنون ؛ لانه فقد عقله بسبب العشق .

كذلك حدثت نهضة جديدة للشعر نتيجة لانتقال الخلافة من الحجاز الى الشام على يد معاوية بن ابي سفيان ؛ ولا سيما ان الخلفاء الامويين تولوا الخلافة بحد السيف ، ولم يعتمدوا في توليتها

---

(١) الاغاني ، ١٤ ص ١٦٨ س ٤ .

(٢) احمد بن السراج ، كتاب مصارع العشاق ، تحقيق نجاتي ومشالي القاهرة ١٩٥٦ .

(٣) الاغاني ، ١ ص ١٦٧ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. (art Madjnûn) t3, p. 99 —100.

على انهـم من الصحابة مثل الراشدين قبلهم ؛ لذلك شجعوا الشعراء ليدافعوا عن حقهم في الخلافة ، التى جعلوها وراثيـة فى اسرتهم ؛ بحيث نما ضرب من الشعـر السياسى . فمن قول معاوية : اجعلوا الشـعر اكبر همكم ، واكثر آدابكم (١) . وساعد ايضا على نهضـة الشعر فى عهـد الأمويين انتقـال الحجازيين الى الشـام نتيجـة لحركة الفتوح ؛ فعادت مقاصد الشـعر العربى القديمة . ومن اشـهر شعراء العصر الأموى هـؤلاء : الاخطل ، وجرير ، والفرزدق ، وذو الرمة ، وابن قيس الرقيات ، وليلى الأخيلية .

ولكن دولة الشعر العربي سرعان ما تغير طابعها بسقوط الخلافة الاموية ، التى اقتصرت فى حكمها على العنصر العربى ، ومجىء الخـلافة العباسية ، التى اعتمدت على شـعوب غير عربية ؛ فارسية ثم تركية ؛ ولذلك سميت هذه الخلافة اعجمية ، بينما الأموية سميت عربية (٢) . فترتب على ذلك تطور فى الشـــعر ومقاصده ؛ ليتلائم مع الشـعوب المسلمة ، التى كانت ازدادت معرفتها بسبب حركـة النقل والترجمة . كذلك اخـذ علمـاء مسلمون فى دراسة الشعر ـ وهو ما لم يحدث قبلا ـ فوضع الخليل بن احمـد (٣) (ت ١٧٠/ ٧٨٦) ، قواعد للشعر ، تعطى له موازين محددة تعرف بالبحور ، حصرها فى خمسة عشر بحـرا ، وان زاد عليهـا الاخفش الاوسـط (ت ٢١٥ أو ٨٣٠/٢٢١ أو ٨٣٦) بحـرا واحدا (٤) ، وهو مـا عرف ايضا بعـلم العروض . وهـذا لا يعنى أن الاوزان لم تكـن موجودة من قبل ؛ وانما امثال الخليل والاخفش حددوها ؛ وان كانوا ايضـا ربما زادوا فيها . وفوق ذلك جمع الشعر ودون ، بعـد ان كان يروى فقط ؛ فقد كانت العادة أن يصحب الشاعر راوية ؛ وان

---

(١) انظر . جرجى زيدان ، التمدن ، ٣ ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيـــان المغــرب ، تحقيق Colin و Lévi-Prov ، ط . Leiden ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ ؛ ٢ ص ٦٤ س ٤ .

(٣) الزينـــة ، ص ٢٧ ؛ المقدمة ، ص ٤٧٣ . عنه ، انظر . وفيـات ، ١ ، ص ٣٠٧ ـ ٣١٠ .

(٤) عنه ، انظر . نفسه ، ١ ص ٣٧١ .

كان كل راوية قد لا يكون شاعرا (١) . وينسب لحماد الراوية (٢) (ت ٧٧٢/١٥٥) ، انه اهم ناقل للشعر ، وقد عاصر آخر الخلفاء الامويين . وقد ظهرت اغراض الشعر لم يكن يخاض فيها من قبل الا عفوا ، مثل : الخمر ومجالس الانس والزندقة والتصوف ؛ دلالة على التحرر الفكرى . ومن اشهر شعراء العصر العباسي هؤلاء : بشار ، وابو العتاهية . وابو نواس ، والبحترى ، والمتنبى ، والمعرى . فمثلا ابو نواس ــ وهو شاعر هرون الرشيد ــ كان فى شعره يستخف بكل شىء « اللا ابالية » ، ويمجد الحياة والنساء والخمر ؛ اما المعرى فانه تكلم في لزومياته عن الحياة والموت بشكل لم يسبق من قبل .

فكان نمو القوميات بمجىء الخلافة العباسية سببا فى ظهور شعر اخذ طابعا محليا (٣) . ففى فارس ظهر شعر باللغة الفارسية ، وهى التى اصبحت لغة حضارية اسلامية تنافس العربية ؛ وان كان اثر كل منهما فى الاخرى يشبه اثر اللاتينية على الفرنسية . ونلاحظ أن الفرس ــ على حسب ملاحظة العرب ــ لم يكن لهم شعر قبل ذلك ، وانما كلام بين الشعر والنثر ، ودليلهم على ذلك ان الشاعر لا يوجد له اسم فى الفارسية . وقد امتاز الشعر الفارسى الاسلامى بالقصائد الطويلة ، التى لم يعرف لها مثيل من قبل فى الشعر العربى ، وتشبه ملاحم الشعر اليونانى القديم ؛ فتعرض لحياة الفرس وتاريخهم قبل الاسلام ، كما تتناول احلام الصوفية وغزلياتهم . ولقد اصطنعوا لهذا الشعر بحورا جديدة لم تعرف قبلا فى الشعر العربى ، كالمجتث والمضارع والمقتضب ، ولا سيما المثنوى (٤) ، الذى هو نسبة الى كلمة مثنى ، وشرطه ان يكون الشطران من روى واحد ، لا يلتزم فى بقية المنظوم . فنظم

---

(١) الاغانى ، ٧ ص ٧٨ .

(٢) وفيات ، ١ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٤ ؛ Ency. t2, p. 267.

(٣) الزينة ، ١ ص ٦٩ وما بعدها .

(٤) عنه ، انظر . Ency. (art Mathnawi) t3, p. 465 - 6 . ويسمى المزدوج ايضا . ولعله عربى الاصل ؛ فقد اشتهرت من قبل مزدوجة ابى العتاهية . انظر ، اسعاد ، فنون الشعر الفارسى ، ط ١ ، ١٩٧٥ .

شعراء الفرس المسلمون في هذه المثنويات شعرهم القصصي وملاحمهم المطـولة وشعرهم الصوفي ؛ ذلك لان هـذا النوع من المنظومات كان اطوع ما يكون للشاعر ، واعون له على امتداد النفس . وكان مما يلتزم به الشـاعر الفارسي المسـلم ان يذكر اسمه الشعرى في البيت الاخيـر ، وهـو ما عـرف بالتخلص " Nom de plume "
فنذكـر من شـعراء المثنويات المشهورين : الفردوسي (ت ٤١١ او ١٠٢١/٤١٦ أو ١٠٢٥) ، والخيام (ت ١١٣٢/٥٢٧) ، ونظامى (ت ١١٨١/٥٧٦) ، والعطـار (١٢٣٠/٦٢٧) ، والـرومى (١٢٧٣/٦٧٢) .

ولعـل اشـهرهم هـو الفردوسى ، الذى نظـم ما يعـرف بالشاهنامه (١) ، اى كتاب الملوك ، الذى يبدو انه اعتمـد فيـه على كتـاب قديم فى سير ملوك الفرس اسمه : خـداى نامه ؛ كان ابن المقفـع قـد ترجمه الى العربية ، بعد ان كان قد جمع نثرا فى لغتـه الاصلية الفهلوية ، كما اطلع على غيره . فتعرض الشـعراء لنظم هذه السـيرة ؛ بحيث جمع الفردوسى فى الشاهنامه اكثر من عشرين ومائة الف من المثنوى المنظوم ، اى اكثر مما قيل فى الالياذة والاوذيسـة مجتمعتين (٢) . فكانت الشاهنامه تشتمل على امجـاد اربـع دول فارسية قديمة ، اثنتان خرافيتان ماخوذتان من الاساطير الواردة فى الافستا ــ كتاب الفرس المقـدس ، او ما يسميه العرب الابسـتاق ــ والاثنتان الاخريان هما عن البارثيين والساسانيين من دول الفرس قبل الاسلام . فعلى عكس الملاحـم المعـروفة لا تـدور الشاهنامه على بطل واحـد او أسرة واحـدة ــ كما هو الحـال فى الملاحم اليونانية ــ وانما تتناول بالاولى تاريخ امة الفرس حتى العصر الاسلامى ؛ مما يجعلها لا نظير لها عند اية امة اخرى . وقد ترجمت

---

(١) نشر Mohl ، ط . Paris ، ١٨٣٠ ــ ١٨٧٨ ، ونشـر Macdonald : ط . كلكتا ، ١٨٢٩ . عن الفردوسى ؛ انظر . Ency. (art Firdawsî) t2, p. 116 - 7.

(٢) عن هذا القول ، انظر : Risler La civil. arabe, p. 90.

لشاهنامه للعربية نثرا منذ زمن مبكر على يد أبى الفتح البنداري(١) (حوالى ٦٢٠/١٢٢٣) ، وقد أصبحت مصدر الهام الكثير من شعراء الفـرس المتأخرين ٠

ونجد الشـعر فى الاندلس وفى بلاد اسلامية أخرى ، هـو الآخـر قد اخـذ شكلا خاصا ٠ فقـد ظهر فى الاندلس ما أطلق عليه فن الموشح (٢) ، ومن يقول به يسمى وشـاح ، وقصيدته تسمى بالموشحة جمعها موشحات ٠ وتتألف الموشحة من نحو ستة ابيـات تضم كل منهـا ثلاثة ابيـات متفقـة القوافى ، وتسمى الأسماط او الاقفـال ، وقوافى كل بيت تخالف قوافى البيت الآخـر وتسمى الاغصان ؛ فهى بذلك ليس لهـا وزن واحـد يلتزم به ، ولكن يصح التصرف فى حـدود ٠ ويطلق ابن خلدون اسماء (٣) اخـرى على فـن الموشح ظهرت فى المغرب وغيرها ، بعضـه لا يخرج فيه عن الاعـراب ، وبعضه لا يلتزم الاعراب ٠ كذلك ظهـر فى الاندلس والمغرب وغيرهما الزجـل او الشعر الزجلى (٤) ، ويكون بلغـة دارجـة ، وذلك بتكرار القافية ، دون الالتزام بالاعراب ، وهـذا يتناسب مع حالة المسلمين الجديدة ، وربما يكون ظهوره لضرورته فى الغنـاء ٠ كذلك ظهـر فى المشرق وبخاصـة فى مصر الموال – جمعها المواويل ، وايضـا المواليات بتسمية ابن خلدون – ليعنى

---

(١) أكمل هذه الترجمة فى مواضع وصححها عبد الوهاب عزام ، ط ١ فى جزءين ، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣٢ ٠ ولها ترجمات أوربية كثيرة منها : الترجمة الفرنسية من Mohl بعنوان :

Le livre des rois. 7 Vols. Paris, 1876 —8.

(٢) المقدمة ، ص ٤٩١ وما بعدها : انظر ٠

Ency. (art Muwashshah) t3, p. 849 — 851.

اول من قاله ابن خفاجة من الاندلس (٨٣/٤٠م) ٠

(٣) المقدمـة ، ص ٥٠٢ – ٥٠٥ ٠ منهـا عروض البلد والمزدوج والكارى والملعبـة ٠

(٤) نفسه ، ص ٤٩٧ ٠ أشهر من قال فيه ابن قزمان امام الزجالين ، وهو قرطبى الدار ٠ المغرب فى حلى المغرب ، ١ ص ١٦٧ ٠

هو الآخر اغنية ، وهو شعر مبسط ، كان يختم بكلمة « واموالياه » (١) .

والواقع ان نمو القوميات وانقسام وحدة المسلمين ، لم تقلل من قيمة الشعراء ودورهم فى المجتمع العربى . ونجد انه بعد ان كان الشعراء يعيشون على الهبات فقط ، اصبحوا موظفين يتناولون مرتبات ثابتة . ففي الدولة الفاطمية مثلا كان الشعراء يكونون طبقة متميزة فى قصر الخليفة الفاطمى (٢) . كذلك كان لهم فى الدولة العباسية زى خاص ، يجعله الجاحظ نسيجا مطرزا بالحرير وعباءة سوداء او اى رداء آخر يلفت النظر (٣) ، كما ان بعضهم كان يتلقب باسماء الطيور . كذلك كان لهم يوم خاص من كل اسبوع يدخلون فيه على الخلفاء . وكان من التقليد السائد انه يجبعلى الامير أن يمنح العطايا والهبات للشعراء . ومع أن الشعراء كانوا فى الجاهلية بمنزلة الانبياء فى الامم كما ذكرنا ؛ الا انه بسبب استعمال الملق ؛ قلت قيمتهم ، واستهان بهم النـاس (٤) .

*

اما عن النثر ، فهو الكلام غير الموزون ، واعتبر ايضا من علوم العرب قبل الاسلام . وقد جاء الاسلام بأول كتاب معجز هو القرآن ، فيه خصائص نثرية ؛ مما مهد لنهضة النثر عند العرب .

ونحن نعرف ان العرب كانت عندهم ملكة الخطابة ، وهى غير ملكة الشعر . وقد بقيت الخطبة اسلامية ، وجمعت فى شكل

---

(١) المقدمة ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ؛ انظر .
Ency. (art Mawwâl) t2, p. 476 — 7.

(٢) صبح ، ٣ ص ٢٩٧ ؛ عمارة « ديوان » ، Derenbourg ، تحقيق ، ص ٨٦ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٣ ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٣٣٢ ، ٣ ص ٦٠ .

(٤) انظر ملاحظة ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٨٢ .

خطب الخلفـاء وكبار القوم والقواد ، وبخاصة خطباء الجوامع ، لذين اشهرهم على الاطلاق ابن نباتة (١) (ت ٣٧٤/٩٨٤) .

ومع ذلك ؛ فان النثر كعلم ـ وهو ما عبر عنـه بالنثر الفنى ـ لم يظهر الا بعد تعريب الدواوين فى عهـد الامويين ، حيث ارتبط ارتباطا شديدا بديوان الانشـاء وكتابة الرسـائل ، واعتبرت هــذه الاخيرة ذات اهميـــة كبرى كالوثائق بالنسبة للمؤرخين ، وان كتابتها قد وجـدت منذ زمن النبى (٢) . ومع ذلك ، فان نهضـــة النثر تحـددت بظهور كاتب معين من كتاب ديوان الانشاء هو عبد الحميد الكاتب (٣) (ت ١٣٢/٧٤٩) ، فى اواخـر عهـد الامويين ، الذى وضع اسس الكتـابة الفنيـة ، وترك مجموعة منها ، وبلغ الاعجاب بـه حـدا قيل فيه ان الكتابة بدئت بعبد الحميد . وقد بلغت الكتابة الديوانية اوجهـا فى القرن الرابع الهجرى ـ وهـو العصر الذهبى للكتـــابة الديوانية ـ على يدا ابن العميد (٤) (ت ٣٦٠/٩٧١) ، وقيل ختمت الكتابة بابن العميد . ويظهر الاهتمام بالكتابة الديوانية ؛ مما الفـه عنهـا المؤلفون فى قواعـدها مثل : ادب الكـــاتب لابن قتيبـة ، وادب الكتاب للصـــولى ، وكتاب الكتاب لابن درستوية ، وصبح الاعشى فى صناعة الانشاء للقلقشندى .

كذلك نشـط النثر عند المسـلمين نتيجـة لتحـول الشـعوب المفتـوحة الى الاسلام ، واتقانهـا اللغـة العربيـة ، وقيـام حركة الترجمة ، التى ظهر اثرها فى ترجمة الآثار الادبية الهامـة ، على

---

(١) عنه : وفيات ، ١ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩ ؛ انظر .
Ency. (art Khatib) t2, p. 979-981.

(٢) مثلا ، انظر . مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، جمعها حميد الله الحيدر آبادى ، القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) عنه : وفيـــات ، ١ ص ٥٥٠ ـ ٥٥٢ ؛ المقـــدمة ، ص ١٩٦ س ٣ وما بعدها ؛ الجهشارى ، ص ٧٢ وما بعدها .

(٤) عنه ، انظر : وفيات ، ٢ ص ٤٦٣ ـ ٤٧٠ .

الخصوص كتابين : احدهما : كليلة ودمنة ، والآخر الف ليلة وليلة . فالاول (١) ، ترجمة لخرافات هنــدية ـ بانكاكنترا Pankatantra ـ جاءت على لسـان حيوانات تنطـــق ، الفهـا بالسنسكريتية المسمى بيدبا الهندى حوالى سنة ٣٠٠ ب.م ـ فى قشمير ـ او كشمير ـ ، ثم ترجمها الى الفهلوية المسمى برزويه ـ طبيب كسرى انو شروان ـ بعد الزيادة فيها ، ثم ترجمت الى السريانية ، ثم ترجمها عبد الله ابن المقفع (ت ٧٥٧/١٤٠) الى العربية . اما الكتاب الثانى (٢) . فقــد ظهر فى القــرن الرابع الهجرى كترجمة لكتاب فارسى قديم اســمه هزار افسـانه ـ اى الألف خرافة ؛ حيث المترجم غير معروف ، وهــو يشتمل على قصص قديمــة ، فارسية وهندية ، ثم اضيفت له قصص اخــرى عراقية ومصرية ، منذ ايام هرون الرشيد ، ولا سيما من ايام المماليك . وقد قلده الجهشيارى (ت ٩٤٢/٣٣١) ؛ فالف اكثر من اربعمائة سمر ، وقد كان يريد ان يكملها الى الف .

وقــد ظهر اثر هــذه النهضة فيما ظهر من فنون فى النثر ؛ فى شـكل حكايات او قصص او مقامات ؛ وان لم تصل الى حــد الرواية "Roman" ، فهى ليست تراجيــديا او كوميــــديا . والواقــع ان الفرق بين التعابير الثلاثة غير محــدد ، وكل منهــا قد عرف حتى قبل الاسلام ؛ فيما عــدا المقامات التى عرفت بعد ظهور الاســلام .

---

(١) عنه ، انظر . ابن صاعد ، ص ١٤ ؛ له عدة طبعات . عن ذلك ايضا . مقالات شيقة : عبد النعيم ، كليلة ودمنة بين الفارسية والعربية ، حوليات كليــة الآداب ، سنة ١٩٥٩ ، ص ١ وما بعدها ؛

; Ency. (art Kalila wa Dimna) t2. p. 737 — 741.

Les versions persanes des contes d'animaux. : Massé L'ame de l'Iran. p. 129 sqq.

ظهرت أول ترجمة له فى أوربا ، فى القرن الثـــالث عشر الميــلادى ، بالاسبانية ، لالفونسو الحكيم ، ثم ترجم بعد ذلك الى اربعين لغة . انظر . : Risler Op. Cit., p. 82.

(٢) له عــدة طبعات وترجمات أولهــا فى باريس عام ١٧٠٤ م . عن ذلك ، انظـر .

Ency. (art Alf Laila wa Laila) t1, p. 255 sqq.

فالحكايات (١) مفردها حكاية ، ومن يقـــوم بهـــا يسمى حكواتى او حكويتى ، وهى اشبه بالخرافات ، وليس لهـــا وجـــود حقيقى ؛ ولعـــل اشهرها هى ما اندمجت فى كتـــاب الف ليلة وليلة ، مثـــل : الأميرة ذات الهمة ، وفيروز شـــاه ، وعلى الزيبق ، واحمـــد الدنف ، وبدر نار ، وقمر الزمان ، وسندباد ، ولا سيما نوادر جحا التى تبدو فارسية الاصل (٢) . والقصص (٣) مفردها قصـــة او اقصوصة ، ومن يقـــوم بهـــا يسمى قاص ؛ وهى الجملة من الكلام التى تتبـــع امرا مستمرا ، فيـــه عنصر الحركة والمفاجاة . وقـــد اصبح هنـــاك عند المسلمين نوعان من القصص (٤) : نوع يعرف بقصص الخاصة ، الذى يلقى فى المســـاجد او القصـــور ، ونـــوع من القصص الشـــعبى المثـــالى "Folklore" ـ اى قصص العامة ـ يتغنى بـــه فى السوق والمقـــاهى ، ويشمل الابطال والحب ، كما ان بعضـــه قديم قبـــل الاسلام . وقـــد اظهرت الطبقة الارستقراطية او الحاكمة كراهيـــة لهـــذا القصص الاخير ، ربما خوفا من فتح اذهان العامة . ولعل اشهر ما قيل فى ذلك قصص عنتر او عنترة ، احـــد الفرسان السود لقبيلة عبس ، وسيف بن ذى يزن من ابطـــال اليمن ، وابى زيـــد الهلالى من ابطال عرب المغـــرب ، والظاهر بيبرس سلطان مصر ، وبطـــل الحروب الصليبية والمغولية . اما المقـــامات (٥) ، ومفردها مقامـــة ـ فتعنى قديمـــا المجلس او النـــدوة ـ فهى احدث ما ظهـــر فى فن النثر ، وذلك فى القـــرن الرابـــع الهجـــرى ، تتنـــاول كلاما متصـــلا بقصـــد الموعظة ؛ فيبـــدى الكاتب رأيـــه فى شـــكل قصص

---

(١) عن هذه الكلمة ، انظر . لسان العرب ، ١٨ ص ٢٠٧ وما بعدهـــا ؛
Ency. (art Hikâye) t2, p. 321 sqq; 2ed t3, p. 379 sqq.

(٢) الفهرست ، ص ٣١٣ .

(٣) لسان ، ٨ ص ٣٤١ ؛ انظر .
Ency. (art Kissa) t2, p. 1101 sqq.

(٤) الخطط ، ٤ ص ١٧ .

(٥) انظر المقالة الشيقة :
Ency. (art Makâma) t3, p. 170 — 173.

متفرقة تـدور حول اشـــخاص اذكيـاء ، وان لم يكن لها عقـدة الرواية ، ومع ذلك فهى فى اسلوبها قريبة من الاسلوب التمثيلى (١) ولعـل أول من ابـدع فى هـذا الفن هو بديع الزمان الهمذانى (ت ١٠٠٧/٣٩٨) ، الذى املى اربعمائة مقـامة (٢) ، تـدور حـــول بطلين احدهما عيسى بن هشـام ، وثانيهما ابو الفتح الاسكندرانى . ثم ابن ناقية (ت ١٠٩٣/٤٨٥) ، الذى نسج على منـوال الهمذانى : وان لم يتبق من مقاماته غير تسـع مقامات مخطوطة ، لم يلق عليها الضوء بعـد (٣) . واخيرا الحريرى (ت ١١١٢/٥١٦) ، الـذى تناولت مقاماته مغامرات ابى زيد السروجى والحارث بن همـــام وكلاهما رجل واسـع الذكاء (٤) .

ويجب ان نشير الى الامثال ، التى احبها العرب منذ قبـــل الاسـلام ، كما اشتمل الشعر على اقوال الحكماء . والامثال جمـل قصيرة ، تكون فى نثر غالبـا ؛ تتناول امورا متعددة لاسيما خلقية ، حتى انها تعتبر فلسفة الشـعب . وقد جمعت مجموعات هائلة من الامثال العربية ؛ مما لا يعرف لهـا مثيل من قبل او من بعد عنـد امـة اخـرى . ومن اشهر الجامعين : الميدانى (٥) ، (ت ١١٢٤/٥١٨) فى : مجمـع الامثال (٦) ، الذى جمـع فيـه نيفـا وســتة الاف مثل ، مرتبة على حروف المعجم ، تمتد من عصر الجاهليـة وعهـد النبى والخلفاء الراشدين ، وابو هلال حسن العسكرى (ت

---

(١) انظر . Browne : A Literary Story of Arabs. London, 1923 P. 328 — 9 .

(٢) ط . بيروت ؛ عن الهمذانى ، انظر . وفيات ١ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) وهى توجد فى مخطوط باستنبول برقم ٤٠٩٧ ؛ انظر . Ency. t3, p. 171.

(٤) ط . مصر ١٣٠٦ هـ ؛ ونشرها Silvester de Sacy ، فى Paris ١٨٢٢ ؛ كما نشرها Daremberg و Reinand ، فى Paris ، ١٨٤٧ ـ ١٨٥٣ . عن الحريرى ، انظر . ياقوت ، معجم الادباء ، ط . Margoliouth ، ٦ ص ١٦٧ ـ ١٨٥ ؛ Ency. (art al-Hariri) t2, p. 284 — 5.

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، تحقيق . احمد رفاعى ، ٥ ص ٤٥ ـ ٥

(٦) ط . القاهرة ١٣١٠ هـ .

٣٩٥/١٠٠٤ ـ ٥) فى : جمهرة الأمثال (١) ، والزمخشرى (ت ٥٣٨/١١٤٣) فى : نوابغ الكلم (٢) .

ومن ناحيـة اخرى تطورت اساليب النثر العربى ، فظهر فيه السجع (٣) ، وهو نوع من النثر الوثنى او لغة الكهان ، وهو ذوق فى الكتابة يميل الى التوازى والتوازن (٤) ؛ فقد اصبح الذوق فى ذلك الوقت يميل الى البهرجة والفخفخة فى كل شىء حتى فى الادب . ولعل هذا الاسلوب يظهر على الخصوص فى اسلوب الجاحظ (ت ٢٥٠/٨٦٩) ـ وهو الرائد الاول لفن النثر العربى الجديد ـ وان بلغ غايته فى اسلوب المقامات ، بل اصبح فى كل شىء فى الكتابات الديوانية وخطب الجمعة . وهذا الاسلوب اصبح اقصى ما تصل اليه المقدرة الكتابية .

* * *

علم التاريخ الاسلامى ، هو ايضا من العلوم النقلية ، بسبب اتصاله الاول بعلم الحديث (٥) . ومن المحقق ان العرب فى جاهليتهم واوائل الاسلام لم يقوموا بتدوين التاريخ ؛ وانما كانوا يحفظونه فى ذاكرتهم ؛ ولم يكن ذلك لانهم كانوا يجهلون الكتابة ؛ ولكن لتحبيذهم الحفظ على الكتابة (٦) ؛ فهذه الاخيرة لم تكن وقتذاك لتعطى صاحبها تفوقا فى المجتمع اكثر مما تعطيه ملكة الحفظ . فكان تاريخ العرب الاول ، وهو عبارة عن : وقائع وايام وغزوات محفوظا فى الذاكرة يرددونه على السنتهم ، واعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة ، التى ليس فيها تعقيد .

(١) يوجد على هامش الطبعة السابقة .

(٢) انظر دراسة لها على يد J.A. 7me Série tVI. : de Meynard

(٣) الجاحظ ، البيان ، القاهرة ١٢٣٢ ، ١ ص ١٥٦ ؛ انظر . Ency. (art Sadj') t4. p. 45 - 6.

(٤) انظر . ديمومبين ، النظم الاسلامية ، ترجمة عربية ، ص ٢٦١ .

(٥) انظر . قبـله .

(٦) كشف الظنون ، ١ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

ولكن بعد أن ابتعد العرب عن بيئتهم وتفرقوا فى الأرض للفتح والغزو بين شعوب لا تتكلم لغتهم ، ضعفت ملكة الحفظ عندهم وظهرت حاجتهم الى التدوين . ففى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى ، كان العرب فى حاجة ملحة الى ضبط ونقل أحاديث النبى والسير والاحوال ؛ ليصلح الناس فى أمور دينهم ؛ وكان هذا بداية تدوين التاريخ الاسلامى . وان كان التدوين فى التاريخ لم ينتشر الا حينما أقبل أهل البلاد المفتوحة على الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العربية ؛ حيث كانت حضاراتهم السابقة تساعدهم على تذوق التاريخ . فكان معظم المؤرخين الأوائل فى الاسلام هم المستعربون من العجم ؛ لأن العرب - فى أول الأمر - كانت تلحقهم أنفة من انتحال العلم ، لكونه من جملة الصنائع (١) ، كما ذكرنا .

وقد كان أول ما دون فى التاريخ الاسلامى - بطبيعة الحال - يعتمد على الذاكرة الانسانية ، لبعد التدوين عن أخبار الجاهلية والعصر الاسلامى الأول . وان من يقرأ ما دون من الذاكرة العربية يتجلى له أن أغلب التاريخ العربى الأول مستمد من السماع والمشاهدة . ولهذا لجأ المؤرخون الأوائل الى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم ، وهو ما عرف « بالأسانيد (٢) » ، جمع « سند » ، بمعنى رفع القول الى قائله . فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ ؛ وهى طريقة للاجماع على صحة الخبر . وهذه الطريقة عينها فى التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية ، ليطمئن جامعو الأحاديث الى اتصال الأحاديث بالرسول (٣) ؛ مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث فى أوائل تدوينه (٤) ، بل ان التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث فى سلسلة من الاسناد الموثوق بهم (٥) . ومن ناحية أخرى ، اعتبر التاريخ نفسه من

(١) نفسه ، ١ ص ٣٢ ؛ المقدمة ، ص ٢٤ ، ٤٥١ - ٤٥٣ .
(٢) المقدمة ، ص ٤٥٢ س ١١ .
(٣) كشف الظنون ، ١ ص ٤٢٢ .
(٤) نفسه ، ١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ .
(٥) مسلم ، صحيح القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٣١ ، ١ ص ٢٤ .

وسائل الحديث فى « الجرح والتعديل (١) » ، بالكشف عن اقوال رواة الحديث والتمييز بين اهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب والاختراع فى الحديث . ويبين المؤرخ السخاوى (ت ٩٠٢/ ١٤٩٧) هذه الصلة بين التاريخ والحديث فى قوله : انه لم يستعن على الكذابين فى الحديث بمثل التاريخ (٢) .

ولكن بعد انتشار التدوين وتمكن التاريخ فى النفوس ، لم تعد الرواية المسندة ــ التى اعتبرت فى اول الأمر من الدين (٣) ــ تكفى فى نقل الحقيقة التاريخية (٤) ؛ لانهما لم تكن تحمل من الحقيقة الا مداها ، دون أن تحيط بظروفها لضعف طاقة الذاكرة الانسانية . وعلى هذا تحول المؤرخ الاسلامى من مجرد « اخبارى » ــ كما كان يطلق عليه فى اول الامر (٥) ــ غرضه استيعاب الاخبار والمحافظة على كيفية اتصالها من حيث رواتها ، الى البحث عن الخبر فى ذاته ، زيادة فى تحرى الحقيقة . وهكذا وجد تطور جديد فى كتابة التاريخ ؛ اذ تخلص التاريخ من طريقة الحديث الى مجال اوسع مستقل ازدهر فيه منهاجه . فابن خلدون يهاجم المؤرخين الأوائل (٦) ؛ لاعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه او سمعوه ، وعدم تأمل الحقيقة فى ذاتها ومناقشاتها واغفالها عللا واسبابا (٧) . ولم يعد التاريخ ــ فى رأيه ــ اخبارا وحوليات ، ولكنه نقد للحقائق وبحث عن اسبابها ؛ وقد

---

(١) المقدمة ، ص ٢٩ .

(٢) السخاوى ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩/١٩٣٠ ، ص ٩ .

(٣) مسلم ، صحيح ، ١ ص ١٢ .

(٤) المقدمة ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٥) البخارى ، ص ٤٨ ؛ انظر . هرنشو ، علم التاريخ ، ترجمة واضافة العبادى ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٥٧ .

(٦) المقدمة ، ص ٣ و ٧ وما بعدها . نذكر ممن هاجمهم : ابن اسحق (ت ١٥٢/٧٦٩) ، والطبرى (ت ٣١٠/٩٢٣) ، والمسعودى (ت ٣٤٦/٩٥٩) ، وابن عبد ربه (٣٤٩/٩٦٠) ، والثعالبى (ت ٤٢٩/١٠٣٧) ، والبكرى (ت ٤٨٧/١٠٩٤) .

(٧) المقدمة ، ص ٢ ، ٢٢ .

ساعد بهذا الرأى على ابراز شخصية المؤرخ وذاتيته . ولهذا اعتبر ابن خلدون اول كاتب فى العالم عالج موضوع : فلسفة التاريخ (١) .

وثمت استتبع التحول من جمع الخبر الى الخبر فى ذاته، تغيرا ايضا فى اسلوب التاريخ ؛ فبعد ان كان التاريخ يجمع معظمه فى هيئة شعر ، لأن الذاكرة كانت اقدر على حفظه ، او فى جمل قصيرة جافة ، الواحدة بجانب الاخرى بدون ربط ، اصبح اسلوبه مرسلا يكاد يخلو من الشعر فيه حلاوة وطلاوة (٢) . ومع ذلك ؛ فان المؤرخين المتاخرين لم يكونو يستطيعون ان يكتبوا التاريخو دن ان يذكروا المصادر التى استقوا منها معلوماتهم ، وبدلا من قولهم فلان وفلان ، ذكروا الكتب التى اخذوا منها حقائقهم (٣) ، وظهر بدل العنعنة ما يعرف بأسانيد الكتب ؛ وهذه اصبحت التهميش فى وقتنا ، وهذا الذى ذكرناه يدل على فضل المسلمين ـ ولا ريب ـ فى وضع اسس هذا العلم والاسهام فى تطوره ؛ كما وضعوا أسس غيره من العلوم .

هذا ـ وفى الواقع ـ لم يشتغل بالتاليف فى التاريخ كالمسلمين ، ذلك لأنهم اعتبروه من احسن العلوم واشهاها (٤) فالف فيه فحول المؤرخين الاف الكتب التى اعطوها عناوين مختلفة ، تدل على محتوياتها . وقد كان اغلب ما الفه فى التاريخ، فى اول الأمر ، بقصد المنفعة والعبرة (٥) ، والحصول على ملكة

---

(١) انظر . عنان ، ابن خلدون ، ص ١٦٨ .

(٢) انظر . Carra de Vaux, :
Les penseurs de l'Islam. Paris, 1921, I, p. 85.

قارن مثلا سيرة ابن هشام (ت ٢١٣/ ٨٢٨) ، بمقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦) .

(٣) نجد أن مؤرخا كالسيوطى (ت ٩١١/١٥٠٦) ، يذكر فى مقدمة مصنفه الكتب التى اعتمد عليها فى تاليف كتابه : « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، فى جزءين ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ .

(٤) السخاوى ، ص ٢٩ .

(٥) نفسه ، ص ٣١ .

التجارب (١) ؛ حيث كانوا يرون في كتاب الله مثلا يقتدى به ، فقد قص القرآن كثيرا من اخبار الأمم الماضية للتذكرة والعبرة . لذلك كانت المؤلفات الاولى يتوسع فيها لبدء الارض (٢) ، وغير ذلك من امور الامم ، وقصص الانبياء ، وسيرة الرسول الذى حمل رسالة الاسلام ، بقصد الفائدة ، واحوال القيامة ومقدماتها . واغلب هذه المؤلفات العامة المناهج ، من لدن البدء (٣) ، نجدها - على الأخص - بعناوين : « اخبار » و « سير » و « مغازى » و « تاريخ » و « فتوح » ، ومعظمها مرتب على الحوليات والموضوعات .

وفيما بعد ظهرت رغبة عند المؤرخين المسلمين في تقصير هذه المؤلفات العريضة العامة المناهج ، والتصرف فيها بالتقديم والتاخير والزيادة والنقصان ، ولان اغلبها مطول يحتوى على تكرار ضائع ، وعلى سلسلة من الاسانيد المفصلة التى لا لزوم لها . كما ظهرت الرغبة في العدول عن الاطلاق في الاخبار والنظرة الشاملة الى التقييد والاقتصار على جزء معين من التاريخ . وان كانت هذه الكتب لم تلق قبولا في نفوس بعض علماء المسلمين القدامى ؛ بحيث انه شبه من يقدم على ذلك : بمن اقدم على خلق سوى ؛ فقطع اطرافه ، وتركه اشل اليدين ، ابتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصم الاذنين ، او كمن سلب امراة حليها فتركها عاطلا (٤) . ونجد اغلب الكتب المختصرة - على الاخص - بعناوين : « مختصر » و « ذيل » و « شرح » و « حاشية » ؛ لتدل على اعتمادها على مصدر سابق .

ومن ناحية اخرى ، كان التاريخ يكتب لابقاء الذكر ؛ بحيث

---

(١) نفسه ؛ كشف الظنون ، ١ ص ٢١٢ .

(٢) البخارى ، ص ٧ ؛ السيوطى ، كتاب الشماريخ فى علم التاريخ ،تحقيق Seybold ، ط . Leiden ، ١٨٩٤ .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦ ، ١ ص ١١ .

(٤) مروج ، ط . مصر ، ١ ص ٣ .

انهم رددوا عن النبى قوله : « من ورخ مؤمنا ، فكانما احياه (١) »
كما اعتبروا انفاق الملوك والاغنياء على المصانع والحصون لا يعادل
ابقاء الذكر فى التاريخ (٢) ؛ مما يزيد من فضل هذا العلم . ونجد
اغلب الكتب التى تختص بهذا القصد بعناوين : « الانساب »
و « التراجم » و « الطبقات » و « الوفيات » و « المعاجم » ؛ ومعظمها
ينظر فى المواليد والوفيات .

وربط المسلمون التاريخ بكل العلوم ، مثل : الأدب والسياسة
والاجتماع والفقه والجغرافيا والرحلات ؛ فكان بحق علم العلوم .
ويتبين من اسماء الكتب التالية صلة التاريخ الواسعة بالعلوم ، التى
قد لا تكون دائما من صميم التاريخ ، مثل : « غرائب »
و « تحفة » و « عقود » و « در » و « نزهة » و « روضة »
و « حديقة » و « حسن » و « حقائق » و خريدة » و « خطط » .
وقد كانت هذه الصلة العامة سببا فى أن صار للتاريخ اعداء
بالغوا فى الزراية عليه ، وادعوا أنه ليس بعلم محدد المنهج ،
وان غاية فائدته : « انما هو القصص والاخبار ، ونهاية معرفته
الأحاديث والأسمار (٣) » . ولكن انبرى من المؤرخين من دافعوا
عنه ؛ مثل المؤرخ السخاوى الذى ألف رسالة بعنوان : الاعلان
بالتوبيخ لمن ذم التاريخ .

ونعرف طبقات عديدة من المؤرخين (٤) ، ظهرت طول
فترة حضارة الاسلام ، مع انه فى العالم القديم كان المؤرخون
يعدون على الاصابع . منها طبقة اولى ظهرت على الخصوص
أيام التدوين التاريخى فى القرن الثانى الهجرى ، لم يصلنا
معظم ما دونته ؛ وان اعتمدت الطبقات التالية على ما كتبوه ،
وهى فى السيرة النبوية والمغازى والفتوح ، وهى موضوعات

---

(١) السخاوى ، ص ٢٨ .
(٢) نفسه ، ص ١٧ .
(٣) نفسه ، ص ٥٠ .
(٤) لن نذكر مؤلفاتهم لكثرتها ؛ ويمكن الرجوع لكتاب الفهرست لابن النديم ،
وكشف الظنون لحاجى خليفة .

استهوت مؤرخى الاسلام الاوائل ، الذين نذكر اشهرهم (١) : عروة بن الزبير (ت ٧١٢/٩٤) ، الف فى السيرة ، ووهب ابن منبه (ت ٧٢٨/١١٠) ، الف عن ملوك حمير ، وابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ / ٧٤٢) ، تكلم فى المغازى ، وابن اسحق (ت ١٥٠/ او ٧٦٧/١٥١ - ٨) ، الذى استحق لجدارته فى كتابه السيرة النبوية على حسب تسمية ابن خلدلن لقب الاستاذ (٢) ، وابن ابى مخنف (ت ٧٧٤/١٥٧) ، وهذا الاخير وصلتنا نتف من كتبه .

طبقة فى القرن الثالث الهجرى ، اغلبهم تناول نفس المواضيع السابقة وزادوا فيها ، واعتمدوا على الاوائل كل الاعتماد ، ووصلتنا منهم كتب كثيرة مثل : الواقدى (ت ٢٠٦ او ٨٢١/٢٠٧ او ٨٢٣)، وابن الكلبى (٨١٩/٢٠٤ او ٨٢٢/٢٠٦) ، وابن هشام (٢١٣/ ٨٢٨ او ٨٣٤/٢١٨) ، وابن سعد (ت ٨٤٥/٢٣٠) ، ، وابن عبد الحكم (ت ٨٧١/٢٥٧) ، وابن قتيبة (ت ٨١٩/٢٧٦) ، والبلاذرى (ت ٨٩٢/٢٧٩) ، والدينورى (ت ٨٩٥/٢٨٢) ، واليعقوبى (ت ٨٩٨/٢٨٣) ، والنوبختى (الثالث / التاسع) .

طبقة فى القرن الرابع الهجرى ، شديدة الخصب ، نذكر منهم : ابن جرير الطبرى ، (ت ٩٢٣/٣١٠) ، وابن البطريق (ت ٣١١/ ٩٢٣) ، وابن عبد ربه (ت ٩٣٩/٣٢٧) ، والصولى (ت ٣٣٥ او ٩٤٦/٣٣٦) ، وقدامة (حوالى ٩٤٨/٣٣٧) ، والمسعودى (ت ٩٥٦/٣٤٦) ، والكندى - ابو عمر - (ت ٩٦١/٣٥٠) ، والاصفهانى (ت ٩٦٧/٣٥٦)، والخوارزمى - ابو عبد الله - (حوالى٩٧٦/٣٦٦)، وابن القوطية (ت ٩٧٧/٣٦٧) ، وابن النديم (ت ٩٩٣/٣٨٣) ، وابن زولاق (ت ٩٩٧/٣٨٧) .

---

(١) انظر - A Study on the Beginnings of History, : Buri Writing in Islam. Bull. of the Sch. of Or. and African Studies Vol XIX. Part 1., 1957, p. 1 sqq.

(٢) المقدمة ، ص ٧٥ س ٩ ، س ١١ .

طبقة فى القرن الخامس الهجري ، لا تقل فى انتاجهـا عن السابقة ، نذكر منهم : ابن حزم (حوالى ١٠٢٧/٤١٨) ، والمسبحى (ت ١٠٢٩/٤٢٠) ، وابن مسكوية او مسكويه (ت ١٠٣٠/٤٢١) ، والعتبى (ت ١٠٣٦/٤٢٨) ، والبغدادي (ت ١٠٣٧/٤٢٩) ، والثعالبى ، (ت ١٠٣٨/٤٢٩) ، والصابى (ت ١٠٥٦/٤٤٨) ، والماوردى (ت ١٠٥٨/٤٥٠) ، والقضاعى (ت ١٠٦٢/٤٥٥) ، ويحيى بن سعيد (ت ١٠٦٦/٤٥٨) ، وابن صاعد ـ صاعد ـ (ت ١٠٦٩/٤٦٢) ، والخطيب البغدادي (ت ١٠٧١/٤٦٣) ، وابن حيان (ت ١٠٧٦/٤٦٩) ، والبيهقى ـ ابو الفضل ـ (ت ٤٧٠/ ١٠٧٧) ، ونظام الملك (ت ١٠٩٢/٤٨٥) ، والروذراورى (ت ١٠٩٥/٤٨٨) .

طبقة فى القرن السادس الهجري ، منهم : اسامة بن منقذ (ت ١١١٨/٥١٢) ، وابن منجب ـ الصيرفى ـ (ت ١١٤٧/٥٤١) ، والشهرستاني (ت ١١٥٣/٥٤٨) ، وابن القلانسى (ت ١١٦٠/٥٥٥)، وابو صالح (حوالى ١١٧٢/٥٦٨) ، وابن عساكر ـ على ـ (ت ١١٧٦/٥٧٣) ، وابن بشكوال (ت ١١٨٣/٥٧٨) ، وابن الجوزى ـ فرج ـ (ت ١٢٠٠/٥٩٧) ، وعماد الدين (ت ١٢٠١/٥٩٨) .

طبقة فى القرن السابع الهجرى ، منهم : ابن الاثير (ت ٦٢٠/ ١٢٣٣) ، وابن الجوزى ـ سبط ـ (ت ١٢٤٦/٦٤٤) ، والقفطى (ت ١٢٤٨/٦٤٦) ، وابو شامة (ت ١٢٦٧/٦٦٥) ، وابن ابى أصيبعة (ت ١٢٧٠/٦٦٧) ، والمكين ـ ابن العميد ـ (١٢٧٣/٦٧٢) ، وابن ميسر (ت ١٢٧٨/٦٧٧) ، وابن خلكان (ت ١٢٨٢/٦٨١) ، والجوينى (ت ١٢٨٢/٦٨١) ، والقزوينى (ت ١٢٨٣/٦٨٢) ، وابن سعيد المغربى (ت١٢٨٦/٦٨٥) ، وابن العبرى — Barhebraeus (ت ١٢٨٦/٦٨٥) ، وابن واصل (ت ١٢٩٨/٦٩٧) ، وابن الطقطقى (ت ١٣/٧) ، وابن عذارى (ت ١٣/٧) .

طبقة فى القرن الثامن الهجرى ، منهم : رشيد الدين (ت ٦١٨/ ١٣١٨) ، وابو الفدا (ت ١٣٣١/٧٣٢) ، والنويرى (٧٣٢/

١٣٣٢) ، وابن الوردى القرشى (ت ١٣٤٣/٧٤٤) ، والذهبى (ت ١٣٤٧/٧٤٨) ، والكتبى (١٣٦٣/٧٦٤) ، وابن أيبك (ت ١٣٦٣/٧٦٤) ، والصفدى (ت ١٣٦٣/٧٦٤) ، ولسان الدين ابن الخطيب (ت ١٣٧٤/٧٧٦) ، وابن حبيب - بـدر - (ت ١٣٧٧/٧٧٩) .

طبقة في القرن التاسع الهجرى ، منهم : ابن الفرات (ت ١٤٠٥/٨٠٧) ، وابن خلدون (ت ١٤٠٦/٨٠٨) وابن دقماق (ت ١٤٠٧/٨٠٩) ، والقلقشندى (ت ١٤١٨/٨٢١) ، والمقريزى (ت ١٤٤٢/٨٤٥) ، وابن حجر العسقلانى (ت ١٤٤٩/٨٥٣) ، وابن عربشاه (ت ١٤٤٥/٨٥٤) ، والعينى (ت ١٤٥١/٨٥٥) ، وابو المحاسن - ابن تغرى بردى - (ت ١٤٦٩/٨٧٤) ، وابن اياس (ت ١٥/٩) .

طبقة فى القرن العاشر الهجرى ، منهم : السخاوى (ت ٩٠٢/ ١٤٩٧) ، وميرخند (ت ١٤٩٨/٩٠٣) ، والسيوطي (ت ٩١١/ ١٥٠٥) .

طبقة في القرن الحادي عشر الهجري ، منهم : الشيخ ابو الفضل (ت ١٦٠٢/١٠١١) ، والمقري (١٦٣٣/١٠٤١) ، وحاجى خليفة - ملا كاتب جلبى - (ت ١٦٥٧/١٠٦٧) ، وابو الغازى بهادور (حوالى ١٦٦٣/١٠٧٤) ، والبكرى الصديق (ت ١٠٨٧/ ١٠٧٦) .

* * *

اما العلوم العقلية (١) ، فهى لم تظهر بظهور الاسلام او انها نقلت عن العرب ؛ وانما هى علوم الشعوب المفتوحة وغيرها من شعوب الأرض منذ وجد الانسان ؛ فهى علوم المصريين والهنود والفرس واليونان وغيرهم ؛ ولـذا فهى تسمى ايضا علوم العجم او العلوم القديمة او علوم الاوائل (٢) . وقد قامت نهضة العلوم

(١) مثلا : المقدمة ، ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٢) ابن أبى أصيبعة ، ١ ص ١١٣ .

العربية العقلية بالرجوع الى علوم اليونان على الخصوص ؛ كما ان نهضة العلوم فى أوربا ماخوذة ايضا اساسا بالرجوع الى علوم اليونان . ويرجع السبب فى هذا الى أن علوم المصريين القدماء وغيرهم ، كانت عملية فى اغلبها ؛ بينما اليونان هم الذين قدموا العلم خطوات الى الامام (١) ، ووضعوا له المناهج ؛ بخاصة فى مدرسة الاسكندرية منذ زمن البطالمة . ولعل السبب فى هذا ايضا جهلنا بعلوم المصريين على الخصوص ؛ لقلة ما وصلنا عنها ؛ وان كان من المتفق عليه ان اعاظم علماء اليونان مثل طاليس وفيثاغورس وافلاطون هبطوا مصر ؛ فضلا عن قيام مدرسة الاسكندرية اليونانية فى مصر ، وهى التى ظلت فيها الى وقت الفتح الاسلامى (٢) . وقد كان عمل العرب حينما نقلوا هذه العلوم اليونانية أن نسقوها كما فعل الرومان من قبل ؛ وان اضافوا اليها بمحاولتهم التوفيق بينها وبين الشريعة ؛ فساعدوا على تقدمها .

*

فنذكر من هذه العلوم الفلسفة ، وهى كلمة يونانية الاصل معناها الحكمة ، وفيلسوف معناها محب الحكمة . وقد كانت الفلسفة قديما وايام العرب لا يقصد بها دراسات الحكمة وحدها ـ التى هى يونانية الاصل ـ وانما يقصد بها ايضا المعرفة بالرياضيات والطب والفلك والموسيقى (٣) ... الخ .

وهذا العلم لم يعرفه العرب الا فى عصر متاخر فى الاسلام ، فى العصر العباسى الأول ، وليس قبل ذلك ؛ فهو لم يظهر الا بقيام حركة الترجمة . وقد مهد لذلك وجود كتب فلاسفة اليونان منتشرة فى مناطق البحر الابيض بين الاسكندرية وانطاكية وحران ، فضلا

---

(١) انظر . ميبلى ، العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى ، نقله الى العربية النجار ويوسف موسى ، ص ٣٩ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ، ١ ص ١١٦ ؛ حاجى خليفة ، ١ ص ٢٤ س ٢٣ .

(٣) مثلا : حاجى خليفة ، ٢ ص ٢٠٣ ؛ المقدمة ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ ؛ وبعده .

عن ان المامون دخل ملـوك الـروم (١) - وهم البيزنطيون - والحمهم بالهدايا واوقف الجهـاد ضدهم ؛ كل ذلك لكى يحصـل على الكتب والمخطوطات ، لا سـيما كتب الفلسـفة ، اذ كانت القسطنطينية - عاصمة الـروم - تعرف بمدينة الحكمة (٢) . فبعث اليـه الروم بكتب الفلاسـفة وغيرها ؛ كما استجاب للمامون مهرة التراجمة ، فقاموا بتعريبها او نقلها بنصوصها عن طريق الترجمات السريانيـة ؛ اذ ان السريان قبـل مجيء العـرب كانوا قـد ترجموا كتبا كثيرة فى الفلسفة اليونانية ؛ ويكفينا ان نذكر اشهر مترجميهم مثل : سرجيوس وسفرونيوس وسويرس .

ولكن العرب اضافوا الى ما ترجم شروحا وافية (٣) . كذلك حاولوا ادخـال الفلسفة اليونانية فى شرح الدين الاسلامى ، وجعلوها سندا للعقيدة ؛ اذ وجدوا ضرورة اتفـاق العقيـدة مع العقل ؛ ولذا كان يطلق على الفيلسوف الاسلامى : امام . فقد كان الاسلام يترك الحرية فى دراسة الفلسفة ، على خلاف اديان اخرى مثل المسيحية، التى كانت تعتبر التكلم فى الفلسفة اليونانية رجوعا الى الوثنيـة الاغريقية . فالى العرب وحدهم يرجع الفضـل فى ازدهار فلسـفة اليونان ؛فهم الذين اذاعوها فى العالم ؛ فضلا عن انهم يمثلون فى الفلسفة عصرا جديدا فى الفـكر . وقـد لاحظ مؤرخو الاسـلام ان الفلسفة عند الروم كانت قـد تلاشت ؛ بينما هى فى اوربا لم تنتعش الا فى القـرن ٨هـ / ١٥م ؛ وذلك بعد ازدهـارها فى الشرق (٤) .

ومن الطريف ان نذكر ان هم الفلسفة الاسلامية هـو معـرفة فلسفة ارسطو طاليس "Aristoteles" - وهو ارسطو - (٣٨٤ -

(١) المقدمة ، ص ٣٨١ ؛ ابن صاعد ، ص ٤٨ ؛ وقبله .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ٨٧ .

(٣) عن ذلك ، انظر المقالة القيمة :

Ency. (art Falsafa) t2, p. 51 — 55.

وايضـا : The History of phlosophy in Islam. : de Boer London, 1903.

(٤) المقـدمة ، ص ٣٨١ .

٣٢٢ ق٠م) ؛ فهم اهتموا بـه اكثر من اهتمامهم باى فيلسـوف أخر (١) ؛ وان جاء بعده فى المرتبة التاليـة افلاطون (٢) "Platon" (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق٠م) ، واعتبروهما من مدرسة واحـدة ؛ وان كانوا عرفوا معظم فلاسـفة اليونان الآخرين بمن فيهم سـقراط ؛ وحتى مذاهبهم الفلسفية المختلفة (٣) . فالى ارسـطو نسبوا فنونا كثيرة ، وعرفوا عديدا من كتبه التى نقلوها الى العربية . ويبدو ان ميزتـه لهم أتت من المنطق السليم الذى استخدمه ، وكان له عدة كتب فيه ، ترجموا بعضها (٤) ؛ بحيث كان ينظـر اليه على انه المعلم الاول وسيرا على منواله ، استخدم فلاسفة الاسلام المنطـق وطوروه على يدهم الى علم بقصـد استخلاص الحقائق ، واستخدموه فى جميـع علومهم (٥) .

وليس من السـهل ايجاد مذاهب خاصـة لفلاسفة الاسـلام او معرفة الفروق بينهم (٦) ؛ اذ اننا لا نعرف كل مؤلفاتهم ، التى قـد ضاع اغلبها او انـه يوجد مجهـولا فى المكتبات ، يضاف الى ذلك صعوبة فهم اسلوبهم الفلسفى . الا ان الثقـة تبـدو فى مؤلفاتهـم ؛ وهم جميعا كانوا يعرفون لغـة اليونان ، التى ساعدتهم على فهـم الفلسفة اليونانيـة . وهم تعرضوا لمسـائل دقيقة مثل : خلق العالم والزمن والعقل والنفس والخير والشر ؛ فهم بذلك وسعوا فى التفكير الاسلامى والعـالمى .

---

(١) ابن صاعد ، ص ٢٤ ـ ٢٧ (انظر أسماء كتبه) ؛ عبد الرحمن بدوى ، ارسطو عند العرب ، القاهرة ؛ انظر :
Ency. (art Aristûtâlis) t1. p. 438 — 440 .

(٢) ابن صاعد ، ص ٢٣ ؛ انظر .
——Ency. (art Aflâtûn) t1, p. 177 — 9.

(٣) ابن صاعد ، ص ٢٣ ، ٣٢ ، مثل الكلبيين والمشائين ... الخ .

(٤) ترجمة اسحق بن حنين ، نص وتقديم Pollak ، ط . Leipzig ، ١٩١١ . كذلك يذكر أن ابن المقفع قد ترجم كتبه المنطقية . ابن صاعد ، ص ٤٩

(٥) المقدمة ، ص ٣٨٧ وما بعدها . انظر . حافظ طوقان ، النزعة العلمية فى التراث العربى ، فى مجلة المعهد المصرى بمدريد ، العدد ٣ ، المجلد ١ سنة ١٩٥٥/١٣٧٤ ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٦) انظر : Carra de Vaux : Les penseurs de l' Islam, IV, p. 2.

واول من اعتنى بعلم الفلسفة عبد الله بن المقفع الفارسي (ت ١٤٠/٧٥٧) (١) ، الذي كان كاتب الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي ، وترجم كتب ارسطو الفلسفية ربما من الفارسية ، وان لم يظهر لابن المقفع آراء فلسفية ، كما ان ترجماته لم تقع بين ايدينا .

بعد ذلك ، جاء ابوه يوسف يعقوب الكندي (حوالي ٢٦٠/ ٨٧٣) ، (٢) الذي كان اجداده من ملوك كنده في جنوب الجزيرة العربية ، وابوه اميرا على الكوفة للمهدي والرشيد ؛ فكان الكندي من العرب . وقد سماه المسلمون فيلسوف العرب ؛ اذ كانت له آراء فلسفية عن فلسفة ارسطو وافلاطون ، اي الفلسفة اليونانية الكلاسيكية . نقد الف الكندي ـ الذي كان على علم باليونانية والسريانية ـ خمسين تاليفا في اكثر العلوم ، بعضها في الفلسفة ـ حيث ذكرها المؤرخون ـ ونعرفها فقط بالاسم ، مثل : كتاب التوحيد المعروف بفم الذهب ، وكتاب اثبات النبوة . واما ما تبقى من كتبه الفلسفية بين ايدينا فهو قليل ؛ بعضه لا يزال مخطوطا (٣) ، ولم ينشر منه بالعربية الا القليل (٤) ، كما توجد له آراء فلسفية واضحة في ترجمات لاتينية (٥) ، وقد اشتهر الكندي بين الاوربين كفيلسوف ، وعرف لهم باسم : « Alkendius » .

---

(١) ابن صاعد ، ٤٩ ؛ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧ ، ٥١ ـ ٥٢ ؛ نفسه ، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠ ؛ انظر . فؤاد الاهواني ، الكندي ، فيلسوف العرب ، اعلام العرب ٢٦ ، فبراير ١٩٦٤ ؛ Flugel :

Al - Kindi genannt der philosoph der Araber; ein Vorbild, siener Zeit und seiner AKMI, Volkes. Leipzig 1857.

Ency. (art al-Kindi) t2, p. 1078 — 9. ;

G. A. Litt I. Leiden, 1943, p. 230 — 231. : Brock

(٣) انظر : مثلا : رسالة في القول في النفس ، المختصر من كتب ارسطاطاليس وافلاطون وسائر الفلاسفة ، المتحف البريطاني ، برقم ٨٠٦٩ .

(٤) انظر : مثلا : رسالة في كمية كتب ارسطو طاليس وما يحتاج اليه في الفلسفة ، تحقيق Guidi وغيره ، Roma ، ١٩٢٨ .

(٥) عنه ، انظر : Nagy :, Die philosophischen Abhandlungen des

Ja'qûb ben Ishâq al-Kinidi, zum ersten male herausgegeben.

وبعد ذلك ظهرت طبقة من الفلاسفة قائمة بذاتها تتمثل فى الفارابى وابن سيناء ، وكلاهما له تآليف نفيسة فى الفلسفة ؛ ونبغا نبوغا كبيرا ؛ بحيث قيل ان الحكماء اربعة اثنان قبل الاسلام هما سقراط وابقراط ، واثنان بعد الاسلام هما الفارابى وابن سيناء .
فمن الفارابى (١) (٢٥٩ – ٨٧٢/٣٣٩ – ٩٥٠) ، فهو ابو نصر محمد من اصل تركى ولد بفاراب على نهر جوجون ؛ وانتقل الى بغداد فنشأ فيها ، ورحل الى مصر والشام واتصل بسيف الدولة ابن حمدان ، وتوفى بدمشق . وكان الفارابى زاهدا الا فى العلم ، لا يحفل بأمر مسكنه او ملبسه ، ومن حساسيته وشاعريته انه لم يكن يوجد الا عند مجتمع ماء او مشتبك رياض . وقد قيل ان الفارابى كان يعرف سبعين لغة ، وتصانيفه فى الفلسفة على نسق كتب ارسطو ؛ ولذلك اطلق عليه المعلم الثانى ؛ حيث ان المعلم الاول هو ارسطو . وعلى يد الفارابى وصلت الفلسفة الارسطوطاليسية الى اقصى ما تصل اليه من ازدهار ؛ وان كان قد اهتم ايضا بفلسفة افلاطون، واشتهر بين الاوربيين باسم : "Alfarabius" . فبفضل شروحه وافكاره واسلوبه تمكن من تقريب الفلسفة اليونانية الى الفكر الاسلامى ؛ مما لم يعرف قبلا على يد الكندى ، حتى سماه ابن صاعد فيلسوف المسلمين بالحقيقة . واهم مصنفاته كتاب فى مبادىء آراء اهل المدينة الفاضلة (٢) ، التى تحتاج الى قاموس نبوى – اى من قبل الوحى – ؛ حيث تأثر فيها بآراء ارسطو وافلاطون ، لا سيما هذا الاخير الذى كان له راى فى المدينة الفاضلة . فبين فيها تكوين المجتمعات من الاسرة والعشيرة والقبيلة وما يسودها من تضامن ، كما اسهب فى الكلام عن غرائز الصراع "Homo homini Lupus" "Struggle for life" . كذلك له رسالة فصوص الحكم (٣) ، تعرض

Beitrage zur Gesch der Phil des Mitt. Munster. 1897.
Op. Cit., IV, p. 7 sqq. : Carra de Vaux

(١) عنه : ابن صاعد ، ص ٥٣ – ٤٥ ؛ ابن القفطى ، ص ٢٢٧ ؛ انظر .
La Place d'al-Fârâbî dans l'école, : Madkour
; philosophique musulmane. Paris 1934.
Ency. (art al-Fârâbî) t2, 57 — 59 ;
Op. Cit., IV, p. 7 ssq : Carra de Vaux.

(٢) تحقيق Dieterici ، ط . Leiden ، ١٨٩٥ .
(٣) حققها مع غيرها Dieterici ، ط . Leiden ، ١٨٩٠ .

فيهـا لموضوعات فلسفية عديدة مثل : الاحساس والقصور والسعادة والمـادة والانسان . كذلك لدينا منـه بصانيف أخرى فى الفلسـفة وشروحا بنصوصها العربية والعبرية واللاتينية (١) .

اما ابن سيناء (٢) (٣٧٠ ــ ٤٢٨ / ٩٨٠ ــ ١٠٣٧) : فهـو ابو على عبد الله ، من اصل تركي ايضا ؛ حيث يتمسـك الترك باصله هـذا . ولا تقـل شهرة ابن سـينا الطبيب عن شهرته كفيلسـوف ؛ حتى انـه لقب بالشيخ الرئيس ، وعرف بالمعلم الثالث بعد ارسـطو والفارابى . ولابن سينا كتب كثيرة في فلسـفة ارسطو وافلاطون والافلاطونية الحديثة ــ نسبة الى افلوطين المصرى — " Plotonius " — (٢٠٥ ــ ٢٦٩ م) ؛ تشـهد بالبراعة فى صناعة الفلسفة وتطورها على يديـه ؛ حيث ترجم بعضها الى اللغـات الاوربيـة ، ولـدا اشتهر عند الاوربيين باسـم : " Avicenna" . واهـم مصنفاته الفلسـفية : الشـفاء (٣) ، الذي استوعب فيـه علوم الفلسفة ، يليه النجـاة الذى هو مختصر الشفاء (٤) ، والاشـارات والتنبيـه (٥) ، وتسـع

(١) انظر : Brock . G.d. ar. Litt. I. 282 — 230.

(٢) ابن ابى اصيبعة ، ٢ ص ٢ وما بعدها الشهرستانى ، الملل والنحل، Cureton ، ص ٣٤٨ ــ ٣٧٩ ؛ انظر ، العقاد ، الشيخ الرئيس ، مجموعة قرا ، رقم ٤٦ تحقيق سبتمبر ١٩٤٦ ؛

Ency. (art Ibn Sînâ) t2, 444 — 6;

Op. Cit., IV p. 18 sqq. : Carra de Vaux;

The philosophy of Avicenna, : Goichen

Translated by. S. Khan. Delhi, 1969.

(٣) تحقيق القاهرة ١٩١٣ ، وله شرح ، كما له ترجمـة المانيـة من Horten ؛ بعنوان :

Avicenna das Buch der Genesung der Seele. Leipzig 1907 — 1909.

ترجمة الاوربيون باسم : "Sufficienta"

(٤) نشر روما ١٥٩٣ ؛ وتحقيق القاهرة ١٩٣٨، له ترجمات جزئية ؛ انظر ، مبيلى ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠٨ .

(٥) تحقيق وترجمة Forget ، بعنوان : Ibn Sîna. Le livre des, Théorènes et des Avertissements. Leyde, 1892.

توجد مخطوطة فى B.N ، برقم 6833 ، من حبيب الله مرزاجان ، بعنوان : شرح الاشـارات .

رسائل فى الحكمة (١) ، وغير ذلك (٢) .

ومن ناحية اخرى ظهر فى اقصى المغرب الاسلامى والاندلس فلاسفة عظام مثل فلاسفة الشرق ، منهم : ابن باجه (ت ٥٢٣/ ١١٣٨) ، من سرقسطة ، وهو الآخر من شراح فلسفة ارسطو ، وعرف للاوربيين باسم : "Avempace" ، وكتابه : تدبير المتوحد لم يصلنا ، وان وصلتنا منه شروح فلسفية بالعبرية (٣) . وابن جبريول (ت ١١٥٨/٥٥٣) ، الذى لقب بافلاطون اليهود ، وله كتاب اسمه : ينبوع الحياة (٤) . وابن طفيل (ت ١١٨٥/٥٨١) ؛ ويعرف للأوربيين باسم ابا بامر "Abu Bacer" ، وهو تحريف لأبى بكر ، له كتاب حى بن يقظان (٥) — وهو كل ما تبقى مؤلفاته — من احسن ما تفخر به الفلسفة العربية ؛ وان كان فلاسفة آخرون من المشرق قد تناولوا « حى » هذا ؛ الا ان ابن طفيل جعل منه اثرا من اعظم ما اوجدته فلسفة العصور الوسطى ؛ بحيث يعتبر ما ورد عنه الافلاطونية الجديدة الاسلامية . فهو يرسم حياة طفل وجد

---

(١) ط . القسطنطينية ، ١٢٩٨ هـ .

(٢) انظر . Brock : G. d. Ar Litt I, p. 452.

(٣) وصلنا شرح بالعبرية عمله ابو بكر بن الصائغ (١٤م) نشره Herzog فى Die Abhandlungen des Abû Bekr Ibn al-Séig. Berlin, 1896.

تملك برلين ٢٤ رسالة من ابن باجه فى الفلسفة والطب درسها Asin ، بعنوان :

El filosofo Zaragozano Avempace. Rivistaer de Aragon. août, 1900.

(٤) نشره Baumkr ١٨٩٥ . انظر ايضا Munk : Mélange de Philosophie Juive et Arabe وانظر مبيلى ، ص ٣٥٨ . ترجمه الاوربيون باسم : Fon Vitas

(٥) ط ١٢٩٩ هـ . انظر . أحمد امين ، حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى ، دار المعارف . كذلك نشر وترجم فى اوربا باللاتينية عام ١٦٧١ ، على يد Pococke ، ثم نقل الى معظم لغات أوربا مثل الهولندية عام ١٦٧٢ ، والفرنسية ، عام ١٩٠٠ ، والروسية ١٩٢٠ ، والاسبانية ١٩٣٤ . عن ابن طفيل ، انظر .

Ency. (art Ibn Tufail) t2. p. 450 ; (art Hayy b. Yakzân) Op. Cit., IV, p. 56 sqq. : Carra de Vaux ; 2ed t3, p. 341 — 345

فى جزيرة نائيــة ، التقطته ظبية وحنت عليــه ، فلما شب استطاع بتامله ن يصل الى معرفة الله وحقائق الوجود ؛ فهو تحمس عقــلى من الظلام الى معرفة العــالم ، او مناظرة بين قوى الانسان وعقله .
وابن رشــد (١) (ت ٥٩٥/١١٩٨) ، الذى يعتبر من اعظــم شراح فلســفة ارسطو ، حتى انه عرف باسم : الشارح ؛ فهــو الذى ميز بين تعــاليم ارسطو وافلاطون ، كما تميز بالتمحيص الكبير حتى انــه لم يرتض كثيرا من آراء ارســطو ، التي لا تتفق مع الدين ، على عكس سابقيه الذين كانوا ينظرون لارسطو نظرة تقديس . وقــد بلغت شهرة ابن رشــد كل انحــاء العالم المتنور ، وعرف للاوربيين باســــــم : "Averroès" ومن تاليفه الهامة : فصــل المقــال فيما بين الحكمة والشريعــة من الاتصــال (٢) ؛ كما توجــد له شروح فلسفية فى ترجمات لاتينيــة وعبرية (٣) . واخيرا موسى بن ميمون الاسرائيلى (٤) (ت ٦٠١ / ١٢٠٤) ، الــذى اشــتهر للاوربيين باســــم "Maimonide" ، وله مؤلفات فى الفلسـفة

---

(١) عنه ، انظر . عدة مقالات مثل : Renan :
Averroès et l'avrroisme. J. R. A. S. July, 1934.

محمود قاسم ، الفيلـوف المفترى عليه ابن رشد ، الانجلو المصرية ؛
; Ency. (art Ibn Rushd) t2, p. 435 — 438.
Ency. of Religion and Ethics, éd. Hastings (art Averroès).

(٢) نشر فى القاهرة بعنوان : كتاب فلسفة ابن رشد ، ١٩١٣ م و ١٣٢٨هـ .

(٣) عن ذلك ، انظر . Bouyges :
Inventaire des textes arabes d'Averroès. Mélange de l'Univ de Beyrouth, 1922.

(٤) عنه انظر . ولفنسن ، موسى بن ميمون ، حيـــاته ومصنفاته ، القــاهرة : ١٩٣٦ .
; Ency. (art Ibn Maimûn) t2, p. 424 — 5.
;The Jewish Ency. Vol. IX, p. 73 — 86.
: Julius Guttmann.
Die Philosophie d s Juoentums. Müuchen, 1933.

اشهرها : دلالـــة الحائرين (١) ، الذى ترجـــم للاتينيـــة باســـم : "Doctor Perplexorum" يتناول فيه بالنقد الوحى والنفس .

واخيرا ؛ فقـد اثار ادخال الفلســـفة في الدين عـداوة بعض رجال الدين مثل الغـزالى (ت ٥٠٥ / ١١٦٢) ـ عـرف للاوربيين باســـــم : "Algazel" ـ الذى عاداها والف ضـدها : « تهافت الفلاسفة » (٢) ـ اى سقوطهم ـ و « مقاصد الفلاسفة » (٣) . وربما تكون سبب عـداوة الغزالى للفلسفة هو انه كان ضد الشيعة ، التى اسـتخدمت الفلسفة في عهـده على نطاق واسع ؛ اذ ان الغزالى يعتبر واضع اسس السـنة . ولكن الفلاسفة انبروا للدفاع عن انفسهم ؛ وعن ربط الفلسفة اشد الربط بالدين ، ولا سيما ابن رشد ؛ الذى الف كتـاب : تهافت التهافت (٤) » ، وشبه الغزالى بالجاهل الشرير .

***

العلوم الرياضية (٥) أو الرياضيات . نعـرف ان الشـعوب القديمة كان مجهودها قليـلا فى الرياضيات ؛ فلم تكن تعرف منهـا الا المبـادىء فالحساب كان متقدما عند الهنود من الناحية العملية ؛ وعند اليونان الذين سـموه الارتماطيقى (٦) : "Arithmatika"

---

(١) وهو نشر على يد Munk بعنوان :
Guide des Egarés. 3 vols. Paris, 1856 — 1866.

(٢) ط . مصر ١٣٢١ هـ ، و ١٣٠٣ هـ . مع تهافت ابن رشد .

(٣) تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٤) انظر قبله ، وتحقيق Bouyges ، بيروت ١٩٢٧ ، كمـا نشره Muller ، مع ترجمة المانية فى Munich ، ١٨٧٥ ، وله ترجمة ايطالية من « "Florence Lasinio" ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨ ؛ انظر : أيضـا : Gauthier :

La Théorie d'Ibn Rochd sur les rapports, de la Religion et de la Philosophie. Paris, 1909.

(٥) عن ذلك بتفصيل ، انظر ، Sédillot :
Matériaux Pour servir à l'histoire comparée des scienecces mathématiques chez les Grecs et les Orientaux. Paris, 1845.

(٦) المقدمة ، ص ٣١٢ .

كذلك عرف المصريون القدماء مبادىء الجبر (١) ؛ وان كانت كلمة جبر نفسها قد يكون اصلها بابليا ، وأن اليونان لم يكونوا يعرفونه . اما علم الهندسة فكان متقدما من الناحية العملية فى مصر ، ومن الناحية العلمية فى اليونان ، وان كانت الكلمة نفسها فارسية الاصل (٢) .

ولكن يرجع الفضل للعرب فى تقدم العلوم الرياضية ، بحيث اسهموا فيها بفروعها المختلفة . فهم الذين نقلوا الى العالم المتحضر طريقة الحساب بالارقام (٣) ، وهى طريقة العد المعروفة الآن ، فسميت لهم بالارقام العربية . ويقال انهم نقلوها من الهنود (٤) ، الذين اخذوا الصفر من الدائرة ؛ والواحد من الخط المستقيم ، والعرب يذكرون ذلك فى كتبهم ؛ وان كنا لا نعرف ان كانوا قد اخذوها من الهنود عند فتحهم لبلادهم ؛ او انها انتقلت اليهم عند فتح فارس ، كما انهم قد يكونون هذبوها . ومع ذلك ؛ فالعد بالارقام لم ينتشر بين العرب الا فى القرن الرابع الهجرى ، اما قبل ذلك فانهم كانوا يستعملون الحروف فى العد ، وحتى بعد معرفة الارقام استعملوا الحروف احيانا . وعلى العكس ؛ فان أوربا لم تعرف طريقة العد بالارقام الا عن طريق العرب ؛ وذلك فى القرن الخامس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ويدل على ذلك اشتقاق الكلمات

---

(١) مثلا بردية Bhind فى عهد أمنمحت الثالث ، انظر Vogel :
Die Grundlagen der Agyptischen Mathematik, München, 1929 .

(٢) هى من اندازيدان او اندازختان ، انظر . قال العرب علم الجو مطريقى
Ency. (art Handasa) t2, p. 272.

(٥) القدمة ، ص ٣٨٢ – ٣٨٣ ؛ مروج ، ط Paris ، ١ ص ١٤٨ – ١٥٠ .
Ency. (art Hisâb) t2, p. 234 — 6; (art Adad) ti, p. 125-7.

(٤) عن ذلك ، اقرأ . Woepcke :
: Mémoire sur la propagation des chiffres indiens. J.A. Paris, 1893.
Op. Cit., 11, p. 102 sqq. : Carra de Vaux. ;

الأوربية الدالة على صفر العربية (١) ، بمعنى خال ، مثل : " Ciphre " او "Ziffer" او " Chiffre " او حتى" Zéro " اما قبل ذلك ؛ فانهم استخدموا طريقة العد الرومانية . فبهذه الطريقة سهل العرب طريقة العد بتغيير قيمة الرقم حسب وضعه فى خانة الآحاد او العشرات او المئات او الألوف او الملايين وعلى عكس الحروف التى لا تتغير بسهولة او الأرقام الرومانية . كذلك وضع العرب أسس الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة وكسور ، وعرفوا اسرار الأرقام .

ومجهود العرب فى الجبر (٢) ، ويقصد به استخراج المجهول من المعلوم ، فيرجع اليهم الفضل فى تقدمه ، اذا لم نقل ان هذا العلم من أساسه من اختراع العرب ، اذ الواجب أن يعترف بمجهود العرب فيه . فقد ظهرت له على ايديهم نظريات لم تعرف قبلا ، وذكروها بتعبيرهم مثل : الحط ـ النزول ـ ، والمقابلة ـ اى المقارنة ـ ووضعوا له رموزا اصطلاحية ساعدت على تقدمه ، مثل : (جـ) للجزر ، و (س) للاس ، و (م) لمربع المجهول ، و « ك » لكعب المجهول . وقد بقيت كلمة جبر "Algebra" ؛ باقية فى كل لغات الدنيا حتى وقتنا الحاضر ؛ لتدل على هذا العلم .

اما مجهودهم فى الهندسة (٣) ، فتميز على الخصوص من

(١) الخوارزى ، مفاتيح العلوم ، تحقيق Van Vlotan ، ص ٥٨ ؛
Ency. (art al — Cifr) t4, p. 425.

(٢) المقدمة ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ . عن ذلك بتفصيل : Ruska :
Zur Altesten Arabischen Algebra und Rechenkun st, Heidelberg, 1917 ؛ طوقان ، العلوم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٥٥ وما بعدها ؛
Sur le sens exact du mot al — djebr. : Carra de Vaux
Bib. Math d'Enestrom, 1897, nol..

(٣) المقدمة ، ص ٣٨٤ وما بعدها ؛ ابن صاعد ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ؛ انظر . Ency. (art Handasa) t2, p. 272. ؛ وبعده . يذكر المؤرخون العرب كتب اليونان ، مثل : المخروطات لابولونيوس (حوالى ٢٥٠ ق.م) . والأركان

الناحيـة النظرية ، ويرجع ذلك الى اطلاعهـم على كتب يونانيـة عـديدة ترجمـوها لابولونيـوس "Appollonios" واوقليـدس "Eukleides" وديوفانتوس "Diophantos" وهيـرون "Heron" وبابوس "Pappos" وارشميدس "Archemides" وغيرهم ، او لترجمتهم كتبـا هندية او فارسية ، اذ كلمـة هندسـة او فارسـية الأصل كما ذكرنا (١) . وقـد بـدا العرب معرفة هـذا العلم في اوائل العصر العباسي زمن المنصور ، وان اضافوا شروحا لما ترجموه عنهـا . اما الهندسة العملية ، فهي تتمثل في تقـدمهم فيمـا كانوا يسمونه بعـلم الميكانيكا التي ربمـا يكون اصلها يونانيـا ـ اذ ترجموا كتب اليـونان عنهـا ، (٢) وجعـلوها في خـدمة بعض صناعتهم (٣) ؛ واشهرها عمل الساعات المائية والمزاول ، حيث أن اختراع الرقاص او البنـدول هو اختراع عربي (٤) .

ولدينا اسماء لامعـة في علوم الرياضيات ، اشـهرها على الاطلاق محمد بن موسى الخوارزمي (ت حـوالي ٨٤٠/٢٢٦) ، الذي عرف للاوربيين في العصـور الوسطى باسـم الغوريتموس

=

والأصول في الهندسة لاوقليدس (حوالي ٣٠٠ سنة ق.م) ، وهذا الأخير ترجمه ابو عثمان الدمشقي ، ط . Paris ، من ع.ت . عن ارشميدس بالذات ، كان مهندسا بارعا نظم امور قرى مصر بعمل الجسور والزوم وقت الفيضان .

(١) انظر . قبله .

(٢) مثلا كتاب ، هيرون ، انظر . نص وترجمة ، Carra de Vaux بعنـوان :

Les Mécaniques au l'Elévateur de Héron d'Alexandrie J.A. IXe Série tI, et 11.

(٣) المقدمة ص ٣٢٦ . فمثلا اوقليدس كان نجارا .

(٤) اشهرها ، كتاب ابن الرذاذ الجزري (ت ١٢٠٥/٦٠٢ ـ ٦) ، كتاب في معرفة الحيل الهندسية ، مخطوطة باستنبول . انظر .
يوجد كتاب من رضوان بن محمد الساعاتي (ت ١٢١٦/٦١٧) ، بعنـوان : الساعات في العمل بها ، تحقيق دهمان ، دمشق ١٩٨٢ . تحدث منه عن الساعات العربية ، مثل ساعة المسجد الأموي .

"Algorithmus" ، والیـه اصبح ینسب علم الریاضیات باسم : اللوغاریتمات "Logarithme" . ونحن لا نعرف شیئا عن الخوارزمی غیر انه عاش فی عهد المامون ، وان معظم کتبه العربیة التی شملت علوما عدیدة ضاعت ، الا ان بعضها لا یزال یوجد فی ترجمات لاتینیة . فالی الخوارزمی یرجع الفضل فی وضع طریقة الحساب بالارقام ، وهو ما عرف للاوروبیین بطریقة العد الهندیة ، التی نقلهـا الخوارزمی "Algoritmi de numero indorum" ، کما انه اول من تکلم فی الجبر والمقابلة واعتبر مخترعه ؛ اذ له کتاب فیه وصلنا (١) ، الفه بناء علی طلب المامون ، یقصد ان یعرف الناس احکام معاملاتهم ؛ وذلك بالاعتماد علی کتب سابقة ؛ لاسیما الکتب الهندیة .

ولدینا اسماء شهیرة لعلماء آخرین اشتغلوا بالریاضیات ، یتمیزون بثقافات متعددة ، نذکر منهم : ابا کامل شجاع (ت حوالی ٩٠٠/٢٨٧) ، لم تصلنا من کتبه الهندسیة الا ترجمة عبریة (٢) ، وابا الوفاء البوزجانی (٣٢٨ – ٩٤٠/٣٨٨ – ٩٩٨) ، الذی ترجم وشرح کتاب دیوفانتس ، وزاد فی بحوث الخوارزمی فی الجبر ، وله کتاب فی الحساب لم یصلنا ، وانما وصلنا ملخص فارسی له (٣) ، وابا بکر محمد الکرجی (ت ٤١٠ او ١٠١٩/٤٢٠ – ٢٩) ، وهو الذی اصلح فی جبر الخوارزمی ، وله کتاب فی الجبر والمقابلة عرف بالفخری (٤) ، لانه اهداه للوزیر البویهی فخر الملك ، وفیه

---

(١) تحقیق مصطفی مشرفة ومحمد مرسی ، ١٩٣٧ ؛ نشر وترجمة Rosen ، بعنوان :
The Algebra of Mohammed ben Musa. London, 1831.

(٢) نشرها . Suter : Bibl. math 3série, 10 Vols, p. 15 --- 42.

(٣) انظر Woepcke فی J. A Ext. 1855. Paris, p. 89 عنه ، انظر ابن القفطی ، ص ٢٨٧ ؛ انظر :
Ency. (art Abû.l — Wafâ') t1, p. 115.

(٤) لم یبق الا قسم منه له خلاصة من Woepcke ، بعنوان :
Ext du Fakhri. Paris, 1853.
انظر : Brockl Op. Cit., : p. 219.

ستون مسألة تتعلق بالجبر ، فتناول فيهما تصنيف الأجهاز وحساب المعلومات والمجهولات ، وله كتاب آخر اسمه الكافى فى الحساب (١) ، يعالجه دون استخدام الارقام ، واحمد النسوى (حوالى ١٠٤٠/٤٢٣) ، الذى له كتاب المقنع فى الحساب الهندى ، والصغير فى الحساب (٢) ، والسموءل المغربى (حوالى ١١٧٥/٥٧٠) ، وهو يهودى اسلم ، الف كتابه القيم : الباهر فى الجبر (٣) ، وبهاء الدين العاملى (٩٥٤ - ١٥٤٧/١٠٣٢ - ١٦٢٢) الف خلاصة الحساب ، ويبدو فيه شغفه لهذا العلم ، فهو يحوى اصوله وفوائده مستخلصا اياه من كتب المتقدمين ، ويقدم الأمثلة والجداول (٤) ، وغيرهم (٥) .

علم الهيئة (٦) ، ويعرف باسماء مختلفة مثل علم التنجيم أو الافلاك ؛ وان كانت كلمة تنجيم قد انحصرت فى قراءة الطالع بالتنبؤ بالحوادث المستقبلة ، وهذه أطلق عليها صناعة ، وبذلك فتصل بين علم الهيئة والتنجيم . وعلم الهيئة نظرى وعملى ، يرمى الى رصد

---

(١) وهو مخطوط بمكتبة جوته ، له ترجمة المانية من Hocheim ، بعنوان: Kâfi f ! — 1 — Hisâb). Halle, 1870 — 80.

انظر ، ميلى الترجمة ، ٢٢٠ ، الحرجى ، انظر .
Ency. (art la-Karkhî) t2. p. 812.

(٢) كلاهما مخطوط ، عنه ، انظر Suter :
Bibl. Math 3e série, 7e Vol. 1906. 2,e Vol. 1901.

(٣) تحقيق وتحليل صلاح احمد رشدى ، دمشق ١٩٧٢ ، عرفه الاوربيون .

(٤) نص وترجمة Nesselmann ، بعنوان : Essenz der Rechen Kunst-Berlin, 1843 . كما لدينا نشر نصه من Woepcke ، ط . كلكتا ، ١٨١٢ .

(٥) مثل قسطا بن لوقا البعلبكى الشامى (ت ٩١٢/٣٠٠) ، الذى الف كتابا لم يصلنا اسمه : المدخل الى الهندسة . ابن صاعد ، ص ٢٧ ؛ ابن القفطى ، ص ٢٦٣ .

(٦) المقدمة ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، بالتفصيل ، انظر .
Ency. (art Astronomie) t1, p. 504-8; (art Astrologie) t1, p. 502 — 5 .
Delambre C. : Hist, de l'art — au moyen âge. Paris, 1819.

حركات الكواكب ، لأهميتها فى تحديد الوقت والمواقيت ، وفى الحياة العملية مثل السير فى الصحارى والبحار .

وقد كانت مبادىء علم الهيئة معروفة عند العرب الحضر مثل اليمنيين والكلدانيين رسموها فى هياكل معابدهم ، اما فى البادية فاقتصر على ما توراثته الأجيال بما يدرك بالعين ، فوجدنا اسماء الكواكب فى قصائد الشعراء ، وجاء القرآن يؤيد هذه المعرفة (١) ، لكن العرب تلقت علم الهيئة الحقيقى ، نحو منتصف القرن الثانى الهجرى فى عهد العباسيين ، وذلك بالاتصال بالحضارات المختلفة ، بنقله من كتب الهنود واليونان وغيرهم . فاعتمدوا على مصدر هندى اشهره : السند هند (٢) ، وهى كلمة عربية محرفة عن السنسكريتية لاسم : السدهانت "Siddhânta" ، اى مقاله الأفلاك لأحد مؤلفيه فراهمهيرا "Varahamhira" (حوالى ٥٠٥ م) ـ الذى يسميه العرب كنكة الهندي ـ وكان زار الدولة العباسية فى ٧٧٣/١٥٦ ـ عبارة عن عدة كتب ، كما اعتمدوا على مصدر يونانى اسمه المجسطى "Almagistus" اى الأعظم ؛ وهو مكون من ثلاث عشرة مقالة ، والهيئة ، لمؤلفهما بطليموس (٣) "Ptolemaios" و "Ptolemeius" (حوالى ١٦٨ م) ، الذى اشتهر عندهم بالقلوذى او القلوزى ، ربما تحريفا لاسم قلوديس "Claudius" .

---

(١) مثل : [والسماء ذات البروج ٨٥ : ١] و [ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ٩ : ٣٦] .

(٢) ابن صاعد ، ص ١٣ ، ٤٩ ـ ٥٠ ؛ البيرونى ، كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، ط . London ، ١٨٨٧ ، ص ٢٠٨؛ حاجى خليفة ، ١ ص ٢٢ . وان كان الخليفة المنصور لم يأخذه كما هو ، وانما امر أن يؤلف منه كتابا تتخذه العرب اصلا فى حركة الكواكب . أنظر . Bibl. Arab Hisp, tI, p. 429 ، كذلك ذكروا كتبا هندية أو فارسية اخرى ، منها كتاب اسمه : طمطم . المقدمة ، ص ٣٩٢ ؛ انظر . ميلى ، العلم ، الترجمة العربية ، ص ٣٠ .

(٣) مثلا : ابن صاعد ، ص ٢٩ ـ ٣١ . كما اطلعوا على كتب غيره من الفلكيين مثل :

و Ménélaos و Autolykus و Aristarque و Hypsikles
Theodosios.

ولكن العرب لم يكتفوا بالنقل أو الترجمة ، وانما عملوا على تقدم علم الهيئة بما اضافوا اليه من معلومات جديدة ؛ بحيث أن علم الهيئة يعتبر العلم العربى الذى ظل يتداول حتى وقت ظهور الطباعة ، بل ما زالت اضافات العرب فى هذا العلم تثير الاندهاش فى وقتنا الحاضر . فقد أصلحوا المقاييس الفلكية القديمة ، وقاموا بدراسة الكسوفات والخسوفات ، وعرفوا بدقة النصبة الفلكية ومواضع النجوم ومجموعاتها ، واوجدوا تعابير فلكية اغنت علم الفلك وجعلته مرنا ، وقد نقلت هذه التعابير الى اللغات الأوروبية ، مثل (١) : الطائر "Altair" ، والارنب "Arnab" ، والذنب ، والعقرب "Hakrabi" ، وقرن الثور "Taurt" ، والسموت "Azimuth"(Sommet) ، واهتموا على الخصوص بالتقويم القمرى ، ووضعوا له منازل . بشكل لم يعرف قبلا . وقد نشأت عنه مشكلة تحديد يوم الصيام ؛ وان حلها الفاطميون بان جعلوا الحساب وحده كافيا لتحديد أول شهر الصيام ، وذلك بثبوت الرؤيا بالحساب ، اما الصلاة فجعلت على أساس التقويم الشمسى .

ومن ناحية اخرى اسهم العرب فى تقدم هذا العلم بالتجربة التى جاءتهم من الملاحظة بانشاء المراصد ــ مفردها مرصد ــ فى كل مكان ؛ اذ كان انقسام وحدة دولة المسلمين سببا فى تعدد المراصد . وقد ساعدهم على ذلك معرفتهم بآلة فلكية اسمها الاسطرلاب او الاصطرلاب (٢) "Astrolabium" ، الذى كان قد اخترعه الاغريق ،

---

(١) من ذلك ، انظر . Globus Coelestis arabicus. : Dresdensi Lipsiae, 1865.

(٢) من أوائل من ألف عنها من العرب على بن عيسى ، نشره شيخو ، بيروت ١٩١٣ ؛ انظر . ميلى ، العلم ، ترجمة عربية ، ص ١٥١ . كذلك ، انظر . ابن الصفار ، العمل بالاصطرلاب وذكر الاته واجزائه ، تحقيق Millâs ، فى مجلة المعهد المصرى فى مدريد ١٨٥٥ ، نص ص ٤٦ وما بعدها ، ترجمة ص ٣٥ وما بعدها ، بصفة عامة ، انظر . Ency. (art Asturlâb) led, tI, p. 508 — 510; 2ed, tI, p. 744 sqq. ، مختار صبرى ، الاصطرلاب ، البحث فى مجلة الهندسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٧ ؛ م.

وهى كلمة يونانية معناها ميزان النجم أو مرآة النجم ، وأن ادخل العرب عليها بعض التحسينات . فكانت هذه الآلة لا تقتصر فقط على رصد الكواكب والنجوم ، وانما استخدمت كذلك فى تحديد ابعاد الاجســــام ، ومن كان ينبغ فى صـــنعها أو استعمالها يعرف بالاسطرلابى (١) . وعرفوا منها انواعـا : اشـهرها المسطحى او المسطح ، وهو الذى سموه ذات الصفائح ، ويتكون من كرسى وقطب وصفيحة وحجرة وحلقة ، وعرفوا الاسطرلاب الكرى (٢) . كذلك عرفت آلة اخرى بأسم ذات الحلق ، وهى يونانية الأصل ـ يبدو انها تتكون من حلقات نحاسية ، أول ما صنعت فى أيام المأمون (٣) . كما عرفوا الصفيحة الزرقالية (٤) ـ وهو اسطرلاب جديد به الكثير من التحسينات ـ نسبة الى الزرقلى مخترعها . وكان اشهر المراصد هو مرصد الخليفة المأمون العباسى ، الذى بنى فى دمشـــق (٥) ، ومرصد عضد الدولة البويهى فى بغداد (٦) ، والمرصد الذى انشـاه الفاطميون ايام الحاكم ، وفى ايام الوزير الأفضل على جبل المقطم(٧) .

=

A Note on an Early Treatise on the Astrolabe. : Darbey Geographical Journal. February, 1935.

Sèdillot : Mémoire sur les instruments astronomiques des Arabes Paris, 1841.

(١) النجوم ، ٥ ص ٢٧٥ . مثلا البديع الاسطرلابى (ت ١١٤٤/٥٣٩) الذى نبغ فى عمل الاسطرلابات .

(٢) أنظر . امام ، تاريخ الفلك عند العرب ، المكتبة الثقافية ، نوفمبر ١٩٦٠ ، ص ٤١ ـ ٤٢ . ربما يكون واضع تصميمه ابو البتانى . انظر ، بعده .

(٣) المقدمة ، ص ٣٨٦ .

(٤) عن ذلك ، انظر . Vallicrosa :

Estudios sobre Azarquiel et Tratado de la azafea. Archeion, XIV. 1932 p.p. 392 — 412

. هو ابن يحيى النقاش من فلكيى الاندلس،

وايضا : امام ، تاريخ الفلك ، ص ٤٦ ؛ ميلى ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ ؛ انظر . بعده .

(٥) ابن صاعد ، ص ٥٠ . وذلك فى سنة ٨٢٩/٢١٤ .

(٦) ابن القفطى ، ص ٢٢٩ .

(٧) وفيات ، ٢ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

والمرصد الذى انشاه هولاكو (هولاجو) فى مراغة باذربيجان (١) .

ولدينا طوال الفترة الاسلامية اسماء فلكيين بلغ صيتهم اوربا ، وحازوا درجة كبيرة من الشهرة . وقد كانت مؤلفاتهم تسمى عادة باسم زيج او زيجة ، جمعها ازياج او زيجات ، وهى كلمة من اصل فارسى « زيك » . وليس معناها الكتب التى تتناول علم الهيئة فقط ، ولكن ايضا الجداول الفلكية (٢) ؛ فقد كان للفرس ازياج اطلع عليها العرب من الافلاك .

واول طبقة كانت فى عهد الخليفة العباسي المنصور ، اى فى اوائل العصر العباسى ، اعتمدت على الخصوص على علم الفلك الهندى ، نذكر منها (٣) : محمد بن ابراهيم الفزازى ، الذى عاش زمن المنصور ، وهو الذى يعتبر اول فلكى اسلامى ترجم كتاب السند هند ، كما انه الف كتابا فى علم الفلك سماه : السند هند الكبير ، واول من استخدم الاسطرلاب . فمن كتبه : السند هند الكبير ، والعمل بالاسطرلاب ، والزيج على سنى العرب . ثم نذكر يعقوب ابن طارق (حوالى ت ١٨٠/٧٩٦) ، وهو الاخر ترجم كتاب السند هند ، وله جداول وضعها على اساس هذا الكتاب المترجم .

بعد ذلك فى عهد المامون جاءت طبقة ثانية ظهرت ابحاثها نتيجة للعمل فى مرصد المامون ، ومن ترجمة الكتب اليونانية لاسيما المجسطى ، منهم : سند ابن على (٤) ، الذى اشرف على بناء المرصد ، وله جداول لعلها من عمل عديد من الفلكيين ، ومحمد بن موسى الخوارزمى (ت ٢٢٦/٨٥٠) عالم الرياضيات المعروف ــ الذى لخص

---

(١) انظر . Jourdain :
Mémoire sur l'Observatire de Mérajah, 1810

(٢) بتفصيل عن هذه الكلمة ، انظر مثلا : نلينو ، علم الفلك ، ترجمة عربية ، ص ١٤ ؛ امام ، ص ٢٤ .

(٣) ابن صاعد ، ٤٩ ــ ٥٠ ؛ القفطى ، ص ٢٧٠ ؛ امام ، ص ٢٣ ؛
Les Penseurs, II, p. 197 sqq. : Carra de Vaux.

(٤) ابن صاعد ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

جداول الفزارى وعمل منها زيجة (٢) ، وعدل كتاب السند هند ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، الذى كان معاصرا للخوارزمى ، واعتبر من كبار الفلكيين وعرف للاوربيين باسم "Alfraganus" واشهر كتبه : الحركات السماوية وجوامع علم النجوم فى ثلاثين فصلا (٢) ؛ فند فيه اخطاء بطلميوس ، وتكلم عن سبب الخسوف والكسوف وغياب الشمس عند القطب .

أما الطبقة الثالثة ، فاشهرها على الاطلاق عالم اسمه محمد ابن سنان المعروف بالبتانى (ت ٩٢٩/٣١٧) ، نسبة الى بتان قرية فى حدود حران ، الف عدة كتب فى الفلك سماها الزيج ، اشهرها كتاب الزيج الصابىء (٣) ، وهو احد الجداول الفلكية الهامة ؛ حيث استخدم الرسومات الهندسية الدقيقة ، واقتفى مثل غيره من كبار فلكيى العرب تعيين النصبة الفلكية ، كما اصلح بعض الارصاد . وبذلك ساعد البتانى على تقدم علم الفلك ، ولذا يعتبر طبقة كاملة فى علم الفلك ، واشتهر فى اوربا باسم : "Albateguns" ؛ حيث ترجم كتابه الى اللاتينية والأسبانية منذ زمن مبكر . ويمكننا ان نذكر بجانب البتانى ابن يونس المصرى (ت ١٠٠٩/٢٢٩) ، من فلكيى العزيز والحاكم الفاطميين فى مصر ، وعرف زيجه باسم : « الزيج الكبير

---

(١) نفسه ، ص ٥٩ ، ٥٤ . لدينا النص اللاتينى وترجمته الالمانية من : Björnbo und Besthorn ، بعنوان : Die Astronomischen Taflen. kôpenhawn, 1914.

(٢) ابن صاعد ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ؛ امام ، ص ٣١ ــ ٣٢ . كتابه يوجد مخطوطا ، وترجم مرتين الى اللاتينية ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم طبعت هذه الترجمات فى اوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

(٣) نشر فى اوربا عدة مرات فى ١٥٣٧ و ١٦٤٥ م . حققه Nallino ، وهو نشر للنص وترجمة لاتينية ، وله مقدمة ، بعنوان : Opus Astronomicum Roma. 1899 — 1907, 2Vols.

انظر : Carra de Vaux : Op. Cit., 11, p. 208 sqq.

اختصر البتانى كتاب المحطى ، ويوجد منه نص معروف باسم : الاختصار ، بمكتبة الاسكوريال . انظر : Cafiri : Bibl Arab. His p. 1.

الحاكمى » ، لأنه أهـداه الى الخليفـة الحـاكم الفاطمى ، أوزيج ابن يونس (١) ، وقد بسط فيه القول والعمل ، اذا اعتمد على الآلات الصحيحة ، كما انه اشرف على انشاء المرصد فى عهد هذا الخليفة .

ثم بعـد ذلك ، نذكر البيرونى (ت ١٠٤٨/٤٤٠) ، الذى الف : القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم (٢) ؛ لأنه اهـداه الى سلطان غزنة مسعود بن محمود الغزنوى ، اورد فيه كل المعلومات الخاصة بالفلك ، يحتوى على اثنين واربعين ومائة باب ، يبدو انه اعتمد فيه على كتاب الخازن (ت ٩٦٠/٣٤٩) ، الذى له كتاب : الآلات العجيبة رصدية (٣) . ونذكر الزرقلى (ت ١٠٨٧/٤٨٠) ، المعروف للأوربيين باسم ارزخال Arzachel ، له كتاب مشـهور اسمه : الازياج الطليطلية (٤) ، جمع فيه ما بلغه علم الفلك فى الاندلس من تقدم ، كما نبغ فى صناعة الاسطرلاب .

بعد ذلك ، لم يافل علم الهيئة بمجىء المغول ؛ فقد ظهر عالم كبير فى عهدهم هـو نصير الدين الطوسى ، الملقب بالمحـقق (ت ١٢٧٤/٦٧٢) ، وهو شيعى اسماعيل ، عمل رئيسا للمرصد الذى انشاه هو لا جو فى المراغة بأذربيجان ، وزوده بمكتبة قيل فيها

---

(١) لم يبق منه غير قسم ، بينمـا يذكر ابن خلكان انه كان فى اربعـة مجلدات . انظر نص وترجمة له من Caussin ، بعنوان :
Le livre de la grande table Hakemite. Paris, 1804.

عن ابن يونس : وفيات ، ٢ ص ٨٥ — ٧٦ ؛ انظر .
Ency. (art Ibn Yûnus) t2, p. 454 — 5.

(٢) نشرت وترجمت بعض اجزائه ، انظر . Wright :
The book of construction in the elements of astrology, written in Ghazna 1029 A. D. Text. translation. London 1934.

(٣) الفهرست ، ص ٢٢٦ ، ٢٨٢ ؛ انظر .
Ency. (art Khâzin) t2, p. 992 — 3 .

(٤) لا يوجد بالعربية ، وانما باللاتينية ، ترجمها Zinner ، بعنوان :
Die Taflen von Toledo. Osiris. 1, 1932.

؛ انظر . ميبلى ، ص ٣٥٩ ، ٢٦٢ ؛
Op. Cit., 11, p. 227 sqq. : Carra de Vaux.

اربعمائة الف مجلد ، وظهر له كتاب اسمه الزيج الايلخانى (١) ، الذى فيه جداول فلكية ، نسبة الى ايلخان المغول .

***

علم الجغرافيا : وقد كان معـــروفا عنـد المصريين القـــدماء واليونان ؛ وان لم يتخذ الطريق العلمي الا على يد اليـونان ؛ فكلمة جغرافيا هى كلمة يونانية ، تعنى وصف الأرض بما فيها من تضاريس واجواء . وقد بدأ اهتمام العرب بعلم الجغرافيا بمثل ما فعلوه بالنسبة للعلوم الأخرى ، وذلك عن طريق الترجمة والنقل لما كتبه اليونان مثل بطلميوس "Ptolemaios" ـ الفلكى السابق ـ الذى اشتهر عندهم بالقلوذى أو القلوزى كما ذكرنا ، وعرفوا له كتبـــا جغرافية عديدة اهمها كتاب : « الجغرافيا (٢) » . ولكن هـذا العلم تقدم على يد العرب ؛ بسبب امتداد رقعة الاسلام ، وبسبب النشاط التجارى سواء فى البر او البحر ، وسيطرة المسلمين على ممالك التجارة العـــالمية ، وبسبب الحج الذى كان يهيىء للمسلمين المعرفة الجغرافية ، وبسبب الرحلة التى اعتبرت فنا اسلاميا سبقت عصر الرحلات الأوربية ، اذ احبوا السياحة والجولان .

والواقع ان تقسيم الجغرافيا ـ كما نعرفها الآن ـ ، لم تظهر الا فى العصر الحديث ؛ فقبـــــل ذلك كان الجغرافيون يتكلمون عن الجغرافيا بصفة عامة . ومع ذلك بشائر التخصص ، فى الجغرافيا وجدت ، والجغرافيا التى اقبل عليها العرب ، هى بالأولى الجغرافيا الوصفية ، التى تتناول وصف البلاد والمدن والأنهار والجبال وحالة السكان ، وذلك بقصد تسهيل تحصيل ضريبتى الجزية والخراج ، ومن ثم كانت كتب المسالك والممالك ، او كتب تقويم البلدان ، من اقدم

---

(١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا . انظر .

: Suter : Ency, (art al Tûsî) t4, p. 1032 sqq,
Die Mathematiker und Astronomen der Araber; und iher Werke. Leipzig., 1900. j. 148 — 53.

؛ انظـر . ميلى ، العلم ، ص ٢٩٧ ، ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٢) أول ترجمة عربية له من ثابت بن قرة .

الكتب فى الجغرافيـــا العربية . كذلك هنـــاك لون من الكلام فى الطبواغرافية ، الذى اتى من الكلام عن المدن وخططها . كما ظهرت فى ايام العرب بعض محاولات للتكلم عن الجغرفيا الرياضية ، وهى الخاصة بتحديد خطوط الطول والعرض ، ومسافات البلدان ؛ وفى ســبيل ذلك ، استخدموا معلوماتهم فى علوم الهيئة والرياضيات . ومنذ عهد المامون سعوا الى معرفة طول الأرض ، التى قسموها سبعة اقاليم بين المشرق والمغرب – وكلمة اقليم كلمة عربية ، تعنى الجزء المقلوم من الارض التى تتاخمه اى المقطوع (١) – وهذا التقسيم بنوه على درجة الحرارة بالبعد والقرب من خط الاستواء – أو خط وسط الارض – حيث يعتبرون الاقليم الرابع ، الذى به دار الاسلام افضــل الاقاليم . اما عن الجغرافيــا الجيلوجية (٢) ، فنجـــد أن بعض الجغرافيين العرب يتحدث عن تغييرات فى القشرة الأرضيه ، وكيف ان تكوينها كان بطيئا ، وان الجزيرة العربية مثلا كانت بحرا قبـــل ان تكون برا ؛ وان الحفريات تمثل كائنات حية تعيش فى الأزمنــة القديمة ، وهو ما نسميه بالعصور الجيلوجية . كذلك ادركوا ان شكل الارض كرى – وان عرف اليونان ذلك ايضا – وانها محفوفة بعنصر الماء ، الذى سموه البحر المحيط ؛ ولهم تشبيهات طريفة فى ذلك ، منها ان الأرض كعنبة طافية على الماء (٣) . اما عن الجغرافيا الجوية ؛ فانهم تحدثوا كثيرا عن الجو والرياح والأمطار .

ونعرف طبقات عديدة من الجغرافيين المسلمين ، ظهرت طوال فترة الحضارة الاسلامية . فمنها طبقة اولى وصلتنا اخبارها ، اغلبها تختص بالرحـــلات (٤) ؛ وهذا يدل على اهميـــة الرحلة بالنســـبة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر ما كتبه البيرونى ، تحقيق ما للهنـد من مقولة فى العقـــل أو مرذولة ، نشر Sachau ، Leipzig ، ١٨٨٧ .

(٣) المقـدمة ، ص ٣٥ .

(٤) عن ذلك ، انظر . نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ ؛ زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . Ferrand :

=

للجغرافيا الاسلامية . فنذكر سليمان السيرافى (٨٥١/٢٣٧) ، الذى وصف لنا البحار حتى الصين ، وان وصلنا وصفه بتسجيل آخر اسمه ابى حسن السيرافى (حوالى ٩٠٣/٣٠٨) ، ثم سـلام الترجمان (حوالى ٩/٣) ، ويظهر انه كان على معرفة بعدة لغات ، وذهب الى القوقاز ونهر اتل (الفلجا) ، ثم ابن فضلان الذى ذهب الى بلاد البلغار فى سنة ٩٢١/٣٠٩ . وقد وصلنا وصف رحلة هؤلاء الثلاثة فى كتب المتأخرين (١) ؛ وان قيل ان أول من كتب فى الجغرافيا هو الكلبى (٢) (ت ٨٠٢/٢٠٤) ـ وهو مؤلف لعدة كتب لم تصلنا ـ أو الكندى (٣) (ت ٨٧٣/٢٦٠ ـ ٤) ـ الفيلسوف السابق الذكر ـ الذى ترك لنا مؤلفا جغرافيا بنصه اللاتينى المترجم .

بعد ذلك ظهرت طبقة هامة جدا ، منها الخوارزمى (فى ايام المأمون) ، وله كتاب : صورة الأرض ، وهو ترجمة لكتاب بطلميوس القلوذى (٤) ، وابن خردذابه (حوالى عام ٨٤٦/٢٣٢) ، له كتاب

=

Relation des voyages et Textes géographiques arabes, persane et tures rélatifs á l'extrême Orient du VIII au XVII Siècle. 2 Vols Paris. 1913 — 4.

Relation des voyages, faits par, : Langlés et Reinaud: les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine ed. et trad 2 vols. Paris. 1845.

(١) نشرت رسالة ابن فضلان فى وصف الرحـلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٩٢١/٣٠٩ ، حققها سامى الدهان ، دمشق .

(٢) معجم الأدباء . ط ، رفاعى ، ٢٩١ . له كتب لم تصلنا ، منهـا : البلدان الكبير ، والبلدان الصغير ، وكتاب الانهار ، وكتاب الاقاليم . انظـر ، نفيس ، جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة فتحى عثمان ، (سلسلة الألف كتاب (٢٧٢) ، ص ٤٢ .

(٣) مروج ، ط . Paris ، ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ؛ انظر ، متز ، الحضارة الاسلامية ، ٢ ص ١ . لدينا منه مؤلفات بنصـها اللاتينى المترجم . انظر . ميلى ، العلم ، ص ١٥٣ .

(٤) تحقيق Hans Mazik ، ط . Leipzig ، ١٩٢٦ .

المسالك والممالك (١) ، واليعقوبي (ت ٨٩٧/٢٠٤) ، وله كتاب : البلدان (٢) ، والجيهاني (أو آخر ٣ /٩) وكتابه لم يصلنا الا على يد ابن الفقيه (حوالي ٩٠٣/٢٩٠) الذي له كتاب : مختصر كتاب البلدان (٣) ، وان رستة (حوالي ٩٠٣/٢٩٠) ، له كتاب : الاعلام النفسية (٤) .

ثم طبقة اخرى منها : قدامة بن جعفر (ت ٩٢٢/٣١٠) ، له كتاب : الخراج وصفة الأرض (٥) ، والبلخي (ت ٩٣٤/٣٢٢) ، له كتاب : صور الأقاليم (٦) ، وهو من رسامي الخرائط ، والهمداني (ت ٩٤٥/٣٣٤) ، له كتاب : صفة جزيرة العرب (٧) ، والاصطخري (حوالي ٩٥١/٣٤٠ – ٢) ، له كتاب : مسالك الممالك ، والمسعودي (ت ٩٥٦/٣٤٥) ، الذي بسبب رحلاته العديدة ودقة وصفه قورن بالرحالة اليوناني بلنيوس "Plinius" ، وله عدة كتب منها : التنبيه والاشراف (٩) ، وابن حوقل (حوالي ٩٧٧/٣٦٦) ، له كتاب : المسالك والممالك (١٠) ، والمقدسي (حوالي ٩٨٨/٣٧٨)

---

(١) تحقيق وترجمة de Goeje ، ومعه كتاب الخراج لقدامة ، في مجموعة B.G.A. ، ٦ ، ط . Leyden ، ١٨٨٩ .

(٢) ومعه كتاب ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، في مجموعة B.G.A. ، ط . Leyden ، ١٨٩١ – ١٨٩٢

(٣) تحقيق de Goeje ، في مجموعة B.G.A. ، ١٨٨٥ .

(٤) انظر ، هامش (٢) .

(٥) انظر ، هامش (١) .

(٦) أورد حاجي خليفة اسم هذا الكتاب ، عنه ، انظر ، Ency. (art al-Balkhi) t1, p. 638.

(٧) تحقيق Muller ، ط . Leyden ، ١٨٩١ .

(٨) تحقيق de Goeje ، في B.G.A. ، ط . Leyden ، في ١٨٧٠ – ١٨٩٣ .

(٩) تحقيق de Goeje ، في B.G.A. ، ط . Leyden ١٨٩٤ ، وله ترجمة فرنسية من Carra de Vaux ، بعنوان : Le Livre de l'avartissement et de la revision. Paris, 1897.

(١٠) في B. G. A ، ط . Leyden ، ١٨٧٠ – ١٨٩٣ .

له كتاب : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (١) .

ثم طبقة أخرى منها البيرونى (ت ١٠٤٨/٤٠٧) ، له عدة كتب مثل : الآثار الباقية عن القرون الخالية (٢) ، وكتاب الهند ، وناصر خسرو (ت ١٠٦١/٤٥٣) ، له كتاب : سفر نامه (٣) ، والبكرى (ت ١٠٩٤/٤٧٨) ، له كتاب . معجم ما استعجم (٤) ، والمسالك والممالك (٥) .

ثم طبقة منها : الادريسي (ت ١١٦٦/٥٦٢) . له كتاب : نزهة المشتاق فى اختراق الافاق (٦) ، ويعرف ايضا باسم كتاب رجار، يمتاز عما سبقه بما كتبه عن اوربا ؛ بحيث اطلق عليه استرابون "Strabo" العرب ، وابو حامد الغرناطى (ت ١١٦٩/٥٦٥) ، له عدة كتب مثل : تحفة الألباب ونخبة الاعجاب (٧) ، وابن منقذ (ت ١١٨٨/٥٨٤) ، له كتاب : الاعتبار (٨) .

ثم طبقة منها : الهروى (ت ١٢١٤/٦١١) ، له كتاب : الاشارات الى معرفة الزيارات (٩) ، وابن جبير (ت ١٢١٧/٦١٤) له كتاب : رحلة (١٠) ، وياقوت (ت ١٢٢٩/٦٢٦) ، وقد اعتمد

---

(١) تحقيق de Goeje ، فى مجموعة B.G.A. ، ط . Leyden ، ١٨٧٠ – ١٨٩٣ . وله ترجمات انجليزية وفرنسية .

(٢) ط . Leipzig ، ١٨٨٧ ، ترجمة Sachau ، ط London ، ١٨٩٧ . عن كتاب الهند ، انظر . قبله .

(٣) تحقيق يحيى الخشاب الى العربية ، القاهرة ١٩٤٥ ، وترجمة Schefer ، الى الفرنسية ، ط ، Paris ، ١٨٨١ .

(٤) تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٠ .

(٥) لدينا جزء منه قد نشر ، هو : كتاب العرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق de Slane ، ط . Paris ، ١٩١١ ، ط . الجزائر ، ١٨٥٧ ، وطبعة حديثة ١٩١١ – ١٩١٣ .

(٦) ط . Roma ، ١٩٥٢ .

(٧) فى (B. G. A.) ، ط . Leyden ، ١٨٨٥ .

(٨) نشره فيليب حتى ، Prinston ، ١٩٣٠ .

(٩) ط . سنة ١٩٥٣ ، نشر Sourdel .

(١٠) مثلا تحقيق نصار ، مصر ١٩٥٥ .

على كتب عديدة لم تصلنا ، له كتاب : معجم البلدان (١) ، والمشترك وضعا والمفترق صقعا (٢) ، والبغدادى (ت ١٢٣١/٦٢٩) ، له كتاب الافادة والاعتبار ، والتحفة السنية فى اسماء البلاد المصرية (٣) ، والقزوينى (ت ١٢٨٣/٦٨٢) ، له كتاب : صفة الارض (٤) ، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وابن سعيد (١٢٨٦/٦٨٥) : المشرق فى حلى المشرق والمغرب فى حلى المغرب (٥) ؛ والعبدرى (حوالى ١٢٨٩/٦٨٨) – وهو يشبه ابن بطوطة – كتب عن الرحلة المغربية (٦) ٠

واخيرا طبقة منها : الدمشقى (ت ١٣٢٧/٧٢٧) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (٧) ، وابو الفدا (ت ١٣٣١/٧٣٢) : تقويم البلدان (٨) ، وابن فضل الله العمرى (ت ١٣٤٧/٧٤٨) : مسالك الابصار فى ممالك الامصار (٩) ، وابن بطوطة (ت ١٣٧٧/٧٧٩) ٠ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب

---

(١) تحقيق الشنقيطى ، ٨ اجزاء ، القاهرة ١٩٠٦/١٣٢٣ ، تحقيق Wust ، ط ٠ Leipzig ، ١٨٦٦ ٠ له ترجمات انجليزية ٠

(٢) تحقيق Wust ، ط ٠ Gottingen ، ١٨٤٦ ٠

(٣) تحقيق Moritz ، القاهرة ١٨٩٨ ، ترجمة وتعليق De Sacy ، بعنوان :
Reletion de l'Egypte, par. Abdal — Lattf. Paris, 1810.

(٤) تحقيق Wust ، فى مجلدين ، ط ٠ Gottingen ، ١٨٤٨ — ١٨٤٩ ٠

(٥) اجزاء منه نشرها Vollers و Tallquist ، Leide ١٨٩٩ ٠ له ايضا كتاب مختصر جغرافية ، مخطوط بباريس ، برقم ١٩٠٥ ٠

(٦) هى مخطوطة بجامعة الجزائر ، برقم ٢١٠٢ ٠ عنه انظر ٠
Ency (art al - 'Abdari) tl, P. 69 — 70.

(٧) ط ٠ Petersbourg. ، ١٨٦٦ ، وترجمت على يد Mehren ط ٠ Copenhague ، ١٨٧٤ ٠

(٨) تحقيق Schier ، ط ٠ Drsldn ، ١٨٤٠ ٠ وله ترجمة لاتينية قديمة من Reiske ، ط ٠ Leyde. ١٧٧٠ — ١٧٧١ ٠

(٩) تحقيق زكى باشا ، الجزء الاول ، ط ٠ دار الكتب ١٩٢٤ ٠ وله ترجمة لبعض اجزائه من Demombynes ، ط ٠ Paris. ، ١٩٢٧ ٠ يوجد بقيته مخطوطا بدار الكتب برقم ٢٥٦٨ ٠

الأسفار (١) وابن الوردى ـ سراج الدين (ت ١٤٥٧/٨٦٢) : جزيدة العجائب وفريدة الغرائب (٢) .

●

علم الخرائط : وأول من قام برسم الخرائط المصريون القدماء ؛ وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن خرائطهم ؛ فان النصوص التاريخية وبعض النقوش على جدران المعابد ، تدل على أن المصريين القدماء رسموا خرائط لأرض مصر وما يجاورها ؛ تظهر فيها الأودية بما فيها من الجبال والحجارة (٣) . وقد أخـــذ اليونان خرائط المصريين القدماء ـ بملاحظة جغرافيي المسلمين (٤) ـ وتوسعوا فيها وأضافوا اليها هم والرومان من بعدهم فنا جديدا ، وساعدهم على ذلك اتساع معارفهم ؛ بسبب تكين امبراطوريات شاسعة الأرجاء فى عهد الاسكندر الأكبر والبطالمة والرومان : فقد رسموا خرائط على أساس تقسيمها الى مناطق حرارية ، موزعة بين خطوط وهمية متساوية فى الطول مختلفة فى العرض ؛ حتى يتمكنوا من ضبط مواقع البلاد .

وقد ورد فى كتب المسلمين أسماء أشهر رسامى خرائط اليونان والرومان ،نذكر منهم : هبـــارقة "Hipparchus" (ت ١٥٠ ق٠م) ، وبلينى "Plinius" (١٣ ـ ٧٩ م) ؛ ومارينوس الصورى "Marinus" (٧٠ ـ ١٣٠) (٥) ؛ الا أن أشـــهر من رسم الخرائط فى العصر القـــديم ؛ هـــو ولا ريب بطلميوس القـــلوذي "Ptolemaios" (٩٠ ـ ١٦٨ م) ، الذى يعتبر آخر جغرافى قديم ، قدم الينا خرائط يعتد بها ؛ وقد بقيت خرائط بطلميوس هذا أصلا يرجعون اليها فى رسم خرائطهم ؛ وهـــو معروف عندهم بمؤلفاته التى أهمهـــا : « الجغرافيا » ، و « المجسطى » ، و « الهيئة » و « تسطيح الكرة » .

---

(١) مثلا ، القاهرة ١٩٣٨ ، فى جزءين ، ترجمـــة الى الفرنســـية Defremeny Sanguinetti

(٢) نشر وترجمة لاتينية من Hylander ، ١٨٢٣ ، ونص وترجمة لا تينية أخرى من Tornberg ، ١٣٥ ، وله طبعات مصرية .

(٣) مثلا بردية تورينو المعروفة ببردية الذهب ، أنظر .

(٤) التنبيه ، ص ٣١ .

(٥) نفســه ، ص ٢٥ .

ويبدو انهم اعتمدوا على هذا الكتاب الاخير ، فى ظهور علم تسطيح الكرة (١) ، ويقصدون به رسم الكرة الأرضية على الورق ؛ بحيث جعلوه فرعا من علم الهندسة . ولم تصلنا النسخ الأصلية لخرائط بطلميوس بسبب تطاول الزمن ؛ وانما وصلتنا فى خرائط المسلمين ، او فى خرائط لاتينية عن طريق بيزنطة فى وقت متأخر فى القرن الخامس عشر الميلادى (٢) .

حقا ان خرائط اليونان والرومان ، اعتبرت اساسا لرسم الخرائط عند المسلمين فى العصور الوسطى ؛ الا ان المسلمين لم يقلدوها تقليدا اعمى . فقد اضافوا اليها واصلحوا فيها كثيرا ، وساعدهم على ذلك اتساع رقعة املاكهم شرقا حتى حدود الصين وشمالا قرب باريس ؛ مما جعل لخرائطهم طابعا يختلف عن خرائط القدامى ، بحيث انه بمضى الوقت وجدنا للمسلمين خرائط ذات طابع اسلامى محض ، بعيدة عن التأثر بخرائط اليونان والرومان . فلا يستطيع العلم ان ينكر فضل المسلمين على تطور رسم الخرائط ؛ فقد بدات تظهر فى خرائطهم ـ لأول مرة ـ العلامات الأرضية ، التى تمثل الجبال والغابات والأنهار وغيرها من مظاهر سطح الأرض ، وهى عناصر تعتبر متممة للخريطة . فكان الجغرافيون المسلمون يرسمونها كما يراها الناظر فى الطبيعة ، او كما يراها من جانب واحد ؛ وذلك على عكس ما اتفق عليه فى الوقت الحاضر ، برسمها فى خطوط على سطح افقى ، برسم الجبال مثلا بما يعرف بالخطوط الكنتورية . وكذلك اصلحوا جداول بطلميوس للمدن ، واضافوا اليها اسماء كثيرة ، وكانوا يدلون عليها برسمها فى شكل دوائر . وكذلك اظهروا اتصال اجزاء من العالم لم تكن معروفة فى العهدين اليونانى والرومانى ، مثل اتصال الهند بالصين . وكانت خرائطهم ترسم

---

(١) كشف الظنون ، ١ ص ٣٨٣ .

(٢) انظر . Kammerer. La Mer Rouge. Mém de la Soc. Roy : de Geog. d'Eg. trv. Le Caire, 1929, p. 36.

لدينا فى مكتبة جامعة القاهرة ترجمة من اللاتينية لكتاب الجغرافيا وخرائطه لبطلميوس باللغة العربية ، ولا نعرف ـ لسوء الحظ ـ اسم المترجم ولا تاريخ الترجمة ؛ التى تظهر فى غاية الركاكة والغموض .

بصفة خاصة على أساس تقسيم الأرض الى سبعة اقاليم ، شمال خط وسط الأرض ، كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله .
ومن الطريف ان نذكر ملاحظة المسعودى الخاصة بخرائط المصريين القدماء ؛ فهم الذين جعلوا الأقاليم فى الجنوب سبعة كما فى الشمال (١) . كذلك نذكر هنا ، ان خرائط المسلمين تجعل الشمال في الجنوب ؛ والجنوب في الشمال ، والغرب فى الشرق ، والشرق فى الغرب ، وهى طريقة خصة بهم لرسم الخريطة .

هذا التفوق في رسم الخرائط عند المسلمين ؛ لم يظهر الا بعد ان توطدت اقدام المسلمين في البلاد التى كانت تتمتع بحضارات سابقة ؛ وذلك فى العصر العباسى الأول ؛ حيث ترجمت كتب اليونان وغيرها كما ذكرنا . بل ان الخليفة العباسى المامون (١٩٩ ـ ٨١٤/٢١٨ ـ ٨٣٣) ، أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطن سكناه وصحاريه ومدنه ؛ بحيث ان الخريطة التي عرفت باسم الصورة المامونية (٢) ، اجتمع على صنعتها عدة من جغرافي عصره ، فاقت كل الخرائط التى رسمها مارينوس وبطلميوس وغيرهما من القدامى ، وكانت مصورة بانواع الأصباغ .

وكانت اول طبقة من الجغرافيين العرب متاثرة ـ بطبيعة الحال ـ الى حد كبير بخرائط بطلميوس على الخصوص ، وذلك كما يظهر من الخرائط ، التى استخرجها محمد بن موسى الخوارزمى (حوالى ٨٢١/٢٠٦) ـ العالم الرياضى والفلكى المشهور ـ من كتاب الجغرافيا ، الذى الفه بطلميوس (٣) . ولكن بعد ذلك ظهرت للجغرافيين المسلمين ، خرائط تتميز بما اضيف اليها من معلومات

---

(١) التنبيه والاشراف ، ص ٣١

(٢) نفسه ، ص ٢٧ ، ٣٣ ؛ الزهدى ، كتاب الجغرافيا وخريطة الفزارى ، تحقيق محمد حاج ، فى B. E. O. tXXI, Damas, 1968.

(٣) انظر . تحقيق Hans ، ط . Leipzig. ، ١٩٢٦ ، بعنوان : صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار ، استخرجه ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى من كتاب جغرافيا ، الذى الفه بطلميوس القلوذى ،

جديدة من بلاد المسلمين وما يحيطها ؛ تعتبر مرحلة فى تطور رسم الخرائط . ويكفى ان نلقى نظرة علي خرائط أبى أسحق الاصطخرى (حوالى ٣٢٣ او ٩٣٤/٣٤٠ او ٩٥٢) ، وابن حوقل (حوالى ٩٧٧/٣٦٦) ؛ لنقرر وجود خرائط اسلامية محضة ، لا اثر فيها لخرائط بطلميوس وغيره . وقد كان اغلب الجغرافيين المسلمين يخصصون لكل اقليم فصلا ، ولكل فصل خريطة ، قد تكون ملونة ، وان لم يخرجوا بخرائطهم عن العدد واحد وعشرين (١) : ابتداءوها ببلاد الاسلام ، ثم ديار العرب ، ثم بحر فارس ، ثم المغرب ، ثم مصر ، ثم الشام ، ثم بحر الروم ، ثم الجزيرة ، ثم العراق ، ثم خوزستان ، ثم فارس ، ثم كرمان ، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند ، ثم اذربيجان ، ثم كور الجبال فى المنطقة الشمالية فى فارس ، ثم الديلم ، ثم بحر الخزر ، ثم المفازة التى بين فارس وخراسان ، ثم سجستان ، ثم خراسان ، ثم ما وراء النهر.

والواقع ان رسم الخرائط فى العصور الوسطى اصبح من الامور الشائعة فى الدول الاسلامية . وقد اهتم ملوك المسلمين انفسهم — حينما تعددت دولهم — بهذا الفن ، واولوه العناية الفائقة . فنسمع ان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ — ٩٥٢/٣٦٥ — ٩٧٥) قد امر برسم خريطة ملونة من الحجم الكبير ؛ انفق عليها اثنين وعشرين الف درهم . ويصف المقريزى هذه الخرطية فى كتابه الخطط ، فهى عبارة عن : مقطع من الحرير الأزرق ، غريب الصنعة، منسوج بالذهب ، وسائر الوان الحرير ، فيه صورة اقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها مسالكها ، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر ، وقد كتبت على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب او الفضة او الحرير ، كما كتب عليها : « ما امر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله ، واشهارا لمعالم رسول الله ، فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة » . كذلك وجد فى

---

(١) الاصطخرى ، مسالك الممالك ، تحقيق de Goeje (B.G.A.) Leyden ، ١٨٧٠ ، ص ٤٣ . هذه الخرائط مصورة فى اطلس Miller : Islam Atlas, Stuttgart, 1920, t3 cf.

خزائن خلفاء الفاطميين بقصورهم بالقاهرة المعزية مئات من ستور الحرير المنسوجة بالذهب ، فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ؛ مكتوب على صور كل واحد اسمه ومدة ايامه ، وشرح حاله (١) .

ولكن فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، حدث تطور جديد فى رسم الخرائط عند المسلمين ، لم يعرف له مثيل من قبل ، وذلك على يد اشهر جغرافى معروف ، هو العلوى الادريسى الحمودى (١) (ت ١١٦٦/٥٦٢) . فهذا الجغرافى الكبير ، الذى ولد فى سبتة « Cebta » فى عام ١١٠٠/٤٩٣ ، وينتمى الى الاسرة الادريسية العلوية فى مراكش ، كان قداضطر للهروب الى صقلية عند الملك المسيحى النورمانى روجر الثانى " Rogero II " ، وهو الذى يسميه العرب رجار بن رجار ؛ وقد استضافه هذا الملك فى بالرمو (بالرم) " Palermo " ، وقربه منه ، وجعله يرسم له خرائط العالم . وقد رسم الادريسى اثنتين وثمانين خريطة تعتبر من ادق ما وصلنا من خرائط ، رجع فى رسمها الى المصادر الاسلامية وغيرها ، والى ما وصل اليه الغربيون فى أوربا ؛ فلم يقتصر فى رسم خرائطه على البلاد الاسلامية ، وانما رسم بلاد العالم وعلى الاخص اوربا . ونظرا لاهتمام روجر الثانى بالجغرافيا ؛ فان الادريسى اهدى اليه كتابه المعروف : « نزهة المشتاق فى اختراق الافاق » ، وسماه بالكتاب الروجارى . وقد بقيت خرائط الادريسى عدة قرون ؛ الاساس الذى بنى عليه رسم الخرائط فى عصر النهضة الأوربى . كما ان طبقة الجغرافيين المسلمين – الذين اتوا بعد الادريسى – لم يضيفوا خرائط جديدة ؛ يمكن ان نستدل بها على تطور جديد لرسم الخرائط .

* * *

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .

(٢) المقدمة ، ص ٤٢ ؛ انظر . Miller ;
Mappae Arabicae (Idrisi Atlas), Stuttgart, 1927, VI. cf. Ency. (art al-Idrisi) t2., p. 479.

علم الطب : (١) وهو العلم الذى يدل على نهضـــة العرب فى العصور الوسطى ، مع أن معرفة العرب به قبل الاسلام لم تتعد بعض افراد لحاجة الناس اليهم فى شئون صحتهم ؛ وذلك على عكس الشعوب التى فتحها العرب ، وكانت على معرفة جيدة بهذا العلم .

وقد نهض هذا العلم على ايدى المصريين القدماء من قبل ؛ ولدينا برديات عديدة محفوظة فى متاحف لندن وبرلين ونيويورك على أن المصريين القدماء كانوا على علم باصناف الطب وما يلحق البشر من امراض ، وانهم الفوا فيه الكتب (٢) ، ويكفى ان نذكر أن امحوتب هو اله الطب . وقد اخذ اليونان علم المصريين بالطب ، واضافوا اليـه معلومات اخرى ؛ وان كان الأساس فى علمهم به مستمدا من المصريين ؛ فهوميروس يذكر فى الاوذيســة علم المصريين بالطب . ونذكر من اطباء اليونان العلماء واشهرهم (٣) : بقراط « Hippocrates » (ت ٢٥٧ ق.م) ، وجالينوس « Galenos » (٢ و ٣ ب.م) ، وكلاهما له مؤلفات عديدة فى الطب . وقد انتشر طب اليونان قبل مجيء العرب

(١) بصفة عامة ، انظر . Browne ؛ Arabian Medicine, Cambridge, 1921 ، ترجمه الى الفرنسية Reinaud ، La médecine arabe. Paris, 1933 ، وايضا Campbell بعنوان : Arabian Medicine and its influence on the Middle ages. 2 Vols. London, 1926.

(٢) انظر . Breasted : Papyrus Edwin Smith, Chicago, 1930. ؛ Rey : Coup d'oeil sur la médicine égyptienne. Archeion, IX, 1928, p. 19-30. Deca : La Médecine Egyptienne. Paris, 1917.

(٣) ابن ابى اصيبعة ، عيون الانبـــاء فى طبقات الأطبـــاء ، تحقيـق . Muller ، ط . Konigsberg ، ١٢٩٩/١٨٨٢ ، ١ ص ٢٤ وما بعدها ، ص ٧١ وما بعدها ؛ ابن صاعد ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ؛ انظر . Ency. (art Bukrât) II, p. 804.

اعتبر العرب ان بقراط جاءه وحى من الله . ابن أبى إصيبعة ، عيون ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣ .

فى مدرسة الاسكندرية فى مصر (١) ، وفى حران من ارض الجزيرة ، وحتى فى جنديسابور بفارس (٢) .

هذا العلم عرفه المسلمون بالنقل فى أول الأمر وذلك فى العصر العباسى ؛ حيث كان اغلب النقـلة من الذين تعلموا فى مدرسـة جنديسابور بفارس ، التى كانت باقية الى ذلك الوقت ؛ وان انتهت بعد قيام الخلافة العباسية بوقت قليل . ومع ذلك فلم يأخذ العرب الطب عن الفرس ، وانما اخذوه من كتب اليونان مباشرة ، وهى التى كانت تدرس فى هذه المدرسة او فى غيرها ، ومن اشهر ناقلى كتب الطب : يوحنا ابـن ماسـويه (٣) (ت ٨٥٧/٢٤٢) ، وحنين بن اسـحق (٤) (ت ٨٧٣/٢٦٠) ، وثابت بن قرة الحرانى (٥) (ت ٩٠١/٢٨٨) ،

---

(١) انظر . Meyerhof : La fin de l'école d'Alex d'après quelques auteurs arabes. Archeion, XV, 1983, p. 1-16.

(٢) عنها : معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤١ – ٢٤٣ ، ٣ ص ١٤٩ – ١٥٠ . هذه المدينة – جنديسابور – بناها سابور ذو الاكتاف ، واسس فيها انوشروان مدرسة الطب . أنظر . Fonahn. : Zur Qellenkude der Persischen Medizin. Leipzig, 1910.

(٣) ابن ابى اصيبعة ، ١ ص ١٧٥ ؛ ابن صاعد ، ص ٣٦ - خدم فى صناعة الطب هرون الرشيد والمامون ، وبقى الى ايام المتوكل ، وترجم كتبا عديدة من اليونانية ، وله تآليف عظيمة فى الطب ، منها : كتاب فى طب العيون اسمه : دغل العيون ، وهو مخطوط . عنه ، انظر . Meyerof and Preuefer : Die Augenheilkunde des Juhanna ibn Mâsawaih. Der Islam Vol. VI, 1915, p. 217-256.

شهرته عند الفرنجـة Mesue Maior .

(٤) ابن صاعد ، ٣٦ – ٣٧ ؛ وفيات ، ١ ص ٢٩٨ ؛ ابن ابى اصيبعة ، ص ١٨٤ ، له ترجمات وكتب عديدة مخطوطة ، منها : العشر مقالات فى العين ، تحقيق . Meyerhof – الذى زوده برسوم شائقة – القاهرة ١٩٢٨ . عن كتبه ، انظر . الفهرست ، ١ ص ٢٩٤ Brock : G. A. L. I., p. 205. توجد مخطوطة من ابن ابى صادق (٧١٨/) ، بعنوان : شرح مسائل حنين بن اسحق فى الطب ، انظر . B. N. ، برقم 6654 .

(٥) ابن صاعد ، ص ٣٧ ؛ ابن ابى أصيبعة ، ١ ص ٢١٥ . مثلا ، له

وقسطا بن لوقا البعلبكى (١) (حوالى ٣٠٢/٩١٤) ؛ ولا سيما ان بعضهم كان من الأطباء ، ولهم مؤلفات طبية .

ولم يقف علم الطب عند العرب على النقل وحده ، وانما تقدم على ايديهم تقدما كبيرا ، نتيجة للتجربة والملاحظة . فادرك العرب الفروق بين امراض كثيرة متشابهة لم يكن القدماء على علم بها ، مثل الحميات ذات البثور ؛ كالفرق بين الجدرى والحصبة ، اذ لدينا رسالة فى ذلك (٢) ، وعرفوا الدورة الدموية الصغيرة(٣)والسكتة ومعالجتها بضرب الكعب بالعصا . كما ظهر متخصصون فى نواحى الطب ولاسيما طب العيون (٤) ، الذى بلغ عند العرب فى القرنين الرابع والخامس

=

كتاب : الذخيرة فى علم الطب ، تحقيق صبحى ، القاهرة ١٩٢٨ ، وكتاب فى اوجاع الكلى والمثانة وأوجاع الخصر ، وكتاب فى النفس ، ومقالة فى تشريح بعض الطيور . انظر . Bibl. Arab Hispana, p. 389 sqq.

(١) ابن ابى اصيبعة ، ١ ص ٢٢٤ ؛ ابن القفطى ، ١ ص ٢٩٢ ؛ الفهرست ، ص ٢٩٥ ؛ انظر . Ency. (art Kosta B. L0kâ) t2, p. 1114-46. دخل بلاد الروم ، وحصل على تصانيفهم .

(٢) الرازى ، كتاب فى الجدرى والحصبة . وقد ترجم الى اللاتينية عدة مرات : فى البندقية عام ١٤٩٨ ، وفى باريس عام ١٥٤٨ ، وفى لندن عام ١٧٦٦ . كما لدينا ترجمات حديثة انجليزية والمانية وحتى فرنسية أيضا : الاولى من Greenhill (London, 1848) ، والثانية من Karl Opitz (Leipzig, 1911) ، والثالثة من Jacque Poulet (Paris, 1763) ، وايضا من Leclerc et Lenoir (Paris, 1866) . انظر . ميلى ، تاريخ العلم ، ص ١٧٧ .

(٣) تنسب معرفتها الى ابن النفيس من تلاميذ ابن سينا ، وهى وردت فى احدى كتبه ، التى تشرح تشريح ابن سينا . انظر . نص وترجمة من Meyerhof ، بعنوان : Ibn an-Nafis und zeine Theorie des Lungenkreislaufs, (Berlin, Quellen ü, Studien z, Gsch, d. Nat. u Med IV 1935, p. 37. ؛ انظر . ميلى ، تاريخ العلم ، ص ٢٢٩ .

(٤) مثلا : خليل بن اسحق ، انظر . الهامش قبله . وعلى بن عيسى (حوالى ٤٠٥/١٠٠٩) ، المعروف للاروبيين باسم Jesu Haly ، وله تذكرة الكحالين ، وهو مخطوط ، أنظر .الترجمة من Hirshberg und Lippert : Ali ibn Isa, Erinnerungsbuch Für augenärzte. Leipzig, 1904.

من الهجرة مرتبة سامية تدعو الى الدهشة ؛ بحيث لدينا عنه ما لا يقل عن اثنين وثلاثين كتابا (١) ؛ بحيث اخترعت الابرة المجوفة ، التى تمتص ماء العين (الكتاركتا « Cataracta ») (٢) .وقد استمر علم الطب مزدهرا عند المسلمين طوال فترة العصور الوسطى ، واصبح علما وفنا تخصص له المعاهد (٣) ؛ بحيث عرفوا عنه كل شيء تقريبا قبل اختراع المجهـر .

ومن الطريف ان نذكر انواع الأمراض ، التى عرفها العرب بسمائها العربية وهى عديدة ، تبين اطلاعهم الواسـع فى علم الطب منها : الصداع ، والأرق ، والنسيان ، والمالنخوليا ، والفالج ، والتشـنج ، والرعشـة ، والنزلات ، والعطاس ، والسعال ، وسقوط الشـعر ، والقـروح ، والبثرة ، والاورام والسرطان ، والذبحـة ، والبحـة ، والسل ، والقلب ، والكبد ، والتخمة ، والطحال ، والبواسير ــ بواسير المقعدة ــ والرحم ، وييس الطبع ، وتعسر الولادة ، واوجاع المفاصل ، والنقرس ــ يصيب الاقدام ــ وداء الفيل ، والجربة ، والحكة والبرص ، وامراض الأسنان والأذن والانف واللهاة والرمد .

وقبل ان يزدهر هذا العلم عند المسـلمين ، كان العـلاج يختلط بالرقى والتمائم والاحجبة (٤) . كذلك لدينا كتب تتناول ما يعرف بالطب النبـوى (٥) ، تتعلق بالأمراض والعلاجـات ومنافع النبات ومضارها ؛ فمثلا استشهد بالحديث النبوى للعلاج من عدوى الطاعون : « اذا وقع الطاعون فى بلد وانتم به ، فلا تخرجوا منه ، واذا كان ببلد

---

(١) مثلا ، انظر . ابن ابى اصيبعة ، ومقدمة كتاب العشر مقالات لحنين ابن اسحق ، وانظر .. Die Arabischer Lehrbücher der Augen-Hirschberg. heilkunde. Leipzig, 1905.

(٢) انظر . كتاب المنتخب فى أمراض العيون لعمار بن على الموصلى وشهرته عند الفرنجة Canamusli ، لم ينشر النص العربى .

(٣) الخطط ، ٤ ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ :

(٤) انظر . Ency of Religion & Ethics. ed Hastings. Charms, and Amulets (Muhammaden). Edimbourgh, 1908.

(٥) ابن قيم الجوزية ، كتاب وطب النبوى ، حلب ١٣٤٦/١٩٢٧ .

ولا تدخلوه » ، ولكن لما ظهرت قواعد علمية صرفة للعلاج نتيجة لحركة النقل ، وبناء على الملاحظات التجريبية ؛ فان طرق تشخيص الأمراض عند العرب تقدمت تقدما كبيرا . فكانوا ـ مثل قدماء المصريين ـ يرتبون الامراض من الراس الى القدمين ، ووضعوا لكل مرض علاجا .

اما الجراحة ـ وهى ما كان يعبر عنه ايضا بالعلاج بالحديد (١)ـ فهى لم تتقدم على ايدى المسلمين الا قليلا ، ذلك لأن الاسلام مثل بقية الأديان السماوية الأخرى ؛ يمنع تشريح جسم الانسان . ولكن لم يمنع هذا أن يعرف المسلمون اشياء كثيرة عن جسم الانسان ؛ بتشريح الحيوان ، وبما نقلوه عن اليونان في التشريح ، ولاسيما عن كتاب التشريح لجالينوس (٢) . فكان الجرائحيون المسلمون يوجدون فى معظم مدن الاسلام (٣) ؛ تجمعهم نقابات كسائر الصناعات . فمن انواع الجراحة التى نبغوا فيها : قطع العروق ، والكى والحجامة ، وتجبير الكسور ، وجراحة الحصاة من المثانة ، وجراحة العيون ، والعنق ، والولادة ، والفتق . وقد كانوا يستخدمون لتخفيف آلام الجراحة المرقد ـ وهو البنج ـ بما فيه الأفيون والحشيش وست الحسن؛ فكانوا اول من استعملوه ؛ حيث عرفوه فى مصر اولا . كذلك استخدموا ادوات جراحية عديدة ، لدينا عنها كتب بتفصيلها ورسومها،مثل (٤): مبضع ، ومرود ، وانبوبة ، وجفت ، وجبيرة ، وسكين ، وصنارة ، وفاس ، وكلاب ، ومبرد ، ومبخرة ، ومحجمة ، ومحقن ، ومكواه .

ونعرف من الأطباء طبقات مثلما يوجد في كل العلوم الأخرى . ولدينا أسماء كثيرة منهم ، حتى انهم بلغوا فى بغداد زمن الخليفة

---

(١) عن ذلك ، انظر Ency, (art Dawâ) tl p. 954

(٢) انظر . المؤلف الضخم ، نشر وترجمة Max Simon ، بعنسون : Anatomie des Galens. 2 Band. Leipzig. 1906.

(٣) نهاية الرتبة ، ص ٩٧ .

(٤) انظر . نفسه ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ أحمد عيسى ، الات الطب والجراحية والكحالة ؛ Sudhof : Beittage zur geschichte der Chirurgie, in Mittelater, Leipzig, 1918. ، وخليفة بن ابى المحاسن (١٢/٧) ، له كتاب : الكافى فى الكحل ، الذى زوده برسوم لآلات جراحات العين .

المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠ - ٩٣٣) ثمانمائة ونيفا وستين رجلا(١)، سوى من كان فى خدمة الخليفة . ونجد اسماءهم على الخصوص فى كتـاب : عيون الأطبـاء لابن ابى أصيبعة (٢) (ت ١٢٧٠/٦٦٨) - مؤرخ الطب العربى الكبير - الذى ترجم لثمان وستين وثلثمائة طبيب مشهور ، وكتاب : تاريخ الحكماء للقفطى (ت ١٢٤٨/٦٤٦) ، وكشف الظنون لحاجى خليفة (ت ١٦٥٧/١٦٠٧) . ونجدهم من اديـان مختلفة من المسلمين واليهود (٣) والنصارى ، ومن جنسيات مختلفة . ومن كان يقوم منهم بالمهنة يؤخذ عليـــه قسم بقراط اليونانى (٤) ؛ بان يحفظوا كرامـــة المهنة واسرارها ، يأخـــذه عليـــه المحتسب ، الذى كان مـــن عمـــله مراقبـــة المهنـــة . وكان اشتهـــار بعض الأطباء كاشتهار الخلفاء والملوك ، ويعرفون فى أوربا . وهم يوجدون فى كل بلاط ، نذكر منهـــم فى بلاط العباســـيين بالعـــراق اسرة بختيشوع (٥) ، وفى بلاط الأمويين بالأندلس بنى زهر (٦) ، الذين اشتهروا للأوربيين باسم « Avenzoar » ، وفى بلاط الفاطميين بمصر كونوا طائفة ، كان لها رئيس (٧) .

ومع ذلك ، لا يهمنا فى طبقات الأطباء الا الأطباء العلماء ، الذين

---

(١) ابن أبى أصيبعة ، ٢ ص ١٤٠ ؛ انظر . طوقان ، العلوم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٩ .

(٢) عنه ، انظر . Ency. (art Abî Usaibi'a) t2, p. 379-380.

(٣) مثلا ، انظر . Meyerhof : Mediaeval Jewish Physician in the Near East from Arabic Sources. 1936.

(٤) نهاية الرتبة ، ص ٩٨ .

(٥) ابن صاعد ، ص ٣٦ ؛ انظر . مقالة غنيمة ، بختيشوع طبيب واسرته ، المشرق ، ٨ : ١٠٩٧ . لبعضهم مؤلفات مثل : جبرائيل بن بختيشوع طبيب المأمون (ت ٨٢٩/٢١٤) ، الروضة الطبية ، لصحيح بولس سنباط ، القاهرة ١٩٢٧ .

(٦) عنهم ، انظر . مقالة Colin : Avenzoar, sa vie et ses oeuvres. Paris, 1911. Ency. (art Ibn Zuhr) t2, p. 456.

ولبعضهم مؤلفات مثل ابى العلاء - وهو أشهرهم - تذكرة أبى العلاء ، نشر وتحقيق Colin ، ط . Paris ، ١٩١١ .

(٧) صبيح ، ٣ ص ٤٩٦ .

اسهموا فى تقدم علم الطب ، وهم كثيرون ، فنذكر اهمهم . فمنهم محمد ابن زكريا الرازى (١) (٢٥٠ ــ ٨٦٤/٣٢٠ ــ ٩٣٢) ، الذى ولد فى الرى ، وكان فى اول امره يضرب العود ، واستمر حتى سن الثلاثين ، وبعد ذلك اقبل على تعلم الطب ونبغ فيه حتى اشتهر للعرب باسم جالينوس العرب ، واصبح رئيسا لمستشفيات الرى وبغداد ، ثم عمى فى آخر عمره ، وعرف للاوربيين باسم « Rhazes » . وقد الف الرازى اكثر من مائة مؤلف (٢) ، ومنها فى الطب اثنان هامان اشتهرا فى اوربا شهرة كبيرة ، وهما : كتاب الحاوى ويسمى الجامع الخاص لصناعة الطب « Liber Contineus » ، الذى جمع فيه كل ما عرف من صناعة الطب ، وان كان يبدو انه اكمله تلامذته ، وطبع وترجم فى اوربا عدة مرات (٣) ، ومع ذلك فلا يزال النص العربى مخطوطا مبعثرا فى مكتبات اوربا ، والكتاب الموسوم بالمنصورى فى الطب « Liber Almanzoris » ؛ لانه قدمه للمنصور اسحق امير خراسان ، واحد المحسنين اليه (٤) . ويذكر من تفوق الرازى انه اول من استخدم الماء البارد فى علاج الحميات ، فله رسالة فى الجدرى

---

(١) ابن ابى اصيبعة ، ١ ص ٣٠٩ ــ ٣٢١ ؛ القفطى ، ص ٢٧١ ــ ٢٧٧ ؛ ابن صاعد ، ص ٥٢ ــ ٥٣ ؛ انظر .

Ency. (art al-Râzî) t3, p. 1213-5.

The life and works of Rhazes. London, 1913. : Ranking

Histoire de la Médecine arabe t2, p. 82 sqq : Leclerc

(٢) عن كتبه المخطوطة ، انظر . C. L. A. I., P. 234-235. : Brockl

(٣) هو فى عشرين مجلدا ، وان لم يتبق منه غير عشر مجلدات مبعثرة بين مكتبات الاسكوريال ، وليننجزاد ، وبرلين ، ولندن ، وترجم فى ١٢٧٩ م ، نقله فرج بن سالم الاسرائيلى برعاية ملك صقلية ، وطبع باللاتينية عام ١٤٦٨ ، بعنوان : Liber Dictus Elhawi. Brescia, 1468 ؛ انظر . ميلى ، العلم ، ص ١٧٤ .

(٤) فى عشر مجلدات ، له ترجمة لاتينية فى Milano ، ١٤٨١ . انظر ، نص وترجمة بعض فصوله ، من Koning بعنوان :

Trois traités d'Anatomie arabe. Leide, 1903.

؛ ميلى ، ص ١٧٦ .

والحصبه (١) ، كما انه تكلم عن الحصى فى الكلى والمثـــانة بدقه متنـــاهية (٢) .

ومنهم ايضا الشيخ الرئيس ابو على بن سينا (٣) (٣٧٠ - ٤٢٨/ ٩٨٠ - ١٠٣٧) ، الذى ولد فى بلخ ، وانتقل الى بخارى ، وخـدم ملوك السامانيين وكان وزيرا لهم ، وهو من الشيعة . وقد الف ابن سينا فى علوم عديدة ، اشهرها ما الفه فى الطب مثلمـا الف فى الفلسفة ، ولا سيما كتابه المعروف : القانون فى الطب (٤) ، الذى يعتبر خلاصة تجاربه وقراءاته فى الطب . فهذا الكتاب عبارة عن قاموس فى الطب والصيدلة والتشريح ، فيه خلاصـــة ابحاث اليونان والفرس والكلدان والهنود والعرب ، ويتكون من خمسة كتب : الاول يشمل الكليات اى المبادىء العامة النظرية والعلمية ، والثانى يتكلم فيه عن الادويــه ، والثالث عن امراض كل عضو من الراس الى القدم ، والرابع عن امراض لا تختص بعضو ، والخامس فى تركيب الادوية وآلات الطب . وهـذا الكتاب لاهميته ظهرت له عدة شروح وتلخيصات من علماء متأخرين ، وقد ذاع فى اوربا باسم : « Canon Avicennae » .

ومنهم فى المشرق على بن حزم ، الملقب بابن النفيس (٥) (٦٠٧-٦٨٧/ ١٢١٠-١٢٨٨) ، الذى اشتهر بعمله فى مارستان السلطان قلاوون فى القاهرة ؛ حيث كان هذا المارستان اشبه بكلية للطب ، والف فى الطب

---

(١) انظر . قبـــله .

(٢) نشر وترجمة Koning ، بعنوان :
Traité sur le Calcul dans les Reins et dans la Vessie. Leyde, 1896.

(٣) انظر . قبـــله .

(٤) فى ٣ اجزاء ، القاهرة فى ١٢٩٤/١٨٧٧ . له طبعة فى ميلانو عام ١٤٧٣ ، وبادوا عام ١٤٧٦ ، وطبعات فى البندقية عام ١٤٨٣ و ١٥٢٧ و ١٥٩١ و ١٦٠٨ ، وله ترجمات عبرية فى نابلى عام ١٤٩١ - ١٤٩٢ ، بل رسائل دكتوراه قدمت فيه . انظر . ميلى ، ١٩٧ - ٢٠٠ .

(٥) فهو اكتشفها قبـــل وليم هارفى William Harvey . انظـــر . مخطوط دار الكتب ، برقم ٤٦ طب . وانظر . Meyerhof : La découverte de La circulation pulmenaire par Ibn an-Nafis. Médecin arabe du Caire. XIII e Sècle, 1951.

موسوعة ؛ لا تقل عما ألفه الرازي وابن سينا ، فاهتـــدى الى الدورة الدموية الصغرى .

وكذلك ظهر في الاندلس اطباء مشـــهورون ، نذكر منهم على الخصوص ابا القاسم الزهراوي (ت ٥٠٠/١١٠٦) ، الذى اشتهر فى اوربا باسم : « Abulcasis » ، ونبغ في الجراحـــة ؛ ولا سيما فيما يتعلق بالولادة ؛ وتفتيت راس الجنين اذا كان ضخما ، واخترع منظار المهبل (١) . وكان خبيرا فى ربط الشرايين فى الجراحات ، وعلاج النزيف بالكى ، واستئصال حصى المثـــانة . واخترع كثيرا من آلات الجراحـــة ، وعـــرف كتـــابه باســـم : التصـــرف لمـــن عجـــز عن التـــاليف ، وهـــو مـــزود برســـوم عن الات الجراحـــة ، وطبع باللاتينية بعنوان : « Liber Azaragui de Cirurgia » .

*

علم الصيدلة (او الصيدنة): وقد اشتهر بين العرب بهذا الاسم ، والقائم به يعرف بالصيدلي أو الصيدلاني (او الصيدناني)، كما سمى أيضا بعلم المفردات ، او العقاقير – جمع عقار – او الأدوية (٢) ، وهذه الاخيرة نقلت للأوربيين باسم « Drogue » . ولدينا كتب متعددة عنه ، نستطيع بفضلها ان نقول ان علم الصيدلة تقدم على ايدى العرب تقدما كبيرا .

وقد كانت معظم العقاقير والأدوية توجد فى قصور الحكام ، وهى التى عرفت بخزانة الشراب عنـــد الفاطميين ، والشراب خاناه عنـــد المماليك . ونفس كلمة شراب هذه انتقلت عند الأوربيين ودخلت فى لغاتهم ، مثل كلمة « Sirop » الفرنسية . كذلك كانت العقاقير توجد فى دكاكين العطارين (٣) ، التى تحتوى على نباتات ضرورية فى صنع

---

(١) نشر بالعربية واللاتينية فى Oxford ، ١٧٧٨ م ، وله ترجمة فرنسية على يد Leclerc ، بعنوان : La chirurgie d' Abulcasis. Paris, 1861.

(٢) انظر . Ency. (art Dawā'), tI, p. 954.

(٣) مثلا : ابو نصر العطار ، كتاب منهاج الدكان ودستور الاعيان فى اعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

العقار ؛ اذ كانت اغلب العقاقير تحضر من الاعشاب الطبيعية . ولدينا مقالات اسـلامية عديدة فى كيفية تركيب الأدوية واستعمالها ؛ لذلك عرفت على حسب تركيبها بالأدوية المركبة او الأدوية البسيطة أو ايضا المفردة؛وان كانت تسمى كذلكالأقرابادينات(١)ـ مفردها اقراباذين ـ وهى كلمة من اصل يونانى . كذلك سميت ايضا الادوية ـ باثرها فى العلاج ـ مثل : مسخن ، ملطف ، مخشن ، هاضم ، لاذع ، قابض ، عاصر ، الخ . فكان تحضيرها وتركيبها بعدة طرق ، منها : السحق ، والدق ، والنخل ، والطبخ ، والنقع .

ومن الطريف ان نذكر بعض اسماء العقاقير التى ورد ذكرها فى كتب المسلمين ، وهى لا تزال تجرى على السنتنا باسمائها الى الآن ، وتعددها دليل على تقدم هذا العلم ، مثـل : اللعوقات ، والحبوب والأقراص ، والسفوف ، والمعاجين ، والمراهم ، والدهن ، والكحل ، والأفيـون ، والخشخاش ، وست الحسـن ، والثلج ، والسـعوط ، والغرغرة ، والمضمضة ، والترياق ، والأشربة ، والحقنة ، والفتيلة المسهلة ، والضماد ، والطلاء .

وقد تقـدم علم الصـيدلة على يد الوزير ابن وافـد الطليطلى ، وهو ابو المطرف اللخمى ، المعروف للأوربيين باسـم Aben Nufit (ت ٤٦٧/١٠٧٤) ، وهو اسـبانى من طليطله ، كان عارفا بكتاب ديسقوريدس Dioskryrides (ت ٦٠ م) ، وكان درس على ابى القاسم الزهراوى الطبيب ، وله كتاب اسمه : الأدوية المفردة(٢) . كذلك ابن البيطار (٣) بخاصة (ت ٦٤٦/١٢٤٨) ـ الملقب بضياء

---

(١) ابن سـينا ، القـانون ، ٢ ص ٣٠٩ وما بعـدها ؛
Ency. (art Akràbàdhin) t1, p. 246 ; (art Adwiya) t1, p. 146-7.

(٢) ابن صاعد ، ص ٨٤ - ترجم اللاتينية والعبرية والقطلانية .انظر .
El libre de les medecines particulares. Barcelona, 1945. : Farando
من المترجمين اللاتين الأوائل له Liber Albenguefit..; Gerardo de Cremona
طبع فى البندقية Estraburgo, 1531.

(٣) ابن ابى أصيبعة ، ٢ ص ١٣٣ ؛
Notices et...; Leclerc ; Ency. (art Ibn a-Baitàr) 2, p. 588-9
extraits des manuscrits de la Bibli N. Ibn el-Beithar, introd. t23 Parik.
Paris, 1877

الدين ـ وهو اسبانى ايضا،من مالقة،كان ابوه بيطريا،زار بلاد اليونان وعاش في مصر في عهد الأيوبيين ، والتحق بوظيفة رئيس ســائر العشابين ، او كبير الصيادلة ، والف كتــابه : الجامع الكبير لقوى الادوية والأغذية الشهير بمفردات او جامع المفردات (١) ، جمع فيه اكثر من اربعمائة والف دواء مرتبة على حروف المعجم ، منها ثلثمائة لم توجد فى اى كتاب آخر . ومنها ما عرف من قبل لليونان ، ولا سيما ماورد منهــا فى كتــاب ديسقوريردس (٢) . Dioskryrides ، الذى شرحه ابن البيطار بنفسه ، ومنها ما ورد فى كتاب هندى عرفه باسم : سر مردندان (٣) . ومع ذلك ؛ فان ابن البيــطار لم يعرفه للاوربيين فى العصور الوسطى ؛ بسبب ان العرب فى ذلك الوقت كانوا فى افول او عداء .

*

علم الكمياء (٤) ، وهو العلم المصرى ، الذى اشتق اســمه من اسم مصر القديم (٥) « كمت » ـ اى الأرض السمراء ـ ليعنى النظر فى المادة . ويقابله ايضا علم الاكسير ـ وهى المادة ـ والاشتغال به يسمى

---

(١) نشر فى اربعة اجزاء ، القاهر ، ١٢٩١ هـ . وقد لخصه الملك المظفر فى كتابه : المعتمد فى الأدوية المفردة ، صححه وفهرسه مصطفى السقا ، ط ٢ ، ١٣٧٠/١٩٥١ ، وللكتاب ترجمة فرنسية من Leclerc ، بعنــوان : Traité des simples, par Ibn al-Beitar. Vols 23, 24, 26. Paris, 1877-1882.

ـ كذلك له ترجمة المانية من Sontheimer ، بعنوان : Grosse Zusammenstellung St. 2 Vols. Stuttgart. 1870-71.

انظر ايضا . Dietz : Materiae Medicae Ibn Beitharis. Lipsiae, 1833.

لابن البيطار كتاب آخر اسمه : المغنى فى الأدوية المفردة ، لم يطبع ولم يترجم بعد ـ انظر . ميلى ، العلم ؛ ص ٤١٦ .

(٢) انظر . الشهابى ، تفسير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار ، فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٠٥ ـ ١١٢ . فيه اكثر من ستمائة عشب .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٠٥ .

(٤) المقدمــة ، ص ٤٢٠ وما بعــدها ؛ انظر ، Ency. (art al-Kimiya') t2, p. 1069.

(٥) انظر . Wiedmann : Das Alte Agypten. Heidelberg, 1920, p. 14.

صنعة الكيمياء أو صنعة الاكسير أو فقط الصنعة ــ وهى اشهرها ــ ، ومن ثم يقوم به يسمى كيمى أو كيماوى أو كيموى أو صنعاوى أو اكسيرى . وهذا العلم لم يزد عليه اليونان أو اللاتين من بعدهم غير مقدار من افكار غريبة عن العناصر ــ مثل ما ذكره أرسطو ــ وهى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ حيث أطلقوا على مجموعها الهيولى ، أى المادة الأوليـــــة .

ولقد بدأ العرب يهتمون بهذا العـــلم عن طريق النقل عن تراث اليونان ؛ حيث يذكر المؤرخون أن النقل بدأ منذ وقت مبكر على يد أحد الأمويين هو خالد بن يزيد بن معاوية (ث ٧٠٤/٨٥) ، الذى عاش معظم حياته فى مصر ؛ اذ لدينا بعض كتب تنسب اليه ترجمتها (١) ؛ وان كانت لا قيمة لها من ناحية الكمياء الحقيقية . كذلك اتخذ هـــذا العلم منذ وقت مبكر مظهرا متصلا بعقائد الشيعة ؛ فقد تناولها امام الشيعة جعفر الصادق (٢) ؛ وان كان ما ورد عنها منه هو الآخر لا علاقــة له بالكيمياء الحالية،وانما القصد منها هو تطهر الروح.ومع ذلك؛فابن خلدون يرى انه لا يمكن ان تكون الترجمة فى هذا العلم ، قد بدأت مبكرة هكذا على يد خالد أو غيره ؛ اذ العرب كانت الى وقتـــذاك مشغولة بالفتن والفتوح وفى طـــور البداوة ؛ ولأن خالدا بالذات كان منغمرا فى العصبية .

ومع ذلك ؛ فقد عرف العرب كثيرا من مبادىء الكيمياء النظرية ؛ التى ستكون قواعد علم الكيماء الحالية . فكانوا يعتبرون المعادن ــ وهى الفلزات باللغة الكيميائية ــ عناصر حية تولد وتعيش وتموت ، وهى عندهم سبعة مثل الكواكب السبعة : الذهب والفضـــة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص والزئبق . واعتبروا المعادن ناقصة الا معدن الذهب ، الذى هو المعدن الكامل ، وكان همهم تحويل المعادن اليه ؛ وان كان بعضهم يرى استحالة ذلك ، وانه لا يوجد والفضة الا فى

---

(١) عن ذلك : انظر . Ruska :
Arabische Alchemisten, I, Châlid ibn Yazîd. Heidelberg. 1924.

(٢) تنسب اليه رسالة فى علم الصناعة والحجر المكرم . انظر . نص الرسالة وترجمتها من Ruska :
Arabische Alchemisten, II. Ga'far al-Sâdiq. Heidelberg, 1924.

المناجم . وتكلموا كثيرا عن طبيعة الذهب ؛ فقالوا ان طبيعته حارة تشبه الدم ، وان له لونا وطعما وذوقا وملمسا وليونة ولمعانا . كذلك عرفوا أشياء كثيرة عن طبيعة الاحجار ؛ ولا سيما الكريمة منها ، على الخصوص من اليونان ؛ اذ ترجموا كتب ارسطو عن الحجارة (١) ، وذكروا لنا انواعا كثيرة منها ، لا تزال بعض أسمائها بالعربية ، مثل : الزرقون Zircon ، والزمرد Emerald ، والقورند Corundum ، والفلسبار Felspar .

ومن ناحية أخرى ، كانت الكيمياء العملية متقدمة ؛ فقد اخترعوا لتجاربهم الكيميائية عدة آلات ، مثل : الانبيق (٢) ؛ التي تتكون من قرعة وانبوبة وقابلة . وعرفوا عدة وسائل كيماوية ، منها : التصعيد والتقطير والتكليس والعقد والتنقية والتنشيف والتقليب والقهر – للصلب – والترخيم بتصعيد الماء . وادخلوا الميزان وضرورة مراعاة العلاقات الوزنية ؛ حتى انهم سموا هذا العلم ايضا بعلم الميزان ، بحكم النسب بين المواد . ودليل تقدمهم فى الكيمياء العملية انهم استخدموا البارود ، وهو تركيب كيماوى ، مثلما استخدموا النار الاغريقية ؛ فاذا كانت هذه الاخيرة من اختراع اليونان ؛ فان الأولى من اختراع المصريين ؛ اذ أن كلمة بارود العربية انتقلت الى لغات عديدة ، مثل : Poudre و Powder . كذلك برعوا فى استخراج الروائح العطرية وماء الورد ، وعرف الشرق بروائحه الطيبة ؛ كما عرفوا صناعة الحبر أو المداد ، ونبغوا فى صنع الثياب ، وكونوا احماضا متعددة مثل : الكبريتيك والأزوتيك والنيتريك ، وتكلموا عن القلويات التى دخلت اللغات الاوربية باسمها العربى Alkali ؛ كما تمكنوا من استخراج معادن الذهب والفضة نقية .

---

(١) انظر . Ruska :
Das Steinbuch des Aristoteli mit Literaturgeschchitlichen, Untersuchungen nach der arab. Heidelberg, 1912.

(فيه النص العربى) ؛ التيفاشى أحمد (ت ١٢٩٣/٦٥١) ، لزهار الافكار فى
(فيه النص العربى) ؛ التيفاشى (ت ١٢٩٣/٦٥١) ، ازهار الافكار فى جواهر جواهر الاحجار ، نشر وترجمة . Mollet ، فى J. A، ١٨٦٨ .

(٢) عنها : الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، تحقيق . Volten ، ص ٢٥٧ ؛ جلـ . القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ١٤٦ ؛ انظر . Ency. (art Alambic) tI, p. 253

وقد كان الفلاسفة هم الكيمائيون (١) : ولكن أشـــهرهم على الاطلاق هو جابر بن حيان (٢) (حوللى ١٦٠/٧٧٦) ، كيمـــوى العرب الأول ، الذى ينسب الى اسمه أكثر من مائة كتاب ؛ بحيث ارتبط اسمه بهذا العلم فى الشرق والغـــرب ، وترجمت بعض كتبـــه الى اللاتينية ، واشتهر بين الاوربيين باسم : " Geber " . وقد استخدم التدريبات الكثيرة ـ أى التجارب ـ وتمكن من اســتخراج الأحماض والقلويات ؛ واشهر ما كتبه : الخواص الكبير (٣) ، واحد عشر كتابا فى علم الاكسير (٤) وكتاب الملك (٥) ، وكذلك نذكر مسلمة المجريطى (ت ٣٩٨/١٠٠٧) فى كتابه : رتبة الحكيم (٦) .

*

علم الطبيعة ، ويسمى الفزياء ؛ نقله العرب عن اليونان بعـــد اضافات صائبة ؛ فنقلوا عنهم رايهم فى انكسار الضـــوء ، والمـــرايا المحرقة ، والجاذبية ، والثقل النوعى ، والقوانين المائية التى تحكم العيون والينابيع والآبار الأرتوازية . يضاف الى ذلك اهتمـــام العرب

---

(١) مثـــلا ليعقوب بن اسحـــاق الكنـــدى ، كتب كيمائيـــة . انظـــر . Brock : GL. A. 1. 231 ، . كذا الرازى لـــه كتاب الأسرار ، مخطوط بمكتبة Leipzig ، برقم ٢٦٦ .

(٢) عنه بتفصيل ، انظر . Ruska :

Arabische Alchemie. Archeion XIV, 1932, p. 425-435 ;

Ency. (art Diâbir B. Haiyân) tI, p. 1015-6 ;

زكى نجيب ، جابر بن حيان ، اعلام العرب ، رقم ٣ ، القاهرة ١٩٦١ ؛ احمـــد صالح ، جابر بن حيان ، مجلة الرسالة ، ١٩٤٠ ، عدد ٣٦٨ ، ص ١٢٠٤ ومابعدها .

(٣) نشره . Kraus ، فى كتابه مختارات رسائل جابر بن حيان ، تحقيق ، ط . Paris ١٩٣٥ . من كتب ابن حيان التى وصلتنا باسمائها اللاتينية ، حيث أن أسماءها العربية مفقودة :

1 — Summa Perfctionis Magesetri يعنى الجمع .

2 — De Investigatione Perfectionis يعنى الاستتمام .

3 — De Investigatione Ueritatis يعنى الاستيعاد .

4 — Liber Foranacum. يعنى التكليس .

(٣) طبع محمد الشيرازى ، القاهرة ١٩٢٧ .

(٤) نشره . Brethelot فى La chemie arabe, tIII. Paris, 1893

(٥) المقدمـــة ، ص ٤٣٧ .

بالحركة والسكون ومركز الثقل وجر الأثقال بالقوة اليسيرة ؛ فكل ميزان يتكون من عامود أو قصبة ، يلف حول محور ، عليه رمانة ، وله كفة ، وقد يكون المحور مرقما ، فعرفوا الميزان العادى ، والميزان القديم أو الرومانى المسمى قرسطون (١) ـ الجمع قرسطونات ـ لعلها محرفة عن القرسطون وهى كلمة يونانية ، وميزان اسمه القبان (٢) أو الكفان ، وهى كلمة فارسية ، ومن يقوم به يسمى قبانى ، ومنه أنواع الرومى ـ أى اليونانى ـ والقبطى (٣) ، بأن يعلق على رأسه الطويل ثقل قليل ، وعلى رأسه القصير ثقل كبير ؛ ليحصل التوازى ؛ ولديهم تعابير كثيرة عن الموازين ، لا يوجد لها مثيل فى لغة أخرى ، مثل : القناطير ، والأرطال ، والمثاقيل ، والدراهم (٤) ، كذلك وضعوا قانون الذبذبة ؛ بحيث اخترعوا الرقاص أو البندول ، وظهرت الساعات (٥) او المزاول ، وبلغت درجة كبيرة من الاتقان .

ويتضح مدى التقدم الذى حازه العرب فى علم الطبيعة على يد ابن الهيثم (٦) ، الذى ولد فى البصرة عام ٩٦٥/٣٥٤ ، وجاء مصر فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتوفى بها فى ١٠٣٩/٤٣٠ ، وله اكثر من مائتى مؤلف (٧) ، ترجم بعضها الى اللاتينية ، وعرفه للأوربيين باسم " Alhazen ". بل كان ابن الهيثم أول من أراد أن ينظم فيضان النيل ، ويقيم السد العالى ؛ بحيث أن الحاكم الفاطمى أرسل معه الفعلة الى

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق : هارون ، ١ ص ٨١ ؛ انظر – Ency. (al-Karastûn) t2, p. 802. 5.

(٢) الخطط ، ٣ ص ١٥٥ (آخر الصفحة) ، يقال ان رمانة القبان من اختراع الهنود . العقد ، ٢ ص ١١ .

(٣) نهاية الرتبة ، ص ١٩ .

(٤) نفسه ، ص ١٥ .

(٥) انظر . Ency. (art Sâ'a) t4, p. 1-2

(٦) ابن أبى أصيبعة ، ٢ ص ٩٠ ـ ٩٨ ؛ ابن القفطى ، ص ١٦٥ ـ ١٦٨ ؛ انظر . Ency. (art Ibn al. Haitham) t2, p. 408.

(٧) من ذلك ، انظر . جدول مجموعة تآليفه فى الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم فى ٢١ ديسمبر ١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٤٠ - كان يهتم بنسخ كتب إقليدس والمجسطى ، وعمل فهرست لخزانة الكتب الفاطمية بالقاهرة ، وكان يأخذ مائة وخمسين دينارا مصريا . انظر . Bibl. Arabi Hispana, tI p. 4, 15-6.

اسوان ، وان لم يتمكن ابن الهيثم من القيام بشيء لصعوبة تحقيق ذلك فى وقته(١) . فلدينا منه كتابه المشهور : المناظير(٢) ، الذى تكلم فيه عن الضوء او الضياء وهو النور ، وانها جسيمات تحمل حرارة ونارا ، ولها سرعة زمنية ؛ وقد ترجم الى اللاتينية ، وبعض رسائل منها : فى المرايا المحرقة بالقطوع (٣) ، وفى كيفيات الاظلال (٤) ، وفى المرايا المحرقة بالدائرة .

ونذكر البيرونى (ت ٤٤٠/١٠٤٨) ، الذى الف فى كل شيء ، واعتبر اعظم عقل عرفه التاريخ العلمى ، حتى عرف بالشيخ او الاستاذ ، وان لم يكن معروفا البتة للاوربيين فى العصور الوسطى . وقد اعتبر البيرونى من اكابر علماء الطبيعيات؛فهو الذى حدد الثقل النوعى (٥)؛ لعدد من المعادن والاحجار الثمينة ، تحديدا دقيقا يقترب من التحديد الحديث فى وقتنا ؛ كما يظهر من جداول البيرونى مقالة فى النسب . وقد استعمل فى سبيل ذلك آلة مخروطية صنعها وصورها وبين لنـا طريقة استعمالها ؛ وذلك بان تملأ بالمـاء الى حد معين ، ثم يوضع فيها مقدار معلوم الوزن من المادة المراد معرفة ثقلها النوعى ؛ فيخرج بدخولها قدر من الماء خلال انبوبة الجهاز ؛ فيسقط فى الكفة ويوزن .

* *

---

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صـلحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣١٦ وما بعدها .

(٢) نشر وترجمة Baarmann فى Z.D.M.G, XXXVII, 1882, 195-237. انظر . Ency. (art Nûr) t3, p. 1020-1023

كذلك نشر وترجم الى اللاتينية فى ١٥٧٢ ، على يد Risner فى Bale ،

(٣) طبع . Heiberg و Wied, فى Bibl. mathem, 3e Série, 10e Vol, (1910), p. 201-237 ، والثانى ترجمة Wied ، نفس المصدر ، ص ٢٩٣ ـ ٣٠٧ .

(٤) ترجمت اجزاء منه الى اللاتينية على يد Wiedemann فى مجموعة : Beiträge Z. Gesch de Naturwissensch, XIII, Vol. 39 (1907), p. 226 suiv.

(٥) نشر هذا النص وترجم الى الفرنسية Clement-Mullet : Pesenteur spécifique de diverses substances minérales, procédé pour l'obtenir d'après, Aboul R. Albirouny. ext. J. A., 1858.

؛ ميلى ، تاريخ العلم ، ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .

كذلك يعتبر الفن مظهرا آخر من مظاهر الثقافة ؛ وكما وجدنا اثر العرب فى العلوم ، وجدنا اثرهم ايضا فى الفنون . وقد ترك الاسلام فى فن العصور الوسطى ارثا هائلا ، مثل الذى تركه لنا العالم القديم ؛ فالفن مرآة ناصعة للحضارة . ولهذا يعكس الفن الاسلامى الروح العربية وروح الشعوب التى دخلت الاسلام ؛ بحيث تعددت تسميته بالفن الاسلامى أو العربى أو الشرقى . كما ان الفن الاسلامى كان اوسع الفنون انتشـــارا وأطولها عمرا ـ الا اذا استثنينا الفن المصرى القديم ـ فقد كان الفن الاسلامى يمتد من الهند الى الاندلس ؛ واستمر باقيا طوال العصور الوسطى ، وحتى العصر الحديث .

وقبل مجىء الاسلام كان الفن السائد هو الفن المسيحى ؛ لأن الفن الرومانى كان آخر عهده فى الشرق بالقرن الثالث الميلادى ؛ لتحول الشرق الى المسيحية . والفن المسيحى الذى وجده الاسلام كان يتجه معظمه الى رسم الأشخاص المقدسين والصور الدينية المسيحية . والذى نجده فى الفن الاسلامى هو انه فى اول الامر كان يجمع مع شخصيته اساليب فنية مسيحية ، واستمر الحال على ذلك الى اوائل عهد العباسيين . ولكن سرعان ما اخذ الفن الاسلامى يبتعد عن المؤثرات الخارجية باسلام الشعوب المفتوحة ، ويكون لنفسه شخصية تدل عليه ؛ بحيث نستطيع أن نميزه ؛ كما نميز الفن الفرعونى او اليونانى .

ومنذ اول الامر نجد الفن الاسلامى يرتبط اشد الارتباط بالدين ؛ اذ الفن ولد فى خدمة الدين . فمثلا بالنسبة للمسيحية ظل الفن قرونا يصور تاريخها وحوادثها ، ولم يتحـــرر من اثر الدين الا فى عصر النهضة . كذلك بالنســبة للفن الاســـــلامى فانه طبع بطابع الدين الاسلامى ؛ فقد اصبحت آيات القرآن وسوره توضع على كل شىء ، على الأوانى والحوائط والأسوار . ولا ريب ؛ فالفن الاسلامى ـ مثـل سابقيه من الفنون الاخرى ـ يدرك صلة النفس بالكون .

ثم انه ايضا فى اول امره يعتبر فنا غير شعبى يتبع الحكام ، وكل عمل فنى لا يكون الا لهم . ولكن فى القرنين الرابع والخامس الهجـريين ، نجد الفن الاســــلامى بدا يأخذ الصبغة الشـــعبية ،

واصبحت بيوت الناس وما فيها من مظاهر فنية تدل على هذه الصبغة الشفهية . ومن ناحية أخرى لم يكن الفن الاسلامى يقتصر على ذاتية الفنان دون تاثير المجتمع ، ولكنه اصبح في خدمة الجماعة عن طريق التاثير عليها ، والوصول الى غايتها .

كذلك تعددت الاســاليب الفنية بانقسـام وحدة المسلمين ؛ فقد حدث تنافس شديد كان عاملا على انتشار الفن الاسلامى ، بل فنون الاسلام . ومع ذلك ؛ فان روح الاسلام كانت توجد للفن في كل بلاد الاسلام قالبا متجانسا . كذلك الذى جعل الفن الاسلامى يبلغ غايته من الرقى ، هو أن الفنان المسلم كان يبذل غاية جهده فى اخراج العمل الفنى كما يجب ، كما ان ظهور نظام النقابات ، اوجد نوعا من التفانى فى الفن ؛ بحيث وجدنا متخصصين فى فروعه ، ومدارس له .

ولدينا صور متعددة للفن الاسلامى تبين تطوره ومدارسه واساليبه فى مختلف البيئات الاسلامية ، تظهر على الخصوص فى فن :

العمــارة : ونقلوا أساليب هــذا الفن من امم غير اسلامية ، وان اخذوا منها ما يتفق والعقيدة الاســلامية ؛ فاخرجت من الفن المعمارى طرازا اسلاميا خاصا . واهم شىء يتناوله الفن المعمـارى الاسلامى هو الاعمدة ، التى اتخذت تيجانا وعقودا مدببة وروابط خشبية ، حتى انه ظهر ما يعرف بعلم عقود الابنية (١) . وقد اصبحت اقواس حدوة الفرس « Hores-Shoe » ، تدل على الفن المعمارى الاسلامى ؛ وان وجدت الاقواس قبـلا ؛ الا انه تغير شــكلها على يـد المسلمين . كذلك كانت المقرنصات (٢) ، من ابرز خصائص الفن المعمارى العربى ، تعنى الاجزاء المتدلية من السقف ، ولعلها من الأصل اليونانى : « كورنيس Cornith » ، ثم حرفت الى مقرنص ، او لعلها جاءت من الكلمة العربية « مقرنص » ، اى يجلس القرفصاء .

(١) كشف الظنون ، ١ ص ١٢ (فى اسفل الصفحة) .
(٢) مرزوق ، الفن الاسلامى فى العصر الايوبى ، المكتبة الثقافية ٨٠ ، مارس ، ١٩٦٣ ، ص ٨٣ .

ولعلا بناء القباب والمآذن العاليه دليل براعة فى الفن الاسلامى . كما كان من مظاهـــر الفن المعمارى الاسلامى الظاهرة بناء مشربيات (١) للبيوت مخرمة أو مزخرفة ، ضمن قمرية اذا كانت مستديرة ، أو شمسية اذا كانت غير مستديرة ، أو حتى شيش ؛ وهى من خشب خرط كستائر للنوافذ ، تخفف حدة الضوء ، وتمكن النساء مشاهدة من بالخارج دون أن يراهن أحد ، وأصبح تلك طابع البيوت الاسلامية .

نوع آخر من الفن الاسلامى هو الزخرفة بالخط ، وهـذه أصبحت فنا له تقدير خاص ؛ اذ تطور الخط العربى على أساس أنه خلق للزينة والزخرفة . فقد لفت نظـــر فنانى المسلمين الحروف العربية برءوسها وسيقانها وأقواسها ونقطها ومداتها . فأصبح الخط العربى يوضع على كل شىء ، ليس فقط على المبانى ، وانما على التحف وغيرها ، وان كانت غالبا ما تقتصر على تكرار كلمات معدودة ؛ وهى تكون مدهونة غالبا بماء الذهب والفضة . ولا ريب أنه كان يوجد للخط العربى شكل أو أشكال معينة قبل الاسلام ؛ بدليل أن النبى - ﷺ - كتب عهـــدا بينه وبين قريش (٢) ، كما ظهرت أنـــواع من الخطوط العربية فى أوراق البردى وعلى العملة . ولكن المسلمين عموما اتفقوا على أسلوبين فى الخط العربى : الحروف المستقيمة ذات الزوايا الحادة ، والحـــروف اللينة المقوسة ؛ وقد عرفت الأولى بالخط الكوفى نسبة الى الكوفة مصدرها ، ولعلها تطور للخط الحميرى القديم ، الذى كان منتشرا فى هذه المنطقة ، وأنه نقل عن خط المسند الحميرى فى جنوب الجزيرة ، والثانية النسخ أو النسخى ، وهو ابتكار سورى .

وقد تفرعت من هذين النوعين عدة خطوط أخرى - نستطيع أن نرى أنواعهـا بالمتاحف - لدينـا منهـا أســـماء اثنى عشر قلمـا

(١) ليبنول ، سيرة القاهرة ؛ الترجمة العربية لحسن وعلى ابراهيم ، ط ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) انظر . de Sacy ;
Nouveau aperçus sur l'Histoire de l'Ecriture chez les Arabes du Hedjaz., Paris, 1827.

مختلفة (١) ، واكثر من عشرين شــكلا ؛ اشهرهـــا : الخط المشرقي والاندلسي والافريقي ، والثلث الذى على ما يبدو مشتق من خط كبير اسمه الطومار ـ لا نعرف سبب تسميته هكذا ـ وسمي كذلك لانه ثلثه ، والرقعة ، والديوانى . وقد بلغ الخط العربى من الدقة الى ان اصبحت هناك قوانين واحكام في وضع كل حرف ، وللمسلمين في ذلك تعابير خاصة ، مثل : التوفية من انحناء وانبطاح ، والاتمام من قصر وطول ورقة وغلظة ، والانكباب ـ ربما الانحناء ـ والارســال باطلاق اليد ، كما تلاعبوا بالتشكيل ووصل الحروف . ولدينا اسماء خطاطين مشهورين ، ولعل اشهرهم على الاطلاق الوزير ابن مقلة ، وعلي بن هلال ، وخاصة ياقوت (ت ١٢٩٩/٦٦٩) ، الذى كان كاتب المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ؛ حيث وضع القواعد للثلث والنسخ .

نوع آخر من من الفن الاسلامى يتصل بالنوع السابق ، هو النحت ، الذى بلغ الغاية واربى . ولما كان الاســـلام دين وحدانية يمنع نحت التماثيل ، فنجد النحت الاسلامى اتجه الى نحت الحروف او صور النبات وهو ما عرف بالتوريق ، او التفريعات الهندسية مثل المكعبات والمربعات ؛ ولا شك ان ذلك كان شبه ثورة على الفن الفاضح فى النحت اليونانى والرومانى . وكان عند الفنان المسلم كراهية الفراغ ؛ فظهر التكرار واصبح يدل على طابع الفن الاسلامى . وقد عرف الفنان المسلم النحت المقعر والنحت البارز . ومع ذلك ، لم يمنع هذا ، من نحت الفنان المسلم لصور الحيوانات او حتى الاشخاص ؛ وان كان نحتهما عابرا فى الفن الاسلامى .

اما فن التصوير للاشخاص او للحيوان ؛ فقد وجد في الاســـلام، وان كان مشكوكا في تحريمه كما في النحت . حقا ان النبي ـ ﷺ ـ قد ازال الصور من البيت حين فتح مكة ؛ الا انه استخدم ومن بعده الخلفاء العملة وعليها الصور مما يدل على كراهيـــة فقط ، وليس تحريما . كذلك اختلف الفقهاء فى مسالة الحل والتحريم ، وان اتفقوا بالاجمـــاع

---

(١) مثلا : المقدمة ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٤ ؛ كشف ، ١ ص ٤٦٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٥ وما بعــدها .

على منع تصوير كل ما له ظل ووجوب ازالته (١) . ومع ذلك ، اقبل الفنان المسلم على التصوير ، حتى اننا وجدنا من يؤلف عن المصورين وطبقاتهم (٢) . وقد جعلت كراهية التصوير الاستيحاء من الطبيعة قليلا ؛ فكان اغلب ما صور هو من صور الادميين والحيوانات . كذلك ربما تحرج المسلمون من التصوير ؛ مما جعل اغلب المصورين من اهل الذمة ؛ فمثلا صورة صلاح الدين التى لدينا هى من تصوير القبط (٣) .

ونحن لا نعرف كيف بدأ التصوير فى الاسلام ؛ فيبدو ان ظهوره كان فى عهد الامويين ، الذين رسموا فى عواصمهم الصحراوية كثيرا من الصور (٤) . وربما عرفوه عن طريق الصور التى وجدوها فى الحمامات؛ بحيث نجد المسلمين قد جروا هم ايضا على زخرفة حوائطها بالصور . فلدينا زخارف بالصور لحمام فى الفسطاط من عهد الفاطميين ، توجد بالمتحف القبطى المصرى . وقد شاع رسم الصور فى الحمامات ، حتى ان الفقهاء حثوا على ازالتها ؛ فقال ابن حنبل : « ان الانسان اذا دخل الحمام ورأى فيه صورة فينبغى ان يحكها ؛ فان لم يقدر خرج » (٥) . بل اصبح للمصورين مدارس مثل المدرسة البغدادية (٦) ، أو مدرسـة هراة بافغانستان (٧) ، ونقصد بها عددا من الصور ينتظمهـــا اسلوب

---

(١) البخارى ، باب التصاوير ؛ انظر . Chauvin :
La défense des images chez les . Musulmans, dans Annales de l'Acad d'Arch. de Belgique, 4èm série, ; VIII, 229 suiv ; X, 403 suiv.

Arnold : Painting in Islam. Oxford, 1928.
Ency. (art Taswir) t4, p. 728-8 ; (art Sûra) t4, p. 588-590

(٢) اورد ذلك المقريزى . الخطط ، ٤ ص ١٣٤ س ٩ .

(٣) انظر . مثلا : احمد زكى باشا ، طاس صلاح الدين ، مجلة رعمسيس ، العدد التاسع ، السنة الخامسة . انظر . ماجد ، صلاح الدين ، ص ١٥٠ .

(٤) عن ذلك ، انظر Jaussen et Savigniac : Les Chateaux, Arabes, (Miss. Arch. en Arabie), tIII. Paris, 1922 ;
Marcais : L'Art de l'Isl, p. 26 sqq :

(٥) انظر . قبـــله .

(٦) انظر . زكى محمد حسن . مدرسة بغداد فى التصوير الاسلامى ، مجلة سومر ، المجلد ١١ ، الجزء ١ .

(٧) خير من يمثلها بهزاد المصور (٩ هـ / ١٥ م) . لدينا منه صور فى المتحف الاسلامى .

معين ، يميزها عن غيرها . وقد استهوت شخصيات المقامات ـ مثل مقامات الحـــريري ـ المصورين ، ولدينـا صور منهــا على الورق او المخطوطات . كذلك يذكر المقريزى (١) ، انه كانت فى خزائن المعـز لدين الله الفاطمى فى مصر صور لكل ملوك الدول ، وان الآمر الفاطمى اقام فى بركة الحبش ـ وهى استراحة له ـ رسوما صور له فيها عددا من الشعراء (٢) ، وكتب فوق كل صورة ابيات من شعر كل منهم فى مدح الخليفـــة . بل من العصر الفاطمى (٣) ؛ نسـمع عن مباريات بين المصورين ؛ فنسمع عن اثنين احدهما اسمه قصير والآخر اسمه عزيز ، تنــافس كلاهما فى رسم صورة راقصة فى قوس . وبعد أن كان التصوير لا يجسر على تصوير حكام الاسلام ، اصبح يتجه ايضا لتصويرهم ـ دون الخلفــاء ـ (٤) ؛ فمثلا لدينا صورة لصــــلاح الدين وصور لسلاطين المماليك ، وخلفاء آل عثمان ، على اساس انهم من السلاطين .

اما فن صناعة الخـزف ، فهى قديمة ، ونستبعد أن تكون متاثرة بصناعة الخزف الصينى ؛ وان كان اصلها على العموم فى الشرق ، ولاسيما فى مصر القديمة ؛ واصبحت تدل على تفنن الفنان المسلم . فلدينا حاليا صناعات من خزف جميع العصور الاســـلامية ، التى اتخذت اساليب مختلفة ، ودخلها البريق ، وتلون بالوان متعددة ؛ وبلغ من لطفها انه اذا وضعت يدك من الخارج ،ظهرت من الداخل ، ومن جمالها تبــاع بالوزن (٥) . وقد كان ازدهار صناعة الخزف ؛ بسبب أن الاسلام يحرم اتخاذ الاوانى من الذهب والفضة (٦) .

ويتصل بصناعة الخزف صناعة الصينى ، وهى الأخـــرى دخلتها الالوان ، ووصلت صناعتها الى درجـــة متقنة جدا . فنسمع بصناعة صحون صينى تبلغ فى ارتفاعها قامة رجل ، واجاجين ـ وهى اوانى

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٢١ .

(٤) لدينا صورة للخليفة المتوكل على برمية ، توجد فى متحف البرتيفا بفيينا .

(٥) سفر نامه ، ص ٦٠

(٦) انظر . مرزوق ، الفن المصرى الاسلامى ، سلسلة اقرا ، ١١٤ ، ص ٣٢ .

لغسل الثياب ـ لها ارجل على صورة الوحوش ، ومرايا من الصينى ، وازيار ، وجماجم اى قوارير (١) .

كذلك تقدمت صناعة الزجاج ، وهى قديمة ؛ اذ من المؤكد ان اول معرفتها ظهرت فى مصر فى عصر ما قبل التاريخ ؛ وان ازدهرت ازدهارا كبيرا على ايدى المسلمين . ومما ذكره المؤرخون المسلمون انه كان يصنع بمصر زجاج شفاف عظيم النقاوة يشبه الزمرد . كذلك دخلت صناعة الزجاج لأول مرة فى عهد الفاطميين الزخرفة بالكتابة والرسوم ، ويموه بالمينا وهى مادة كالزجاج . كما ان الزجاج المسمى الفسيفساء ، وهو زجاج يستخدم فى الزخرفة ، يكون ملونا مثل اصفر واخضر وذهبى (٢) . ولدينا فى متحف الآثار العربية مصابيح او مشكاوات زجاجية مزخرفة ، على بعضها اسماء صناعها ، مصورة بانواع النبات والطيور .

ومن الفنون الاسلامية صناعة التحف البللورية ، وهـــذه على ما يظهر تقدمت تقدما كبيرا فى القرن الرابع الهجرى ؛ بحيث انه فى عهد الفاطميين خصصت لها خزانة خاصة تسمى خزانة البللور (٣)؛ اذ البللور يوجد فى مصر عند بحر القلزم (الاحمر) ، او انهم يأتون به من المغرب (٤) . فقد كان البللور يخرج من ايدي صناعه فى غاية الصفاء؛ فضلا عن انه كان ينقش ويلون . ووجدنا من خلفاء الفاطميين مثل العزيز ، من كانوا يتذوقون هذا الفن ويقدرونه ؛ بحيث اعتبر هـذا الخليفة خبيرا فى هذه الصناعة . كذلك تقدمت صناعة الرخام من تحف وغيرها ، على طول العصور الاسلامية منذ عهد الامويين ، وهى من مختلف الالوان ، تفننوا فى ترتيبها .

وهناك صناعة المعادن والجواهر ، وهى لا تقف عند صنع الأوانى والثريات والشمعدانات ـ يشهد بذلك ما يوجد منها فى دار الآثـار

(١) الخطط ، ٢ ص ٣٦٤ ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٨ .
(٢) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٧ ص ١١ .
(٣) الخطط ، ٣ ص ٢٦٣ ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٨ ـ ١٩ .
(٤) سفر نامه ، ص ٦٠ .

العربية ـ ولكن صنعوا منها تحفا وزخرفوها بالجز ـ وهو ابسطها ـ او بتنزيل الذهب والفضة والمعادن الثمينة ، وذلك بالصاقها او تلبيسها ؛ وهو ما أطلق عليه التزميك أو التكفيت (١) ، اى التطعيم . وقد ذكر لنا المؤرخون وجود بعض التحف المعدنية بالقصر الفاطمى ، ويبدو انها كانت فى غاية الروعة مثل (٢) : تمثال لطاووس من الذهب المرصـــع بنفيس الجوهر وعيناه من الياقوت الأحمر ، وريشه بالذهب على الوان ريش الطواويس ، وديك من الذهب ذى عرف كبير مفروق من الياقوت ، وغزال مرصع بنفيس الجوهر ذو بطن ابيض منظوم بالدر ، وسـفينة نيلية من الفضة ، وبستان من الفضـــة مزروع بانواع الشجر ، كله من المعدن . ويبدو ان القاهرة استمر لها أسلوب خاص فى صنع النحاس ، الذى صنعوا منه تحفا مختلفة ؛ بحيث ان اى بيت اصبح لا يخلو من قطع نحاس مكفت ، منها : الأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأوانى والموائد ؛ وان كان المقريزى يرى ان هذا الفن فقد قيمته ايام المماليـــك (٣) ؛ بحيث ان من كانوا يعمـــلون بهـــا سموا العجم او الأزميـــون (٤) .

وقد تقدمت صناعة الحفر على الخشب ، ولا سيما حفر خشـــب المنابر والمقصورات ومســـاند الصحف والصناديق والأثاث وواجهـــات المنازل بقصد تزيينها ؛ فكانت ترســـم فيه زخارف من تفريعـــات او توريقات ، أو حتى صور الأشخاص وحيوانات وطيور (٥) . وقد بلغت هذه الصناعة على يد المسلمين درجة كبيرة من الاتقان ؛ بينما الطريقـة السابقة على الاســـــلام لم تخرج عن تلوينه وحفره . ولكن بعد ذلك استخدمت الحشوات العاجية ايضا ـ مفردها حشـــوة ـ وهى تكون بالتطعيم او التجميع أو الترصيع ، ولا تزال امثلتها توجد فى الشرق الى الآن . وكان للحفر على الخشب سوق خاصة فى عهد المماليك هى سوق خان الخليلى المشهورة .

---

(١) الخطط ، ٣ ص ١٢٠ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٢٦٦ ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٩ ؛
(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٧١ .
(٤) لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة ، ص ٢٣٤ .
(٥) انظر . لوحات خشبية توجد بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

اما صناعة النسيج ؛ فقد دخلتها الزخرفة ، التي تقدمت على ايدي المسلمين ، وكان الصناع يستخدمون طرقا معينـــة في ختم الزخارف وطبعها على المنسوجات ، منها استخدام الواح الخشب التي كان يعرفها القوط ؛ واتخذوا زخارفها من التوريقات ، او من كلمات تجرى مجرى الفال ، او من اسماء الحكام والقابهم ؛ على عكس ما كان سابقا : فقد كان ملوك العجـــم يجعلون الطراز بصور الملوك واشكالهم او بصور معينة (١) . كذلك برع المسلمون في استخدام الخيوط بانواعها ، ولاسيما الخيوط الذهبية . وقد بلغت المنسوجات الاسلامية من الرقة ؛ بحيث كان من الممكن سحب عباءة او ثوب كامل خلال حلقة خاتم (١) .

يتصل بالصناعة السابقة صناعة الابسطة والسجاجيد والاكلمة . وهذه التعابير الثلاثة تختلف في مدلولها ؛ فالبساط يعني ما بســـط اى مـــد (٣) ، وهى كلمة وردت في القرآن ، والسجاد او السجاجيد او السواجيد تمتاز باشكالها الدينية (٤) ؛ وان كنا لا نستطيع أن نقول انها عرفت للعرب من ايام النبى – ﷺ – فقد كان يصلى هو واصحابه على التراب ، وينسب فرش المسجد من ايام الأمويين (٥) ، اما الكليم فهى كلمة فارسية دخلت اللغات الأوربية . كذلك وجدت تعابير اخرى تعنى هذه الصناعة ، منها : كلمة الفرش من فرش ، حتى ان خزانة للفاطميين سميت خزانة الفرش (٦) ؛ وهى التي كانت تحتوى على الابسطة وغيرها ، وكلمة الانماط او الانمطة – مفردها نمط – تعنى الحصر (٧) ، وكلمة حصير وهى تقابل السجاد من سعف النخيل ؛

(١) المقدمـــة ، ص ٢١٠ .

(٢) انظر . المقالة القيمة من : Wiet
Tapis égyptiens. Arabica. Jan, 1959.
Fasc. I. tVI, p. Isqq.

(٣) ابن سيده ، المخصص ، ٤ ص ٧٣ ؛ انظر . : Ettinghausen
On certain arabic Terms for Rug.
Ars Islamica I, pp. 219-222 ; II, pp. 65-68.
Suppl, I, p. 84-6. : Dozy
Ency. (art Sadjàda) t4, p. 47 sqq

(٤) انظر .

(٥) الخطط ، ٤ ص ٨ .

(٦) نفســه ، ٢ ص ٢٦٦ وما بعدها ؛ ابن سيده ، المخصص ، ٤ ص ٧٣ .

(٧) النجوم ، ٤ ص ٩٣ ؛ انظر . Suppl, 2, p. 726. : Dozy

وكلمة فروة وهى جلد حيوان مصبوغة ؛ وكلمة نطع وتعني انها من الجلد (١) ؛ وكلمة طنفسة وهي من اصل يوناني « Tapetion » ، تعنى بساطا صغيرا للجلوس (٢) ، وكلمة وطاء تعنى انه بساط للارجل ، وكلمـة مخمل تعنى بساطا من قطيفة ، والنمارق مفردها النمرق أو النمرقة ، وهي تعنى بساطا أو وسادة (٣) . وفوق ذلك ، وجدت انواع سميت باسماء البلاد التي صنعت منها ، مثل : بساط خسرواني ، فهو جدير بخسر وملك الفرس ، لاشتهار صناعته في فارس ، ويقال ايضا ملكي ، وبساط طبرستاني اى من طبرستان ، وبساط قالى تعنى بساطا كبيرا من بلدة قاليقلا ، وبساط ارمني .

وهذه الصناعة كانت تعمل من الصوف أو الحرير او الحصر ؛ وغالبا ما تزين برسوم وزخارف من مشاهد الصيد والحدائق ، وهى تكون خفيفة أو سميكة ؛ بحيث انه كان يوجد ما يسمى بالبساط المحفور اى السميك أو ذات الخمل ؛ وقد كانت مراكز هذه الصناعة في فارس ومصر على الخصوص . وهذه الصناعة استكثر منها فى قصور المسلمين وبيوتهم ؛ حتى انه على حسب قول المؤرخ أبى الفدا بلغ عددها فى قصر احد الخلفاء خمسين الف بساط متنوع (٤) . كذلك اشتهر بعض المسلمين بجمع مجموعات منها ؛ حتى ان احد امراء المماليك جمع حوالى مائة وثمانين زوج بسط (٥) ، منها ما طوله من اربعين ذراعا الى ثلاثين ذراعا .

كذلك بلغت صناعة الجلود (٦) ، غايتها على يد المسلمين وتفننوا فيها ؛ بحيث انه بسبب شهرة صناعة الجلود فى قرطبة ، انتقلت كلمة كردوانى أى قرطبى الى اللغات الأوربية باسم « Cordouannerie » ؛ لتدل على صانع الأحذية ، ولا تزال هذه الكلمة « "Cordonnerie" »

(١) الأغانى ، ٥ ص ٢٤٦ ؛ انظر . Ibid, 2, p. 683.

(٢) نفســه ، ٦ ص ٧٦ ؛ انظر . Ibid, 2, p. 63.

(٣) ابن سيده ، المخصص ٤ ص ٧٤ .

(٤) نقلهـا : Risler : Op. Cit., p. 128.

(٥) الخطط ، ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٦) بعلمة ، انظـر : Ency of Isl, (art Dijld) 2nd, t2, p. 540-41.

مستعملة الى الآن . فقد تفننوا في صناعة النعال ، فكانوا يحضرون جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر (١) ، ويعملون منه النعال الممتازة . كذلك فن التجليد ، نقل الاوربيون خصائصه عن المسلمين ، ولا يزال اللسان المعروف فى التجليد الاسلامى يوجد فى بعض الكتب الاوربية ؛ كما لجاوا الى زخرفة الكتب وتزيينها بالرسوم والالوان (٢) ، ولاسيما تذهيبها . وفوق ذلك اهتموا بصناعة السروج ؛ اذ يذكر المقريزى سوقا له فى مصر اسـمه سوق اللجميين ؛ حيث كانت تعمل ملونة ما بين اصفر وازرق ، فضلا عن تطعيمها بالذهب والفضة (٣) .

واخيرا تذكر صناعة الورق ، التى اسهم العرب في تطورها (٤) ولم يكن يعرف قبلا غير ورق البردى الذي يكتب عليه المصريون القدماء ، او الجلود او الخشب او العظام او قطع الخزف او الحجارة أو اى شيء ؛ مما كان العرب يكتبون عليه ، ثم اتخذوا القباطى وهي نسيج مصري ؛ ثم الورق من القطن . وربما يكون العرب عرفوا صناعة الورق من الصين بعد فتحهم بلاد ما وراء النهر ، او بالصلة المباشرة ، ولـذا سمى الورق الصينى ، وهو يصنع من الحشائش او مث الكتان (٥) . وقد تاسست اول صناعة له فى بلاد الاسلام فى بغداد فى عهد هرون الرشيد ، وانتشرت فى انحاء البلاد العربية ، ووجدت لها حوانيت تعرف بحوانيت الورق . فكان الورق لا يستخدم فقط فى الكتابة ؛ وانما عرف منه انواع مثـل الورق القوى (٦) ، وقد مهد ظهور الورق الى ظهور الطباعة فى العصر الحديث .

---

(١) سفر نامه ، ص ٦٠ .

(٢) انظر . Blochet : Peintures des manuscrits arabes, persanes et turcs de la Bibl. N. Paris, cf.

(٣) الخطط ، ٣ ص ١٥٩ .

(٤) الاصطخري ، ص ٢٨٨ ؛ المقدسـة ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ انظـر ـ Karabacek : Das arabische Papier Eine historisch antiquarische Untersuchung, 1887.

(٥) الفهرست ، ص ٢١ .

(٦) الخطط ، ٢ ، ص ٢٢٥ .

من هذا يتبين ان الفن ظاهرة حضارية ، اسهم فيها المسـلمون اسهاما كبيرا .

*

ويعتبر الغنـاء والموسـيقى من الفنون التى عرفهما العرب فى حضارتهم الاسلامية ، مثل بقية الشعوب . وكما وجد اثر العرب فى نواحى متعددة ؛ فانهم تركوا اثرهم ايضا فى الغناء والموسيقى ، فوضعوا الألحان ودرسوها ، واخترعوا الآلات .

فالعرب فى جاهليتهم كان عندهم من الألحان ما يوافق سذاجتهم وخشونة حياتهم . فالبدو منهم عرفوا نوعا من الحداء ، الذى يستعملونه فى البادية استحثاثا للابل؛وخصوصا ان نهضة الشعر عندهم ساعدتهم على الترنم . كذلك الحضر منهم عرفوا بعض الآلات الموسيقية ؛ فبعض اسمائها مأخوذة من اسماء بابلية واشورية وآرامية وحميرية (١) .

ولما جاء الاسلام لم يمنع الغناء والموسيقى ؛ وان كان العرب فى اول امرهم لم يهتموا بهما لانشغالهم بالفتوح . ولكن تغير ظروف المجتمع العربى الجديد من الخشونة الى الترف نتيجة لتدفق الأموال ، ومجىء أسرى كثيرين من الفرس والروم الى مكة والمدينة وغيرهما من امهات القرى ومجامع أسواق العرب ؛ اظهر نواة نهضة غنائية موسيقية فى بلاد العرب ، حتى اشتهرت بوجود أمهر المغنين فيها (٢) . ومن الطريف ان نذكر ان العرب ربطوا بين الغناء والتخنث (٣) ؛ وذلك لجمع المغنين بين النساء والرجال ؛ وهذا دليل على بقاء بقية من خشونة العرب الأولى .

وقد سـاعد على نهضـة الفن الغنـائى والموسـيقى مجىء الأمويين (٤) ، الذين قيل عنهم انهم اول من اوجد الملاهى (٥) .

---

(١) عن ذلك بتفصيل ؛ انظر . فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ترجمة نصار ، ص ٥ و ٢٣ .

(٢) العقـد ، ٣ ص ٢٤١ .

(٣) نفسـه ، ٣ ص ٢٤٢ . مثلا : الاغانى ، ١ ص ٩٧ ، ٤ ص ٣٨ .

(٤) الطبرى ٢ : ١٤٦ ؛ فارمر ، الموسيقى ، ٨١ .

(٥) الاغانى ، ١٦ ص ٧٠ . ينسب ذلك الى يزيد بن معاوية .

وربما شجعوا عليهما ؛ ليشــغلوا الناس عنهم ؛ فضلا عن تذوقهما :ـ فقد كانوا يبنون العواصم الصحراوية (١) ، التى كانت اشبه باماكن للهـــو ، ويستحضرون اليها المغنين من الحجـــاز ، ويغدقون عليهم العطـاء (٢) .

ولما جاء العباسيون ، انتعش الغنـــاء والموسيقى على أيديهم انتعاشا كبيرا ، واصبحا يقومان لا على أساس التقليد او الاقتباس ، كما حدث الى وقتئذ ـ اذ ذكر المؤرخون تأثر المغنيين العرب الأوائل بالفرس والروم (٣) ـ وانما على اساس ان يعبرا عن روح العرب وروح الشعوب المفتوحة . وقد كان ظهور انواع الشعر من القصائد والموشحات والموال والزجل مما ساعد على تقدم الغناء ؛ ولاسيما ما يدور منه حول الغزل (٤) . فكان العرب بذلك اول من استخدموا الشعر فى الغناء ، بينما كانت الشعوب الأخرى تغنى فى الغالب من غيروزن (٥) . وقد جاء انقسام وحدة المسلمين وتنافس الحكام عاملا من عوامل تطور الغناء والموسيقى .

ولكن الاهم ايضا ، هو جعل الغناء والموسيقى يقومان على أساس مدروس وعلمى . فقد بدأ الموسيقيون العرب يبحثون عن اغانى الشعوب القديمة ، مثل اليونان والفرس والهنود (٦) . فمثلا يذكر ابن صاعد المؤرخ ان العرب طلعت على كتاب « نافر » الهندى ، الذى جمع أصول اللحون وجوامع تأليف النغم (٧) . وقد عرف

---

(١) عن ذلك بتفصيل ، انظر : Jaussen et Savignac
Les Chateaux Arabes (Miss. Arch. en Arabie). III. Paris, 1922.
ماجد ، التاريخ السياسى ، ط ٧ ، ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ .

(٢) الأغانى ، ٣ ص ٩٨ ، ٦ ص ١١٥ ، ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٨٤ .

(٤) الجاحظ ، رسالة فى العشق والنساء (مجموعة رسائل الجاحظ) ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٥) الزينـة ، ١ ص ٦٩ .

(٦) كشف ، ١ ص ٣٢ ؛ المقرى ، ٢ ، ١٣ هـ ، ٢ ص ١١١ .

(٧) طبقات ، ص ١٤ .

العرب من الغناء انواعا ، مثل : النصب وهو غناء الركبان ، والسناد وهـــو الثقيل ، والهزج وهو الخفيف (١) . كذلك عــرفوا الغناء العادى ، أو المصحوب بجوقة ، أو بالرقص (٢) ؛ كما اصــبح عندهم ما يعرف بالنغم والايقاع .

ومن ناحية اخرى ، قام فلاسفة الاسلام بدراسة كتب ارسطو وغيره من فلاسفة اليونان عن الموسيقى . واضافوا اليهــا شروحا جديدة ؛ حتى ظهــر ما يعرف بعلم الموسـيقى (٣) ، ومن يمارسها يســمى الموســيقور والموسيقار ؛ وهـــذه الكلمة يونانيـــة الأصل « Musica » . وقد اختلطت الموسيقى على ايدى المسلمين بعلم الرياضيات ــ كما فعل اليونان من قبل ــ الذى كان العرب متفوقين فيه . وقد ترتب على ذلك انه ينسب للمسلمين انهم اخترعوا النوتة الموسيقية او الميزان الموسيقى (٤) ، او ما يسمى الاصابع مفردها اصبع لتغييرها فى النغم ؛ وذلك باعطاء رموز للموسيقى عن طريق استخدام الأرقام والأحرف . فظهر على ايديهم ما يعرف بالتقطيع بالصوت ونصف الصوت وربع الصوت ، وبالكيفيات من الهمس والجهـر والرخـاوة والشـــدة والقلقلة والضعف . فاوجد ذلك للموسيقى العربية التنوع ، الذى بلغ العشرين ؛ وان لم يستخدموا منه أكثر من اثنى عشر ، وسموه باسماء مثل : بك ودوكا وسيكا ــ وهى اسماء فارسية ــ تعنى الأول والثانى والثالث ؛ وان كان اساسها الزخرفة النغمية بابتــداع النغـم ، وليس الهارمونى ، كما فى موسيقانا الحالية . ولعل (٥) دو Do رى Re مى Mi فا Fa صول Sol لا La سى Si ، التى هى السلم

---

(١) العقد ، ٣ ص ٢٤١ .

(٢) الأغانى ، ٥ ص ٢٤١ .

(٣) عن ذلك بتفصيل ، انظر . المقدمة ، ص ٣٢٥ ــ ٣٣٩ ؛ الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، ط ١٣٤٢ هـ ، ص ١٣٦ ؛ Ency. (art Mûsîki) 13, p. 801-807

(٤) الأغانى ، ٢ ص ١٧١ ، ١٦ ص ١٦ ؛ فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ص ١٢٩ ، ٣٣٨ ؛ انظر . Land : Recherches sur l'Histoire de la gamme. arabe. Leide, 1884 ; Daniel : La Musique arabe. Ses rapports avec la musique grecque et chant grégorien, Paris, 1879, p. 24. 122-3.

(٥) هونكة ، شمس العرب ، ص ٤٩٤ .

الموسيقى الحالى ماخوذة من الأحرف العربية : دال راء ميم فاء صاد لام سين .

ولذلك كان اثر الموسيقى العربية على اهلها كبيرا ؛ بحيث وجدت كلمة طرب وهى التى تعنى الثمـالة . ولدينا امثـلة عديدة فى كتب المسلمين تبين اثر الغناء والموسيقى فى نشوتهم . وللاسف لم يتبق لنا قطعا من لحون او الحان عربية مكتوبة ؛ غير ما تعارف عليه الموسيقيون الحاليون بالتقليـــد . وحتى رجـال الدين هم ايضـا ــ بما فيهم الصوفية (١) ــ تدارسوا اثر الموسـيقى والغنــاء من حيث حلهـا وكرهها (٢) ؛ وذكر بعضهم انه يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والاخرة (٣) . بل تكلم فيها أهل الطب ، وقالوا ان الصوت الحسن يسرى فى الجسم ويجرى فى الدم ؛ فيصفو الدم ويرتاح القلب ، وتنمو النفس (٤) .

وقد ظهـرت آلات موســيقية عديدة (٥) ، اخذوهـا عن كل الشعوب ؛ وان حسنوا فيها ، واخترعوا جديدا عليها . ولدينا منهما اسماء عديدة ، بعضها عربى او فارسى او هندى أو يونانى . وقد اصبح للالات الموسيقية سوق خاص فى مدن الشرق ، مثل سوقها فى القاهرة (٦) . فمن هذه الالات ما هو للنفخ ؛ مثل : المزمار أو المزمر ،

---

(١) انظر . الهجويرى ، كشف ؛ الغزالى : احيـاء ؛ رسـائل اخـوان الصفا ، ايضا ؛ انظر : Duncan : Emotional religion in Islam as affected by muiscal singing. J. R. A. S., 1901-2.

(٢) العقـد ، ٣ ص ٢٣٠ ــ ٢٣٢ ؛ فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٣١ وما بعدها . (بتفصيل) .

(٣) العقـد ، ٣ ص ٢٢٨ .

(٤) نفســه .

(٥) عنها : صبح ، ٢ ص ١٤٣ وما بعدها ؛ الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ؛ ط . مصر ١٣٤٢ هـ ، ص ١٣٦ ومابعدها ؛ مروج (ط . اوربا) ، ص ٩٠ ؛ فارمر ، ص ١٨٢ وما بعدها ؛ انظر . J. R. A. S., July. 1939 : Jomuary ; Dozy : Suppl, cf. ؛ انظر ، جرجى ، التمدن ، ٣ ص ١٩٨ .

(٦) الخطط ، ٢ ص ٢٠٩ . يسميه سوق المعازف .

والصفارة ، والناى ، والقصابة ، والبـوق وهو من نحـاس اجوف ، والقيثـار الذى لعـله يونانى « Kithara » ، والطنبور وهو يشـبهها والشبابة وهى قصبة جوفاء فيها ثقوب عليها سدادة ، وهى تقطع بوضع الاصابع من اليدين فى موضع متعارف ، والارغن او الارغانون وهو منافخ من جلود الجاموس من آلات الروم . وبعضها للقرع ، مثل : الدف، والصنوج ، والجلاجل ، والطبل او النقارات ، وهى ذات شكل اسطوانى مجوف من الداخــل ، مشـــدودة بالجـــلد من الناحيتين (١) ، والكوسات (٢) ـ كوس ـ وهى طبل شكلها نصف دائرى ، مشـــدودة بالجلد من ناحية واحدة . وبعضـــها بالأوتار التى توضع على بسائط آلات مشدودة فى رأســـها وتقرع الأوتار بمعزف ، ولعل اهمهـــا : العود (٣) ، الذى يسميه النويرى ملك الآلات ، وهو اسم عربى لآلـة فنـان يصنع من خشـب العود ، لعل اول ما استعمل فى عهد هرون الرشيد ، وقد تطور على ايدى المسلمين ، حتى ان المؤلفين خصصوا له المؤلفات (٤) ؛ فخففوا من وزنه ، وزادوا فى عدد اوتاره ، واخترعوا مضرابه من قوادم النسر ، وربما يكون من انواعه المزهر او البربط ، وهذا الأخير اصله فارسي عبارة عن عود محدودب الظهر صورته تشبه صور البط ، ارسخ البطن ، له اربعة اوتار (٥) . وأيضا الرباب (٦) ، وهو ذو وتر واحد ، يعزف عن طريق قوس ؛ وان اصبح له اربعة اوتار ؛ وقد أطلق عليه الكمان او الكمنجة . والقانون وهو ذو سبعة أوتار (٧) ـ ربما اخترعه الفارابى ـ ولعل اسمه المعزف اوالعزف او الجنك او الشلياق او اللور او الصنج ، وربما هى انواع منه . كذلك لدينا اســماء آلات اخرى محدودة ، مثل : غربال ومصافق وكنكلة وكران وكنارة وقضيب وعرطبة وسلباق وعير ، واصف ، والمستق آلة للصين من انابيب .

---

(١) انظر . Suppl, 2, p. 26. : Dozy

(٢) هى كلمة من اصل فارسى . انظر . Jnost, p. 45

(٣) عنه ، انظر . Ency. (art Ud) t4, p. 1038-1041

(٤) مثل كتاب ابن يونس (ت ١٠٠٩/٤٠٠) ، العقود الســعود فى اوصـاف العـود .

(٥) العقد ، ٣ ص ٣٦٦ ؛ مروج (ط ١ . اوربا) ٨ ص ٨٨ ، ٩٣ ؛ فارمر ، ص ١٨٣ .

(٦) عنه ، انظر . Ency. (Rabâb) t3, p. 1159-62

(٧) انظر . Op. Cit., p. 19 : Land

ولدينا اسماء طبقات عديدة من المغنين ، لم تعرف الشعوب قبلهم كثرتها ، وهم رجال ونساء – قيان – على السواء ، يذكرهم المؤلفون فى كتب خاصة ، اشهرها على الاطلاق كتاب الأغـــانى لأبى الفرج الاصفهانى ، الذى امضى خمسين عاما لتاليفه (١) ، وطبقات المغنين للجاحظ (٢) . فمن العصر الاسلامى الأول حتى الأموى ، نذكر من المغنين (٣) : نشـيط الفارسى ، وطويس ، وسائب (او سلم) وخاثر (او خاسر) ، وابن سريج ، وابن محرز ، ومعبد ، ومالك ، ومن المغنيات : جميلة وسلامة القس وعزة الميلاء وحبابة وبليلة ولذة العيش وسـعيدة والزرقاء وعقيلة وخايـدة . ومن العصر العباسى ، نذكر : ابراهيم بن المهدى (٤) ، وهو ابن الخليفة العباسى المهدى ، وكان قد بويع له بالخلافة دون المامون وتلقب بالمبارك ، وابراهيم الموصلى ، الذى قال عنه الجاحظ انه صنع الغناء بعلم فاضل وحذق راجح (٥) ، وابنـه اسحق الذى قيـل انه الف ثلاثين كتابا حتى عن راقصـات الحجاز (٦) وبالأخص زرياب (٧) الذى كان عبدا اسود لابراهيم الموصلى ، وترك عشرة آلاف لحن ، واخترع للعود وترا خامسـا ، ومضربا من قوادم النسر كما ذكرنا .

اما طبقات علماء الموسـيقى – واغلبهم من الفلاسـفة – فنذكر منهم (٨) : الكندى (ت ٢٦٠/٨٧٣) ، الذى له عدة كتب فى الموسيقى

---

(١) انظر . Carra de Vaux : Op. Cit., IV, p. 344.
اما عن الكتاب نفسه ، انظر . ط . بولاق مثلا .

(٢) انظر . رسائل (الجاحظ) .

(٣) انظر . كتاب الأغانى ؛ العقد ، ٣ ص ٢٤١ وما بعدها .

(٤) الأغانى ، ٥ ص ٢ – ٤٩ ، ٥٢ – ١٣١ ؛ Barbier de Meynard : Ibrâhîm, fils de Mehdi. J. A. 1884, p. 201-342.

(٥) رسالة فى طبقات المغنين ، ص ١٨٧ ؛ عنـــه ، انظر . وفيات ص ١٤ – ١٥ ؛ Ency. (art Ibrâhîm al-Mawsilî) t2, p. 465.

(٦) دائرة المعارف الموسيقية ، ترجمة ص ١٩ .

(٧) العقـد ، ٣ ص ٢٤٥ ؛ المقدمة ، ص ٣٣٩ ؛ المقرى ، ط . ازهرية ، ١٣٠٢ هـ ، ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ؛ ابن دحية ، المطرب ، ص ١٤٧ ؛ وما قبله .

(٨) الفهرست ، ص ٢٢٥ – ٥٧ . نقل Erlanger مقتبسات من كتبهم =

منها : رسالة فى خبر تاليف الالحان ، والفارابى (ت ٩٥٠/٣٣٦) ، الذى له ايضا عدة كتب عن الموسيقى ، اشهرها : كتاب الموسيقى الكبير ، وربما يكون الفارابى هو الذى اخترع العود ، فلدينا رسمه بيده (١) ، وابن سينا (ت ١٠٨٧/٤٨٠) ، الذى تعرض لهذا العلم فى كتابه الفلسفى الشفاء ، وصفى الدين عبد المؤمن (ت ١٢٩٣/٦٩٣) الذى له كتاب الادوار .

ان الغناء والموسيقى العربيين اثرهما واضح فى الغناء والموسيقى العالمية ؛ فغناء وموسيقى شعوب اســـبانيا (٢) والمكســـيك وامريكا الجنوبية ، وحتى شعوب افريقيا واسيا ، نلمس فيها بوضـــــوح اثر العرب . كما ان اسماء كثير من الات العرب الموسيقية دخلت اللغات الاوربية ، مثل : القانون والطبل والنقارة والقيثارة والرباب والعود : « Kanoon » و « Timbal » و « Naker » و « Guitar » و « Rebec » و « Luth » ، وحتى كلمة التروبادور « Troubadour » (٣) ـ وتعنى الشاعر المغنى فى اوربا ـ كلمة محرفة عن كلمة طرب او طروب العربية .

*

ان الثقافة الاسلامية لها حق ان تفتخر بما قدمته للحضارة من تراث خالد ، شيدت عليه الحضارات التالية نهضتها الثقافية .

=

فى كتابه La musique arabe I. . بعض هذه المخطوطات توجـــد فى المكتبات ، مثل : الفارابى بالمكتبة الأهلية بمدريد برقم ٦٠٣ ، وليدن برقم ٦٥١ ، ودار الكتب برقم ٣٥١ ، وصفى الدين بالمتحف البريطانى برقم ١٣٦ أو ٣٦١ ، وباريس برقم ٢٨٦٥ ، ودار الكتب برقم ٣٤٩ . كذلك فى رسالة فى خبر تاليف الالحان ، نشر وترجمة Lachmann والحفنى ، ط . Leipzig ، ١٩٣١ .

(١) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، انظر .

(٢) انظر . Ribera : Historia de la música arabe mediaeval, y su influencia en la espanola. Madrid, 1927.

(٣) عن ذلك ، انظر . ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة سالم وحلمى ، ص ٢٨٠ وما بعدها . (محاضرة القيث) .

الفصل الرابع

اثر الحضارة الاسلامية فى اوربا

تركز الحضارة في الشرق والغرب الاسلاميين ـ طرق وصول الحضارة الاسلامية الى اوربا ـ الدليل على اثر الحضارة الاسلامية في اوربا .

نعرف ان الحضارة اليونانية ظهرت في أوربا ، ثم جاء الرومان وعملوا على الاحتفاظ بهذه الحضارة ونشرهـــا فى كل مكان فتحوه ؛ بحيث ان ما كان خارج حـــدود امبراطوريتهم اعتبر خارجـا عن الحضارة ، وعرفت بلاده بالهمجية « Barbarus » . وفي القرن الرابـــع الميـــلادى بدات تاتى الى اوربــا موجـــات المتبربرين « Barbari » ، من اواسط آسيا ومن شمال اوربا ، ومعظمهم من غير المتحضرين ، وقد ضغطوا على حدود الدولة الرومانية ، حتى فرضوا عليها سيطرتهم ؛ بحيث أن الحضارة اليونانية التجأت الى الشرق ؛ اذ سلمت روما تراثها الى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، وريثة الرومان فى الشرق . وقد كان تحول المتبربرين الى المسيحية عاملا على تعريفهم بمبادىء الحضارة . ولكن استمرار مجيء موجات جديدة منهم ، وانعدام الليونة العقلية التى تمهد للانتاج ؛ كل هذا لميجعل لسكان أوربا فى العصور الوسطى حضارة متميزة ؛ حتى سميت هذه العصور بالعصور المظلمة . ولم تعد توجد مراكز للنور فيها الا فى مناطق محدودة ، بخاصة فى الأديرة التى يوجد فيها الرهبان ، الذين يعرفون اليونانية أو اللاتينية (١) ؛ وبعد ذلك فيما عرف بالجامعات « Universitas » ، وهى التى نشأت مرتبطة اشد الارتباط بالكنيســة (٢) .

---

(١) عاشور ، اوروبا العصور الوسطى ، النظم والحضارة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٢ ص ٣٦ وما بعدها ؛ Crump :
The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1926, p. 258.

(٢) عن الجامعات الأوربية بالعربية ، انظر . عاشور ، الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى (مجموعة عزت عبد الكريم) .

وحتى المركز الحضارى الذى كان فى بيزنطة ، مع انه احتفظ بحضارة اليونان بصفته وريثا للتراث الأوربى ، ومع أن آسيا الصغرى كانت دائما مركزا لليونان ، الا ان التهديد المتواصل على حدود بيزنطة من ناحية المسلمين ، وخصوصا بعد ان اقتطع المسلمون كل املاكها حتى لم تتعد حدودها آسية الصغرى ، وبقيت هكذا الى ان استولى الترك العثمانيون عليها فى سنة ١٤٥٣ م ، وأيضا من ناحية المتبربرين الذين اجتاحوا اوربا بما فيها البلقان . هذا بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية والتطاحن السياسى والدينى ؛ كل هذا جعل حضـــارة بيزنطة جامدة ، ويقول احد الكتاب الأوربيين عن حضارة بيزنطة هذه انه انتظمها احط واحقر شكل اتخذته حضارة ؛ بحيث يمكن أن يطلق عليها لفظ « وضيع » (١) . فكان كل ما نقله الروم عن حضارة العصر القديم هو تلخيصات او شروح او جمع ، وان معظم العلوم منعت عندهم نتيجة للتعصب الدينى ؛ فلم يظهر عندهم مؤرخون او حتى شعراء كما عند العرب .

وبجانب الظلام الذى كان مسيطرا على معظم اركان اوربا والجمود الحضارى فى آسيا الصغرى ، كان الشرق الاسـلامى ومغربه يسـطع بالنور ، وهو الذى ذكرنا نواحى تقدمـــه المتعددة ســـواء فى نظمــه السياسية او فى حياته الاجتماعية او فى علومه وفنونه . وكان السبب فى ذلك هو الاستقرار السياسى فى دار الاسلام فى ظل الدين الاسلامى ـ آخر الأديان ـ الذى كان يساير التطور ولا يقف فى سبيله ، وبسبب اقتصاديات دار الاسلام المزدهرة ، ثم لأنه وجد فى دار الاســـلام بقايا حضارات سابقة ، أخذها المسلمون وهضموها واضافوا اليها . ولما جاءت موجـــات الترك او المغول ؛ فان نمـــو الحضارة الاسلاميـــة لم يقف ـ كما حدث بالنسبة للحضارة فى اوربا ـ وان عملت هذه الموجات على تنقل مراكز الحضارة . لكل هذا تكونت فى بلاد الاسلام حضارة متميزة مزدهرة ، كان لابد أن تسيطر فى العالم شأن كل حضـــارة متقدمـــة ، فوصلت الى اصقاع بعيدة فى آســيا وافريقيـــا ، وعلى الخصوص فى

---

(١) انظر . أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، ص ١١٧ . ينقل عن كاتب اسمه Lecky .

اوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وذلك حينما استقرت فيها موجات المتبربرين ، وتحولت شعوبها الى المسيحية ؛ فبدات تبحث عن الحضارة ، ولم تجدها فقط فى مراكز النور المنتشرة بين الرهبان فى اديرتهم – وهم وحدهم الذين كانوا يحتفظون ببقايا حضارة اليونان – وانما على الخصوص وجدوها فى الشرق الاسلامى ومغربه ، فى وقت كانت الحضارة الاسلامية قد تبلورت ورسخت اقدامها .

وقد وصلت الحضارة الاسلامية الى اوربا من عدة طرق (١) .
منها : طريق الاندلس ، وذلك لأن العرب استقروا فى هذه البلاد حوالى ثمانية قرون ، بلغت فيها الحضارة الاسلامية اوجها . وكانت الحضارة الاسلامية فى الأندلس تشع من مراكز متعددة مثل : قرطبة « Corduba » (Cordoba) ، واشبيلية « Hispalis » (Sevilla) ، وغرناطة « Granata » ، (Granada) ، وطليطلة « Toletum » (Toledo) ؛ حيث كان العرب والمغاربة هم الذين ينشئونها ، وهم الذين يسميهم الأوربيون بالمور او الموريسكيون « Moros » (Moriscos) (٢) . وقد كانت غالبية سكان الأندلس – وهم من المسيحيين – قد تشبعوا بالحضارة العربية؛بحيث انهم هجروا لغتهم ليتكلموا العربية ، وعرفوا بسبب ذلك بالموز آراب « Mozarabes »(٣) ، وهى كلمة تعنى مستعرب العربية ؛ واضطر الأساقفة من رجال الدين الى أن يترجموا الانجيل الى العربية.كذلك قامُ اليهود؛وهم اقلية كبيرة فى الأندلس استعربت منذ زمن مبكر ، فاخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا فى غمارهم(٤) ؛ بدور هام فى نقل الحضارة الاسلامية عن طريق الترجمة ، أو الانتقال الى بلاطات النصارى الأوربيون . وقد كان

---

(١) عن ذلك بتفصيل ، انظر : Häskins : Studies in the History of Mediaevai Science. Cambridge, 1927, p. 3 sqq.

(٢) عنهم ، انظر : Ency. de l'Isl, (art Maures) t3. p. 47 sqq ; :(art Moriscos) t3, p. 646-7.

(٣) عنهم ، انظر : Ency. de l'Isl, (art Mozarabes) t3, p. 652-3

(٤) انظر : Lévi-Provençal : Histoire d'Espägne Musulmane Paris, 1951. p. 80-81 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٥٢٣ .

النابهون في أوربا يأتون الى مراكز الحضارة الاسلامية في الاندلس . ولما افل نجم العرب في الاندلس ، وظهرت الحركة المعروفة باسترداد الأراضي من المسلمين « Reconquista » ، نجد ان الملوك الأسبان المسيحيين يغترفون من حضارة المسلمين ويأخذون بمظاهرها ، ولا يستطيعون ان يقفوا امامها لتقدمها ؛ فكان الذين ينقلونها لهم يعرفون بأسماء اشهرها : المدجنون « Mudéjares » – وهي من دجن بالمكان اى اقام – او المهاجرون او المداخلة او المعاقدون او المعاهدون او حتى الموريسكيون ، وهم المسلمون الذين بقوا بعد الركونكستا ، وان كان بعضهم قد تنصر ، كما ان معظمهم تجمع في طليطلة (١) . فنسمع ان الملك الفونســو العاشر الملقب بالحكيم « Alfonso el Sabio » (١٢٥٢ – ١٣٨٤ م) ، قد فتح فى عاصمة ملكه مدرسة للترجمة فى طليطلة ، جعل فيها علماء مسلمين ينقلون الى الاسبانية او القطلونية او اللاتينية كتب العرب . وعلى العكس كانت البــلاد الأوربية التى تحيط بالأندلس يخيم عليها الظلام ؛ فنجد ان النور الذى فى الأندلس يتسرب الى ربوع اوربا . فعن طريق الأندلس انتقلت حضارة العــرب الى أوربا .

طريق آخر لا يقل اهمية عن طريق الأندلس هو **طريق صقلية**. فنعرف ان العرب فتحوا صقلية فى عصر متأخر على يد دولة الأغالبة ، التى قامت فى افريقية (تونس والجزائر الحاليتين) فى عهد العباسيين وذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / العاشر الميلادى ، بعد ان كان الروم قد اتخذوها وكرا يهاجمون منها الأراضى الاسلامية . ولما جاء الفاطميون وانشأوا خلافتهم فى أرض المغرب ، استولوا على صقلية كارث عن الأغالبة ، بل انهم اكدوا سيطرتهم ايضا فى جنوب ايطاليا حتى رومية العظمى (روما = Roma) ، وهى التى سماها العرب قلورية (كالبريا = Calabre) . وقد كان احتلال العرب لهذه البلاد الايطالية معناه انه لابد وان تشملها الحضارة الاسلامية المتفوقة

---

(١) انظر . Jourdan :
Recherches critiques sur l'age et l'origne des traductions Latines. Paris, 1813, p. 149-150.

وقتذاك ، واصبحت بلرم (بلرمو = Palermo) ومسينى (Messine) ومرقوسة (سيراقوز = Siracusa) ، وبوة (Pouilles) ، وبارى (Bari) ، مراكز الحضارة الاسلامية اليانعة فى ايطاليا . ولما قضى على سيطرة العرب فى صقلية وجنوب ايطاليا من قبل الفرنجة النورمان (Norsmen او Normans) فى القرن الخامس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وهم عنصر مسيحى من هجرة شمالية ، ظهروا فى الوقت الذى ظهر فيه السويديون ، استولوا على صقلية وجنوب ايطاليا من الفاطميين . ومع ذلك فلم يقض على الحضارة الاسلامية فيها ، بل ان النورمان كانوا عاملا فعالا فى نشر هذه الحضارة . والواقع ان عداوة النورمان للمسلمين كانت فى اول سكنى النورمان جزيرة صقلية ، فكانوا يغزون فى افريقية وسواحل مصر والشام ، ويستولون على مدن المسلمين . ولكن بعد ذلك نجد ان سياستهم سلمية نحو المسلمين ، بدليل تلك الخطابات المتبادلة بين روجر الثانى « Roger II) ١٠٣٠ — ١١٥٤ م) ، والخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ / ١١٣٠ — ١١٤٩ م) . فقد كان النورمان يتذوقون الحضارة الاسلامية ، ويتوجون انفسهم بعبارة لا اله الا الله ، ويتخذون علامة ملوك الاسلام : « الحمد لله حق حمده » ، ويلبسون العمائم مثل العرب ، ويسلكون فى قصورهم طريق المسلمين (١) ، وعمالهم وعبيدهم ومنجميهم وجواريهم وحظاياهم ايضا من المسلمين ، وكان بلاطهم يعج بالعلماء المسلمين ، فنجد الادريسى الجغرافى العربى الكبير يهدى كتابه الى روجر الثانى ، ويسمى كتابه الروجارى . كذلك خلفه غليام « William » ، كان يرحب بالعلماء المسلمين ، ويقرأ ويكتب بالعربية (٢) . ونجد ملكا اخر من سلالتهم فردريك الثانى « Federico II » (١١٩٤ — ١٢٥٠ م) — كما فعل ملوك الاسبان — يشجع الترجمة (٣) لعلوم الاسلام الى اللاتينية واليونانية او حتى

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣١٥ .

(٢) نفســـه .

(٣) انظر : Gabrieli : Federico II et la cultura muslmane. Revista Storia Italiana, LXIV, 1952, pp. 5-18. ؛ جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ص ٧٥ .

الايطالية الدارجة ؛ التى كانت قد بدات فى الظهور ، وامس جامعة نابل (نابلى Napoli) ؛ بحيث اتهم بانه مالأ المسلمين ، ولما حضر فى حملة صليبية الى الشرق في عام ١٣٢٧ م ؛ فانه صالح سلطان المسلمين ؛ مما دعا البابا الى حرمانه .

طريق ثالث لانتقال الحضارة الاسلامية هو **مجىء الصليبيين الى** الشرق الاسلامى (١) . فقد كان بقاء الصليبيين مدة طويلة فى الشرق الاسلامى منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجرى / منذ القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، على اتصال تام بجميع مظاهر الحضارة الاسلامية المتفوقة التى أدهشتهم ، اذ يظهر هذا فى احاديث ملوك اوربا والرحالين منهم . وعلى العكس ؛ فانهم كانوا بالنسبة للمسلمين بهائم ، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير (٢) . ومع ان الحروب كانت مستمرة بينهم وبين المسلمين ؛ فان الأذكياء كانوا ينقلون جميع مظاهر حضارة المسلمين ؛ وان كان هذا النقل اغلبه بالمشاهدة .

طريق رابع عمل على نقل الحضارة الاسلامية هو تبادل التجارة بين الشرق والغرب عن **طريق مصر** . وقد حدث هذا منذ مجىء الفاطميين مصر ، وجعلوها مركزا سياسيا وتجاريا وثقافيا من الدرجة الأولى . كذلك كان هجوم المغول فى العراق مما جعل مصر كعبة الحضارة الاسلامية فى عهد المماليك ؛ حيث يفسر ابن خلدون سبب ازدهار حضارتها بتعودها على الحضارة منذ الاف من السنين (٣) . لذلك برزت فى مصر العلوم والفنون ، وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من المشرق والمغرب ؛ فيصفها ابن خلدون بقوله (٤) : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى ام العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » . وقد ساعد على نقل الحضارة الى اوربا عن طريق

---

(١) انظر . Haskins : Op. Cit., p. 130 sqq.

(٢) حتى ، العرب ، ترجمة ، ص ٢٢٢ . نقلا عن أسامة .

(٣) المقدمة ، ص ٣٤٤ .

(٤) نفسه ، ص ٤٥٣ .

مصر ، ان مدن اوربا وقتذاك مثـــل : بيزة « Pisa » ، وجنـوة « Genova » ، والبندقية « Venezia » ، ونابلى « Napoli » وفلورنسا « Firenze » ، نشطت تجارتها مع مصر ، وهى المدن التى ظهرت فيها حركة النهضة الأوربية « Renaissance » ، التى مهدت للحضارة الحديثة فى أوربا .

* *

والدليل على ان الحضارة الاسلامية انتقلت الى اوربا ، وكان لها اثرها الأول فى الحضارات التاليـــة ، هذه الكتب العديدة التى ترجمت من العربية الى اللاتينية او الطليانية او العبرية (١) ، وهى كتب تملأ المكتبات الاوربية منذ زمن مبكر ، وتدل على تقدم العلم الاسلامى بجميع فروعه . كذلك فى عصر النهضة لما اراد الأوربيون الرجوع الى العلوم اليونانية القديمة ، وجدوها مهذبة ومشروحة فى كتب المسلمين . هذا مع العلم ؛ بأن هذه العلوم اليونانية القديمة كانت مهملة من الأوربيين فى العصـــور الوسطى ، وكان جل اهتمامهم بما نقله اللاتين منها (٢) . فبفضل النقل عن العرب تقدمت الحضارة فى اوربا ، كما حدث بالنسبة للحضارة الاسلامية ؛ مما يؤيد ان كل حضارة تقوم على سابقتها .

وكان اهم ما ترجم من كتب العرب كتب الفلســـفة ، وذلك لأن العقلية الأوربية وقتذاك كانت مشغولة بالمشاكل الفلسفية ، التى تعالج العقيدة او بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية ، التى عرفت باسم الفلسفة المدرسية « Scholasticism » ؛ لأنها كانت تدور فى المدارس ، ومن يقومون بها يسمون المدرسين « Doctores Scholastici » ، التى قامت على يد القديس اوغسطين « St. Augustin » (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) . فكان معظم ما عرف من الفلسفة فى عهد اليونان والرومان ، يكون عن

(١) L'Evolution scientifique du haut, : Van de Vyvre moyen-âge. Archeion XIX, 1937. ؛ ميبلى ، العلم ، ص ٤٢٧ .

(٢) هونكة ، شمس العرب ، ص ٤٩٤ .

طريق العرب (١) . كذلك كان اهم ما نقلوه بعد الفلسفة علم الطب ؛ حيث ان كتب ابن سينا او الرازى المترجمة ، استمر تدريسها فى جامعات اوربا لى القرن الثامن عشر ، ولاسيما فى مدرسة سلرنو Salerno ، التى اعتبرت أول معهد طبى فى اوربا (٢) ، ولا يزال اسما الطبيبين المسلمين ابن سينا والرازي يوجدان فى كلية الطب فى باريس . بل ان نظريات ابن خلدون التى تعتبر اساس علم الاجتماع ، لا تزال تذكر فى جامعات اوربا الى الآن .

ولدينا اسماء لعديد من المترجمين الأوائل ، وهم من اديان واجناس مختلفة ، نقلوا علم العرب الى الأوربيين ، وذلك ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى اواخر العصور الوسطى . فمنهم (٣) : جربير « Gerberto » ، الذى اصبح فيما بعد بابا روما باسم سلفستر الثانى « Silvestre II » ، وادلار اوف باث "Adelard of Bath" ، وقسطنطين الافريقى "Costantinus Africanus" ، وجيرار الكريمونى « Gherardo von Cremona » ، وروجر بيكون « Roger Bacon » ، وابيلار « Abelard » ، وروبرت اوف كتون « Robert of Ketton » ، وميشيل سكوت « Michel Scot » ، وفيليب الطرابلسى « Philippe de Tripoli » ، وتوماس اكويناس « Thomas Aquinas » ، واوجين البلرمى « Eugenuis » ، وريموند لوليس « Raimundus Lullius » ، ودومينكوس جونديسالفوس "Dominicus Gundisalvus" ، وليوناردو بيزانو « Leonardo Pisano » ، وافلاطون تيبرتينوس

---

(١) انظر . Jourdan :
Recherches critiques sur l'age et l'origine des traductions latines d'Aristote. Paris, 1843.

(٢) انظر . Rashdall :
The Universities of Europe in the Middle Ages. Oxford, 1951. I, p. 77-78.

(٣) عن هؤلاء ، انظر . Haskins : Op. Cit., cf.
؛ وايضا نجيب العقيقى ، المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ؛ Thorndike :
A History of Magic and expermintal Science. cf.

، « Plato Tiburtinus » ، وبطرس الفونس « Petrus Alfons » ، وغير هؤلاء كثيرين ٠

وكذلك نجد ان مظاهر الآداب العالمية معظمها من اصل عربى ؛ اذ ترجمت كتب عربية كثيرة اشهرها كليلة ودمنة ، والف ليلة وليلة ٠ فمثلا اغنية رولان « Chanson de Roland » ، التى ظهرت فى سنة ١٠٨٠ م ، وتعتبر احدى دعائم الأدب الغربى المبكر ، لم تقم الا نتيجة الاتصال بالعالم الاسلامى ، عبر جبال البرتات ٠ كذلك دانتى اللجييرى « Dante Alighieri » ، (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) ، اكبر شعراء ايطاليا ، مؤلف الكوميديا الالهية « Divina Commedia » ، يقال — كما يذكر عالم أسبانى (١) — انه اعتمد على رسالة الغفران لابى العلاء ، وبوكاشيو الايطالى « Boccaccio » (١٣١٣ — ١٣٧٥ م) ، مؤلف الديكاميرون « Decameron » ، او الصباحات العشرة ، اعتمد فى تاليفه على الف ليلة وليلة ، وثرفنتس « Cerventes » (١٥٤٧ — ١٦١٦ م) ، وهو اكبر كاتب اسبانى ، قضى جزءا من حياته فى الجزائر ، يعترف بان روايته الدون كخيوته دى لامنشـــا (Don Quijote de la Mancha) أو دون كيشوت — كما تسمى فى الفرنسية — قد تكون ماخوذة من وثائق عربية ، بل انها مملوءة بتعابير وامثال عربية كثيرة ٠

بل فى الآداب الأوربية الحديثة نوعا ، نجد نفس الأثر العربى ٠ فشكسبير « Shakespeare (٢) » ، وهو اكبر كاتب انجليزى تأثر كثيرا بحكايات الشرق ، ولاسيما فى روايته روميو وجولييت ، وتشوسر « Chaucer » الشاعر الانجليزى تأثر أيضا بالشرق فى قصصه ، والف عن السيد — الكامبيادور — الأسبانى ، ولافونتين « La Fontaine ، فى خرافاته « Fables » ، جعل الأشخاص يلبسون اقنعة الحيوان من ثعالب واغربة كما فى كتاب كليلة ودمنة ، وفولتير « Voltaire ،

(١) انظر ٠ : Asin
La Escatologea musulmana en la Divina Comedia, Madrid, 1919.

(٢) انظر ٠ : Conant The Oriental Tale in England, 1909
; Samir : Oriental Influence in English Literature.
(فى حوليات آداب عين شمس سنة ١٩٦٣) ٠

مدين لقصة الف ليلة وليلة ، ولسورة اهل الكهف بروايته صادق « Zadique » ، وشاتوبريان « Cateaubriand » الف عن بنى سراج آخر مسلمى الاندلس « Les Aventures du dernier Abencerage » ، وجوته « Goethe » ، فى شعره متاثر بالاسلام وله راى فى شعر العرب ، وحتى رواية « Robinson Crusoé » من تاليف « Daniel Defoe » ، هى أشبه بقصة حي بن يقظان لابن طفيل . واخيرا ؛ فان الشعر الرومانتيكي وهو الغزل الرقيق ، الذى كان من مميزات الادب الاوربى ، انتقل من الشرق الى اوربا ؛ اذ هو الحب العذرى او الموشحات او الازجال ، وذلك عن طريق التروبادور (١) « Troubadours » ، وهى كلمة محرفة عن كلمة طرب او طروب ، فهؤلاء الشعراء يوقعون أشعارهم على آلات موسيقية ، ويتجولون عند بيوت الخاصة ، حيث كان أول ظهورهم فى جنوب فرنسا او البروفنس « Provence » .

والدليل على أن الحضارة الاسلامية اثرت فى اوربا هذه الالفاظ العربية التى بقيت فى لغات اوربا حتى وقتنا الحاضر ، وهى اكثر من وثائق تشير الى رسوخ الحضارة الاسلامية ؛ وتوجد فى اللغات الاسبانية والبرتغالية والطليانية وغيرها (٢) ، وتشمل الاصطلاحات فى الحياة والعلوم . ويكفى ان نذكر بعض الامثلة ، فمثلا « Chiffre » ، هى كلمة صفر العربية ، تدل على انتقال طريقة الترقيم العربية ، و « Amiral » او « Admiral » هى كلمة امير البحر ، و « Arsenal » هى دار الصناعة و « Boussola » هى البوصلة ، و « Cable » هى الحبل ، وكلها ، تدل على تقدم العرب البحرى ، و « Jupe » هى الجبة العربية تدل على تقدم العرب فى الزى والثياب ، و « Sirop » هى كلمة الشراب ، تدل على تذوق العرب فى الطعام ، و « Drogue » هى الدواء ، تدل على مهارة العرب فى شئون الصيدلة ،و « Azur » هى كلمة أزرق ، تدل على

---

(١) عن ذلك ، انظر . ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة سالم وحلمى ، ص ٢٨٠ وما بعدها (عن محاضرة القيت) .

(٢) انظر . Dozy et Engelmann : Glossaire des mots. Espagnols et Portugais, dérivés de l'Arabe. Leyde, 1869.

حساسية العرب للالوان ، و « Douane » هى الديوان ، و « Tarriff » هى التعريفة ، و « Bazar » هى البازار ، كلمات تدل على تقدم العرب فى المعاملات المالية . هذا غير كلمات عديدة فى مختلف العلوم ، يكفى ان نذكر منها : « Chimie » ، لتدل على علم الكيمياء ، و « Algèbre » : لتعنى علم الجبر .

ويظهر كذلك مجهود المسلمين في الموسيقى الغربية ؛ اذ اضافوا الى الالحان الحانا . فالموسيقى الأسبانية الحالية (١) ، تعتبر بحق موسيقى عربية اسهم فيها الموسيقيون العرب ، ولاسيما الاندلسيون منهم ، وهى موسيقى لم تقف عند اسبانيا واوربا بل انتقلت الى امريكا الجنوبية بانتقال الأسبان والبرتغاليين اليها . وقد عرف الاوربيون فى لغتهم كثيرا من الآلات الموسيقية العربيـة ، مثل : القانون والطبل والنقارة والقيثارة والرباب والعود : « Kanoon » و « Timbal » و « Naker » و « Guitar » و « Rebec » و « Luth » .

وحتى فى المعمار ، نجد ان مظهر المبانى الأوربية المعروفة باسم الارابيسك « Arabesque » ، الذى هو فن معمارى عربى ، يميل الى التكوينات الهندسية ، وهى جوهر الفن الاسلامى (٢) . بل نجد مبانى كثيرة فى اوربا فى العصور الوسطى ، مثل الجامعات القديمة فى انجلترا ، متأثرة بالفن العربى .

وحتى فى الزراعات نجد كثيرا من المحاصيل ووسائل الزراعـة تدخل فى اوربا عن طريق الشرق (٣) ، مثل : الكافور « Camphre » والزعفران « Safran » والمر « Myrrhe » والمسك « Musc » والقطن « Coton » والارز « Riz » والخرشوف « Artichaud »

(١) انظر . Ribera : Historia de la musica arabe medieval y su lufluencia en la espanola. Madrid, 1927.

(٢) انظر . ديماند ، كتاب الفنون الاسلامية ، ترجمة عيسى ، ص ٩١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Arabesque) Ied, t1, p. 368 sqq ; 2ed, tI, p. 558 sqq.

(٣) انظر . احمد عيسى ، معجم اسماء النبات ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

والحنة « Henné » والليمون « Lemon » وقصب السكر « Sucre » والموز « Banane » ـ اى اشـــارة الى طوله كالاصبع ـ والقهــوة « Café » ، وطواحين الهـــواء « [illegible] » والســـواقى « Assaquia » ... الخ .

واخيرا الاستكشافات الكبرى ، التى قامت فى العصر الحديث ، مبنية على مــــا قام به العرب (١) . فكريستوف كولمب « Cristophe Colomb » اطلع على خرائط العرب التى شاعت فى اوربا ، فضـــلا عن شيوع استدارة الارض عند الجغرافيين العرب ، التى هيات هذه الاستكشافات . كذلك يذكر الادريسى مغامرات عربية فى محاولات لكشف امريكا ، فيتكلم عن شبان من لشبونة عرفوا بالمغررين (٢) ، وهــم ثمانية رجال ، ساروا فى بحر الظلمات الى الغرب احد عشر يوما ، ثم ابحروا نحو الجنوب اثنى عشر يوما أخرى ، حتى وصلو الى جزيرة ، وجدوا فيها اناسا قـــد عــــروا شعر رءوسهم ، فلا يستبعد ان يكون الشاطىء الذى رسوا فيه ، احدى جزر امريكا الجنوبية . كذلك يذكر ابن فضل الله العمرى فى كتابه (٣) : مسالك الابصار ، من ان جماعة من بنى برزال ابحروا فى بحر الظلمات ؛ فلعل اسم البرازيل هو على اسمهم . كذلك اكتشافات البرتغال فى افريقيا ، ووصول الأوربيين الى الهند ، مبنى على ما قام به العرب سابقا ، فضلا عن انهم عملوا ادلاء لهم ، مثـــل المعلم احمـــد بن ماجـــد ، الذى قاد فاسكو دى جاما " Vasco da Gama " ، الى طريق الهند .

* *

من كل هـــذا يتبين ان الحضارة الاســـلامية اسهمت بنصيب وافر فى تقدم الانسانية ، ولا زالت آثارها توجد حتى الآن فى الحضـــــارة الحديثـــة

---

(١) انظر . Hamidullah : L'Afrique découvre l'Amérique avant Christophe Colomb, R. Culturelle du monde noir, Fevrier. Mai. 1958, p. 174 sqq.

؛ العقاد ، اثر العرب فى الحضارة الأوربية ، دار المعارف ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) عن ذلك ، انظر . نزهة المشتاق ، ط . Dozy ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥

(٣) مخطوط باستنبول ، ورقة ١٨ ب .

الفصل الخامس

تدهور الحضـــارة الاسلامية

يرى ابن خلدون (١) انلكل حضارة عمرا معلوما ، وانه لابد ان ينزل بها الهرم ، بل يحدد لها ثلاثة اجيال ، والجيل عمر شخص واحد . فكل حضارة - فى رايه - تحمل فى طياتها جرثومة عدم الكمال ، وفى اللحظة التى تبلغ فيها الحضارة اوجها يبدأ الانحلال والسقوط . ثم انه يرى ايضا ان اشد اعداء الحضارة الترف (٢) ؛ اذ ان خلال الخير تذهب ويزداد الشر ؛ فالحضارة تتدرج من الخشونة الى الترف الناعم ، وان الخشونة وحدها هى التى تحفظ الحضارة .

وفى رأيى ان الحضارة ليست فقط مسالة عمر ، وانما هى بالاولى اسلوب لحل مشاكل الحياة القائمة ، ولذلك فمجيئها وذهابها بسبب تطور الحياة . يضاف الى ذلك أن طبيعة الخلق ان يسهم البشر كل منهم بنصيب فى تقدم البشرية ؛ فلا يستحوذ عليها جنس دون الآخرين ؛ فالنهاية لحضارة هى البداية لحضارة اخرى . ثم اليســت الحضـــارة بتقدمها وتدهورها دليل جديد على أن الخير والشر من مستلزمات الانسان ؛ فالتقدم دليل على عمله واجتهاده ، والتدهور دليل على تقصيره ؛ مما يدعو الى العمل والاجتهاد من جديد . كذلك معنى وجود التدرهور بعد التقدم ، ان العالم الى آخر الكون سيمر بالازدهار ، وان نهايته الانحلال ، وان كل ما مر من ازدهار وكانه لم يكن . وان كنـــا نعرف بالايمان ان ما فعلناه فى الدنيا هو زاد للآخرة ؛ مما سيبقى للأبد كذكرى للجهاد الانسانى .

وقد كانت الحضارة الاسلامية ازهى الحضارات ، بلغت اوجها فى القرن الثامن الهجرى فى ايام دولة سلاطين المماليك فى مصر ، استمرته

---

(١) المقدمـــة ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) نفســـه ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

زهاء الف عام ، ضمن مجموعة الحضارات التى لا تتجاوز ستة آلاف من السنين ، وهى حقبة حديثة جدا وصغيرة من السجل البشرى ، الذى ربما يمتد الى اكثر من ستمائة الف او مليون وثلثمائة من السنين (١) . وقد كانت هناك اسباب ملموسة لتدهور الحضارة الاسلامية ، بعضها اتى من الخارج ، وبعضها اتى من الداخل ؛ مما اوقف سيرها ؛ بحيث عجزت عن الوصول الى هدف الانسانية . وليس من الممكن تحديد وقت ظهور عوامل الضعف ، اذ لا يكون السقوط باى حال ملحوظا ؛ وان كان سقوط الحضارة الاسلامية النهائى يحدد بحوالى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ونحن نرجع سقوط الحضارة الاسلامية بالعوامل الآتية :

اولا : **الضعف السياسى** : فنحن نعلم ان الاسلام حينما انتشرت قوته نتيجة لحركة الفتوح تقهقرت المسيحية امامه ، وخصوصا ان الدولة الرومانية مالكة الحضارة فى يوم ما اضمحلت بسبب هجوم المتبربرين . ولكن بتحول المتبربرين للمسيحية اوجدوا دماء جديدة فى اوربا ؛ مما جعلهم ينشئون دولا قوية فيها ، تستطيع ان تقوم بحروب صليبية ضد المسلمين . فلعل بدء اضمحلال الحضارة الاسلامية يسير مع ضعف قوة المسلمين السياسى . فمثلا فى الاندلس كانت حركة استرداد الأراضى « Reconquista » تسير بنجاح ضد المسلمين ؛ مما كان سببا فى القضاء على مراكز الحضارة الاسلامية فيها . كذلك استيلاء النورمان على صقلية ، وهى ايضا مركز يانع لحضارة الاسلام قضى على مراكز الحضارة الاسلامية فيها . كما أن مجىء الصليبيين فى الشرق شغل المسلمين وجعلهم يهملون تقدمهم . يضاف الى ذلك انقسام وحدة المسلمين وتعدد خلافاتها ودولها ؛ مما اضعفهم امام اعدائهم .

ثانيا : كان من عوامل تدهور الحضارة الاسلامية **العامل الاقتصادى** ؛ اذ الثروة ضرورة لنمو الحضارة فقد كان بيد الشرق الاسلامى وحده فى العصور الوسطى زمام اقتصاديات العالم ؛ فهو معبر التجارة العالمية . حقا كانت اوربا فى بداية العصور الوسطى تعزف عن التجارة ؛ حيث كان عندها فى ظل نظامها الاقطاعى القائم ما يشبه الاكتفاء الذاتى المحدود . ولكن هروب الرقيق الى

(١) انظر . René Grousset : Bilan de l'histoire. Paris, 1946, P. 2.

المدن مهد لانهيار النظام الاقطاعى ؛ وزاد من اهمية المدن ، التى اصبحت تتوقف حياتها على التجارة ، فكان ظهور المدن التجارية فى أوربا عاملا على ظهور نظام جديد فيها هو النظام الراسمالى ، ولا سيما ان الملوك تعاونوا مع هذه المدن فى القضاء على الاقطاع ، لصالح الطرفين ، وبذلك ظهرت فى اوربا مدن يانعة ، أصبح همهـــا القيام بالتجارة والاغتناء منها ، فنافست بذلك المسلمين فى المجال الاقتصادى؛فكان ظهورها ظاهرة تطور اوربا فى عصر النهضة ، هذا بالاضافة الى حركة الاستكشافات الأوربية الهائلة ، مثل : كشــف طريق رأس الرجاء الصالح ، الذى ترتب عليه تحول التجارة الهندية عن طريق الشرق ، وكشف أمريكا الشمالية والجنوبية ؛ مما جعل ينابيع الثروة تتدفق على اوربا ، وكثر فيها الذهب والفضة ،الذى لم يكن له وجود عندهم من قبل ، وذلك فى الوقت الذى قل فيــه الذهب والفضة فى الشرق الاسلامى ، وانتشرت بدلهمــا الفلوس النحاســـية ؛ مع ان الثروة فى العصــــور الوسطى تعنى هذين المعدنين ، فاخذت سفن اوربا تمخر عباب المياه حتى بلاد الشرق الاقصى ، ولم يقدر المسلمون على وقفها ، واضطروا الى ترك شئون التجارة للاوربيين ، والدليل على ذلك ان ربان المركب مســمى بالتركية قبودان او قبطان ، وهو اسم مســـتعار من الاوربيين ، لأنه مأخوذ من « Capitaine » الفرنسية مثلا ، بعد أن كان اسما عربيا : امير البحر .

ثم هناك ناحية اقتصادية داخلية هامة أضعفت الشرق أساسها سوء توزيع الثروة بين اهاليه . فالحضارة لا يقضـــى عليها من الخارج ، بقدر ما يقضى عليها من نفسها . فقـــد تحولت أراضى المسلمين التى اعتبرت ملكيتها فى ايام الاسلام الأولى لكافة الأمة الاسلامية الى ضياع للحكام واقاربهم – وهم قلة – حتى انه فى ايام المماليك اصبحت أراضى المسلمين كلها اقطاعات . كل هذا لم يجعل الناس يهتمون بالحضارة بقدر العيش بالكفاف ؛ فضلا عن الظلم الذى كان يحيق بهم .

ثالثا : من عوامل تدهور الحضارة الاسلامية ظهور المغول –

فهذا العنصر هاجم الشرق الاسلامى وخرب فيه ؛ لانه كان اول امره وثنيا ؛ بحيث ان من رأى البلاد الاسلامية فى ذلك الوقت وجدها تحتاج الى آلاف السنين ؛ لكى تعود مظاهر الحضارة اليها . ولولا وقوف سلاطين المماليك فى مصر امام تخريب المغول وانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت وغيرها ، لامتد خراب بلاد المسلمين الى المحيط الاطلسى .

رابعا : ليس من اسراف اذا قلنا ان ظهور **عنصر الترك العثمانيين** ، كان من عوامل اضمحلال الحضارة الاسلامية (١) . فهذا العنصر تسرب الى الشرق الاسلامى من بلاده المسماة التركستان - اى ناحية الترك - وذلك بعد اسلامه ، وهو يهاجم الشرق الاسلامى ويخرب فيه ، كما يهاجم المسيحية فى آسية الصغرى وفى البلقان ، الى ان ساد فى الشرق الاسلامى وفى آسية الصغرى والبلقان ، منذ القرن الثامن الهجرى / الخامس عشر الميلادى . ومع ان الاتراك العثمانيين كانوا من المسلمين ؛ الا انهم كانوا لا يحفلون بحضارة المسلمين وتقاليدهم ؛ بسبب عجمتهم ، مع ان اللغة العربية كانت اساسا فى الحضارة الاسلامية . ثم انهم عاشوا فى العلم الاسلامى فى مكان قصى يبعد عن مراكز الحضارة الاسلامية مكان دولة بيزنطة (الروم) ، واتخذوا القسطنطينية - وهى استانبول الحالية - عاصمة لهم ، وهى مركز للحضارة اليونانية كما ذكرنا . لذلك كان اسهام الترك العثمانيين فى الحضارة الاسلامية ضعيفا ، فضلا عن ركود هذه الحضارة وقت سيطرتهم ، بسبب جهلهم باللغة العربية .

خامسا ، **صنع البارود** : وهو ربما كان اختراعا صينيا (٢) ، كان العرب اول من استعملوه كسلاح حربى ؛ الا ان الاوربيين استخدموه بمهارة ؛ بحيث هيأ لهم السيطرة على البلاد ومسالك التجارة .

---

(١) انظر . ملاحظة : ابن ساعد ، ص ٨ .

(٢) بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، ١٩٥٠/١٣٧٠ ، ص ٣٩ .

سادسا ، واخيرا يكون من القصور عدم ذكر **الطباعة** ، التى بسبب ظهور اختراعها فى اوربا ، بدا النور يشع فيها ، واصبح الكتاب ميسورا لكل من يطلبه ، مع انه قبل ذلك كان وقفا على رجال الدين . هذا بينما لم يعرف الشرق الطباعة ، الا عندما جاءته الحملة الفرنسية ، وكان الكتاب موقوفا على الذين يتفرغون لنسخه .

* *

قصارى ما نقوله ان هذه العوامل مجتمعة ، هى التى نقضت صرح الحضارة الاسلامية ، واودت بثمار وجهود خطت بالانسانية الى الامام خطا فسيحة .

خاتمة

بما اوردناه نستطيع ان نقول ان الشرق - الذى وجدت فيه حضارة الاسلام - بحكم تماس القارات ، اثبت انه قادر على ايجاد معجزات من حضارات مستمرة على طول العصور ؛ حيث كان لكل حضارة اثرها الفعال فى تقدم الانسانية ؛ فاوجد فى العصور القديمة حضارات مصر وسومر واشور وبابل وفارس واليمن ، واخيرا حضارة الاسلام المزدهرة بمفردها فى العصور الوسطى ؛ مما يجعلنا نامل ايضا الخير فى مستقبله .

فحضارة الاسلام جزء من قدر الانسان فى الشرق ، الذى بدا فى ضباب الماضى ؛ لينشط فى عصور الحياة الى مستقبل مجهول . وقد كان لهذه الحضارة اسلوب يختلف عما قبله ؛ مما ميزها بسمة خاصة ، فهى مطبوعة بدين له وجهة نظر جديدة فى الاعتقاد والحياة . حقا ان الحضارات ترث بعضها البعض ؛ ولكن على اساس انتقائى ، وباضافات جديدة .

وقد كانت هذه الحضارة الاسلامية تقدس العقل ؛ حتى ان الشيعة - وهى احدى فرق الاسلام الكبرى - تسمى الله العقل الاول ، كما ان الفرق الاخرى كالمعتزلة تضع العقل اساسا لها ، بل ان المذاهب الأربعة تبنى نفسها على اساس الاجتهاد . وهذا أمر طبيعى لحضارة الأسلام ؛ اذ العقيدة الاسلامية لا تصطدم بالعقل ، وانما بالاولى دعوى الى الايمان بالعقل .

ومن الغريب ان الحضارة الاسلامية اوجدت صبغة عالمية بين شعوبها ؛ فقد سادت فى منطقة عريضة ، لم تسدها حضارة سابقة . ثم انها عملت على توحيد شعوب كثيرة ؛ فأوجدت امحاء متزايدا للمعالم الوطنية ، وكأنها صهرت الشعوب فى بوتقة لتبقى على مظهرها الانسانى قبل كل شىء . ولذلك فهى لم تظهر فى عصر الدولة العربية ، التى تعصبت للعرب وحدهم ، وانما ظهرت بظهور الدولة

العباســية ؛ التى قامت على اكتاف الشعوب ؛ فهى مزج من اجناس وافكار . ولا غرابة فى ذلك ؛ اذ هى قامت بصبغة الدين الاســلامى ، الذى هو فطرة الله ، اى دين كل الشعوب ؛ فالحضارة الاسلامية دليل على ضرورة مشاركة الانسانية جمعاء فى البناء .

كذلك نجد فى هذه الحضارة الناحية الأخلاقية ملموسة بشدة ؛ اذ يرد ذكرها فى كتب المؤلفين على اختلافهم ، ونص عليها لكل مهنة أو منصب مهما علا او قل : فللخليفة واجبات ، وللعلماء واجبـــات ، ولاصحاب الحرف فضائل ، وللكتاب آداب ، وللمتعلم آداب ؛ وحتى الفرد العادي يجب ان يتصف بالاخلاق قبل العلم . ولا غرو فالاسلام اصلا وجد في ارض فيها اخلاق نبيلة من شهامة ومروءة وغيرها ، زاد فيها الاسلام؛ مما لم يعرف له مثيل من قبل .

ولكن الظاهرة الغريبة فى الحضارة الاسلامية ؛ وهى حضـــارة عصور وسطى ، مثل حضـــارات العصور القديمـــة ، انه بينما مدن معدودة تنعم بالنعيم ؛ فان اجزاء كثيرة يشملها الفقر والجهل ، وذلك على عكس ما هو موجود فى الحضارة الحديثة ، التى تشمل بسعادتها الجميع . ولعل السبب في ذلك هو أن التحضر لا ينجذب الى التبدي، بينما العلم الآن جعل المتحضر يسعي الى البدائى .

الجـــداول

١ – فهرس الاعـــلام

ب ـ جدول المصادر والمراجع

(١) كتب عربيــة

ابراهيــم العدوى : الأساطيل العربيــة فى البحــر الأبيض ، سلسلة من التاريخ ، رقم ٢ ، القــاهرة ١٩٥٧ .

ابراهيــم مدكور : فى الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٧ .

الأبشــيهى : المســتطرف فى كل فــن مســتظرف ، فى جزءين ، بولاق .

احمــد امين : ضحى الاســلام ، فى ٣ اجزاء ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

: الصعلكة والفتوة فى الاسلام ، سلسلة اقرأ ، ١١١ ، ١٩٥٢ .

بالاشتراك مع غيره : فجر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٢٨ .

احمــد بدوى : ســيبويه ، حياته وكتابه ، ط ٢ ، بدون تاريخ .

احمد تيمور باشا : المهندسون فى العصر الاسلامى ، القاهرة .

احمــد الحوفى : الحيــاة العربية فى الشــعر الجاهلى ، القاهرة ١٩٤٩ .

احمــد زكى : موســوعات العلوم العربيـــة ، القاهرة ١٨٩٠/١٣٠٨ .

احمــد شفيق : الرق فى الاسلام ، ترجمة احمد زكى ، عن التركية ، ط ١ ، القاهرة .

احمــد صالح : جابر بن حيــان ، مجلة الرسالة ، السنة الثامنة ، ١٩٤٠ ، العدد ٣٦٨ ، ص ١٢٠٤ وما بعدها .

احمـد صبحي : نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنى عشرية، دار المعارف بالقاهرة .

احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩ .
: آلات الطب والجراحـة والكحـالة عند العرب ، مقالة القيت فى دمشق .
: معجم أسماء النبات ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

احمـد الغافقي (٦٨٤ هـ) : منتخب جامـع المفـردات : انتخبـه ابن العبرى ، نشر وترجمة Meyerhof وصبحى ، القاهرة ١٩٣٣ .
: معجم اسماء النبات ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

احمـد فريد رفاعي : عصر المأمون ، الجزء الأول ، ١٩٢٧ .

احمـد مكى : ابو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ، القاهرة ١٩٦٤ .

اخوان الصفا : رسائل ، ط . القاهرة ١٣٢٧ هـ .

ارسـطو : كتاب المنطق ، نقلا عن العربية من اسحق ابن حنين ، نص وتقديم Pollak ، ط . Leipzig ، ١٩١٣ .

ارنولد : الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، ١٩٤٦ .

اسـد رسـتم : مصطلح التاريخ ، بيروت .

اسـعاد : فنون الشعر الفارسى ، القاهرة ١٩٧٥ .

اسماعيل بن عمرو (٤٢٩ هـ) : كتاب اللغـات فى القرآن ، حققه ونشره صلاح الدين المنجد ، ١٩٤٦ .

إبن أبى اصيبعة : كتاب عيون الانباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق Muller ط . Koenigsberg ، القاهرة ١٨٨٢ .

الاصفهاني ، كتاب الاغاني ، ج ١ ـ ٢١ ، بولاق

ابن قتيبة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٣٤ .
، الامامة والسياسة ، القاهرة ١٩٣٧ .

البير نصر ، آراء اهل المدينة الفاضلة ، بيروت ١٩٥٩ .

امام ابراهيم ، تاريخ الفلك عند العرب ، المكتبة الثقافية ، نوفمبر ١٩٦٠ .

نستاس ماری الكرملی ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة القاهرة ١٩٣٩ .

اوقليدس ، كتاب الاصول ، ترجمة ابى عثمان الدمشقى ، ط . Paris .

اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب مصطفى بدر ، القاهرة ١٩٥٣ .

اوليرى ، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ، نقله الى العربية تمام حسان ، القاهرة ١٩٥٧ .

بارتولد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، نقله من التركية الى العربية حمزه طاهر ، ط ٢ ، القاهرة .

الباز العرينى ، كتاب عن الحسبة فى بيزنطة فى القرن العاشر الميلادى او كتاب والى المدينة ، فصله من كلية الآداب ـ المجلد التاسع عشر ـ الجزء الاول ، مايو ١٩٥٧ .

بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس .

البتانى ، الزيج الصابىء ، اعتنى بطبعه وترجمه الى اللاتينية وعلق على حواشيه Nallino ، بعنوان :
Opus Astronomicum 2 Vols, Roma, 1899-1907.

براون ، تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، نقله الى العربية ابراهيم الشواربى ، وهو ترجمة للمجلد الثانى ، القاهرة ١٩٤٠ .

بشر فارس ، سر الزخرفة الاسلامية ، من رسائل المعهد الفرنسى ، القاهرة ١٩٥٢ .

بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة انور لوقا ، القاهرة ـ دار المعارف .

ابن بطلان الطبيب ، باب دعوة الاطباء ، تصحيح بشارة زلزل ، الاسكندرية ١٩٠١ .

ابن بطوطة ، رحلة ، ط ٢ ، مصر ١٣٢٢ هـ .

ابو بكر الكرخى ، الفخري ، خلاصة منه على يد Woepcke ، بعنوان : Extrait du Fakhri. Paris, 1853.

بلياس (Ballas) ، الأبنية الأسبانية الاسلامية ، مجلة معهد مدريد ، ١٩٥٣ ، ص ٩١ وما بعدها .

بول كاله ، منارة الاسكندرية فى خيال الظل المصري ، وهى مجموعة من الأزجال والقصص كانت تمثل فى خيال الظل فى العصر المملوكى ، ط . Stuttgart ، ١٩٣٠ .

البيرونى ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ط . Leipzig ، ١٩٢٣ .

، كتاب الصيدنة فى الطب ، تحقيق الحكيم محمد سعيد ، كراتشى ١٩٧٣ .

ابن البيطار ، الجامع فى الأدوية المفردة ، ٤ اجزاء ، تحقيق القاهرة ١٨٧٤ ـ ٥ ، وله ترجمة فرنسية من Leclerc ، بعنوان :
Traité des Simples par Ibn-al-Beithar Vols. XXIII, XXIV et 1877 et 1883.

بينيس ، مذهب الذرة عند المسلمين ، ترجمة أبي ريدة ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ .

البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، مطبعة السعادة ١٣٢٥/١٩٠٦ .

البيومي ، ابن حنبل ، مذاهب وشخصيات ، القاهرة ١٩٦٢ .

التجاني ، مقدمة في تاريخ الطب العربي ، الخرطوم ١٩٥٩ .

ترتون ، اهل الذمة في الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، القاهرة ١٩٤٩ .

التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق وجيه وعبد الحق وغلام قادر ، في جزءين ، كلكتا ١٨٦٢ .

التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، القاهرة ١٩٣٩ .

توماس ارنولد والفريد جيوم ، تراث الاسلام ، قامت على ترجمته ونشره بالعربية لجنة الجامعيين ، في جزءين ، القاهرة ١٩٣٦ .

تيرز ، تاريخ الموسيقى ، ترجمة شكيب، ١٩٥١ .

التيفاشي ، ازهار الأفكر في جواهر الأحجار ، حققه محمد يوسف وبسيوني ، القاهرة ١٩٧٧ .

تيمور (احمد باشا) ، التصوير عند العرب ، مصر ١٩٤٢ .
، لعب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ .
، خيال الظل واللعب والتمثيل المصورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن تيميــة : الحسبة فى الاسلام ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

ثابت بن قرة : الذخيرة فى علم الطب ، تحقيق صبحى ، القاهرة ١٩٢٨ .

الجــاحظ : البيان والتبيين ، جزءان ، ط ١ ، القاهرة ١٣١١ – ١٨٩٣/١٣١٣ – ٥ .
: البخلاء ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م .
: التــاج فى اخلاق الملوك ، تحقيق احمد زكى باشا ، القاهرة ١٩١٤ .
: ثلاث رســـائل ، تحقيق Finkel ، القاهرة ١٩٣٦ .
: المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٩٣٢ .
: كتاب الحيوان ، تحقيق محمد هارون ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
: التبصرة بالتجارة فى وصف ما يستظرف فى البلدان من الامتعة والرقيق والاعلاق النفيســة والجواهر الثمينــة ، القاهرة ١٢٥٤ هـ .

جابر بن حيان : كتاب الملك وغيره من الخمس مائة كتاب ، نشر وترجمة Berthelot ، فى كتاب :
La Chimie arabe t III Paris, 1893.
: أحد عشر كتابا فى علم الاكسير ، طبع الميرزا محمد الشيرازى ، ١٩٢٧ .

جبرائيل بن بختيشوع : الروضة الطبية ، تصحيح سباط ، القاهرة ١٩٢٧ .

جبــــور : عمر بن ابى ربيعة ، ج ١ ، بيروت ١٩٣٥ .
: الجوارى ، سلسلة اقرا ، رقم ٦٠ ، القاهرة ١٩٤٧ .

الجرجانى (ابو الفتوح) : كتاب التعريفات ، مصر ١٢٨٣ هـ .

ابن جبير : رحلة ، تحقيق حسن نصار ، مصر ١٩٥٥ .

جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، فى ٥ أجزاء ، مصر ١٩٠٢ .
، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٤ أجزاء ، ط ٢ ، ١٩٢٤ .

جروينباوم ، حضارة الاسلام ، نقله توفيق نجاويد ، راجعه العبادى ، مصر .
، دراسات فى الأدب الشرقى ، ترجمة احسان عباس وغيره ، ١٩٥٩ .

ابن الجزار (ابو جعفر) (ايام المعز الفاطمى) ، زاد المسافرين ، ترجمة Dugat ، بعنوان :
Etudes sur le Traite de Médicine. Paris, 1853. ، وهو ترجم الى اللاتينية .

جعفر الصادق ، رسالة فى علم الصناعة والحجر المكرم ، حققه وترجمه Ruska ، بعنوان :
Arabische alchemisten Ga'far al-Sâdiq Der Sechste Imàm. Heidelberg, 1924.

جلال شوقى ، تراث العرب فى الميكانيكا ، القاهرة ١٩٧٣ .

جمعه ، تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب ، القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧ .

جميل بهيم ، المرأة فى حضارة العرب ، مصر ١٩٦٢ .

جميل صليبا ، من افلاطون الى ابن سينا .

ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ .

الجهيشارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، حققه السقا والانبارى وشلبى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٨/١٩٣٨ .

جورج سارتون ، تاريخ العلوم ، ترجمة الى العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ترجمة لكتاب :
A History of Science : Ancient Science Through the Golden Ages of Greece Harvard, 1952.

جورج يعقوب ، اثر الشرق فى الغرب ، ترجمه بتصرف فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٤٦ .

جوزى بندلى ، من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، القدس ١٩٢٨ .

جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقله عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٥ .

حاجى خليفه ، كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط ١ ، درسعادت ١٣١١ هـ .

الحبابى ، من المنغلق الى المنفتح ، عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الانسانية ، القاهرة ١٩٧٧ .

حتى ، تاريخ العرب موجز ، بيروت ١٩٤٦ .

الحجى ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، بيروت ١٩٦٩ .

حسن ابراهيم على ، النظم الاسلامية ، بحث فى النظم السياسية والادارية والمالية والقضائية وفى نظام الرق عند المسلمين فى كل العصور ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٩/١٣٥٨ .
، تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٤٧ .

حسن حسنى عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، تونس ١٩٦٦ .

الحسن بن الحسين ، البيزرة ، نظرة وتعليق محمد كرد على ، دمشق ١٩٥٢ .

حسين أمين ، المدرسة المستنصرية ، ١٩٦٩ .

حسين مؤنس ، الحضـــارة ، دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتدهورها ، الكويت ، ١٩٧٨ .

حفنى ناصف ، الأســـماء العربية لمحدثات الحضـــارة والمدنية ، القاهرة ١٩٥٦ .

حقى الأزميرى ، فيلســـوف العــــرب يعقوب بن اسحق الكندى ، نقـــــله من التركية عباس العزاوى ، بغداد ١٩٦٣ .

حكمت نجيب ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ .

الحـــــلاج ، ديوان ، تحقيق وترجمة Massignon ، ط . Paris ، ١٩٣١ .

حمــــودة ، القراءات واللهجات ، ط ١٠ ، القاهرة ١٩٤٨/١٣٦٨ .

حنين بن اسحق ، كتاب العشر مقالات فى العين ، تحقيق Meyerhof ، القاهرة ١٩٢٨ .

حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

ابن خلدون ، مقدمــــة ، وهو الجزء الأول من كتـــاب العبر وديوان المبتـدا والخبر ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

الخـــربوطلى ، تاريخ الحضـــــارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ .

الخطيب البغدادي ، تقييد العلم ، حققه يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ .
، تاريخ بغداد ، ١٤ جزءا ، مصر ١٩٣١ .

خلف الله . بحوث ودراسات اسلامية ، جمع وتقديم ، ١٩٥٥ .

ابن خلكان ، وفيات ، ٣ أجزاء ، مصر ١٢٩٩ هـ .

الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق Van Voten ، ط . Leyden ١٨٩٥ ، ط . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وانواع المعارف ، صححه Ribera Cordera ، القاهرة ١٩٦٣ .

الدالي ، الخطاطة ، الكتابة العربية ، القاهرة ١٤٠٠/١٩٨٠ .

ابن ابي داوود (ت ٣١٦ هـ) ، كتاب المصاحف ، تحقيق Jeffery ، Leiden ، ١٩٣٧ .

الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، طبعة مصر ، في جزءين ، ١٣٣٩ هـ ، ترجمة Jayker في جزءين ، بعنوان :
Zoological Lexicon. 2 Vols. London, 1906.

الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ١٩٤٩ .
، النظم الاسلامية ، بغداد ١٩٥٠ .

دونالد ولبر ، ايران ، ترجمة عبد النعيم ، القاهرة ١٩٥٨ .

ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة احمد عيسى ، القاهرة .

ديموميين ، النظم الاســــلامية ، نقله عن الفرنسية الشماع والسامر ، بغداد ١٩٥٢ .

الرازى (ابو حاتم) ، الزينة فى المصطلحات الاسلامية العربية ، تحقيق حسين الهمدانى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .

الرازى (زكريا) ، مقــالة فى الحصى فى الكلى والمثانة ، ترجمـــة وتحقيــق Koning ، ط . Leyden ١٨٩٦ .

الرازى (زكريا) ، كتاب فى الجدرى والحصبة ، ترجمة من النص العربى ، بعنوان :
Small-Box and Measles. London, 1848.

، الكتاب الموســوم بالمنصورى فى الطب ، نص وترجمة Koning ، فى مجموعة بعنـوان :
Trois Treités d'Anatomie arabes. Leide, 1903.

ابن رشـــد ، نص المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، وذيله الكشف عن مناهج الأدلة فى عقــائد الملة ، ط ٢ ، مصر ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م .

، تهافت التهافت ، تحقيق Bouyges ، بيروت ١٩٣٠ .

رشـيد حديد ، الوجـه النصرانى للحضــارة العربيــة ، المؤرخ العربى ، ١٩٧٧ .

ابن رشيق ، العمــــدة ، فى جزءين ، حققه وعلق حواشيه محى الدين عبد الحميد ١٣٥٣/ ١٩٣٤ .

روانيت (Reuanet) ، دار المعارف الموسيقية وقاموس المعهد ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة شلقون ، بدون تاريخ .

رمزية الأطرفجي ، بناء بغداد فى عهد ابى جعفر المنصور ، بغداد ١٩٧٥ .

، بيت الحكمة البغدادى ، واثره فى الحركة العباسية ، العربى ١٩٨٠ .

روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلى ، مراجعة توفيق حسين .

الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

الزركلى ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين فى الجاهلية والاسلام ، فى جزءين ، مصر ١٩٢٧ .

زكى حسن ، مصر والحضارة الاسلامية ، محاضرة القيت فى الاتحاد المصرى الانجليزى ، ابريل ١٩٤٣ .

، الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٤٦ .

، فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .

، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ومصر .

، مدرسة بغداد فى التصوير الاسلامى ، مستل من مجلة سومر ، المجلد ١١ ، الجزء ١ .

، التصوير فى الاسلام عند الفرس ، القاهرة ١٩٣٦ .

زكى (عبد الرحمن) ، السيف فى العالم الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٧ .

زكى مبارك ، التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق ، فى جزءين ، ١٣٥٧/١٩٢٨ .
، النثر الفنى فى القرن الرابع ، دار الكتب .

زكى نجيب ، جابر بن حيان ، سلسلة اعلام العرب ، رقم ٣ ، ١٩٦٢ .

ابو زهرة ، ابو حنيفة ، حياته وعصره ، القاهرة ١٩٤٧ .
، ابن حنبل ، القاهرة ١٩٤٨ .
، الشافعى ، القاهرة ١٩٤٨ .

الزهرى ، كتاب الجغرافيا ، وخريطة العالم للفزارى ، تحقيق محمد الحاج B. E. O. ، ١٩٦٨ .

زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، واثر الحضارة العربية فى أوربا ، ترجمة بيضون ودسوقى ، بيروت ١٩٦٤ .

السراج الطوسى ، اللمع في التصوف ، تحقيق Nicholson ، ط . Leiden ، ١٩١٤ ، وظهرت طبعة له من عبد الحليم عبد الباقى ، القاهرة .

ابن سلمة (٣٩٠ هـ) ، كتاب الملاهى ، منشور فى كتاب الموسيقى العراقية لعباس العزاوى ، بغداد ١٩٥١ .

سليمان قطاية ، تاريخ العلوم العربية ، عدد ١ ، مجلد ١ ، ١٩٧١ .
، الطب العربى ، عالم الفكر ، مجلد ١٠ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٧ وما بعدها .

سعاد ماهر ، النسيج الاسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ .

سعفان ، الموجز فى تاريخ الحضارة والثقافة ، ١٩٥٩/١٣٧٩ .

السهروردى ، عوارف المعارف ، ترجمة الكاشانى الى الانجليزية ، ١٨٩١ .

ابن سيده ، كتاب المخصص ، بولاق ١٣١٧ هـ .

سيديو ، تاريخ العرب العام ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٩ .

ابن سينا ، القانون فى الطب ، فى ٣ اجزاء ، القاهرة ١٢٩٤ هـ .

، اقسام العلوم العقلية فى مجموعة رسائل ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

السيوطى ، المزهر ، فى جزءين ، مصر ١٣٢٥ هـ .

، كتاب الاتقان فى علوم القرآن ، ط ٣ ، مصر ١٩٤١/١٣٦٠ .

شاتوبريان ، آخر بنى سراج ، ترجمها وذيلها شكيب ارسلان ، مصر ١٩٢٥ .

شاخت وغيره ، تراث الاسلام ، ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقى ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨ .

شكرى فيصل ، المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول الهجرى ، القاهرة ١٩٥٢ .

شلبى ، فى تاريخ التربية الاسلامية ، القاهرة .

، فى قصور الخلفاء العباسيين ، القاهرة ١٩٥٤ .

الشواربى ، نشأة الشعر الفارسى الاسلامى ، بحث مستخرج من مجلة الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الاول ، مايو ١٩٤٦ .

شوقى ضيف ، التطور الجديد فى الشعر الاموى ، القاهرة ١٩٥٢ .

، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ط ٣ ، بيروت ١٩٥٦ .

الشكعة ، بديع الزمان الهمذانى ، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية ، القاهرة ١٩٥٩

الشهابى ، الجغرافيون العرب ، سلسلة اقرأ ، ٢٣٠ ، فبراير ١٩٦٢ .

الشوكانى ، كتاب ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول ، القاهرة ١٣٢٧ .

شيدر ، روح الحضارة العربية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، ١٩٤٩ .

الشيزرى ، كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، قام بنشره الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ .

ابن صاعد ، كتاب طبقات الأمم ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩١٢ .

صبحى الصالح ، علوم الحديث ومصطلحه ، ط ٣ ، بيروت ١٩٦٥ .

صلاح البحيرى ، عالمية الحضارة الاسلامية ومظاهرها فى الفنون ، جامعة الكويت ، ١٩٨٢ .

الصياد ، النوروز ، بيروت ١٩٧٢ .

طوقان ، العلوم عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠ .

طه ندا ، اثر الحضارة الاسلامية فى اوربا ، الاسكندرية ١٩٦٠ .

عاشـــور ، فضل العرب على الحضـــارة الأوربية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، الجامعات العربية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ .

، اوربا فى العصور الوسطى ، الجزء ٢ ، النظم والحضارة ، القاهرة ١٩٥٩ .

عاشـور وانيس ، النهضات الأوربية فى العصور الوسطى ، وبداية الحديثة ، القاهرة ١٩٥٦ .

العــاملى ، خلاصـــة الحســاب ، نص وترجمــة Nesselmann ، بعنوان : Essenz der Rechenkunst. Berlin,

عبـــادة ، كتاب ســـفن الأسطول الاسـلامى ، مصر ١٩١٣ .

عبد البـاقى ، رابعـــة العـدوية والحيـاة الروحية فى الاسلام ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

عبد الحليم منتصر تاريخ العلم ودور العلمـــاء العـرب فى تقدمه ، القاهرة ١٩٨٠ .

ابن عبد ربــه ، العقدالفريد ، ٣ اجزاء ، القاهرة١٣٠٢هـ.

عبد الرحمن بدوى ، الاصول اليونانية للنظريات السياسية فى الاسلام ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٤ .

، التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ، القاهرة .

عبد الرحمن زكى ، تراث مصر فى الحضـارة الاســـلامية ، القاهرة ١٩٥١ .

، ارسطو عند العرب ، القاهرة .

، شهيدة العشق الالهى ، القاهرة ١٩٤٨ .

، روح الحضـــــارة العربيــة ، ترجمة عن الالمانية ، القاهرة .

، النقد التاريخي لانجلو وسينوبوس وغيره ترجمها عن الالمانية والفرنسية ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

عبد العزيز الاهوانى ، اللقاء الحضـــارى فى الاندلس ، المؤرخ العـــربى ، المجلد الخامس ، ص ١٢١ وما بعدها ٠

عبد المنعـم صقر ، الطب عند العرب ، حلب ١٩٧٧ ٠

عبد الغـنى ، ملامــــح من المجتمع العـربى ، القاهرة ١٩٥١ ٠
، التعـــليم فى مصر فى زمـــن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير فى جامعـــة القاهرة ٠

ابن العربى (محى الدين) ، ترجمـــان الاشـــــواق ، تحقيق وترجمة Nicholson ، ط ٠ London ، ١٩١١ ٠
، ذخائر الاعلاق ، شرح ترجمان الأشواق ، بيروت ١٣١٢ هـ ٠
، فصوص الحكم ، نشر وتعليق ابو العـلا عفيفى ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ ٠

عـزة مريدن ، فضل العرب على الانســـانية فى الميادين العلمية ، محاضرة ، مايو ، دمشق ١٩٦١ (مستخرج) ٠

عطيـة القوصـى ، اليهود فى ظل الحضارة الاســـلامية ، القاهرة ١٩٧٨ ٠

العقـــــاد ، الثقافة العربية اســبق من ثقافة اليونان والعبريين ، المكتبة الثقافية ، رقم ١ ٠
، اثر العرب فى الحضـارة الاوربية ، دار المعارف ٠

ابو العـلاء زهر ، تذكرة ، نشر وترجمة J. Golin ط ٠ Paris ، ١٩١١ ٠

علي الجندي وغيره ، اطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والاسلام ، في جزءين ، القاهرة ١٩٦٠ .

علي الخاقاني ، شعراء بغداد ، في جزءين ، بغداد ١٩٦٢ .

علي ناصف ، ابو الأسود الدؤلي ، ١٩٦٨ .

عمر ابو النصر ، الحضارة الأموية في دمشق ، بيروت ١٩٤٨ .

عمر الدسوقي ، دراسات ادبية ، الجزء الأول ، ١٩٥٩ .
، عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٢٠ .

عنان ، ابن خلدون وتراثه الفكري ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ .

الغزالي ، احياء علوم الدين ، في ٤ اجزاء ، مصر ١٣٤٦ هـ .
، المنقذ من الضلال ، مع تعليق عبد الحليم محمود ، القاهرة .

فليونجي ، ابن النفيس ، العدد ٣٧ ، سلسلة كتب اعلام العرب ، القاهرة .

غنيمة ، تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، تطوان ١٩٥٣ .

الفارابي ، احصاء العلوم ، القاهرة ، تحقيق عثمان أمين ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٨ .

فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة حسين نصار ، مجموعة الألف كتاب .

فايد العمروسي ، الجواري والمغنيات ، القاهرة ١٩٤٥ .

فارنجتون ، مدنية الاغريق والرومان ، ترجمة أمين تقلا ، القاهرة ١٩٤٨ .

فتحية النبراوى ، تاريخ النظم والحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٠ .

فتحية سليمان ، مذاهب التربية ، بحث فى المذهب التربوى عند الغزالى ، القاهرة ١٩٥٦ .

الفردوسى ، الشاهنامه ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣٢ .

فروخ ، اثر الفلسفة الاسلامية فى الفلسفة الأوربية بيروت .

، عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٥٢ .

فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، عصر الولاة ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٧٠ .

فؤاد استراكين ، مكانة العرب فى تاريخ العلوم ، ابحاث ندوة حلب فى تاريخ العلوم عند العرب ، حلب ١٩٧٧ .

فؤاد الأهوانى ، ابن سينا ، القاهرة ١٩٥٨ .

فؤاد زكريا ، الانسان والحضارة ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٧ .

فون كريمر ، الحضارة الاسلامية ، ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب طه بدر ، القاهرة ١٩٤٧ .

أبو القاسم ، كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، تحقيق وترجمة لاتينية Oxford, وترجمة فرنسية من Leclerc ، بعنوان :

La Chirurgie d'Abbucasis, Paris, 1861.

قاسم غني ، تاريخ تصوف دار اسلام ، طهران ١٣٦٢/ ١٣٢٢ هـ س .

ابن قتيبة ، تاريخ الشعر والشعراء ،صححه وعلق حواشيه أبو فراس الغساني ، ١٣٢٢ هـ .

قدامة ، الخراج ، تحقيق ، Leyden .

نقد الشعر ، القسطنطينية ، ١٣٠٠ .

قسطندي رزق ، الموسيقى الشرقية والغناء العربي ، ١٨٨٥ .

قسنطين رزيق ، في معركة الحضارة ، بيروت ١٩٦٤ .

القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، بولاق ١٣٨٤ هـ .

ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، تحقيق Lippert ، ط . Leipzig ، ١٩٠٣ .

قنواتي ، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط ، القاهرة ١٩٥٨ .

، مؤلفات ابن رشد ، مهرجان ابن رشد ، الجزائر ١٩٧٨ .

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، في ١٤ جزءا .

، مآثر الاناقة في معالم الخلافة ، تحقيق فراج ، ١٩٦٤ .

ابن القيم الجوزية ، كتاب الطب النبوي ، حلب ١٣٤٦/١٩٢٧

، شرح الشروط العمرية ، تحقيق صبحي صالح ، دمشق ١٩٦١ .

كامل حسين ، متنوعات ،القاهرة ١٩٥١ ٠

كامل علوى ، الرياضـــنة البدنية عند العـرب ، مصر ١٩٤٧ ٠
، اسواق بغداد ، بغداد ١٩٧٩ ٠

الكرملى ، القاب الشرف والتعظيم عند العرب ، بحث في مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ، ١٩٤١ ٠

كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٥٤/١٩٣٦ ٠
، الادارة الاسلامية فى عز العرب ، القاهرة ١٩٣٤ ٠
، كنوز الاجداد ، دمشق ١٩٨٢ ٠

كفافى ، محاضرات فى ادب الفرس وحضارتهم ، بيروت ١٩٦٨ ٠

كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦٤٠
، محاضرات فى الثقافة العربية ، بيروت ١٩٦٨ ٠

كمال اليازجى ، معـــــالم الفكر العـربى ، ط ٤ ، بيروت ١٩٦٦

الكنـدى ، رســـالة فى خبر تاليف الالحان ، تحقيق وترجمة Lachmann و el-Haufi ، ط ٠ Leipzig ، ١٩٣١ ٠

كوركيس ، المدرســـة المستنصرية ببغـــداد ، بغداد ١٩٤٥ ٠

كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ترجمة وتعليق جوزيف نســـيم ، القاهرة ١٩٦١ ٠

ليفى بروفنســـال ، الاســـــلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة محمود عبد العـــزيز وحلمى ، وهو الذى بعنوان : Islam d'Occi'ent.

لطفى عبد البديع ، الاسلام فى اسبانيا ، المكتبة التاريخية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥١ .

لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة عن الانجليزية ، حسن وعلى ابراهيم ، ط ٢ .

ماجـــد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ط ٢ القاهرة ١٩٧٦ ــ ١٩٧٨ .

، نظم المماليـك ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ، القاهرة ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ .

، قرن ذهبى فى العصر العباسى الأول .

ابن ماجد (شهاب الدين) ، الفوائد فى اصول علم البحـر والقواعد ، مخطوط بالمكتبة الأهلية B. N ، برقـم ٢٢٩٢ .

المــاوردى ، كتاب الاحكام السـلطانية ، الخانجى ١٩٠٩/١٣٢٧ .

، أدب الدنيـا والدين ، تحقيق السـقا ، القاهرة ١٩٥٥ .

متز ، الحضارة الاسـلامية فى القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة فى الاسـلام
Die Renaissances des Islams.

محمـد مهـدى ، فلسفة ارسطو طاليس ، بيروت ١٩٦١ .

محمـد حلمى ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى،ط١، القاهرة ١٩٥٩/١٣٧٨ .

محمود قاســم ، الفيلسوف المفترى عليه ابن رشـد ، القاهرة .

المدور جميل نخلة ، حضارة الاسلام فى دار الاسلام ، القاهرة ١٩٣٢ .

مـراد كامـل ، حضارة مصر فى العصر القبطى ، القاهرة

مـرادا كامـل والبكرى ، تاريخ الأدب السريانى من نشاته الى الفتح الاسلامى ، ١٩٤٩ ·

مرزوق ، الزخرفة المنسوجة فى الاقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ ·
، الفن المصرى الاسلامى ، مجموعة اقرأ ، عدد ١٤٤ ·
، الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، القاهرة ١٩٧٤ ·

المسـعودى ، كتـاب التنبيـه والاشراف ، تحقيق De Coeje ، ط · Brill ، ١٨٩٤ ·

مصطفى جواد ، نساء الخلفاء المسمى جهات الائمـة من الحرائر والاماء ، دار المعارف ·

مصطفى العبـادي ، مكتبة الاسـكندرية القديمـة ، القاهرة ١٩٧٧ ·

مصطفى عبد الرازق ، فيلسـوف العرب والمعلم الثانى ، القاهرة ١٩٤٥ ·

مصطفى مندور ، مذاهب التفسـير الاسلامى ، حوليات ، كلية الآداب جامعـة عين شمس ١٩٦٤ ، المجلد ٩ ، ص ٤٠٩ ·

المقـرى ، نفخ الطيب ، ١٣٠٢ هـ ·

المقريزى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ·
، الخطط ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٦ ·

ابن ابى المكارم (ت ٦٤٢ هـ) ، كتاب الفتـوة ، تحقيق مصطفى جواد وغيره ، ١٩٦٠ ·

ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، القاهرة ١٩٤٣ ·

مؤلف مجهول ، الطبيـــخ فى المغرب والأندلس ، تحقيق Miranda ، مدريد ١٩٦٥ .
، تاريخ الجغرافيــــــة والجغرافيين فى الأندلس ، مدريد ١٣٨٦/١٩٦٧ .

ميـيـلى ، العلم عند العـــرب واثره فى تطور العلم العالمى ، نقله النجار ومحمد موسى ، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢ .

ناصر خسرو ، ســـفر نامه ، ترجمة الخشاب ، ط ١ ، القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥ .

نامى اصل الخط العـــربى وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد الثالث ،العدد الأول، القاهرة ١٩٣٧ .

النجـــار ، الموالى فى العصر الأموى ، مذيل ببحث عن الرق والولاء فى الاسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .

نجم الدين محمود (القرن ٧ ق ، كتاب الحـــاوى فى علم التداوى ، نص وترجمة وتحقيق ومقدمـــة Guiges ، بيروت ١٩٠٣ .

ابن النـديم ، كتاب الفهرســـــت ،تحقيق Flugel ، ١٨٧١ .

النشـــار ، نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٢ .

أبو نصر العطـــار ، كتاب منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعـة للأبدان ، القاهرة ١٢٧٨ هـ .

التغيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، فى جزءين ، دمشق ١٩٤٨ ــ ١٩٥١ .

نفيس احمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان ، الألف كتاب .

نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربى ، القاهرة ١٩٤٦ .
، الرحالة العرب ، ١٩٥٦ .
، دراسات اسلامية ، باشرافه ، بيروت ١٩٦٠ .

ابو نعيم الأصبهانى ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ اجزاء ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٢/١٣٥١ .

نلينو ، علم الفلك - تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، ملخص المحاضرات التى القاها بالجامعة المصرية Roma ١٩١١ .

نيكلسون ، فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، ترجمة ابى العلا عفيفى الى العربية ، القاهرة ١٩٤٧ .

الهجويرى ، كشف المحجوب ،وهو نص فارسى ترجمة Nicholson ، بعنوان :
The Oldest Persian Treatise on Sufism. Leyde, 1191.
وظهرت له ترجمة عربية من اسعاد عبد الهادى ، القاهرة ١٩٧٤ .

ابن هذيل ، كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق وتعليق عبد الغنى ، دار المعارف .

الهرثمى ، صاحب المأمون ، مختصر سياسة الحروب تحقيق عون ، مراجعة زيادة ، القاهرة .

هرنشو ، علم التاريخ ، ترجمه وعلق حواشيه واضاف اليه فصلا فى التاريخ عند العرب عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٣٧ .

هــل ، الحضارة العربيـــة ، ترجمة العدوى ، القاهرة .

ابو هلال الصابىء ، تحفة الأســـماء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .

ابن الهيثم ، مجموعة تشـــمل ثمانى رسائل ، الهند ١٣٥٧ .

واصف بطرس غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة انور لوقا ، دار المعارف .

الوثرى ومعمر ، تاريخ الطب فى العراق ، بغداد ١٩٣٩ .

الوشـــاء ، الظرف والظرفاء ، ١٣٢٤ .

ولفنســـن ، معجم البلدان ، فى ٨ اجزاء ، القاهرة ١٣٢٤/١٩٠٦ .

ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٤/١٩٠٦ .

يحيى بن ماسويه ، كتاب الجواهر وصفاته ، وفى اى بلد هى ، وصفة الغواصين والتجار ، حققه عبد السلام ، ١٩٧٧ .

يمن الحموى ، الجغرافيا عند العرب ، دمشق .

يوسف كرم ، تاريخ الفلســـفة اليونانيـــة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ط ٢ .

اليونســـكو ، اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية ، القاهرة ١٩٧٠ .

ابن يونس ، كتاب الزيج الكبير الحاكمـــى ، تحقيق وترجمة Caussin ، بعنوان :
Le Livre de la grand table Hakemite, Paris, 1804.

(ب) الكتب الأوربية

Abdel Rahman Zaki : Military Literature of the Arabs. Cahiers d'histoire égyptienne. Série VII, fasc, 3, Juin 1955. p. 149 sqq.

Abdul : The historical development of Tafsir. Isl. Cult. July 1876, p. 141 sqq.

Aghnidos : Muhammedan Theories of Finance. New-York, 1916.

Ahsan : Social life under the Abbasids. London, 1979.

Ambros : Geschichte der Musik. Breslau, 1862.

Ammar Shim : En Souvenir de la Medecine arabe, 1962.

Arberry : An Introduction of the history of Sufism. London, 1943.

Arnold : Painting in Islam. Oxford, 1928.

Ayalon : Gunpowder and firearms in the Mamluk kingdom. London, 1956.

Aynard : L'Orient et la Grèce antique. Paris, 1955.

Asin Placios : Aben masarra y Su escuela. Origines de la filosofia hispano-musulmana. Madrid, 1914.

Badawy : Architectural provision againsc heat in the Orient. J. of the near eastern studies, xvII, 1958, B. 122-8.

Bahgat Bey : Les manufactures d'étoffes en Egypte au Moyen Age. Le Caire, 1904.

Bailey : The Catalogue of Ptolemy. Memories of the R. Astronomical Society. tXIII. London, 1943.

: The Arts and Religion. New-York, 1944.

Ball : A Short Account of the History of Mathematics. London, 1927.

Barbier de Meynard : Ibrahim, fils de Mehdi. J. A., 1869.

: Dictionnaire géographique historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes, extrait du Modjam al-Bouldan. Jaqout et complété a l'aide de documents arabes et persans. Paris, 1862.

Barthold : Musulman Culture. Calcutta, 1934.

Becker : Christentum und Islam. Tübingen, 1907.

: Islamstudien. 2 Vols. Leipzig, 1924-32.

Bergstrasser : Hunain ibn Ishâq und seine Schule, Leiden, 1933.

: Neue Materialen zur Hunain. Heidelberg, 1924.

Bernard Lewis : The Arabs in History. London.

Berthelot : La chimie au Moyen Age, 3 Vols. t III, L'Alchimie arabe. Paris, 1893.

Biddle : The Developpment of the Bureaucracy of Islamic Empire during the late ummayyad and Early, Abbasid Period. Austin, 1972.

Bill : A Short account of the history of Mathematics. London, 1927.

Björkmann : Beiträge zur geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten. Hamburg, 1927.

Blachère : Histoire de la littérature arabe des origines jusq'à la fin du xve siècle. Paris, 1952, tI.

Blackmar (Frank) : History of Human Society. New York, 1926.

Bourgoin : Les Arts Arabes. Paris, 1868.

Bousquet : Le droit musulman. Paris, 1963.

Breasted : Papyrus Edwin Smith. Chicago, 1930.

Bréhier : Les Institutions de l'empire Byzantin. Paris, 1949.

Browne : A Literary History of Persia. 4 Vols. Cambrigge, 1920-1930.

: Arabian Medicine. Cambridge, 1921. "La médicine arabe", trad. Renaud, Paris 1933.

Brockelmann : Geschichte der Arabischen litteratur. Weimar, 1898-1902.

« وله ترجمة عربية »

: Supplement-Band. 3 Vols. Leyde, 1937-42.

Brunchving : Urbanisme médiévale et droit musulman R. E. I., 15, 1947, 127-55.

Buri A study on the Beginnings of History writing in Islam. Bull. of the Sch. of Or and

African Studies, Vol. XIX. Paris, 1957,p. 1 ssq.

Bury : The Imperial Administrative System in the tenth century. London, 1911.

Cafri : Biblioteca Arabico-Hispàna. Esurialensis. Matriti, 1760.

Cahen : L'évolution de l'qtâ' du Ixe au XIIe. siècle : Contribution à une histoire des Sociétés médievales. (Economies Société-Civilisations). Paris, 1953, pp. 25-52.

: L'histoire économiques et Sociale de L'Orient musulman médiéval. S. I. t3, 1955, p. 95-115.

Cake : The Arab's place in the Sun. 1929.

Cambridge : Medieval History. Vols III, IV, V. Cambridge, 1936.

Cameron Gruner : A treatise of the canon of medicine of Avicenna. London, 1930.

Campbell : Arabian Medicine and its influence on the middle Age. 2 Vols. London, 1926.

Çanard : Le cérémanial fatimite et Le cérémonial byzantin. Essai de comparaison. Byzantion XXI, pp. 355-420.

: Falaqa. Arabica Rev. d'Etudes Arabes. tI sept, 1954. Fasc. 3.

: Bagdad au lve siècle de l'Hégira. Arabica, 1962.

Carra de Vaux : L'Almagesea d'Abu'l-Wéfa J. A. XIV, 1892, p. 408-471.

: L'Astrolabe linéaire ou bâton d'el-Tousi. J. A. V., 1895, p. 464.

: Les penseurs de L'Islam., 5 Vols. Paris, 1921-1926.

Caussin de Perceval : Notice sur les musiciens arabes, J. A., 1873.

Cash : Christendom and Islam. 1937.

Chabot : L'école de Nisibe. in J. Soc. Asiat. 1896.

Charles Diehl et Marçais : Histoire du Moyen Age. Paris.

Christensen : Some Notes on Persian Melody. Names of the Sasanian period. S. D. Dastur Hoschamy Memorial. volume.

Christianowitsch : Esquisse historique de la musique arabe aux temps anciens. Cologne, 1863.

Classicisme et Déclin culturel dans l'Histoiredel'Islam. Actes du symposium international d'Histoire de la civilisation musulmane. Paris, 1956-1957.

Clerget : Le Caire, étude de géographique urbaine et d'Histoire économique. 2 Vols. Le Caire, 1927.

: De quelques caractères communs et distinctifs des villes arabes dans l'Orient medïéval. Cong. int. de Géog. Paris, 1931. t3. pp. 438-44.

Conteneau : La civilisation de l'Islam. Paris, 1935.

Coulton : Life in the middle-Ages. 4 Vols. Cambridge, 1928.

: A History of Islamic law. 1964.

Creswell : Early Muslim architecture. Umayyads Abbassides and Tulunides. 2 Vols. Oxford, 1932-1941.

Crump : The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1926.

Daniel (Salvador) : La musique arabe. Ses rapports avec la musique grecque et le chant grégorien. Alger, 1879.

D'Avezac : Notice des découvertes faites au Moyen Age dans l'Océan Atlantique antérieurement aux grandes explorations portugaises du quinzième siècle Paris, 1845.

De Boer : Geschichte der philosophie im Islam. Stuttgart, 1901. transl. into English by Jones : 2ed. London, 1939.

Delambre : Histoire de l'Astronomie du moyen-âge. Paris, 1819.

Derenbourg : Souvenirs historiques et recits de chasse. Paris, 1895.

D'Erlanger : Alfarabi. Grand Traité de la Musique (Musique arabe tI). Paris 1930.

De Sacy : Nouveau aperçus sur L'Histoire de L'Ecriture chez les Arabes du Hedjaz. Paris, 1827.

De Tassy : Les noms propres et les titres musulmans. Paris, 1878.

De Wulf : Histoire de Philosophie Medievale. 2 Vols. London, 1924.

Dominique Sourdel : L'Islam. Que sais-je. Paris, 1949.
: Question de cérémonial abbaside R. E. I. 1960, p. 121-148.

Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. Amesterdam, 1845.
: Glossaire des mots Espagnols et Portugais derivés de l'Arabe. Leyde, 1869.
: Essai sur l'histoire de l'Islamisme, traduit du Hollandais par Chauvin. Paris-Leiden, 1879.
: Supplément aux Dictionnaires Arabes. Leyden, 1881.

Dupont et Goppolani : Les Confréries religieuses musulmanes. Alger, 1897.

Draper : A History of the Intellectual Development of Europe, 1914.

Dresensi : Globus coelestis. arabicus. Lipseal, 1865.

Dubler : Survinance de l'ancien Orient dans l'Islam, 1957.

Dugat : Etudes sur la Traité de Médicine. Paris, 1853.

Duhem : Le système de monde. Histoire des doctrines cosmologiques de Platon et Copernic, t. III. Paris, 1915.

Dural : La littérature syriaque. Paris, 1967.

Durant : Our Oriental Heritage. New York, 1954.

Duvot : Histoire d,Edesse. Paris, 1892.
: La Littérature Syriaque. Paris, 1900.

Ebersolt : Orient et Occident. Recherches sur les influences byzantines et orientales en France avant et pendant les Croisades. Paris, 1954.

Encyclopédie de l'Islam : Iéd. Leyde, 1913-1942 ; 2éd. Paris, 1954 sqq.

Eyre : European Civilisation. Its origin and development, Vol. 3. Oxford, 1935.

Fahmy : Muslim Sea-Power in the East Mediterranean, from the Seventh to the Tenth Century, AD. 3ed. Alex., 1966.

Farès (N) : The Arab Heritage. Princeton, 1944.
: Une miniature religieuse de l'école arabe de Baghdad, le Caire, 1948.

Fattal : La statut légal des nons-Musulmans en pays d'Islam. Paris, 1947 (Thèse).
: Comment les dhimmis étaient jugés en terre d'Islam. Cahiers d'histoire égyp. Série III, 321. Fasc. 4, Mai, 1971.

Ferrand : Relations de voyage et textes géographiques arabes, persanes et turcs. 2 Vols. Paris, 1913-4.

Foligno : Latin Thought during the Middle Ages. Oxford. 1929.

Fischel : The origin of Banking in mediaeval Islam. J. R. A. S. April, 1933.

Frye : The Golden Age of Persia. The Arabis in East. London, 1973.

Fyzee : Law and Culture in Islam. Isl. Cult. XVII, No. 4, Oct., 1943.
: Islamic Culture. Bombay, 1944.

Gabrieli : Avicenna. Archeion, IV., 1923.
: Les fouilles d'al-Foustat et les origines de la maison arabe en Egypte. Paris, 1921.

Galland : Essai sur les Mo'tazelites, les Rationalistes de l'Islam. Paris.

Gallotti : Le jardin et la maison arabe au Maroc, 2 Vols. Paris, 1926.

Gardet : La pensée religieuse d'Avicenne. Paris, 1951.
: La Cité musulmane. Vie sociale et politique. Paris, 1954.
: Humanisme musulman d'hier et aujourd'hui. Elements culturels de base. Paris, 1944.

et Anawati : Introduction à la théologie musulmane. Essai de théologie comparée. Paris, 1948.

Gauthier : Ibn Thofail : Sa vie, ses oeuvres. Paris, 1909.
: Moeurs et coutumes des Musulmans. Paris, 1931.

Gayet : L'Art arabe. S. d.

Gibb : La Structure de la Pensée Religieuse de l'Islam, trad. de l'anglais par Jeane et Felix Arin. Paris, 1950.

: The Evolution of Government in Early Islam. Stvdia Islamica t IV, 1955, p. 5 sqq.

: The influence of Islamic Culture on Medieval library. Manchester. XXXVIII, 1955. p. 82-98.

Gierke : Political Theories of the Middle Ages, transl. by Maitland. Cambridge, 1927.

Gilles de la Tourete : L'Orient et ses peintures de Venise, Paris, 1923.

Gilson : La Philosophie au Moyen Age. Paris, 1947.

Glaser : Skizze des Geschichte und Geographie Arabiens. Zweiter Band. Berlin, 1890.

Goblet d'Aviella : Ce que l'Inde doit à la Grèce. Paris, 1898.

Goichon's : The Philosophy of Avicenna and its Infl uence on Medieval Europe. Translated from the French by M. S. Khan. Delhi.

Goitein : The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim civilization S. I., V, III, 1955.

: The documents of the cairo Geniza as a source for the Meditereanean social history. J. A. O. S. Vol 80, 1960, p. 91-100.

Goldziher : Muhammedanische studien. 2 Vols. Halle, 1888-90.

: Le dogme et la loi de l'Islam. trad. Paris, 1920.

: Etudes sur la tradition islamique, extraites du tome II, des Muhammedanische Studien, traduites par Léon Bercher. Paris, 1952.

Gomparz : Greek Thinkers, transt. Berry, 1913.

Grenier : L'Empire byzantin, son évolution sociale et politique. 2 Vols. Paris, 1904.

Guémard : De l'armement et de l'équipement des Mameluks. Le Caire, 1926.

Guerdon : Vie, Grandeurs et Misères de Byzance, Paris, 1954.

Guilland : Etudes sur l'histoire administrative de l'Empire bgzantin. Byzantion. tX LI, 1971, p. 78-104.

Hamidullah : L'Afrique découvre L'Amérique avant Christophe Colomb. Revue Culturelle du monde noir. Février-Mai, 1958.

: Influence of Roman Law on Muslim law ap. Journal of the Hyderabad Academy. Medras, 1943.

Hammad : L'évolution de la chaire dans la vie religieuse en Egypte. Cahiers d'histoire égyptienne. Série VIII, p. 117.

Hankel : Storia delle Matematiche Gli Arabi. Roma, 1873.

Haskings : Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge, 1927.

Haskins : The Rise of Universities. New York, 1957.

Harvord : A History of Science. Ancient Sciene through the Golden Age of Greece, 1952.

Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire. tI. Paris.

Hearnshaw : Mediaeval Contribution to modern Civilisation. London, 1921.

Heinrich : Die Mathematiker und Astronomen dei Araber und ihre Werke. Leipzig, 1900.

Hitti : The origins of Islamic State. New York, 1916.

Hughes : Dictionary of Islam. 2éd. London, 1896.

Huart : Etude sur trois musiciennes arabes. J. A., 1884.

Inostrantsev : Iranian Influence on Moslem literature, transla ed by Nariman. Bombay, 1918.

Jourdan : Recherches critiques sur L'Age et l'origine de traductions latines. Paris, 1843.

Khairallah : Outline of the arabic contribution to Medicine and the allied sciences. Beirout, 1946.

Karabacek : Des Arabische Papier. Eine historisch-antiquarische Untersuchung, 1887.

Kendrick : Catalogue of Muhammadan Textiles of the Mediaeval Period. London, 1924.

Khudda Buksh : Contributions to the History of Islamic Civilisation. 2 Vols. Calcutta, 1929-30.

Kiesewetten : Die Musik der Araber nach originalquellen. Leipzig, 1842.

Kondakov : Les Costumes Orientaux à la Cour byzantine, in Byzantion vol. I.

Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 Bande Wienna, 1875-1877.

Kraus : Studien zu Jâbir ibn Hayyen. Isis XV, 1931, p. 1-30.

Lambert : Les origines de la mosquée et l'architecture religieuse des Omeiyades. Stvdia Islamica. Paris, 1956, p. 5 sqq.

: l'Art musulman et l'art chrétien dans la Péninsule ibérique. Toulouse, 1958.

Lammens : Croyances et Institutions, 2ed. Beyrouth, 1941.

Land : Recherches sur l'Histoire de la gamme arabe. Yeyde, 1884.

Lane-Poole : Arabian Society in the Middle Ages. London, 1883.

Lapidus : The Separation of state and Religion in the Development of Early Islamic Society I. J. M. E. S. 6, 1975, 363-85.

Lecerf : Note sur la famille dans le monde arabe et Islamique. Arabica. y III (Jan., 1956 Fas., I, p. 31 sqq.

Lecomte : Sur la vie scolaire à Byzance et dans l'Islam. Arabica. Sept., 1954.

Leclerc : Histoire de la médicine arabe. 2 Vols. Paris, 1876.

Lévi-Provençal : L'Espagne musulmane aux Xe siècle : Institutions et vie sociale. Paris, 1932.
: La civilisation arabe en Espagne. Paris, 1948.

Levy, Reuben : Notes on costume from arabic sources. J. R. A. S., 1935. pp. 319-55.

Lézine : La protection contre la chaleur dans l'architecture musulmane d'Egypte, B. E. O. I. P. de mamas, tXXIV. Année, 1971, p. 7 sqq.

Lichtenstadter : The Distinctive dress of non-Muslims in Islamic countries in Historia indaica, 1943, Vol. V. pp. 35-52.

Macdonald : Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory. New York, 1903.

Madkour : La place d'al-Fârâbi dans l'école philosophique musulmane. Paris, 1934.

Marcel Devic : Coup d'oeil sur la littérature géographique arabe au Moyen-Age. Paris, 1882.

Marzouk : History of Textile industry in Alexandria. Alex., 1955.

Massè : Croyances et coutumes persanes 2. Vols. Paris, 1938.

Marçais : Manuel d'art musulman. Paris, 1926.
: La conception des villes dans l'Islam. Revue d'Alger, II, 1945.

Margaret (S) : Râbi'a the Mystic. Cambridge, 1928.
: Studies in early mysticism in the Near and Middle East. London, 1931.

Margoliouth : Origins of Arabic Poetry in J. R. A. S. 1925, 417-49.

Martin, E. R. : A History of Oreintal carpets before 1800. Vienna, 1908.

Massignon : La passion d'al-Hallag, martyr mystique de l'Islam. 2 Vols. Paris, 1922.

Mayer : Saracenic Arms and Armor (in Ars Islamica) 1943, Vol. X, pp. 1-12.
: Mamluk Costume. Genève, 1952.

Mazahéri : La vie quotidienne des musulmans au Moyen Moyen Age. Xe au XIIIe siècle, Paris, 1951.

Max Simon : Anatomie des Galen. 2 Band. Leipzig, 1906.

Mehdi Berkechly : L'art Sassanide, base de la musique arabe. Téhéran, 1947.

Mehren : Exposé de la réforme de l'islamisme commencée au IIIe siècle de l'hégire par Abou-l-Hasan el-Ash'ari. Leiden, 1879.

Mercier : La chasse et les sports chez les Arabes. Paris, 1927.

Millénaire d'Avicenne : La Revue du Caire. Juin, 1951.

Meyerhof : Le monde islamique. Paris, 1926.
: La decouverte de la circulation pulmonaire par Ibn an-nafis. Médecine arabe du Caire. XIIIe. Siécle, 1931.
: Science and Medecine in the Legacy of Islam. Oxford, 1931.
: La fin de l'école d'Alex. d'après quelques auteurs arabes. Le Caire, 1933.

: Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les musulmans d'Espagne. Al-Andalus (Madrid), III, 1935, p. 1-42.

: Transmission of Science to Arabs. Isl. Cult. Vol. XI, 1938.

Nallino : La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie umayyade, trad. Pellat. Paris, 1950.

: Notes on the Nature of the Caliphate in general. Rome, 1919.

Nicholson : The mystics of Islam. London, 1914.

: A literaly History of the Arabs. London, 1923.

Noldeke : Geschichte des Qorâns, complétée par Schawlly. Gotingen, 1909-1938.

Norman Daniel : The Arabs and Mediaval Europe. London, 1975.

O'Leary : Arabic thought and its place in History. London, 1954.

Oman : The Art of War in the Middle Ages. A. D. 378-1515. New York, 1960.

Parisot : Musique orientale. Paris, 1898.

Pauty : Les palais et les maisons d'époque musul- au Caire, 1933.

: Les hammams du Caire, 1937.

: Villes spont anées et villes crées, en Islam A. I. E. O., 9, 1951, p. 52 - 75.

Perez, Elia : Oriental rugs and Textiles. 1953.

Perron : L'Islamisme, son institution, son influence et son avenir. Paris, 1877.

: Femmes arabes avant et depuis l'Islamisme. Alger, 1858.

Pingree : The Greek influence on Early islamic Mathematical Astronomy. J. of the Am. Or S. 1970. Vol. 93.

: The Fragments of the work of al-Fāzari. J. N. E. S., 1970, 103-123.

Plandhol : Le monde islamique. Essai de géographie religieuse, Paris, 1957.

Quatremère : Memoire sur les asiles chez les Arabes. Paris, 1845.

: Observations sur le feu Gregeois. 1850.

Renan : Averroès et l'Averroisme. Paris, 1866.

Ranking : The Life and works of Rhazes. London, 1914.

Reinaud : Relation des voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine dans le lxe siècle, texte arabe et traduction française, introd. et notes. 2 Vols. Paris, 1845.

: De l'Art Militaire chez les Arabes su Moyen Age. Paris, 1848.

: Introduction à la Géographie des Orientaux. Paris, 1848.

René Grousset : Bilan de l'Histoire. Paris, 1946.

et Massignon, Massé : L'Ame de l'Iran. Paris, 1944.

René Khoury : Le Caire au Moyen Age. Cah. d,histoire égyptienne série v. Fasc. 5, 6, Dec., 1953, p. 302-307.

Ribera : Historia de la mùsica arabe medieval y su influencia en la espagnola. Madrid, 1927.

Risler : La civilisation arabe. Paris, 1955.

Rodolphe d'Erlanger : La musique arabe, 4 tomes. Paris, 1930-1939.

Runciman : La civilisation byzantine 330-1453, trad. Lévy. Paris, 1952.

له ترجمة عربية (لم تستخدم) ١٩٦٠ .

Ruska : Arabische Alchemie. Archeion XIV. 1932, p. 425-435.

Ruiz-Moraled : Cultural Relations between Spain and the Arab World. Lecture. Madrid, 1900.

Sanhury : Le Califat. Paris, 1926.

Sarton : Introduction to the history of Science, 1950.

Sauvaget : La poste aux chevaux dans l'empire des mamelouks. Paris, 1941.

La mosquèe ommeyyade de Mèdine. Etude sur les origines architecturales de la mosquée. Inst. Français de Damas. Paris, 1947.

Schacht : The origins of Muhammaden jurispudence. Oxford, 1950.

: Remarques sur la transmission de la pensèe Grecque aux Arabes (Hist. de la Medicine) II, 1952.

Schwarzlose : Kitâb al-Silâh, die Waffen, Leipzig, 1886.

Sédillot : Matériaux pour servir à l'histoire comparée des sciences mathématiques chez les Grecs et les Orientaux. Paris, 1845-1849.

Seignbos : History of Mediaeval civilisation, 1908.

Serjeant : Material for a history of Islamic Textiles. Ars Isl. (X-XII), 1942-6 et (XII-XIV), 1948.

Simonet : Historia de los mosarabes de Espania. Madrid, 1897-1903.

Spink and G. Lewis : Abbucasis in surgery and instruments. California, 1973.

Sourdel J. : La civilisation de l'Islam classique. Paris, 1968.

Stainshneider : al-Fârâbî. St Betersbourg, 1869.

Syed Ameer Alî : The spirit of Islam. London, 1929.

Talas : La Madrasa Nizamiyya et son Histoire. Paris, 1939.

Taton : Histoire générale des sciences, des origines à 1450. Paris, 1957.

Taylor : The Mediaeval Mind. 2 Vols. London, 1930.

Terrasse : Islam d'Espagne. Une rencontre de l'Orient et de l'Occident. Paris, 1958.

Thorndike : Science and Thought in the Fifteenth Century. New York, 1929.

: A History of Magic and experimental Science. 4 Vols. 2 ed. New York, 1929-1934.

Toynbee : A study of History. Oxford, 1955.

Trend : The Legacy of Islam. Oxford, 1931.

Tritton : Materials on Muslim Education in the Middle Ages. London, 1957.

Tyan : Le Califat. Paris, 1954.
: Histoire de l'Organisation judiciaire en pays d'Islam. 2 Vols. Paris, 1943-1957.

Walidi (Ahmad) : Islam and the science of Geography. Isl. Cult. Hyderabed, Vol. VII, 1934.

Wellhausen : Skizzen und Vorarbeiten. 6 Vols. Berlin, 1884-1898.

Weryho : Syriac influence on Islamic Iran. R. Folia Or. Vol. xIII, Warsawa, 1972, p. 199 sqq.

Westermann : Les peuples et les civisations de l'Afrique. Paris.

Wiedemann : Uber die uhren im Bereich der Islamischen kultur. Halle, 1915.
: Zu ibn al-Haithams Optik. Leipzig, 1910.

Wiet : Tapis égyptiens. Arabica. Jan., 1959. Fasc. I. t VI, p. I sqq.
: Grandeur de l'Islam. Paris, 1961.

Woepcke : Sur l'introduction de l'Arithmétique indienne en Occident. Rome, 1859.

Wustenfeld : Die Geschichcheiber der araber. Gottingen, 1882.

Zaki Pacha : Une sconde tentative des Musulmans pour découvrir l'Amérique en C. I. E., 2, 1920, p. 57-59.

تصويب الخطــأ

الصفحة	الخطــأ	الصـــواب
٧	حقبتها	حقبها
١١	ترك آثار	ترك آثاراً
١٣	القيمية	القديمـــة
١٦	ما	كما
٢٢	غير واضح	Mavellae Constitiones
٢٣	بمروز	بمرور
٢٤	للاوانين	للقوانين
٢٩	ويطرز	ويطرز
٣٢	تحوله	تحول
٣٣	امر الخليفة ، الذى	امر الخليفة ، الذى
٤١	يتزاايد	يتزايد
٤٥	مكسور	كسور
٤٩	الاقليم	الأقاليم
٦٠	بوت	بيوت
٧٥	Stolos "	" Stolos "
٧٧	خمسمائة الف	خمسمائة والف
٨٦	أولادهه	اولادهم
٩١	والكتانين	والكتانيين
٩٢	ما لبث	ما لبثت
١٠٢	تحتج	تحتاج
١٠٨	سوراتهم	عوراتهم
١١٢	دوائب	ذوائب
١١٧	Cninon	Chiffon
١١٨	سصر	مصر
١١٧	ومن الطريق	ومن الطريف
١٢١	خصائص القصور	الرسوم
٢١١	ابن خلمن	ابن خلدون
٢٢٤	ابن سيناء	ابن سينا
٢١٥	لشفاء	الشفاء
٢٢٥	لذى	الذى

الصفحة	الخطــــا	الصـــواب
٢٣٠	لكعب	لمكعب
٢٣٢	الكرحى	الكرخى
٢٣٣	فتصل	فصلْ
٢٣٥	والأرنت	والأرنب
٢٣٩	المعلومعات	المعلومات
٢٤٠	اسماعيل	اسماعيلى
٢٤١	تتاخمه	تتاخمه -
٢٤٣	وان رسته	وابن رسته
٢٤٥	الدبز	الدهر
٢٤٦	تكين	تكوين
٢٤٧	الجيال	الجبال
٢٥٤	الملنخوليا	المالنخوليا
٢٥٤	بسمائها	باسمائها
٢٥٥	ـمنع	يمنع

HISTOIRE DE
LA CIVILISATION MUSULMANE
AU MOYEN AGE

Pro. Dr.
A. M. MAGUED

Cinquème Edition

Le Caire, 1987
Librairie Anglo-Egyptienne
☎ : 3914337